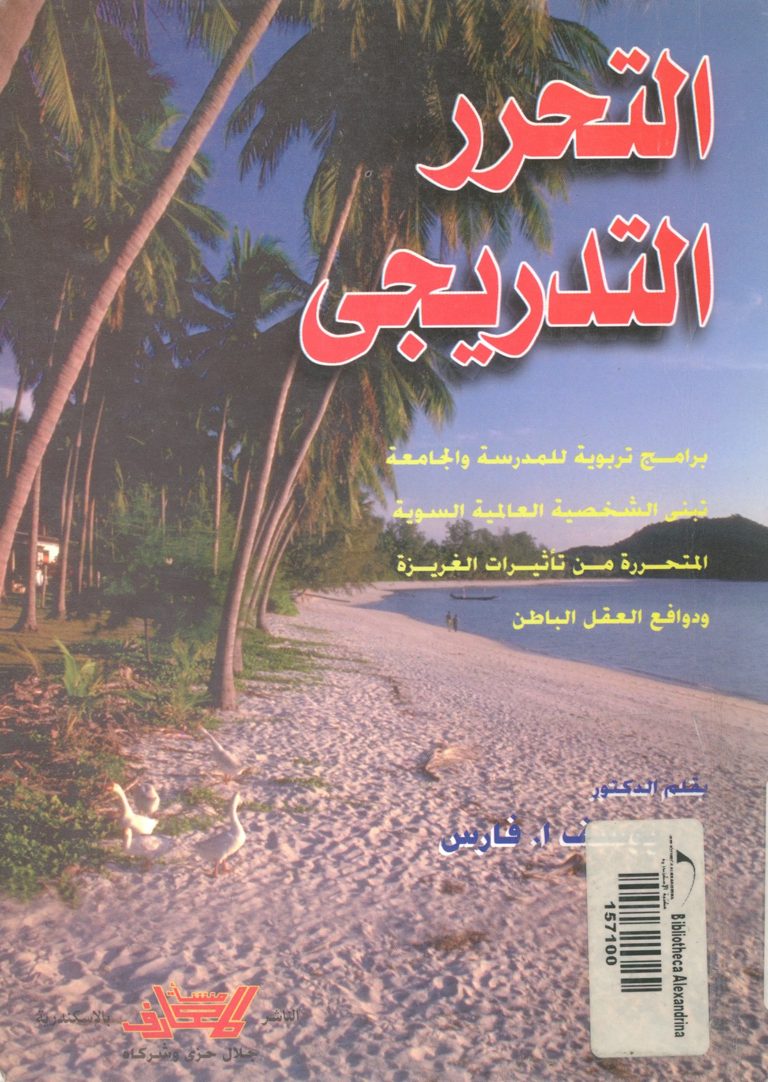

التحرر
التدريجى
برامج تربوية للمدرسة والجامعة
تبنى الشخصية العالمية السوية
المتحررة من تأثيرات الغريزة
ودوافع العقل الباطن
بقلم الدكتور
ف ا. فارس
الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه
Bibliotheca Alexandrina
157100

التحـــرر التدريجـــى

برامـــج تـربـــوية للمـدرســة و الجـامعـة
تبنـى الشخصيـــة العالمية السويــة المتحـــررة
من تأثـيرات الغريـزة و دوافـع العقـل الباطـن

١٩٩٦م

الناشـر
منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

اهـــداء

إلى الوالدين ،

إلى زوجتي ،

إلى ابني وابنتي الحبيبين ،

إلى أصدقائي ،

إلى الذين يتعاونون معي لأنهم يساعدونني ،

إلى الذين لا يتعاونون معي : العداء أيضا يولد الإصرار ويقوي العزيمة ،

وأخيرا وليس آخرا ... لك أنت .

فهـــــرس

صفحة

الفصل الخامس
الإعلام والتربية

الفصل السادس
التربية الجنسية الاجتماعية
للمراهقين والمراهقات

المقدمــة

تحت تأثير الدافع القوى الذى يُجبر المفكر على الاتصال والاشتراك إنى أتساءل : « لماذا أكتب ؟ » و « لمن أكتب » ؟

الإنسان والدين

ظلّت الديانات لعصور طويلة الملجأ الوحيد للإنسان الضعيف الخائف ، يجد فى الإجابات التى تقدمها له الراحة والاطمئنان والاستقرار والاتزان ، وكان الدين دائماً رمزاً للثبات والاستقرار ودليل القيم التى لا تهتز ولا تتغيّر . أما اليوم ، فإن الرجل المعاصر يجد داخل الدين الواحد – أعنى هنا كلاً من ديانات التوحيد على قدم المساواة – التيارات الفكرية والتحليلات المختلفة التى يصل فى بعض الأحيان التناقض بينها إلى حد المجابهة بين أصحاب إيمان واحد ، والتى تولد فى ذهن الرجل البسيط تساؤلات أكثر مما توفر إجابات واضحة سهلة التقبل . إن وجود هذه التيارات الفكرية المختلفة ، بل والمتناقضة فى بعض الأحيان ، بين أنصار الدين الواحد شئ إيجابى فى حد ذاته ، لأنه يعبر عن اهتمام الإنسان بالمشاكل الروحية واحتياجه إلى التساؤل والبحث والتفكير ، لعل اللّه تعالى يساعد الباحث الصادق على إيجاد الإجابات التى يحتاج إليها ... المشاكل الحالية الناتجة عن وجود هذه التيارات الفكرية المختلفة أو المتناقضة ، سواء كانت داخل الدين الواحد أو بين الأديان المختلفة ، لا تنتج عن وجود هذه الاختلافات بقدر ما تنتج عن شعور واقتناع مدافعى كل رأى من هذه الآراء بأنهم أصحاب الحقيقة المطلقة الوحيدين . لا شك فى أن الرجل المعاصر لا يستطيع أن يجد المؤاساة فى أحضان الدين بنفس السهولة وبنفس البساطة التى وجدها أجداده . اكتشف طفل الأمس إمكان طرح السؤال « لماذا ؟ » وهو يطرحه فى كل أوان وفى كل مجال . قد لا ترضيه دائماً الإجابات التى يجدها ، قد تكون بعض الإجابات غير مقنعة فعلاً وقد يكون مستوى السائل دون المستوى المطلوب لفهم الإجابة والاستفادة بها . إنجازات التكنولوچيا الحديثة شجعت الإنسان المعاصر على طرح المزيد من السؤال « لماذا ؟ » . هذه

الإنجازات منحته شعوراً بالقوة والقدرة والسيطرة والاستقلال مما جعل البعض يظن أنه يستطيع الاستغناء عن اللّه أو الابتعاد عنه . يظنّ ذلك أيضاً لأنه ، فى كثير من الأحيان ، لا يعرف دينه معرفة تسمح له بالاستفادة بالإجابات التى يحملها ويعرضها عليه ، لأن الإجابات التى يعرضها عليه الدين غامضة بالنسبة له وتحتاج لمزيد من الدراسة والتكوين قبل أن يفهمها ، ولأنه ، بصفة عامة ، تغلب على عنصر « الخوف » الذى سيطر على حياة الإنسان البدائى القديم . مات الطفل المرعوب الباكى الذى كان يجرى إلى ربّه ليجفف دموعه . بهذا المعنى ، إن العلاقة والروابط القديمة التى أشبعت احتياجات إنسان الأمس لم تعد مُرضية بالنسبة للإنسان المعاصر . إنه يشعر بالاحتياج إلى نوع جديد من الروابط فى إطار علاقة أكثر نضجاً وعمقاً ، لكنه لا يعرف تماماً كيف يشكل هذه العلاقة وهذه الروابط التى يتمناها ... قد تمثل هذه النقطة أيضاً عنصراً هاماً من العناصر المسئولة عن المشاكل الحالية . أنا لا أقول أن الدين لا « يحمل » الإجابات وأنه لا يستطيع أن يعطى الإنسان ما يحتاجه من استقرار وأمان . أنا لا أقول أن الإنسان يستطيع الاستغناء عن الدين . بالعكس : إن هناك إجابات على بعض تساؤلات الإنسان لا يوفرها إلا الدين ، وهناك نوع من السعادة وراحة البال لا يستطيع الإنسان أن يجده خارج الدين . ما أقواله هو فقط أن الإنسان المعاصر لا يستطيع أن يجد ذلك بنفس سهولة وبنفس تلقائية أجداده للسبب الآتى : إن تطور العلم والتكنولوچيا أزال المخاوف القديمة البدائية ، ومنح الإنسان شعوراً بالقوة والسيادة والسيطرة على المادة والأرض والفضاء ، وبعد أن كانت العبادة بالنسبة للإنسان القديم « ملجأً » و«مخبأً» فى الشدائد والمشقات ، أصبحت العبادة بالنسبة للإنسان الحديث المعاصر « علاقة » بين الخالق والمخلوق . من الدلائل على ذلك أن المؤمن أخذ يسأل ويستفسر ، ورجل الدين أخذ يشرح ويفسّر . إن تحويل العبادة من « لجوء » إلى «علاقة » شئ إيجابى بنّاء فى حد ذاته ، لكنه أيضاً « نمو » ، وكما هو الحال فيما يخص جميع أنواع النمو ، فإنه شئ صعب لا يحدث دون أن يولّد بعض الأزمات وبعض الآلام .

الإنسان والعلم :

إن الاكتشافات العملية والتكنولوجية خلقت للإنسان المعاصر مشكلة من نوع آخر. إن تشعُّب العلوم واختلاف الأنشطة جعل الإنجاز الشخصى الذى يبدو وكأنه فردى ، يتضح بعد التحليل أنه إنجاز جماعى ناتج عن أداء كل فرد من أفراد الجماعة عمل معيّن فى غاية الدقة و« التخصّص » . إن « التخصّص » ليس ضرورياً فحسب ، لكنه شرط جذرى للأداء المميز ، على أن يمثل كل « متخصّص » عنصراً واحداً من عناصر تحقيق الهدف مهما كان المجال الذى نتحدث عنه . لا يتعامل جميع الأشخاص مع ضرورة « التخصّص » فى مجال ما بنفس الطريقة . لكن هناك نوعان من ردود الفعل تهمنا . أولاً ، رد فعل الشخص الذى يحّب عمله إلى درجة تدفعه إلى البحث المستمر عن مزيد من العلم والإتقان والتمكن ، أى المزيد من « التخصّص » . منذ سنوات قليلة مضت مثل كل من الطب والهندسة والمحاماة تخصصاً مُرضياً بالنسبة للأغلبية ، أما اليوم ، فإن الطبيبَ مثلاً يريد أن يكون باطنياً أو جراحاً . وإذا تخصص فى الجراحة واصل التخصّص وتخصص فى جهاز واحد مثل الجهاز الهضمى أو الجهاز العصبى مثلاً ، ثم واصل التخصّص وتخصص فى عملية واحدة منها إن لم يكن فى جزء واحد فقط من عملية واحدة . ليس للتخصّص حدود اليوم ، ويجب أن نلاحظ أن فى أغلب الأحيان ، المكسب المادى ومستوى المعيشة والتدرج الاجتماعى والقدرة والسيطرة المكتسبة ، كلها تتناسب ودرجة التخصّص التى حققها الإنسان . مما يقودنا إلى ملاحظة النوع الثانى من ردود الفعل ، وهو رد فعل الرجل الذى يشعر بجاذبية متوسطة الشدة تجاه عمله ، لكنه ، بسبب ما سبق ذكره من مميزات مادية واجتماعية ، ولأنه يريد أن « يصل » فى نظر مجتمع يقدّر « الوصول » بأهمية « الممتلكات » ، سيقود هو الآخر « معركة التخصّص » مهما كانت الصعوبات التى تعرقل طريقه . لعن البعض المال قائلين أنه السبب الوحيد لكل الكوارث التى تصيب الإنسانية اليوم. لا أظن ذلك . الإنسان هو الذى ألّف النظام المالى ، ليس المال الذى ألف الإنسان . لم

يغيّر المال شيئاً من طبيعة الإنسان العميقة ولا من طمعه ولا من جشعه . سرق وقتل وظلم الإنسان أخاه بحثاً عن القدرة والسيطرة قبل وجود النظام المالى . قد يكون المال هو الرمز المعاصر القوى ، لكن أليس لكل عصر رموز ؟ (الرجاء العودة إلى الفصل الخاص بالدوافع الخفية التى تحرك الإنسان) . هذان الرجلان ، الأول والثانى ، يدخلان -كل واحد منهما من باب خاص به - ساحة « التسابق من أجل الشهادات » ، مستثمران فى هذا السباق قدراً هائلاً من الطاقة والوقت للحصول على علم يزداد دائماً عمقاً وتوسعاً فى مجال من الموضوعات يزداد دائماً ضيقاً واختناقاً ...

الإنسان والمجتمع :

تعدّت أوجه جاذبية المجتمع الاستهلاكى كل المقاييس ...

ألِفت المجتمعات القديمة الطرق المتعددة المختلفة لتحديد التدرج الاجتماعى لأفرادها ، سنتولى دراسة هذا التدرج الاجتماعى بشئ من التفصيل فى الفصل الخاص بالدوافع الداخلية العميقة الخفية التى تحرك الإنسان . إن الاستهلاك يوفّر اليوم لكل مجتمع ولكل مستوى معيشى ما يجذبه بطريقة خاصة ويشعل نار التنافس الاجتماعى ، نار التسابق على « الامتلاك » ، رمز النجاح ورمز القوة وقاعدة تقييم تكاد لا تقبل الاستثناءات لتحديد التدرج الاجتماعى . بهذا المعنى يكون النظام الاستهلاكى قد حل اليوم - بالنسبة للمجتمعات الحديثة - محل نظم أخرى ، مثل صيد الحيوانات المتوحشة أو تقديم الهدايا المتصاعدة القيمة ، التى كانت تستعملها المجتمعات القديمة لتحديد سلّم التدرّج الاجتماعى . إننا نلمس هنا سبباً من الأسباب الرئيسية التى جعلت شعوباً متباعدة جغرافياً ، وعقليات وحضارات مختلفة كل الاختلاف ، تقبل كلها النظام الاستهلاكى بصدر رحب : السبب هو أن النظام الاستهلاكى ، بالرغم من أنه يسبب مشاكل فرعية كثيرة ، إلا أنه يقدم فى نفس الوقت حلاً منطقياً طبيعياً تلقائياً - وإن كان بدائياً - لحل مشكلة التدرّج الاجتماعى التى لا مفر للإنسان من حلها بطريقة ما .

هكذا يكون الرجل المعاصر المسكين قد دخل طاحونة التدرج

الاجـتـمـاعـى المبنـى علـى أهـمـية المـمـتلكـات وضـخـامـة الحـسـاب فـى البـنك وفـخامة السيارة التى يقودهـا وعظـمة السهرات التى ينظمها ... إلخ . هل يسـتـطيع مـثـل هـذا الـنظام أن يـوفّر للإنـسـان الـسـعـادة التى يـريدهـا بل ويستحقها ؟ .

ها هو إذاً الجزء المتقدم المتحضر من الإنسانية فى أمّس الحاجة إلى (١) إعادة التـفكير فـى نوعية إيمـانه وكيفـية عبـادته لتشـكيل « علاقـته » الجديدة بالخلق الـتى وحدها تستطيع أن تأتيه بالإجابات الصـحيـحة على الأسـئلة الجـوهـرية الـتـى يسـائلهـا الرجل المـفكر . وهـذا شئ جيّد : أزمـة نمو ، ولـكنهـا إيجـابيـة وبناءة فـى نفس الوقـت . وها هـو أيـضاً فى أمّس الحاجة إلى (٢) المزيد من الـتخصّص ، وهذا أيـضاً إيجابى وبنّاء فـى حد ذاته ، مع مـلاحظة أن هـذا النوع مـن التعمـق يمثل تقدماً رأسـياً يسـتـهلك الكـثيـر من الـطاقـة والوقت ولا يـسـمح بالـتوسـع الأفقـى الذى يمثـل هـو أيضاً نوعاً آخـر من الـتـقـدم ، وهـا هـو أيضاً فـى أمـس الـحاجـة إلـى (٣) تحديد مـكانه على سلم التـدرج الاجتمـاعى بناءاً على قـيم « استـهلاكـية » تـلـبى طـلبـات الميـول الطـبـيعـى إلى الامـتـلاك والتـمـتُّع وتمثـل بقـايا نـظام التـدرج الاجـتماعى الذى تمارسـه كل الـحيوانات ذات حـياة جماعـية ، ربما كـانت هذه القـيم صـالـحة وكـافـية لإسـعاد إنسان الـكهوف الـبدائـى لكنهـا ليـست مـن القـيم الأسـاسـيـة الـتـى تسـتطـيع أن توفـر الـسـعـادة والازدهـار للرجل المعاصـر الـناضج المسئول الذى تم وصفه فى « قـصة من قصص كـوكـب الأرض » و « الـخلـيــة الـتـى حـقـقـت الـتـحـرّر » (الفـصـلان الأول والثانى) .

ما هى نتائج هذه النقاط الثلاثة التى ذكرناها ؟ :

١- النتيجة الأولى هى تدهور الاتصال والتبادل والمشاركة .

٢- والنتيجة الثانية هى انقراض الشخصية السوية العالمية .

١ - تدهور الاتصال والتبادل والمشاركة :

قـرأت منذ بضـعة سـنوات على جـانبـى أوتوبيـسـات الـنقل الـعـام فـى مـدينة «مـونـتريـال» بكـنـدا هـذه الـعـبـارة :«تبـادلوا الـحديـث مـع الآخـرين»

كانت فى تلك الأيام خزائن محلات « السوبر ماركت » تفتخر بامتلاك آلات حسابية ناطقة ، تعلن الشارى بقيمة مشترياته وتشكره بعد الدفع نيابة عن الموظفة المختصة . إن الوقت الذى نقضيه فى المواصلات للذهاب إلى العمل والعودة منه ، الإرهاق الذى يختم يوماً من عمل نريده تنافسى ، ضغوط الحياة الحديثة ، التزامات الحياة العائلية والمشاكل العملية اليومية ، لا تتيح لنا فرصة العلاقات الاجتماعية والتبادل . وهذه خسارة كبيرة ، لأن الاتصال والتبادل والمشاركة من أهم عوامل الاستفادة بخبرة الآخرين وثروة مشاعرهم ، ومن أهم عوامل الاتزان النفسى والازدهار الشخصى .إن الإنسان المعاصر المتوسط يعانى من نقص شديد فى هذا المجال . إن أغلب الأنشطة المقامة خارج نطاق العمل والحياة المهنية تكلف الكثير من الطاقة والنقود ، وهاتان سلعتان ليستا من السلع اللاتى يستطيع الشخص العادى المتوسط أن يفرط فيها . انخفض إذاً مستوى التبادل بين البالغين وبعضهم ، ونتج عن ذلك انخفاض مستوى التبادل بين البالغين والشباب أيضاً : كم من شباب اليوم يستطيعون اللجوء إلى العمّ الطيب ليشكوا من مشاكل مراهقتهم ؟ كم من شابات اليوم يستطعن اللجوء إلى الخالة المنصتة ليفضن عليها بدموع خيبة آمالهن الأولى ؟ إن الشباب يحتاج إلى مثل هذه العلاقات . إنها تمثل احتياجاً بالنسبة لهم ، وعدم وجود مثل هذا التبادل والتعاطف جعل كثير منهم يلتفون حول المجموعات (الشلّة) التى يكونونها ، منظمين لأنفسهم طريقة خاصة فى اللبس والحديث ... الزىّ والألفاظ التى تمثل نوعاً من الشفرة السرية التى تحدّد وتحمى الفواصل والحواجز التى رفعتها صعوبات حياة اليوم بين الأجيال . نظراً لعدد مثل هؤلاء الشباب ونظراً لرغبتهم الشديدة فى الانفراد بكل ما يستطيع أن يكون خاصاً بهم ، فإنهم يمثلون سوقاً استهلاكياً مميزاً يعرفونه جيداً الذين يمارسون تجارة لوازم المراهقين والمراهقات...فيستغلون هذه الظاهرة الاجتماعية لمصلحتهم الشخصية، رافعين بذلك المزيد من الحواجز بين مجتمع البالغين ومجتمع الشباب . قد يظن البعض أن هذا الوضع يدعم ويقوى العلاقات بين الشباب .

إطلاقاً . كيف يبنى الشاب علاقة طيبة ناجحة ومثمرة مع أخيه الشاب ، إن لم يكن قد اكتسب خبرة مثل هذه الممارسة من خلال علاقاته المسبقة مع البالغين ؟ لذلك نجد أن العلاقات التى يبنونها بينهم لا تلبى احتياجاتهم ، لأنها – بالرغم من وجود نوع من « قانون شرف » ولائحة داخلية لكل مجموعة شبابية – سطحية للغاية ومبنية على المنفعة والصراع على النفوذ ، بينما ما يحتاجون إليه للاتزان والازدهار هو العطاء المتبادل والصداقة المخلصة . أما الإعلام والكتب والمنشورات وغيرها من عناصر إرشاد الشباب ، فإنها تختصر على المجال العملى والمهنى والتكنولوچى ، تاركة البحث عن الإجابات التى تخص مشاكل الحياة نفسها ، أى التساؤلات العميقة التى تشغل ذهون الشباب المفكر الحساس ، بدون إجابات : بدون إجابات لأن البالغين لا يملكون الوقت الكافى للقيام بالبحث على مثل هذه الإجابات ومناقشتها مع الشباب ، لأن هذا النشاط لا يعود عليهم عادة بفائدة مادية ما .

إن الاتصال والتبادل والمشاركة فى حالة تدهور مستمر ...

٢ – أين ذهب الرجل ذو الشخصية السوية العالمية ؟

أنا لا أقصد طبعاً أن يكون هذا الرجل « انسيكلوبيديا متحركة » . لكننى أقصد الرجل المتعلم المثقف الذى يستطيع أن يناقش بقدر متوسط من المنطق والذكاء والمعرفة عدداً كبيراً من الموضوعات ، الذى يستمتع بالاستماع إلى عدد كبير من الأنواع الموسيقية المختلفة والنظر إلى أعمال فنية من رسم ونحت وغيرها دون أن يكون خبيراً فيها ، الذى لا يرفض تذوّق أطباق جديدة لمجرد أنه لا يعرفها ولا يسخر من عادات وتقاليد تختلف عن عاداته وتقاليده الشخصية ، لأنه يعرف جيداً ويتقبل فكرة اختلاف الآخرين عنه كما تختلف عن بعضها أصابع اليد الواحدة ، الذى يهوى العمل اليدوى ويستطيع القيام ببعض هذه الأعمال دون أن يسبب الكوارث حوله ، والذى يسعد بما أنجزه بصرف النظر عن مستوى الأداء لأنه وجد كامل المتعة فى التحدى والإنجاز نفسهما قبل أن يجدها فى النتيجة ، الذى يستطيع أن يعطى كل من عمله وعائلته وأصدقائه ومعارفه القدر المعقول المستحق من طاقاته وجهوده ليصبح

مواطناً صالحاً ورب أسرة ناجحاً وصديقاً محبوباً ومعرفة مقدرة ؟ أنا لا أتحدث عن رجل « كامل » . إن الكمال ليس من صفات الآدمية . أنا أسأل فقط : « أين ذهب الرجل البسيط المتوسط القدرات الذى يستطيع أن « يركّب » جميع عناصر وجميع أبعاد حياته كإنسان بطريقة سوية متزنة توفر له إمكانية السعادة والازدهار الشخصى وإمكانية المساهمة فى إسعاد وازدهار الآخرين ؟ » . إن مثل هذا الرجل يعتبر أثرياً بالنسبة لعصرنا هذا . إن هذا الرجل ليس أثرياً لأن احتياجات الإنسان المعاصر تغيرت ولأن « العالمية » لم تعد تمثل أهمية بالنسبة لازدهاره وسعادته . لا . إن الاحتياج إلى العالمية ما زال صارخاً فى أعماق الإنسان ، لدرجة أن الشخصية المبتورة من أبعادها العالمية ، الشخصية التى لا تدور ولا تعمل إلا فى مجال التحليل والتحليل فقط ، الممثل فى التعمق المستمر فى التخصص ، والتى لا تستطيع الخروج من هذا النطاق وتوسيع آفاقها إلى ما هو عكس « التحليل » ، إلى ما هو « التركيب » ، تركيب شتى أبعاد الحياة الإنسانية ، هى الشخصية التى سوف تجد طريق « الاستسلام للواقع » بدلاً من طريق السعادة الحقيقية قائلة : « يجب أن أكون سعيداً بما عندى ، لأننى أملك ما لم يملكه غيرى » وهذه فلسفة مواساة ، لأن هناك فرق شاسع بين أن يقول المرء « أنا سعيد » ، وبين قوله « يجب أن أكون سعيداً » . إن الرجل العادى المتوسط لا يستطيع اليوم أن يحقق مثل هذه العالمية ، لأن هذا الإنجاز يتطلب الكثير من الوقت والمجهود . إن « العالمية » لا تعود على « العالمى » لا بالمال ولا بالقدرة أو النفوذ . لذلك فإن تحقيق عالمية التفكير ، عالمية الهواية ، عالمية الثقافة وعالمية العلم لا ينتج إلا عن اختيار حر وقرار لا يأخذه سوى الإنسان الذى يعيش فى داخله نداء قوى نحوها ، نداء يفوق قوة جاذبية محصلة الضغوط – ضغوط الطاحونة المادية / الاجتماعية – التى سبق وصفها .

إن الشخصية السوية العالمية فى طريقها إلى الانقراض ...

لقد ألقينا حتى الآن نظرة سريعة على ميزانية ثلاثة من الأبعاد الهامة فى حياة الإنسان :

١- البُعد الدينى وأزمة النمو التى تمر بها الإنسانية .

٢- البُعد المهنى وضرورة « التخصص » وما وراء ذلك من خطورة تضييق الآفاق وبتر الشخصية من الازدهار فى أبعاد أخرى كثيرة.

٣- البُعد الاجتماعى وعلاقة الإنسان المعاصر بالمجتمع الاستهلاكى .

ثم ألقينا نظرة أخرى سريعة على اثنتين من النتائج التى تترتب على الملاحظات السابقة وهى :

١- صعوبة التبادل والاتصال والمشاركة ، والعزلة النفسية التى تترتب عليها .

٢- انقراض « عالمية الرؤية وعالمية التفكير والثقافة والأنشطة » وما ترتب عليها من تجزئة الوحدة الأساسية للإنسان .

يمكننا الآن ، بناءاً على ما سبق ، تعريف إحدى الاحتياجات الأساسية للرجل المعاصر العادى كما يلى :

يحتاج الرجل المعاصر إلى كم معين من المعلومات المختلفة ، يستطيع الحصول عليها بسهولة ، مقدمة إليه بطريقة تربوية، تساعده على تحقيق نوع من « العالمية » عن طريق تركيب سوى لمختلف عناصر شخصيته ، وتجعله قادراً على ممارسة علاقات عميقة نوعًا ما واتصال وتبادل مفيد مثمر إلى حد كبير مع الآخرين ومع عناصر الحياة عموماً ، محققًا إحدى الشروط الأساسية للاتزان والسعادة والازدهار والنضج .

ماذا يعنى هذا التعريف ؟ :

إن الرجل المعاصر المتخصص العامل النشيط لا يملك الوقت الكافى لقراءة ثلاثمائة كتاب مثلاً قبل أن يستخلص عنها رؤيته الشخصية للدنيا والحياة ، خاصة ويجب أن تغطى هذه الكتب مجالات مختلفة جداً مثل العلم وعلم النفس والفلسفة والدين وغيرها . على صعيد أخر ، إذا كان حقاً هناك واقع واحد وراء الأوجه المختلفة للنشاط والف[illegible] الانسانى ،

إذا كان هناك تماسك حقيقى ووحدة جذرية فى المنوال المنسوجة عليه الأبعاد المختلفة التى تكوّن حياة الإنسان الشاملة ، إذا كان هناك نوع من التماسك المنطقى بين العلم وعلم النفس والخلقية والدين والفلسفة ، إذاً لا بد من وجود وسيلة ما ، غالباً ما تكون على شكل رؤية موحدة ، تُظهر وحدة المنوال وتماسكه ، وتضع كل عنصر منسوج عليه فى مكانه الحقيقى ، لأنها تفسر العلاقات التى تربط بين هذه العناصر وبعضها من جهة ، والعلاقات التى تربط بينها وبين الإنسان من جهة أخرى . « **المطلق » يمثل المنوال المنسوجة عليه الأبعاد المختلفة التى تكوّن نشاط وفكر الإنسان ، و « النسبى » هو التعبير عن الجزء البسيط الذى يستطيع كل من العلم والفلسفة وعلم النفس ، وكذلك كل منا حسب درجة النضج التى حققها ، إدراكه** . إدراك « المطلق » مجزأً إلى « نسبيات » بسبب تعدد نظم الدراسة التى سبق ذكرها . لا بد من وجود طريقة أفضل لإدراك كم أوسع من « المطلق » وجمعه فى « رؤية » واحدة شاملة . قدرة الإنسان على « التحليل » هى التى جعلته يميز بين الأبعاد المختلفة التى تهمه ، من « التحليل » نتج تقسيم انفعالات وتقسيم احتياجات الجسد والروح والنفس إلى علم وعلم نفس وخلُقية ودين وفلسفة مما أدى إلى الإدراك « النسبى » للمنوال « المطلق » . كل فرع من هذه الفروع وليد قدرة الإنسان بل واحتياج الإنسان إلى التحليل لكى يفهم ويدرك ما يدور حوله فى هذا الكون الذى يعيش فيه . وحيث أن ذكاء الإنسان لا يكتفى بالمكاييل الناقصة ، فإنه أخذ يتعمق فى هذا التحليل حتى أصبح كل فرع من هذه الفروع منفصلاً تماماً عن الفروع الأخرى، لدرجة جعلت فى بعض الأحيان مدافعى التخصص فى فرع معين يهاجمون ويرفضون الاعتراف بأنصار ومدافعى فرع آخر منه . هل يمكن أن يجزأ الإنسان هكذا ؟ هل يمكن بتره من أى فرع من هذه الفروع أو من أى بعد من هذه الأبعاد كما لو كان فقد وحدته الأساسية وأصبح شرائح لا علاقة بين كل شريحة والأخرى ؟ هل نتجاهل أن الآلام الجسمية تؤثر على الحالة النفسية وأن اكتئاب النفس يؤثر على أداء الأعضاء لوظائفها ؟ لقد انتشرت الحيرة وعمت الفوضى . كثير من علماء اليوم لا يستطيعون تحديد موقفهم من الدين بالرغم من أنهم

مقتنعون تماماً بأهمية الإيمان والعبادة . المحلل النفسى لا يستطيع أن يحدد موقفه من العلاج بالمواد الكيميائية والأدوية ولا الطبيب التقليدى موقفه من العلاج النفسى . الانتهازى السياسى لا يعرف الخُلقية ولا الدين ورجل الدين إما يرفض العمل فى المجال الاجتماعى مدعياً أن هذا ليس من اختصاصه ، إما يبالغ فى أداء غير مطلوب مدعياً أن هذا من متطلبات الدين . وفى قلب هذه الدوامة : الرجل العادى المتوسط الذى انقلب حاله رأساً على عقب ... أليست هناك « رؤية » معينة ، تسمح لهذا الرجل أن يدرك فيقبل ويقتنع بالمبادئ الدينية الكبيرة الأساسية ؟ « رؤية » تسمح لهذا الرجل أن يدرك بعض المبادئ الأساسية للخلقية ؟ « رؤية » تسمح لهذا الرجل أن يحقق ذاته من خلال اتصال أفضل ومشاركة أنضج وتبادل أعمق ، وهو يراعى فى نفس الوقت متطلبات الحياة المادية والحياة الاجتماعية التى سبق وصفها ؟ « رؤية » تسمح لهذا الرجل أن يصل إلى شئ من « عالمية » العقلية والتصرف والتفكير دون أن يكلفه ذلك من وقت وجهود ما لا تسمح له حياة اليوم توفيره لهذا المجال ؟ .

أظن الآتى : إن عملاً « تركيبياً » - على عكس ما تم حتى اليوم من أعمال « تحليلية » - يجمع بين جميع المجالات الأساسية التى تهم الإنسان لأنها تمثل احتياجات أساسية بالنسبة إليه ، يقدّم بطريقة تربوية ، بمعنى أنه يمر لا بالقنوات الذهنية فحسب لكن بالقنوات الداخلية العميقة أيضاً حتى يتحول إلى « تجربة حياة » واقعية ومكتسبة نهائياً (ألجأ بهذا الخصوص إلى الفصل « التربية والتعليم : العلم والمعرفة ») ، يستطيع أن يساعد البالغين على إدراك سريع وغير مكلف من حيث الوقت والمجهود للأسس والقواعد التى تربط هذه الأبعاد المختلفة لوحدة بنيته الأساسيّة ، ويستطيع أن يساعد المراهقين والمراهقات ، على أن يصبحوا فى مستقبل قريب بالغين أكثر « تحرراً » وأكثر « عالمية » ، أكثر نضجاً واتزاناً وسعادة . وحيث أن من الضرورى أن يكون لكل شئ اسم ، سوف نسمى محاولة التركيب هذه : « التحرر

التدريجى » ، على أن تأخذ هذه العبارة كامل معناها من خلال الصفحات التالية .

ما هو « التحرر التدريجى » :

١ – « التحرر التدريجى » تربية وتكوين حقيقى للإنسان يفوق بكثير نطاق الإعلام .

٢ – « التحرر التدريجى » – ولو أنه ، كنظام ، لا يتعرّض للدين – يضع فى الاعتبار أن الإنسان مخلوق متدين وأن تربية العقل والجسد والنفس يجب أن تصحبها تربية الروح وتنمية الإيمان والعبادة .

٣ – « التحرر التدريجى » يضع فى الاعتبار « أن « التخصص » ، وإن كان جيداً وضرورياً ، إلا أنه يحمل أيضاً عيوباً ونتائج عملية سيئة كثيرة .

٤ – « التحرر التدريجى » يضع فى الاعتبار أن عامل « الوقت » يحد من إمكانات الإنسان فى البحث والتفكير فى السعادة والازدهار وقوائمهما .

٥ – « التحرر التدريجى » تفكير وتربية . إنه يمارس الصراحة التامة والأمانة الكاملة مع كلا المراهقين والبالغين ، بما معناه احترام متناه للواقع الدينى والثقافى والاجتماعى والنفسى والمادى للذين يتعامل معهم ، وهذا شرط أساسى « لعالمية » نظام « التحرر التدريجى » .

٦ – « التحرر التدريجى » محاولة – وهكذا يجب أن يُقرأ ويُفهم – لإيجاد أرض صلبة يرتكز عليها المنطق والعلم والتفكير مهما كانت اتجاهات الإنسان الدينية أو الفلسفية . « التحرر التدريجى » يسمح لكل مربى أن يتعامل مع أى شخص من أى ديانة ومن أى إيمان بطريقة تحترم مشاعره الروحية بل وتنميها ، ويسمح لأى شخص أن يتعامل مع أى مربى بدون صعوبة أو إحراج .

٧ – « التحرر التدريجى » تكوين ذاتى ...

ما هى خطوات « التحرر التدريجى » :

إن خطوات « التحرر التدريجى » ، أى محاولة التصرف بنضج يفوق

النضج الطبيعى الذى حققناه تلقائياً ، لا تتغير مهما اختلفت الموضوعات وتدرجت أهميتها . سواء فكرنا فى تصرفنا تجاه سائق السيارة الذى قطع الطريق أمامنا ، أو فى تصرفنا تجاه الصديق الذى خان صداقتنا ، أو فى طريقة أخذ قرار هام ، فإن خطوات « التحرر التدريجى » هى دائماً الآتية :

١- أذكر جميع التصرفات الممكنة تجاه الموضوع الذى يهمك ثم رتّب هذه التصرفات حسب تدرج النضج الذى تتماشى معه . كيف ينفعل وكيف يتصرف السائق البدائى تجاه السائق الآخر الذى قطع الطريق أمامه ؟ كيف يتصرف السائق القليل النضج ؟ كيف يتصرف السائق المتوسط النضج ؟ كيف يتصرف السائق الناضج تماماً ؟ ثم درّج هذه التصرفات تدريجاً تصاعدياً وكوّن منها جدولاً يوضح العلاقة بين التصرف ودرجة النضج التى حققها الشخص . هذه هى الخطوة الأولى وهى خطوة معرفة الموضوع .

٢- انتقل بعد ذلك إلى الخطوة الثانية وهى خطوة معرفة الذات . تتطلب هذه الخطوة شيئاً من علم النفس والتحليل النفسى . لا يتعدى القدر المطلوب من العلم فى هذه المجالات ما هو موضح فى الفصل الثالث من هذا الكتاب . حدد أكبر قدر ممكن من الدوافع الداخلية والعوامل الخارجية التى تؤثر على تصرفك تجاه الموضوع . فكر فى الظروف المماثلة التى عشتها فى الماضى وحاول فهم أسباب انفعالاتك وتصرفاتك الداخلية العميقة .

٣- حدد موقفك الحالى من الجدول السابق ، أى حدد مستوى نضجك الطبيعى التلقائى الذى حققته حتى اليوم بالنسبة للتدرج المبين بهذه الجداول . ليكن هذا المستوى هو المستوى « ب » مثلاً .

وصولك عند هذه النقطة دليل على رغبتك فى « التحرر التدريجى » . رغبتك فقط . أما النقطة التالية وهى الرابعة ، فهى تمثل نقطة بداية تنفيذ « التحرر التدريجى » نفسه :

٤- فكر بالطريقة الآتية : النضج الذى حققته حتى اليوم بطريقة

تلقائية وطبيعية جعلني أفكر وأتصرف طبقاً للمستوى « ب » . أعرف بعض الناس أقل مني نضجاً حققوا المستوى « أ » فقط . يا ترى ماذا يكون تفكير وانفعالات وتصرفات الذين حققوا تلقائياً مستوى نضج أفضل من المستوى الذى حققته أنا وحققوا المستوى « ج » مثلاً ؟ بناءاً على معرفتي للدوافع التي تحركني من جهة ومعرفتي للجداول الخاصة بالنضج فى الموضوع من جهة أخرى ، سأحاول أن أتصرف بارادتي وتفكيرى واختيارى الحر **كما لو كنت حققت تلقائياً مستوى من النضج أفضل من المستوى الذى أتمتع به حالياً .**

محاولة الإنسان التفكير واختيار التصرفات التى تتناسب ومستوى أفضل من النضج من المستوى الذى حققه طبيعياً وتلقائياً ، هو جوهر مبدأ « التحرر التدريجي » .

قد تكون فكرة « التحرر التدريجي » غامضة إلى حد ما بالنسبة للبعض – على الأقل حالياً – لأنها تحتاج لأمثلة توضيحية . سوف تجد ، عزيزى القارئ ، القدر الكافى من الأمثلة فى الفصلين الخاصين بالتربية الجنسية وبالتربية المهنية . فقط رأيت من الضرورى ذكر المبدأ فى المقدمة حتى يكمل الموضوع .

ما الذى يستطيع « التحرر التدريجي » تحقيقه ؟ :

١– يسمح « التحرر التدريجي » لكل واحد منا أن يدرك أنه جزء لا يتجزأ من نظام كونى واسع وشامل ينتمى إليه .

٢– يمثل « التحرر التدريجي » شاطئاً آمناً يستطيع المسافر على أمواج الحياة أن يستعيد عليه قواه بعد المرور بالعواصف ويستعيد وضوح الرؤية بعد المرور بتجارب تهز النفس وتعكّر صفائها . إن « التحرر التدريجي » مصدر ثقة واتزان وثبات وتفاؤل .

٣– يعرض « التحرر التدريجي » بعض المعلومات الأساسية البسيطة فى علم النفس تساعد كل منا على إدراك واقعه النفسى الشخصى وواقع الآخرين بوضوح أكبر وبسهولة نسبية .

٤ – يعرض « التحرر التدريجى » تفسيراً سهلاً منطقياً لظواهر كثيرة نلاحظها حولنا : الظواهر الخاصة بإنسانية اليوم ، هذه الإنسانية التى تمر « بأزمة مراهقة » فى طريقها إلى النضج ...

٥ – يسمح « التحرر التدريجى » ، عن طريق عرض جداول تحليلية لمراحل التقدم والنضج المختلفة وفى مختلف المجالات ، بأن يحدد كل منا موقفه من هذه الجداول مكتشفاً الخطوة التالية التى يجب عليه اتخاذها للتقدم ومواصلة مسيرة التحرر والنضج وتحقيق الذات والمجتمع والإنسانية .

« التحرر التدريجى » نظام « تكوين شخصى وذاتى » يحاول أن يشمل جميع أبعاد الإنسان ، مع إبداء أشد الاحترام للواقع الدينى والنفسى والعلمى والثقافى والاجتماعى والمادى لكل فرد . « التحرر التدريجى » لا يعطى سمكة للجائع ، لكنه يعلمه الصيد . لقد فكرت فى تقديم « التحرر التدريجى » فى إطار الجدول الآتى :

١ – الجزء الأول يهدف إلى تحديد وضع الإنسان بالنسبة لباقى المخلوقات وبالنسبة للأرض والكون مع الإشارة إلى إمكاناته وموهبته الحقيقية وكذلك الإشارة إلى بعض العوامل التى تحد من استثمار وازدهار هذه الإمكانات . يحتوى هذا الجزء على القدر الأدنى من المعلومات التى تخص وتهم الإنسان الحديث المثقف المتطور المعاصر ... يشمل هذا الجزء العناوين الآتية :

أ – قصة من قصص كوكب الأرض .

ب – الخليّة التى حققت « التحرر » .

ج – بعض الدوافع الخفية التى تحرّكنا .

د – بعض العناصر المكونة للأنماط .

٢ – الجزء الثانى يخص التربية ، أى كيفية نقل « التحرر التدريجى » للأجيال الصاعدة . يبدأ بالمقارنة بين الإعلام والتربية

الحقيقية ثم يعطى مثالين لبرامج تربوية . المثال الأول خاص ببرنامج تربوى جنسى اجتماعى أثبت وجوده وسارى تطبيقه منذ سنوات عديدة ، والمثال الثانى خاص ببرنامج تربوى فى مجال التوجيه المهنى . تلى هذان الفصلان بعض الاعتبارات الخاصة بالتربية الدينية . يشمل هذا الجزء العناوين الآتية :

أ - التربية والإعلام .

ب- التربية الجنسية الاجتماعية للمراهقين والمراهقات بين ١١ و ١٨ سنة .

ج - التوجيه المهنى .

د - التربية الدينية .

بناءاً على التعريف السابق ها هم الذين أوجه إليهم دعوة « التحرر التدريجى » :

١ - « التحرر التدريجى » موجه إلى كبار الأطفال والمراهقين والمراهقات عن طريق أولياء الأمور المسئولين والمربين والمنظمات الشبابية ... الخ .

٢ - « التحرر التدريجى » موجه إلى جميع الذين دخلوا معصرة الحياة المهنية ، ولا يملكون الوقت الكافى للبحث الشخصى والتعمق فى مجالات نفسية شخصية غير مريحة .

٣ - « التحرر التدريجى » موجه إلى أولياء الأمور الذين يريدون أن يقدموا لأنجالهم أكثر من الغذاء والكساء والاحتياجات المادية الأولية .

٤ - « التحرر التدريجى » موجه إلى المتزوجين الذين يعيشون السنوات الأولى من حياتهم الزوجية ، ليرتقوا بالعلاقة الإنسانية التى تربط بينهم عن طريق إدراك حقيقة ما يدور فى أعماق كل منهم .

٥ - « التحرر التدريجى » موجه إلى المتزوجين الذين عاشوا أو يعيشون حالياً أزمة ما من أزمات الحياة الزوجية .

٦ - « التحرر التدريجى » موجه إلى جميع الذين يتساءلون عما يدور فى عالم اليوم من ظواهر تبدو غير منطقية .

٧- « التحرر التدريجى » موجه إلى جميع الذين أصابت الحياة المعاصرة شجاعتهم وأضعفت تفاؤلهم .

٨- « التحرر التدريجى » موجه إلى جميع الذين قضوا الجزء الكبير من حياتهم يحاولون تحقيق أهداف لم تمنحهم السعادة المتوقعة... إن لم تولد شيئاً من المرارة ...

٩- « التحرر التدريجى » موجه إلى جميع الذين سيطروا إلى حد ما على متطلبات ودوافع غريزة البقاء ، ويتمتعون الآن بحياة داخلية غنية ثرية تحتاج فقط للمسة أخيرة من التركيب والتماسك والترابط والوحدة .

« التحرر التدريجى » موجه لكل إنسان مفكر ومدرك ومسئول ...

ما أعرضه عليك ، أيها القارئ العزيز المحترم ، فى الصفحات التالية ، هو خلاصة ثلاثين عام مضت فى أعمال تربوية مع الأطفال والمراهقين والبالغين . إن الألوف منهم موجود اليوم على قارات أربعة ، ربما خمسة كانت ، لا أعرف . ما أعشته معهم ، ما أعيشه اليوم معهم ، شهاداتهم ، تاريخ العلاقة التى ما زالت قائمة بينى وبين العديد منهم ونوعيتها ، كل هذا من بعض عوامل لا حصر لها دفعتنى إلى كتابة هذه الصفحات . لم اكتشف شيئاً . لم ابتكر شيئاً . فقط شعرت بالاحتياج إلى نوع من « التركيب » للحصول على نوع من الوحدة الداخلية وتماسك النفس ، فعبرت عن هذا الشعور . إن رد فعل جميع الذين تعاملت معهم خلال سنوات طويلة مضت شجعنى على الكتابة ، فكتبت ... هذه الصفحات ... لك .

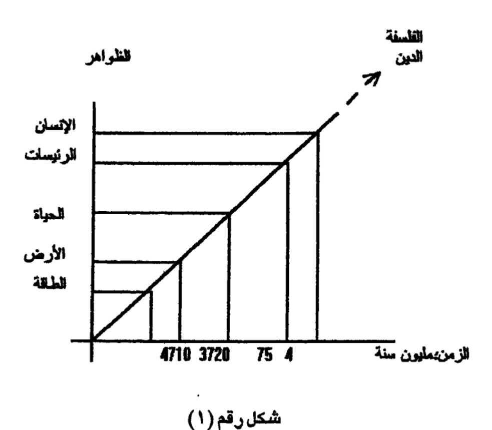
الفصل الأول
قصة من قصص كوكب الأرض

إنى أتعجب للأعداد الكبيرة من الناس التى ما زالت تربط كلمة «التطور» والأفكار التى سادت فى عصر العالم «داروين». فقط الشخص المنقطع تماماً عن عالم العلم وعالم البحث يستطيع أن يظن اليوم أن الغوريلا أو الشمبانزى من أجداد الإنسان. إن الرئيسات Primates مستقلة عن بعضها استقلال أصابع اليد الواحدة. العامل الوحيد الذى يربط بين هذه الأصابع هو اتصالها بكف واحد. لكن الإبهام كان إبهاماً منذ البداية والخنصر كذلك. لم يكن الإبهام، فى يوم من الأيام، خنصراً «تطور» حتى أصبح إبهاماً. كذلك الإنسان كان إنساناً منذ البداية، ولم يكن أبداً غوريلا أو شمبانزى «تطور» حتى أصبح إنساناً. العامل الوحيد الذى يربط بين جميع الرئيسات Primates هو انتمائها لفرع واحد أو لمجموعة واحدة من الكائنات. سوف يسأل البعض: «إذا كان الأمر حقاً كذلك، لماذا يبحث العلماء عن الحلقة المفقودة؟». هنا أيضاً يجب توضيح الأمور. كان العلماء يبحثون حقاً عن حلقة متوسطة تمثل وضع الانتقال من الغوريلا إلى الإنسان عندما كانوا يعتقدون أن الغوريلا من أجداد الإنسان. أما اليوم، إن الحلقة المفقودة التى يبحث عنها العلماء هى العظمة التى توصل الإصبع بالرسغ، وليس إصبعاً متوسطاً يمثل خنصراً أثناء تحوله إلى إبهام

لقد ترك العلماء مجال البحث عن كائن متوسط بين الغوريلا والإنسان لكاتبى المغامرات وأفلام الخيال العلمى... أما إذا أردنا مثالاً لما يدخل اليوم تحت عنوان «التطور» فها هو: درس العلماء كيفية تكوين «المناعة» ضد المضادات الحيوية لدى البكتيريا. اكتشفوا أن من خلال تعرض أجيال متتالية من البكتيريا لمضاد حيوى معين تظهر فيها، على چين معين من كروموزوم معين أمكن تحديده، صفة جديدة هى «المناعة» ضد هذا المضاد الحيوى. هذه الصفة الجديدة وراثية وتنتقل بعد ذلك

إلى جميع أفراد سلالة هذه البكتيريا . من ظواهر « التطور » بالمعنى الدرويني أن تكتسب بكتيريا يقتلها مضاد حيوى قدرة « المناعة » ضد هذه المادة الكيميائية السامة لها وأن تصبح هذه القدرة المكتسبة « وراثية» بعد ذلك Ref. La Recherche. Dec. 93. p.1354 .

علينا أيضاً أن نلاحظ أن كلمة « التطور » كلمة سابقة لزمن « دارون » . إن « التطور » يعنى تغييراً يحدث خلال فترة زمنية معينة، فى اتجاه ما ، إيجابى أو سلبى كان . عندما أقول : « لقد تطورت علاقتى بأحمد من مجرد معرفة سطحية إلى صداقة حقيقية خلال السنوات الخمسة الأخيرة . » إننى أقارن وأوازى بين مرور فترة زمنية معينة من ناحية ، وتغيير محدد حدث فى علاقتى بأحمد من ناحية أخرى ، فأقول أن الصداقة الموجودة بيننا اليوم وليدة تدرج فى أحداث معينة استغرقت فترة خمسة سنوات . كذلك عندما أقول : « هذا المرض بطئ التطور ، لكنه مميتاً » أعنى فترة زمنية معينة يتدهور خلالها حال المريض حتى يموت . لقد مثّل التطور المعنى فى المثال الأول تغييراً إلى الأفضل ، بينما مثل فى المثال الثانى تغييراً إلى الأسوأ ، استُعملت كلمة « التطور » بهذا المعنى قبل « دارون » بكثير وما زالت تُستعمَل بهذا المعنى حتى اليوم . ومع ذلك ، سأحاول عدم استعمالها على قدر الإمكان ، وإذا فعلت ، رجائى الا يربط القارئ بين هذه الكلمة وأى معنى من المعانى الخاصة بنظرية « دارون » . إن استعمالى لكلمة «التطور» لن يكون إلا وفقاً لمفهوم التوازى الذى وصفته بين تسلسل أحداث معترف بها علمياً من ناحية ، ومرور الزمن من ناحية أخرى ، دون أى اشارة إلى نظرية التطور نفسها . سنضع فى رسمنا البيانى (شكل رقم ١) التسلسل الزمنى على الخط الأفقى وتسلسل الأحداث المعترف بها علمياً على الخط الرأسى ، وسوف نكتفى بتحديد هذا التسلسل الزمنى للأحداث الهامة دون أن نستخلص منها استنتاجات شخصية قد لا يتفق عليها الجميع ، ودون أن نمدّ خط التسلسل هذا إلى الأمام ، فى المستقبل ، متسائلين عما يمكن أن تكون الأحداث المقبلة ، لأن هذه الخطوة قابلة للنقد حيث أنها غير علمية تماماً .



شكل رقم (١)

أنظر إلى كوكب الأرض اليوم وأرى على سطحه « الإنسان » . أرى أيضاً على سطح الأرض « الرئيسات » Primates الأخرى ، « الحياة » بوجه عام ، « المادة » في كل مكان و « الطاقة » وقد أخذ الإنسان مؤخراً يسيطر عليها ويستخدمها . أدير عجلة الزمن إلى الخلف بمقدار أربعة ونصف مليون سنة وأنظر إلى الأرض ثانية : مازلت أرى الرئيسات والحياة والمادة والطاقة ، لكنى لا أرى الإنسان . لقد عاشت إذاً الأرض دون أن يتواجد عليها الإنسان . أعود الآن إلى الخلف بمقدار خمسة وسبعين مليون سنة وأعيد النظر إلى الأرض : ألاحظ أن الرئيسات الأخرى اختفت بدورها . أما الحياة والمادة والطاقة ، فهى مازالت موجودة . أعود الآن إلى الخلف بمقدار ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرين مليون سنة وألاحظ أن الحياة نفسها اختفت بدورها . الأرض موجودة — مادة وطاقة — لكن بدون حياة ، بدون رئيسات وبدون إنسان . أما إذا عدت إلى الوراء بمقدار أربعة آلاف وسبعمائة وعشرة مليون سنة فإن الأرض نفسها هى

التى تختفى عن الأنظار لأننى عدت إلى ما قبل تاريخ ميلادها ...

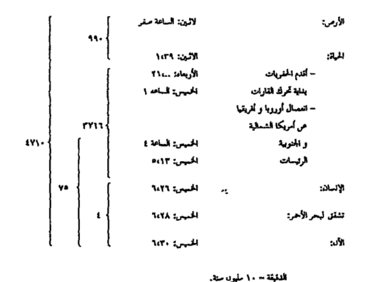
أريد ملاحظة نقطتين هامتين قبل تحليل تفاصيل ما سبق :

يقول البعض أن العلم يعرض علينا فى أحيان كثيرة نظريات جميلة ومغرية وجذابة يتضح فيما بعد أنها خاطئة فيتراجع عنها . لا شك أن هذا صحيح . على سبيل المثال ، إنّ الأرقام بالملايين من السنوات التى قدمناها تاريخاً للإنسان والرئيسات والحياة وكوكب الأرض ، كانت مختلفة بعض الشئ عندما كان العلماء يستخدمون عنصر الكربون ١٤ للتأريخ . تضاعفت الأرقام عندما استعملوا عنصر الأرجون ٤٠ . إن هذا لا يهمنا كثيراً لأننا لا نهتم بالأعداد المطلقة الخاصة بتاريخ حدوث الظواهر بقدر اهتمامنا بنفس تسلسل الظواهر وتدرجها . إن استعمال عنصر الأرجون ٤٠ بدلاً من عنصر الكربون ١٤ للتأريخ قد غير الأرقام المطلقة ولكنه لم يغير شيئاً من تسلسل الأحداث وترتيبها وتدرجها . ومن ناحية أخرى ، إذا كان هناك قارئ يرى أن العلم ، بسبب خطئه فى بعض الأحيان وتراجعه عن أقواله ونظرياته فى أحيان أخرى ، يجب عدم الاعتماد عليه ، بل يجب رفض اكتشافاته ورفض نظرياته وتطبيقاتها وتحقيقاتها ، ليغلق هذا الكتاب . إن « التحرر التدريجى » ليس له ولا يخصه . إن محاولة فهم العالم وما يدور فيه من اختصاص العلم . إن إدراك أعماق النفس والدوافع الداخلية التى تحركنا وتقودنا فى بعض الأحيان من اختصاص العلم . تحديد مدى النضج الذاتى – ومدى نضج المجتمع ككل أيضاً – من اختصاص العلم . محاولة التصرف وفقاً لمستوى من النضج أفضل من المستوى الذى حققناه تلقائياً وطبيعياً من اختصاص العلم . إننى سوف أطالب مثل هذا القارئ الذى يرفض العلم بالسفر سيراً على الأقدام أو على ظهر جمال وغيرها من الركائب ، وعدم الاستمتاع بالهواء المكيف ولا الاستماع إلى الأخبار فى الإذاعة . المسألة مسألة صدق وأمانة : ليرفض ، من يرفض العلم ، تطبيقاته أيضاً .

قال بعض آخر أن إذا أراد اللّه تعالى أن يطير الإنسان لزوده أجنحة . عندما طار فعلاً الإنسان قالوا أنه لن يمشِ على القمر ولا على غيره من الكواكب الأخرى أبداً . طار الإنسان ومشى على القمر . لم يحل ولن يحل العلم مكان الدين والإيمان والعقيدة أبداً . لذلك يجب علينا ألا نعبد العلم عبادة وألا نعطيه أهمية تفوق ما يستحقه منها . لكن علينا أيضاً ألا نسخر به ولا نسخط عليه ، لعلّه كان آلة ووسيلة وسبيل منحهم اللّه تعالى فى حكمته للإنسان ليعرف عظمة ربه فيمجده ويقترب منه . لننطلق إذاً مما يعرضه علينا العلم اليوم ، مستعدين بكل تواضع لتعديل التفكير وإعادة النظر فى جميع الأمور وفقاً للاكتشافات الجديدة وتطور العلوم المختلفة .

الطاقة والمادة .

بدأت الأرض (مادة) منذ أربعة آلاف وسبعمائة وعشرة مليون سنة . بدأت « الحياة » منذ ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرين مليون سنة . ظهرت الرئيسات Primates على وجه الأرض منذ خمسة وسبعين مليون سنة وظهر الإنسان بدوره – وهو الأخير ظهوراً – منذ أربعة ونصف مليون سنة (شكل ٢) . ليس أمامنا هنا تسلسل زمنى للأحداث فحسب ، لكن لدينا أيضاً أكثر من ذلك بكثير .



شكل رقم (٢)

إن هذا التسلسل من الأحداث يمثل فى نفس الوقت الانتقال من كل خطوة إلى الخطوة التالية لها ، تدرجاً تصاعدياً فى الإمكانات وفى الخواص وبالتالى فى التحقيقات أيضاً . الحياة عبارة عن مادة مضاف إليها إمكانات أخرى . يجب أن نطرح من الحياة شيئاً إذا أردنا العودة إلى المادة ، ويجب إضافة إمكانات جديدة إلى المادة لكى تصبح « مادة حية » . إن مبدأ طرح وإضافة خواص وإمكانات جديدة سارى تطبيقه أيضاً فيما يخص الأحداث الأخرى التى تهمنا ، أى ظهور الغريزة البسيطة لدى الحيوانات السابقة للرئيسات ، ثم ظهور الغريزة المتطورة لدى الرئيسات ، ثم ظهور الذكاء والوعى المنعكس والقدرة على التحرر لدى الإنسان . فى كل خطوة من هذه الخطوات يجب إضافة خواص وإمكانات جديدة لكى تتم الخطوة التالية ، ويجب طرح بعض الإمكانات للعودة إلى المرحلة السابقة . إذا نظرنا إلى بعض حالات التخلف العقلى ، أى بشر محروم من الجزء الأكبر من ذكائه ووعيه المنعكس ، أى محروم من الصفات المميزة للبشرية ، ماذا نرى ؟ نرى كائناً حياً تسيطر عليه وتقوده الغرائز الأساسية مجردة من تأثير الضغوط الاجتماعية والخُلُقية والدينية ، أى حيوان عادى مثل باقى الحيوانات . لننظر إلى حيوان تحركه فقط دوافع الغريزة الخاصة بـه ، كما هو الحال الطبيعى بالنسبة للحيوان ، ولنجرِّده من هذه الغرائز : ماذا نرى ؟ نرى كائناً حياً فى حالة ركود ، تشغله فقط الوظائف الحيوية الأساسية من تغذية وتنفس ... إلخ . وهذا هو أيضاً حال الإنسان فى حالة غيبوبة عميقة . لنتراجع خطوة أخرى الآن ولنجرِّد هذا الكائن الحى من الصفات المميزة للحياة . ماذا لدينا ؟ لدينا مادة ومادة فقط ، مجرّدة من الحياة . لنُجرى الآن على هذه المادة عملية انشطار نووى . ماذا يحدث ؟ تتلاشى المادة ولا يبقى أمامنا سوى الطاقة والطاقة فقط ... .

هناك سببين لقولنا ما سبق :

السبب الأول هو الإشارة إلى أن الانتقال من كل خطوة إلى الخطوة التالية يصحبه ازدياد فى الطاقات والإمكانات والخواص . سنرى فيما

بعد أن هذا التدرج لا يحدث نتيجة « للصدفة » ولكن استجابة « لحتمية » تفرضها بعض القوانين التى تخضع لها الطاقة والمادة والحياة .

السبب الثانى هو الإشارة إلى أن هناك ميول طبيعى لوضع الطاقة فى مركز سابق للمادة فى تسلسل الأحداث ، كأن المادة عبارة عن طاقة مضاف إليها شيئ والطاقة عبارة عن مادة مطروح ومحذوف منها شيئ . كأن المادة تنبثق من الطاقة وليس العكس . هذه النظرة تتماشى وشعور قوى وعميق مغروز فينا بأن الطاقة أكثر نبلاً من المادة وأصلح منها لكى تلعب دور المنبع الأساسى ، دور نقطة بداية تسلسل الأحداث الذى ذكرناه . إننا نشعر بداخلنا أن الطاقة يمكنها أن تولِّد المادة والحياة وليس العكس . أما العلم ، فهو لا يستطيع حتى الآن إثبات صحة هذا الإحساس بأولوية وأقدمية الطاقة على المادة ولا إثبات عكس ذلك . ها هو وضع العلم بالنسبة لهذه المسألة :

بعد مضى واحد من المائة من الثانية من لحظة نظنها لحظة بداية « الزمن الكونى » ، الفضاء كله مملوء بغاز عتم يتكوّن من الكترونات (electrons) وبروتونات (protons) ونوترينو (neutrinos) فى حال اتزان حرارى ديناميكى . ما هى هذه الأشياء الثلاثة ، وما هى الفوتونات (photons) التى تساهم فى حفظ الاتزان ؟

« الفوتون » هو أصغر كمية من الطاقة يمكن أن يتم تبادلها بين موجة كهربائية مغناطيسية والمادة . الفوتون إذاً عبارة عن طاقة مجردة من أى سند مادى ، طاقة مطلقة .

« الإلكترون » جزئ من المادة يحمل شحنة كهربائية سلبية . الإلكترون عبارة عن مادة .

« البروتون » جزئ من المادة يحمل شحنة كهربائية إيجابية . البروتون عبارة عن مادة .

« النوترينو » جزئ غريب الوضع . إنه معدوم الوزن النوعى ومعدوم الشحنة الكهربائية ويتحرك بسرعة الضوء . بدأ العلماء

بافتراض وجود هذا الجزئ لوزن معادلات فيزيائية استحال اتزانها بدونه. وفى عام ١٩٥٤ أخذ العلماء يبحثون عن وجود هذا الجزئ حتى عثروا عليه فعلاً بعد مضى بضعة سنوات . إننا نستعمل كلمة « جزئ » لأن لابد من استعمال كلمة ما . لكننا ندرك صعوبة تصنيف مثل هذا « الشئ » عندما يكون منعدم الوزن النوعى ومنعدم الشحنة الكهربائية ، وعندما يتحرك بسرعة الضوء ...

ها هو إذاً وضع الفضاء عند واحد من المائة من الثانية الأولى من الزمن الكونى : إلكترونات (مادة) وبروتونات (مادة) وفوتونات (طاقة) ليس فى حالة اتزان حرارى ميكانيكى فحسب - كما سبق وقلنا - لكن أيضاً فى حالة تحويل وانتقال مستمر من طاقة إلى مادة والعكس بالعكس : تتصادم موجتان كهربائيتان مغنطيسيتان (فوتونات = طاقة) على مستوى معين من التفاعل ، فتتلاشى الموجتان مولدتان حزمة من الإلكترونات والبروتونات (مادة) ، وتتصادم الإلكترونات والبروتونات (مادة) على مستوى معين من التفاعل فتتلاشى هذه المادة لتولد موجة كهربائية مغناطيسية (طاقة) ... واحد من المائة من الثانية الأولى من الزمن الكونى نجد أمامنا فى الفضاء كله كلتا الطاقة والمادة معاً ، كل واحدة منها قابلة للتحويل إلى الأخرى بحرية وباستمرار . لا يستطيع إذاً العلم تحديد إذا كانت المادة تنبثق من الطاقة أو إذا كانت الطاقة هى التى تنبثق من المادة . يتوقف الفصل فى هذه النقطة على وصولنا لمعرفة دقيقة وأكيدة لكل ما حدث خلال أول واحد من المائة من الثانية من الوجود ... وهذا العلم ينقصنا ... لكن هناك عامل واحد فى صالح إحساسنا بأن الطاقة سابقة للمادة فى الوجود ، وهو الآتى : لاحظنا فى تسلسل الأحداث الذى ذكرناه أن كل خطوة تصعد إلى الخطوة التالية من خلال اكتسابها بُعْد إضافى وتعود أدراجها إلى الخطوة السابقة من خلال فقدانها هذا البُعْد المميز لها . بناءاً على هذه الملاحظة يمكننا القول أن الخطوة التى تصعد إلى الخطوة التالية عن طريق تحقيق هذا البُعْد الجديد هى الخطوة التى تسبق مباشرة ظهور المرحلة الجديدة . التصاعد هو الآتى : مادة تنتقل إلى حياة التى تنتقل

إلى ظهور الغريزة البدائية التى تنتقل إلى ظهور الغريزة المتطورة التى تنتقل إلى الذكاء والوعى المنعكس وإمكانية « التحرر التدريجى » كما سنرى فيما بعد . إذا كانت « الحياة » هى التى « تتعقَّد » (التعقيد المعنى هنا هو تعدد وتنوع العلاقات والروابط بين الوحدات العاملة المختلفة ، خاصة الوحدات العاملة بالجهاز العصبى) حتى تظهر فيها الغريزة البدائية ، فإن الحياة هى غالباً الخطوة السابقة مباشرة لظهور الغريزة البدائية . إذا كانت الغرائز المتطورة هى التى تستطيع أن « تتعقَّد » حتى يظهر فى يوم من الأيام ذكاء الإنسان ووعيه المنعكس ، إذاً هناك احتمال كبير أن تكون الغريزة المتطورة هى الخطوة السابقة مباشرة لظهور الذكاء والوعى المنعكس فى تدرج الأحداث . وهذا فعلاً صحيح ومطابق لملاحظتنا ، حيث أن الحياة أقدم وجوداً من الغريزة البسيطة وهى بدورها أقدم وجوداً من الغريزة المتطورة وهى بدورها أقدم وجوداً من الذكاء والوعى المنعكس وإمكانية « التحرر التدريجى » . بناءاً على التفكير السابق يمكننا أن نتساءل :

- ما هى الخطوة التى « تعقَّدت » ، أى تعددت وتنوعت العلاقات والروابط بين الوحدات المختلفة المكونة لها ، حتى ظهرت فيها الخطوة التالية ، خطوة « الحياة » ؟
- ظهرت الحياة بعد « تعقيد » المادة .
- لكن : هل نستطيع أن نفرق من حيث الأقدمية بين الطاقة والمادة ؟

- إننا لا نستطيع أن نحدد أقدمية الواحدة بالنسبة للأخرى ، لكننا نلاحظ أن المادة هى التى تتعقَّد حتى تصبح فى يوم من الأيام « مادة حية » . **إننا لا نعرف « طاقة حية »** . قد تكون الطاقة هى التى « تحمل » المادة وتُثبِّت كيانها ، لكن المادة هى التى « تحىَ » وليست الطاقة . يمكننا إذاً أن نأمل أن العلم سوف يكتشف قريباً أن المادة هى وليدة الطاقة وأن المادة تنبثق من الطاقة وليس العكس .

من المادة إلى الحياة :

هناك قانون يبدو أنه يخص الكون كله :

الطريق الصاعد الذى يسمح لكل مستوى أن تظهر فيه الصفات والإمكانات الخاصة بالمستوى التالى يمر دائماً بميكانيكية اتصالات وروابط ، أى ميكانيكية « علاقات » . الانفراد طريق مسدود . الأطراف المعنية (العناصر المتداخلة) فى هذه « العلاقات » لا تفقد شيئًا من فرديتها .

خضعت جزيئات المادة الأولى لهذا القانون . بمجرد وجودها أخذت الإلكترونات والبروتونات والنوترونات تخلق علاقات بينها : ارتبط إلكترون واحد وبروتون واحد ونوترون واحد ارتباطاً ثابتاً متزناً وكوّنوا ذرة « هيدروچين » . ارتبط اثنان من كل منهم وكوّنوا ذرة غاز « الهليوم » . فى الدقيقة الخامسة عشر من الزمن الكونى امتلأ الفضاء بغاز الهيدروچين بنسبة ٧٥٪ وغاز الهليوم بنسبة ٢٥٪ وكل هذه الذرات تسافر وتغزو الفضاء بحرية وانطلاق . لم تكتفِ الإلكترونات والبروتونات بذلك . إنها أخذت تُنوِّع الروابط وتجددَ العلاقات بين أعداد متغيرة منها حتى كونت جميع العناصر الموجودة بجدول « مندليف » ، وذلك دون أن يفقد الكترون واحد ولا بروتون واحد شخصيته ولا فرديته . إن جدول العناصر هذا جدول يعرفه جيداً جميع الطلبة الذين أنهوا المرحلة الثانوية . جدول « مندليف » طريقة قديمة لتصنيف العناصر . تم اليوم إعادة تصنيفها طبقاً لنظام آخر . أتذكر أننى تعلمت بالمدرسة أن العناصر فى جدول « مندليف » عددها أربعة وسبعين عنصراً . ما أكبر دهشتى عندما اكتشفت بعد مضى بضعة سنوات أن عددها تحوّل إلى مائة وأربعة ... يختلف الأكسچين عن الحديد الذى هو نفسه يختلف عن الصوديوم والبوتاسويم والألمنيوم ... إلخ . لكن هذه العناصر جميعها ، المائة والأربعة منها ، تمثل تركيبات و « علاقات » مختلفة لنفس العناصر الثلاثة الأساسية : الإلكترونات والبروتونات والنوترونات . إن جميع هذه الذرات المختلفة تتكون من نواة تحتوى على البروتونات والنوترونات تدور حولها الإلكترونات فى مدارات (orbits) مشابهة لمدار الأرض حول الشمس .

ومثلما تدور الأرض على محورها (الأيام) أثناء دورنها حول الشمس (السنوات) كذلك تدور الإلكترونات أيضاً حول محورها (spin) أثناء دورنها حول النواة . ومثلما توجد مسافات شاسعة بين الأرض والشمس (شاسعة بالنسبة لقطر كل منها) كذلك المسافات بين الإلكترونات المختلفة والنوى التى تدور حولها أيضاً شاسعة بنفس النسبة .

ماذا حدث حتى الآن ؟ لقد انطلقنا من ثلاثة أنواع من الجزئيات المادية ، الأولى مشحونة إيجابياً وهى البروتون والثانية مشحونة سلبياً وهى الإلكترون والثالثة معدومة الشحنة الكهربائية وهى النوترون ، ووصلنا إلى تكوين مائة وأربعة ذرة مختلفة تمثل كل منها عنصراً فريداً يتمتع بصفات تميزه فتحدد شخصيته وتضمن فرديته . ثلاثة جزئيات مميزة ولّدت عن طريق « التركيب و « العلاقات » مائة وأربعة عنصر مميز . ذلك دون أن تفقد الجزئيات الأساسية شيئاً من شخصيتها وفرديتها . شئ يثير الدهشة ويدفع إلى التأمل ...

من الجدير بالذكر أن الذرات المشعة هى مجرد ذرات لم تكوّن عناصرها ، من الكترونات ونوى ، روابط ثابت ومتزنة كما هو الحال بالنسبة إلى الذرات الأخرى .

بموجب نفس القانون الذى سبق ذكره تأخذ العناصر المائة والأربعة فى تكوين روابط و « علاقات » جديدة ، بينها هذه المرة . ترتبط ذرتان من الأكسچين وذرة من الهيدروجين لتكوّن جزئ من الماء (يد ٢ أ) . ذرة من الهيدروچين وذرة من الكلور ترتبطان لتكوّنا جزئ من حامض الهيدروكلوريد (يد كل) . ذرتان من الهيدروچين ، أربعة من الأكسچين وواحدة من الكبريت ترتبط لتكوّن جزئ من حامض الكبريتيك (يد ٢ كب أ٤) . هذه نقطة بداية الكيمياء الغير العضوية . مع بداية الكيمياء الغير العضوية يظهر لنا ويتضح قانون جديد :

الروابط والعلاقات الجديدة تولّد « منتجات » جديدة تتمتع بخواص ومميزات وإمكانات تختلف كل الاختلاف عن خواص

ومميزات وإمكانات مكوناتها . أى تقدم فى اتجاه الخطوة التالية يمر بإحدى هذه المنتجات الجديدة . وحيث أنها أكثر إمكانًا من سابقاتها فإنها تستطيع أن تكوّن بدورها روابط وعلاقات أكثر فأكثر إنجازًا وفاعلية فى كل مرة .

وبالفعل : إذا نظرنا إلى المستوى الأول من الروابط والعلاقات نجد أن خواص ذرة الهيدروچين وخواص ذرة الهليوم مختلفة كل الاختلاف عن خواص الجزئيات الأولية التى كونتها (الإلكترونات والبروتونات والنوترونات) .

وإذا نظرنا إلى المستوى الثانى من الروابط والعلاقات نجد أن جزئ الماء يتمتع بخواص تختلف كل الاختلاف عن ذرات الهيدروچين والأكسچين التى كوّنته . وهذا يسرى أيضاً على جزئيات حامض الكبريتيك وحامض الهيدروكلوريك ... إلخ . الإلكترونات والبروتونات والنوترونات بقيت على ما هى عليه ولم تتغير عندما كوّنت الذرات المختلفة ، والذرات المختلفة بقيت على ما هى عليه ولم تتغير عندما كوّنت الجزئيات المختلفة ، ولكن ، فى كل مرة ، عن طريق اختيار أنواع مختلفة من الروابط ، ظهرت تركيبات جديدة (ما أكبر عددها ...) تمثل « منتجات » مختلفة تتمتع بإمكانات ومميزات ذات **تدرج تصاعدى .** **هذا التدرج التصاعدى فى الإمكانات والخواص هو جوهر التقدم واستمرار الكون فى مسيرته إلى الأمام .**

القانون الثالث الذى ظهر مع الكيمياء الغير العضوية هو قانون « الحتمية » .

نتائج التفاعلات التى تحدث أثناء تكوين العلاقات والروابط الجديدة نتائج « محتمة » الحدوث .

إذا كررنا خمس مائة مرة نفس التفاعل الكيميائى فى نفس الظروف سوف نحصل خمس مائة مرة على نفس النتيجة . وهذه النتيجة يمكن دائماً معرفتها معرفة مسبقة لأنها « محتمة » بالقوانين

التى تسود هذه التفاعلات . لولا هذه « الحتمية » لاستحال الاستفادة بالتطبيقات العملية للعلوم المختلفة . أن « حتمية » الأحداث فيما يخص تصرفات « المادة » هى التى سمحت باختراع الطائرات والقطارات والسفن وآلات التصوير ... إلخ ، وهى التى منحت إنسان القرن العشرين فرصة تحقيق كل الإنجازات التى لكان اعتبرها إنسان القرن السادس عشر من المعجزات الإلهية لو كان شاهدها ...

نظام الروابط والعلاقات فى مجال الكيمياء الغير العضوية نظام « مغلق » بمعنى أنه يؤدى فى كل مرة إلى تكوين منتج محدد ونهائى . حامض الهيدروكلوريك (يدكل) لا يقبل إضافة عناصر جديدة لتركيبه إلا فى إطار « التفاعل الكيميائى » . هناك نظام آخر للروابط والعلاقات أدى إلى تكوين « منتجات » مفتوحة بمعنى أنها تقبل إضافة عناصر جديدة كثيرة لتركيبها بعيداً عن « التفاعلات الكيميائية » ... إن هذا المجال هو مجال الكيمياء العضوية . القوانين الثلاثة التى سبق ذكرها ، أى (١) قانون ضرورة خلق العلاقات والروابط ، (٢) ينتج عنها فى كل مرة منتجات ذات خواص وإمكانات جديدة دون أن يسبب ذلك ضياع « شخصية » العناصر المكونة لها ، و(٣) كل ذلك ضمن إطار «حتمية » معينة تخضع لها « المادة » ، ما زالت سارية المفعول هنا أيضاً . لكن المنتجات الجديدة تأخذ– فى مجال الكيمياء العضوية– شكل سلاسل « مفتوحة » تستطيع الاغتناء المستمر باستقبال عناصر جديدة ووحدات جديدة تُزيد من خواصها وتضاعف إمكاناتها وفاعليتها. كونت الكيمياء العضوية– وهى عبارة عن طريقة جديدة لتكوين الروابط وخلق العلاقات– السلاسل الكربونية وسلاسل الأحماض الأمينية ، وهى سلاسل غنية ، سلاسل دائماً متصاعدة التعقيد والإمكانات والطاقات والفاعلية ، إلى أن ، فى يوم من الأيام ، فى مكان ما على سطح الأرض ، لا نعرف أين ، لا نعرف كيف ، أخذ جزء من هذه المادة المركبة ، من هذه المادة المعقدة للغاية ، فى إظهار خواص جديدة ، خواص تظهر على وجه الأرض للمرة الأولى : هى الخواص المميزة « للحياة » . هذه لحظة تكوين أول « بروتوبلازم حى » .

إن تعقيد العلاقات والروابط الموجودة بين العناصر المكونة « للمادة » يمثل شرطاً من الشروط الهامة للوصول إلى الحدث الجديد وتحقيق المستوى التالى فى تسلسل وتدرج الأحداث التى تهمنا ، على أن يميز هذا المستوى الجديد خاصة جديدة جداً وهى : « الحياة » .

ليفكر ويستشير القارئ بهدوء قبل أن يتهمنى بالخطأ أو بالكفر . لنعد أدراجنا ونعيد النظر فى هذه الجملة الأخيرة : « تعقيد العلاقات ... يمثل شرطاً من شروط الوصول إلى الحدث الجديد ... ». هذه الجملة لا تستثنى احتمال وجود شروط أخرى . هذه الجملة لا تستثنى أن تكون هذه الشروط الأخرى أكبر أهمية من الشرط المذكور فيها . الواقع العلمى الذى لا يقبل الجدال هو أننا إذا ضمرنا الروابط ، إذا حطمنا العلاقات الموجودة بين العناصر المكونة للمادة الحية ، تتلاشى الحياة نفسها وتنتهى . يموت الكائن الحى فور فك العلاقات التى تربط بين مكوناته . إذاً ليس هناك أى شك فى أن وجود هذه الروابط وهذه العلاقات شرط من شروط استمرار الحياة . إن « تعقيد » هذه العلاقات شرط أساسى من شروط التدرج التصاعدى فى الإمكانات والخواص الذى يرتقى بالمادة حتى تظهر فيها الحياة فى الوقت المناسب . **ميكانيكية التصاعد التدريجى الذى لاحظناه فى تسلسل الأحداث كما حددناه مبنى أساساً على التعقيد الدائم المستمر فى الروابط والعلاقات التى تجمع بين عناصر المادة المختلفة** . إن عدداً كبيراً من العلماء – وإن كانوا قد عاشوا فترات شك وتسائل – رسوا اليوم على شواطئ العقيدة والإيمان . ذلك لأن العملية كلها ، من حيث ضخامتها ، ومن حيث متطلباتها ومن حيث شروطها ومن حيث استمرارية تكرار وتسلسل وتدرج خطواتها ، تمثل معجزة لا تفسرها « الصدفة » ولا يعللها « حساب الاحتمالات » . العلماء أنفسهم يرون اليوم إرادة الله سبحانه وتعالى فى كل مكان : يرونها منبعاً للخلق ، ومنبعاً للمادة والطاقة ومنبعاً لقوانين الكيمياء والفيزياء والرياضة ومنبعاً للحياة ومنبعاً للإنسان فى طريقه إلى إعادة الخليقة

للخالق لأنه ، بفضل ما وهبه اللّه من عقل ووعى ، أدرك إرادة اللّه فخضع لها وسعى إلى تنفيذها . المنبع والآخرة . أما فيما يخص نسبة الخطأ البشرى فى محاولة الإنسان فهم وإدراك إرادة اللّه ، لعلنا لا ننسى أن الكنيسة أجبرت العالم « جاليليو » على التراجع عن آرائه . لعلنا لا ننسى أن الإنسان طار فعلاً فى السماء وفى الفضاء . لعلنا لا ننسى أن الإنسان مشى على القمر . أين كانت الكتب السماوية أثناء محاكمة « جاليليو » وأثناء الطيران الأول وأثناء المشى على القمر ؟ إنها كانت كلها موجودة بالطبع. وهى ما زالت موجودة اليوم وإلى الأبد ... الشئ المؤلم الوحيد هو وجود ، إلى جانب الكتب السماوية ، رجال غطاريس مختالين مغرورين يترجمون الكتب بعقولهم البشرية فيشكلون إرادة الخالق كما يشاءون، معتقدين أنهم الوحيدون على صواب ، يملكون الحقيقة ملكاً ولا يخطئون أبداً . كثير ما ينسى الإنسان أن الطبيعة والكون من أعظم الكتب السماوية التى تتحدث عن عظمة الخالق وعن حكمته . إن ما سبق لا يتعارض ومضمون ديانات التوحيد الثلاثة . إيمانى وعقيدتى أقوى وأعمق من كتابتى ما يخالف مضمونها .

من الحياة للإنسان :

نظريات كثيرة تفسر كيفية تكوين الخلية الأولى من البروتوبلازم الأولى . إنها نظريات فقط . إننا نواجه هنا نفس المشكلة التى واجهناها فيما يخص الواحد من المائة من الثانية الأولى من الزمن الكونى : إننا لا نعرف كيف اكتسب فجأة البروتوبلازم خاصة الحياة ولا نعرف كيف تكونت الخلية الأولى من هذا البروتوبلازم الحى .

بدءاً من وجود الخلايا الحية الأولى تأخذ القوانين الثلاثة التى « حتمت » تصرفات العناصر الأولية يسرى مفعولها عليها أيضاً ، مع تحقيق ما يتكافأ معها من نتائج . مثلما يتحرك « رفاس » السفينة فى حركة حلزونية تعيد خطواتها مع كل دائرة منجزة فى نفس الوقت خطوة إلى الأمام ، هكذا يعيد التاريخ نفسه لتتكرر نفس الأحداث ، لكن ، فى هذه المرة ، على مستوى أكثر تقدماً من المستوى السابق .

نلاحظ على مستوى الكائنات « الوحيدة الخلية » أن هناك خلايا تعقد علاقات وروابط بينها البعض لتعطينا عالم النبات ، وهناك خلايا أخرى يسفر تعقيد العلاقات والروابط التى تجريها مع نفس نوعها على عالم الحيوان . إن هذه الخلايا ، كل منها فى مجالها ، تخضع للقانون الأول وتجرى الروابط التى ينتج عنها عالم الكائنات الحية « المتعددة الخلايا » الخاص بها . تم إذاً تطبيق القانون الأول . فى عالم النبات يسرى القانون الثانى بمعنى أن كل نبات يتمتع بخواص مختلفة ، أكثر تقدماً وإمكاناً من خواص وإمكانات كل خلية من الخلايا التى تكونه على انفراد ، علاوة على ما سبق فإن كل نبات يتميز ببرمجة كروموزومية وراثية « تحتم » طريقة تنفسه وطريقة تغذيته وطريقة تكاثره ... الخ . القانون الثالث ، قانون « حتمية » الأحداث وجد تطبيقه هنا أيضاً ... لكن عالم النبات عالم « مغلق » بمعنى أنه لم يكتشف الطريقة ، لم يكتشف التركيبات الجديدة والروابط الخاصة التى تمكنه من الخروج إلى المستوى التالى ، إلى بُعْد أكثر تقدماً وإمكاناً ، مثلما فعلت المادة عندما انطلقت فيها فجأة الحياة . بهذا المعنى ، إن عالم « النبات » يمثل بالنسبة « للحياة » ما تمثله الكيمياء الغير العضوية بالنسبة « للمادة » : قيمة هامة بالطبع ، قيمة لها مكانها فى جدول الكون العظيم ، لكنها ليست « القيمة » الفريدة التى تلعب الدور الأساسى فى مساعدة الحياة على تحقيق الحدث التالى لها ، البُعْد الجديد الأكثر تقدماً وإمكاناً منها . إنها الكيمياء العضوية التى لعبت هذا الدور بالنسبة للمادة ؛ عالم الحيوان هو الذى سوف يلعب هذا الدور الأساسى بالنسبة للحياة . إن عالم الحيوان يمثل بالنسبة للحياة ما مثلته الكيمياء العضوية بالنسبة للمادة .

وفقاً للقانون الأول تتحد أولى خلايا عالم الحيوان وتخلق الروابط والعلاقات بينها لتكُوِّن الحيوانات « المتعددة الخلايا » . وفقاً للقانون الثانى تتمتع هذه الكائنات الجديدة بخواص تفوق بكثير إمكانات الخلايا الداخلة فى تركيبها على حدا . أما فيما يخص القانون الثالث ، وهو قانون « الحتمية » ، إن كل كائن من هذه الكائنات يتمتع ببرمجة كروموزومية وراثية « تحتم » خواصه وتميزه عن الكائنات الأخرى . إن نفس تكوين الحيوانات ، ردود أفعالها الانعكاسية للوسط الذى تعيش

فيه ، طريقة تكاثرها ... الخ ، كلها « تحتمها » برمجتها الوراثية، خضوعاً للقانون الثالث .

وفى كلا عالمى النبات والحيوان ، أخذت الكائنات الحية تخصص بعض خلاياها لأداء وظائف محددة . هذه المجموعات من الخلايا التى تؤدى للكائن الحى خدمة متخصصة تسمى « بالأعضاء » . الحالة الصحية العامة للكائن الحى تتوقف على الحالة الصحية الخاصة بكل عضو من أعضائه وكيفية أدائه وظيفته . مَرَضْ العضو الواحد ينعكس على حال الكائن كله . عالم النبات يخصص الجذور للقيام بعملية الامتصاص ، والساق للقيام بعملية نقل المواد الغذائية ، والأوراق للقيام بعملية التمثيل ... إلخ . عالم الحيوان يخصص خلايا معينة للجهاز الهضمى وأخرى للهيكل العظمى ... إلخ . هناك خلية سوف تلعب فى عالم الحيوان دوراً مميزاً جداً وهاماً للغاية : هذه الخلية هى الخلية العصبية . سوف نتحدث فى الفصل التالى ، وهو الفصل المخصص لموضوع « التحرر » ، عن هذه الخلية وعن المخ والجهاز العصبى عموماً. يكفينا للوقت الحاضر ملاحظة أن تعقيد العلاقات بين الخلايا العصبية أولاً ثم تعقيد العلاقات والروابط بين المراكز العصبية نفسها بعد ذلك ، يؤدى إلى ظهور الغريزة ، وهنا يجب أن نعطى الغريزة تعريفاً واضحاً لأنها تمثل خطوة هامة فى تسلسل الأحداث الأساسية بالنسبة للحياة :

الغريزة هى محصلة « الحتميات » الناتجة عن ردود أفعال انعكاسية عصبية نظمتها الحياة لحماية البقاء . استجابة للقانون الثالث نظمت الحياة هذه « الحتميات » العصبية التى تمثل محصلتها « الغريزة » لحماية الأفراد والمجتمعات وضمان بقائها .

الغريزة إذاً من « حتميات » الحياة مثلما قوانين الكيمياء والفيزياء من « حتميات » المادة . على سبيل المثال يمكن للقارئ أن يقرأ الآن وصف تفاصيل ردود الأفعال الانعكاسية الحتمية – وهى عبارة عن

دائرة مغلقة – التى تُجْبِر الكلب النائم فى هدوء أن يستجيب للأنثى المارة بحيزه حتى يتكاثران ، دون أن يكون لهما فى عملية التكاثر هذه أى تدخل شخصى إرادى (التربية الجنسية ، سن الـ ١٦ سنة) .

من البديهى أن الغريزة لا تظهر فجأة كما لو كانت وُلِدت من لا شئ . إن جميع أشكال الحياة مزودة بنوع ما من الغريزة . حتى النباتات . عباد الشمس يدور لأن كروموزوماته تحتوى على برنامج يعمل لخدمة احتياجاته ، ومن احتياجات بقائه أن يدور . الأميبا التى تتكيس فى حالة وجود ظروف لا تلائمها تفعل ذلك استجابة لبرنامج كروموزومى وضعتها فيها الحياة لخدمة البقاء . كل كائن حى ، حيوان أو نبات كان ، مزوّد بنوع معين من الغريزة الخاص به . لكن ، فى عالم الحيوان ، وجود جهاز عصبى ذو ارتباطات وعلاقات خلوية متعددة ومعقدة للغاية يسمح ببرمجة غريزة أكثر فاعلية وامكاناً ، اكثر تأقلماً ومرونة ، تستطيع بفضل هذه المميزات أن تتناسب ومتطلبات بقاء الحيوان التى هى نفسها تزداد احتياجاً وتعقيداً مع ازدياد إمكانات وفاعلية الحيوان .

ظهرت الرئيسات على وجه الأرض منذ خمسة وسبعين مليون عاماً . هذه الحيوانات تتمتع بأعظم وأكمل وأدق جهاز عصبى كونته « الحياة » حتى هذا التاريخ . بلغ مخ بعض الرئيسات من تعقيد العلاقات والروابط الداخلية ما سمح بظهور براعم « الذكاء » و « الوعى المنعكس » . بعض قرود الغوريلا تعرف نفسها عندما تقف أمام المرآة ، وتستطيع التعبير عن معنى « أنا » مشيرة لنفسها عندما تتحدث بلغة الإشارات مع معلمها . قرد « الريزوس » يبلغ ذكائه درجة ذكاء طفل فى السادسة من عمره ... أو على الأقل يستطيع ، بعد التعليم (التعليم هى الكلمة المناسبة فى هذا الحال وليس « التدريب » : التدريب يؤثر على قنوات ردود الأفعال – بافلوف – بينما التعليم يشجع العلاقات العصبية الخاصة بالذكاء) القيام بما يقوم به تلقائياً طفل فى السادسة من عمره . هل قلت أن هناك شئ آدمى فى هذه القرود ؟ إطلاقاً.إن الغوريلا والريزوس لم يتحركوا ولم يتغيروا أبداً بالنسبة لما كانوا عليه من نضج

جهازهم العصبى . مر خمس وسبعين مليون عاماً ولم تتغير الرئيسات كما أنها لم تغيير شيئاً من حولها على الأرض . لم يكن لوجودها على كوكبنا أى رد فعل على الإطلاق . من قبلها كانت أيضاً الدرافيل والخيول من الكائنات الحية الذكية جداً . وهى كائنات أقدم من الرئيسات بكثير . هى أيضاً لم تغير شيئاً على وجه الأرض منذ ظهرت عليها حتى اليوم .

وفجأة ، منذ أربعة ونصف مليون سنة فقط ، ظهر الإنسان . هو أيضاً مزود بغريزة تعمل لخدمة البقاء ، بقاء الأفراد وبقاء المجتمعات . لكنه مزود أيضاً ببُعْد آخر إضافى ، وهو إمكان جديد فى طريقه إلى التحكم فى الغريزة والسيطرة عليها وفى طريقه إلى حل محلها بما هو أفضل وأعلى وأسمى . الإنسان مزود بجهاز عصبى ، بمخ ، قادر على « الوعى المنعكس » وقادر على « التحرر » .

إن تعقيد العلاقات والروابط داخل المخ – فى كلا مجالى الغريزة والروابط الخاصة بالذكاء – شرط من الشروط التى تسمح بتحقيق الخطوة التالية ، خطوة « الوعى المنعكس » و « القدرة على التحرر » . هذه الخطوة هى التالية فى تسلسل الأحداث الخاصة بالحياة وهى لا تتحقق إلا فى الإنسان وفى الإنسان فقط .

منذ البداية البادئة وحتى ظهور الإنسان على وجه الأرض ، قامت الحتمية الخاصة بالمادة أولاً ، الممثلة فى قوانين الطبيعة ، ثم الحتمية الخاصة بالحياة بعد ذلك ، الممثلة فى الغرائز المختلفة ، بحماية وخدمة بقاء الفرد واستمرار النوع . بدءاً من ظهور الإنسان تنتقل مسئولية حماية البقاء وخدمته من أيدى حتمية الغرائز إلى ذكاء الإنسان وحريته ... أو إن لم يكن إلى « حريته » ، فهى تنتقل ، على الأقل ، إلى إمكانية «التحرر التدريجى » للأفراد والمجتمعات . استمرار مسيرة تسلسل الأحداث الذى وصفناه من بداية الكون وحتى ظهور الإنسان كان «محتماً» عن طريق قوانين لا هروب منها لينتقل ، بدءاً من لحظة ظهور الإنسان المسئول المتحرر ، إلى مسئولية الجنس البشرى الذى

يستطيع ، إذا حقق « تحرراً تدريجياً » ناجحاً أن يحل بنجاح محل « الحتمية » التى سبقته فى التاريخ مساعداً بذلك الكون على مواصلة مسيرته ، أو إذا فشل فى « تحرره التدريجى » ، فهو يستطيع أن يقود الأرض إلى الخراب والفناء : لا يحتاج ذلك إلى أكثر من بضعة قنابل هيدروچينية ... لينير اللّه تعالى ، الذى فى حاضره الدائم يرى ويعلم ما هو بالنسبة لنا مستقبلاً ، عقول الناس وليملئ قلوبهم رحمة ومحبة حتى يختاروا دائماً الطريق السليم ...

من الأحداث الجديدة التى نشاهدها لأول مرة منذ بداية الكون حتى ظهور الإنسان على وجه الأرض ، هو أن القانون الثالث أصبح باطلاً للمرة الأولى . « الحرية » أو بالأصح إمكانية « التحرر التدريجى » تحل محل « الحتمية » . هذه نظرة مثيرة سوف ندرس تفاصيلها فى الفصل التالى . من حق الإنسان أن يحدد إذاً لنفسه مكانة خاصة فى وسط الكائنات الحية وفى تاريخ كوكبنا . هذا ليس غروراً . على رسمنا البيانى الذى أوضحنا عليه مرور الزمن وتسلسل الأحداث الخاصة بنا إن الإنسان رأس حرية تسلسل يمثل تدرجاً تصاعدياً يشهد اليوم ، عن طريق تحقيق « التحرر التدريجى » للإنسان ، هزيمة « الحتمية » وفوز « الحرية » وسيطرة « العقل » على « المادة » وأولى انتصاراته على الموت نفسه : ألم ينقل العقل البشرى (عن طريق الطب ... الخ) متوسط العمر الفردى من واحد وسبعين عاماً ونصف إلى خمسة وسبعين عاماً ونصف فى الدول المتقدمة ، ومن أربعة وخمسين عاماً إلى اثنين وستين عاماً فى الدول النامية ؟ لا شك أن تحقيق الإنسان لهذا الإنجاز ما هو إلا نتيجة إرادة تعالى عليه . لكن لا شك أيضاً أن الإنسان هو المخلوق الذى اختاره تعالى من ضمن كل المخلوقات ليهبه القدرة على مثل هذا الإنجاز . الرجل الذى يعترف بقيمته الإنسانية الفريدة ليعظم نفسه – مع أن لا فضل له فى قيمة وُهِبَت له من ربه أمانة يحاسب عليها – رجل مغرور ومختال . أما الرجل الذى يعترف بقيمته الإنسانية الفريدة بكل تواضع وبساطة ، ولا يتمنى سوى أن يضع هذه القيمة فى خدمة مسيرة الخليقة وأن يساهم فى تسلسل الأحداث التصاعدى الذى

وصفناه ، لأنه أدرك ما وراء الأحداث من حكمة وما وراء التسلسل من خطة ، هذا الرجل ليس بمغرور ولا بمختال ، لكنه واقعى فقط ، إيجابى وبناء ، لأنه قرر بحريته مواصلة خدمة مسيرة الخليقة التى كانت « الحتمية » الكونية خدمتها من قبله وحتى الآن

هنا أيضاً لا مخالفة للعقائد ولا للأديان : العلم لا يعرف شيئاً عن بداية الإنسان ، لا يعرف كيف ظهر الإنسان على سطح الأرض ، ولا يدعى أنه يعرف ... يتفق العلم والدين على أن للانسان جهاز عصبى يشبه كثيراً للجهاز العصبى الموجود لدى الرئيسات الأخرى ، مع ملاحظة أنه أكثر تعقيداً وأكبر فاعلية . يتفق العلم والدين على أن مخ الإنسان يفوق أداءً مخ جميع الكائنات الحية بما فيها الرئيسات الأخرى . لا ينكر الدين قول العلم أن الإنسان يتمتع بالذكاء وبالوعى وبإمكان « التحرر » من حتمية الغريزة ، بل بالعكس : ألا تنادى جميع الديانات بالسيطرة على الغرائز والتحكم فيها للتحرر منها ؟

الأحداث ذوات التسلسل التصاعدى الذى وصفناه كلها أحداث تاريخية بالنسبة لكوكبنا ، أحداث يمكن النظر إليها من زوايا مختلفة كما هو الحال بالنسبة إلى جميع الأحداث ، لكن أحداث لا يستطيع أحد أن ينكر حدوثها . قد يقول البعض أن سياسة جمال عبد الناصر كانت صائبة وقد يقول البعض الآخر أنها كانت خاطئة : هل يحق للشخص المتردد بين الرأيين أن يحل حيرته بأن ينكر وجود عبد الناصر التاريخى ؟ على عكس ذلك تماماً إنى أقترح أن يفكر ويتأمل المتخصصون فى الديانات الثلاثة فى هذه الأحداث التى تمثل تاريخ كوكبنا والتى لا يستطيع أن ينكر أحد حدوثها ، ربما استطعنا تجنب تكرار مأساة « جاليليو » ...

من الإنسان حتى اليوم :

دار « الرفاس » دائرة إضافية فخطى فى نفس الوقت خطوة إلى الأمام فى طريقه إلى الحدث التالى مستكملاً المسيرة التى بدت بالإلكترونات والعناصر الأولية الأساسية . بدأ عصر الإنسان وأصبح هو

المسئول عن تكملة « المادة » ثم « الحياة » مسيرتهما . الإنسان هو الذى أصبح الضامن الجديد لاستمرار نفس الأحداث التصاعدية التى ساهمت فى ظهور القدرة والإمكانات البشرية . فيما يخص المادة كانت الإلكترونات والبروتونات والنوترونات هى العناصر الأولية التى ساهمت العلاقات والروابط المختلفة المنسوجة بينها فى تكوين الذرات ثم الجزئيات المختلفة . فيما يخص الحياة ، الخلايا الأولية الأساسية هى التى ركبت العلاقات والروابط التى ، مارة بعالم الحيوان والجهاز العصبى والغريزة ، ساهمت فى ظهور الإنسان وإمكاناته الجديدة من « وعى منعكس » وقدرة على « التحرر التدريجى » . « الوعى المنعكس » (أعرف، وأعرف نفسى ، وأعرف أننى أعرف وأعرف نفسى) هو الميزة والخاصة الجديدة لهذا المنتج الجديد الخاص بهذا المستوى ، والإنسان هو الوحدة العاملة النشطة الفعالة لهذه الميزة الجديدة . إن دور الإنسان بالنسبة للوعى المنعكس والقدرة على « التحرر التدريجى » وموقفه منهما ، هما نفس دور وموقف الإلكترونات والعناصر الأولية بالنسبة للمادة ونفس دور وموقف الخليّة بالنسبة للحياة . من الطبيعى إذاً أن يعيد تاريخ الإنسان نفس تاريخ المادة ونفس تاريخ الحياة ، مع ملاحظة ازدهار قدرته على « التحرر التدريجى » أثناء خطوات تطوره (تسلسل أحداث حياته الشخصية وحياته النوعية ... لا علاقة بالدروينية...) .
وفقاً للقانون الأول يبدأ الإنسان هو الآخر بخلق علاقات وروابط مع أمثاله من الجنس البشرى . هذه نقطة بداية ظهور العشيرة ثم القبيلة .
وفى الحال يظهر لنا القانون الثانى : القبيلة ، وهو منتج للعلاقات والروابط من نوع إنسان/ إنسان ؛ تتمتع بصفات وبخواص تختلف عن صفات وخواص الإنسان الوحيد المنفرد ، وتستطيع التغلب على صعوبات وحل مشاكل يعجز الإنسان المنفرد على حلها أو التغلب عليها. قامت ما تسمى « بالثورة الزراعية » منذ عشرة آلاف سنة تقريباً، عندما اكتشف الإنسان الزراعة وانتقل فى طريق تغذيته من نظام « اليد إلى الفم » (قطف الفواكه وصيد الفرائس) إلى نظام « اليد ثم الأرض ثم الفم » . وبعد أن كان كائناً متجولاً يطوف الأرض ويسرح فيها

أصبح كائناً يستوطن بقعة الأرض التى يزرعها ويأكل منها . هذه نقطة تحويل مفهوم « القبيلة » إلى مفهوم « القرية » بكل ما فى هذين المفهومين من فروق واختلافات . تضخمت القرى حتى أصبحت مدناً . قانون العلاقات والروابط الذى لعب دوره بين الأفراد سيلعب الآن دوره بين المدن وهكذا تتكون البلاد . العلاقات والروابط بين البلاد تكون الأمم. أما العلاقات والروابط بين الأمم فإنها توحد القارات . ها نحن فى قلب القرن العشرين ... وفى كل مرة ، وفقاً للقانون الثانى ، يتمتع المنتج الجديد بطاقات وإمكانات تفوق بكثير طاقات وإمكانات كل من العناصر الداخلة فى تكوينه على انفراد . البلاد ليست أكبر وأوسع من المدن فحسب لكنها أيضاً أكثر فاعلية وإنجازاً . الدول ليست أكبر مساحة من البلاد فحسب لكنها أيضاً فاعلية وإنجازاً . لا شك أن القارة الموحدة أكثر فاعلية وانجازاً من كل دولة من دولها على انفراد .

إن رجل الكهوف لم يرد ولم يخطط لذلك . ومن هنا أهمية تدخل القانون الثالث . احتياجات البقاء هى التى أملت عليه ، عن طريق « حتمية الغريزة » ، تكوين العشيرة ثم القبيلة . وعندما دق جذوره فى الأرض التى ذرعها ، كانت أيضاً احتياجات البقاء ، عن طريق « حتمية الغرائز » المختلفة ، التى أملت عليه تكوين المدن ثم البلاد فالدول . أما اليوم ، يكفى الجلوس أمام شاشة التلفزيون لمدة دقائق قصيرة فقط للاقتناع بأن متطلبات البقاء هى التى تملى على الإنسان عن طريق « حتمية الغريزة » ، توحيد أوربا السارى محاولته الآن .

لكن ... لكن ...

لا شك فى أن ظهور الإنسان يمثل نقطة تحويل فى تاريخ الأرض . مع ظهور الإنسان هناك شئ تغير فى نفس المنوال المنسوج عليه خيوط الكون كله . أدى الوعى المنعكس إلى ظهور الإدراك بالخير والشر ، بالحلال والحرام ، بالله تعالى وبالحب والمحبة والعطاء . النزاع النفسى الداخلى (conflict) موجود لدى الحيوان ، لكن دائماً ما يكون هذا التمزق بين ميلين كلاهما فى خدمة البقاء وحماية الفرد وإنقاذه .
الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى يستطيع أن يعيش

نوع آخر من النزاع الداخلى : التمزق بين ميول غريزى ، أى ميول يخدم البقاء ويحميه من ناحية ، واختيار آخر ، حر ، مبنى على العطاء والتضحية ، لا يخدم البقاء بل ، على عكس ذلك ، يتعارض ومصالحه مهدداً أحياناً البقاء وواضعاً الإنسان فى خطر . هذه الفكرة أيضاً موضوع من مواضيع الفصل التالى (الخلية التى حققت « التحرر ») .

ما يتم وصفه فيما يخص الإنسان سارى مفعوله على كلا المستوى الفردى والشخصى والمستوى العمومى والجماعى . إن الإنسانية ككل ، إذا نظرنا إليها كوحدة متماسكة متكاملة ، لم تصل حتى اليوم إلى مستوى النضج الجماعى الذى يتماشى والنضج الذى تسبب فى إعلان حقوق الإنسان أو النضج الذى فكر ووضع لائحة الأمم المتحدة . إن دوافع « السيطرة » و « حب السيادة » التى سوف نناقشها فى الفصل الثالث (بعض الدوافع الخفية التى تحرك الإنسان) ، ما زالت أقوى من هذه المثاليات . لكن ، على المستوى الفردى ، هناك أشخاص حققوا من النضج الشخصى و« التحرر » ما سمح لهم بمثل هذا التفكير وبتخطيط مثل هذه المبادئ والحكم . ربما تألّم كثيراً هؤلاء الرجال قبل أن تسمع المجتمعات ندائهم وربما لم يكن من السهل أن يقنعوا باقى الإنسانية بتبنى هذه المبادئ . لكنهم نجحوا إلى حد ما بعد بذل جهود طويلة ومتكررة . الإنسانية ككل تمر بأزمة مراهقة بينما هناك بعض الأشخاص حققوا درجة متقدمة جداً من النضج الشخصى وآخرون ما زالوا أطفالاً يخطون خطواتهم الذهنية والروحية الأولى ... قُلت فى هذه الجملة الأخيرة : « هناك بعض الأشخاص الذين حققوا درجة متقدمة جداً من النضج » . كان فى إمكاننا أن نقول بنفس المعنى : « هناك بعض الأشخاص الذين حققوا درجة متقدمة جداً من **التحرر** » لأن :

النضج ما هو أولاً وأخيراً سوى مدى التحرر الذى حققه الإنسان .

على أن يكون هذا « التحرر » الذى نعنيه هنا هو :

« التحرر » هو مدى قدرة الإنسان على الدخول فى دوائر ردود الفعل الانعاكسية الحتمية المغلقة الخاصة بالغريزة التى تخدم الحياة والبقاء للسيطرة عليها والتحكم فيها بدلاً من أن يكون لعبة تحت تأثير هذه الدوافع الداخلية التى يجهل فى أحيان كثيرة حتى وجودها .

يجب أن تقف دراستنا لتسلسل الأحداث التصاعدى الخاص بتاريخ كوكبنا عند هذا الحد . هذا التسلسل الزمنى يبدأ بالمادة والطاقة ، يمر بالحياة ثم الغريزة ، ليحقق فى ومع ظهور الإنسان إمكانية الوعى المنعكس و « التحرر التدريجى » . يرجع الآن للدين والفلسفة التساؤل عن خواص المنتج الجديد الذى سوف ينتج عن تعقيد الروابط والعلاقات بين الحريات الفردية ووعى الأشخاص ، باعتبارها هى الوحدات الأساسية الجديدة لهذا المستوى الخاص بالإنسان . العلم لا يهتم إلا بأحداث مضت ، أحداث معترف بها عالمياً ولا جدال عليها . إن عرافة المستقبل ليست من اختصاص العلم ...

فى أقل من خمسة ملايين من السنوات غطى الإنسان سطح كوكب الأرض حتى غير وجهه . غزا كذلك الفضاء ويهدف الآن إلى غزوات إضافية . أخذ الإنسان فى هذا القرن الأخير يقود معركة أصعب بكثير من معاركه السابقة ولكنها أكثر إثارة وأكبر أهمية أيضاً : هى معركة اكتشاف وغزو النفس . هذه المعركة الداخلية – هذا الاكتشاف العميق – هى نفس الفكرة التى يدور حولها مبدأ « التحرر التدريجى » . لنحتفظ إذاً باتجاهنا الأول ونعود إليه ، وحيث أننا وضحنا مكان الإنسان فى الجدول العام الكبير للكون والخليقة ، لنحاول الآن إدراك المميزات والخواص التى جعلت منه مخلوقاً فريد القيمة وأعلى مكانة من باقى المخلوقات .

الفصل الثانى

الخلية التى حققت « التحرر »

الحيتان أضخم جسماً من الإنسان والكثير منها مهدد بالانقراض. كانت الديناصورات أقوى عضلياً من الإنسان ولم تستطع مقاومة الظروف الطبيعية وانقرضت فعلاً . النسر ، ملك السماء ، مهدد بالانقراض . الأسد ، ملك الغابة وملك عالم الحيوان ، مهدد بالانقراض . الإنسان هو الذى نظم فى كلا البر والبحر ، المحميات الخاصة بهذه الثروة المهددة . البعوض الصغير الضعيف يطير بانطلاق فى القطب الشمالى فى جو درجة حرارته ستون درجة مئوية تحت الصفر بينما تقفز البراغيث ، باحتفاظ النسب ، ارتفاعات لو قفزها الإنسان لقفز أعلى من ارتفاع برج « إيفل » . كل هذه الكائنات الحية أقدم وجوداً من الإنسان على وجه الأرض وتمتعت أو ما زالت تتمتع – كل منها فى اختصاصها – بقدرات وإمكانات جسمية تفوق بكثير إمكانات الإنسان . بالرغم من ذلك فإن الإنسان وحده هو الذى استطاع ، فى أقل من أربعة مليون ونصف من السنوات ، أن يغير وجه الأرض وملامحها ، أن يغزو الفضاء والبحار ، أن يكتشف بعض القوانين الخاصة بالكون ، وأن يدرك أن الوقت قد حان أخيراً ليهتم أيضاً بما **يدور بداخله من صراع وتناقض بين الدوافع الخفية التى تشكل ميوله الطبيعى واحتياجاته الفطرية ، وبين متطلبات أخرى خاصة بأدميته .**
إن الفضل فى تحقيق كل هذه الإنجازات لا يعود لقوة الإنسان العضلية ولا لكمال جهازه الهضمى أو الدورى أو العظمى . على عكس ذلك تماماً ، إن حدوده الجسدية من الصعوبات التى تعرقل مسيرة غزوه للفضاء والأرض والبحر ، ولنفسه أيضاً . ما أنجزه الإنسان أنجزه بالرغم وليس بفضل إمكاناته الجسدية . لم تتم كل هذه التحقيقات إلا بفضل الإمكانات العقلية والذهنية التى يتمتع بها الإنسان وهذه الإمكانات يخدمها جهاز واحد فقط : الجهاز العصبى . إن المخ وتفرعاته – أى

الجهاز العصبى – وهو الجهاز الوحيد الذى وفر للإنسان القدرة على نشاط وإنجاز لم تشاهدهما الأرض من قبله . لنحاول إذاً دراسة كيفية أداء الجهاز العصبى وظيفته ، ربما ساعدنا ذلك على إدراك أفضل للفروق الموجودة بين الجهاز العصبى للإنسان والجهاز العصبى لباقى المخلوقات السابقة والمعاصرة له ، وإدراك سبب تفوّق الإنسان وسيادته عليها كلها.



شكل رقم (١)

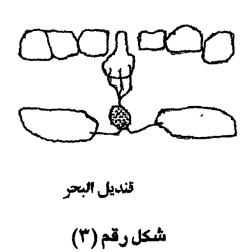
ولنبدأ بخلية عصبية بسيطة مثل الخلية العصبية الموجودة لدى كائنات بسيطة مثل الديدان البحرية (شكل رقم ١) . تتكون هذه الخلية العصبية من جزأين : الجزء الأول ، وهو الجزء الحساس ، موجود بين الخلايا التى تغطى السطح الخارجى للدودة ، ويقوم بتسجيل الإشارات الواردة من الوسط المحيط بها والخاصة بما يمثل خطراً أو تهديداً لسلامتها أو لحياتها ، والجزء الثانى ، وهو موجود تحت الخلايا السطحية ،'قابل للتقلص ، أى أنه يقصر فى حالة النشاط ثم يعود إلى طوله الطبيعى فى حالة الركود . لا ينفعل الجزء الحساس لهذه الخلية إلا إذا سجل إشارة تهدد البقاء مثل وجود كائن مفترس أو اختلاف فى درجة حرارة الوسط المحيط أو وجود بعض التيارات المائية ... الخ . بمجرد انفعاله يرسل الجزء الحساس إلى الجزء القابل للتقلص إشارة ببدء النشاط فيتقلص الأخير ويقصر طوله . إن تقلص جميع الأجزاء القابلة للتقلص لجميع الخلايا العصبية فى وقت واحد وبانسياق معين يسمح للدودة أن تتموج . هذه الحركة التموجية لجسم الدودة هى التى تسمح لها بالابتعاد عن سبب الخطر أو مصدر التهديد .


شكل رقم (٢) الهيدرا

فى حالة حيوان « الهيدرا » (شكل رقم ٢) انفصل الجزء الحساس من الجزء المتقلص وكونا خليتين منفصلتين . لدينا الآن ،

على السطح الخارجي للحيوان ، خلايا « عصبية » حساسة تسجل الإشارات القادمة من الوسط المحيط ، ولدينا ، تحت سطح الجلد ، خلايا أخرى قابلة للتقلص هى الخلايا « العضلية » . يقوم بالاتصال ونقل إشارات التقلص إمدادات عصبية رفيعة جداً ترسلها الخلية العصبية إلى الخلية العضلية . فى كلتا حالتيّ الدودة البحرية والهيدرا تبقى الخلية العصبية فى حالة ركود أمام كل الإشارات التى « لا تخص » البقاء ولا تنعفل إلا فى حالة تسجيل إشارة « خاصة بالبقاء » ، صادرة وقتئذ فقط إشارات التقلص التى سوف ينتج عنها الحركة التى تُبعِد الكائن عن الخطر . الفرق بين الدودة والهيدرا هو أن فى حالة الهيدرا انفصلت الوظيفتان وتم تخصص خلية لكل وظيفة منهما : العصبية والعضلية .

ندخل مع قنديل البحر (شكل رقم ٣) مجالاً مثيراً للغاية . توجد بين الخلية العصبية والخلية العضلية خلية ثالثة جديدة تلعب دور الوسيط فى نقل إشارات التقلص من الأولى إلى الثانية . يحدث الآتى : اكتسب الحيوان قدراً كبيراً من التفتح على العالم الخارجي المحيط به حتى أصبح قادراً على تسجيل جميع الإشارات القادمة منه سواء كانت « تخص البقاء » أو « غير خاصة بالبقاء » . ترسل الخلية الحساسة كل هذه الإشارات – الخاصة بالبقاء والغير خاصة به – إلى الخلية الوسيطة الموجودة بينها وبين الخلية العضلية ، على أن تقوم هذه الخلية الناقلة بحل شفرة الإشارة الواردة وتحديد معناها . ثم تتجاهل الخلية الناقلة كل الإشارات « الغير خاصة بالبقاء » وتعتبرها لاغية . أما الإشارات «الخاصة بالبقاء » فتنقلها إلى الخلية العضلية حتى تُنَفّذ أمر التقلص . لا ضرورة للدخول فى تفاصيل كثيرة : لنكتف بالإشارة إلى أهمية ودقة البرنامج الكروموزومى الوراثى الذى يسمح لهذه الخلايا الثلاثة ،



قنديل البحر

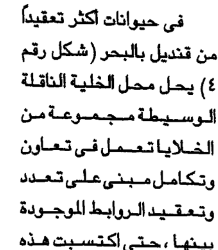
شكل رقم (٣)

العصبية المستقبلة والناقلة للإشارات والعضلية المتقلصة ، القيام بكل هذه العمليات المعقدة بمنتهى الدقة والتوقيت . **الجدير بالذكر هو أن ، بدءاً من قنديل البحر ، يكتسب الحيوان قدرة نقل الإشارة أو إلغائها تماماً بعد التعرف عليها .**



حيوان متطوّر

شكل رقم (٤)



في حيوانات أكثر تعقيداً من قنديل بالبحر (شكل رقم ٤) يحل محل الخلية الناقلة الوسيطة مجموعة من الخلايا تعمل في تعاون وتكامل مبني على تعدد وتعقيد الروابط الموجودة بينها ، حتى اكتسبت هذه المجموعة من الخلايا ، بفضل هذا التعقيد في العلاقات بين وحداتها العاملة ، (ليفكر القارئ في قوانين الروابط والعلاقات الموصوفة في الفصل الأول) خواص جديدة تسمح لها بأداء يختلف عن أداء سابقاتها. ازدادت حساسية الخلايا العصبية السطحية حتى أصبحت قادرة على تسجيل إشارات مختلفة لا حصر لها ، فترسلها إلى « المجموعة الناقلة» التي تستطيع التصرف في هذه الإشارات ونقلها وفقاً لأربعة سيناريوهات : (١) تستطيع أن تتجاهل الإشارة كلية إذا كانت هذه الإشارة بعيدة كل البعد عن احتياجات البقاء ، (٢) تستطيع أن تنقل الإشارة بإخلاص إذا كانت هذه الإشارة خاصة باحتياجات البقاء ، (٣) تستطيع أن تضعف وتقلل من شأن الإشارة قبل نقلها إذا كانت الإشارة خاصة بالبقاء ولكنها غير هامة – مثل اشارة خاصة بالغذاء في وقت لا يحتاج فيه الحيوان لطعام – ، وتستطيع أخيراً (٤) أن تقوّي من شدة ومن الحاح الإشارة إذا كانت هامة جداً بالنسبة للبقاء .

جميع الإشارات الغير ملغية ، أي الإشارات الخاصة بالبقاء التي يتم نقلها ، تولد إجابة (رد فعل) . هذه الإجابات « محتمة » ويمكن دائماً معرفتها معرفة مسبقة ، لأنها ناتجة عن تنفيذ

برنامج كروموزومى وراثى ثابت للحيوان ، وبالتالى نفس الإشارة تولّد دائماً نفس الإجابة .

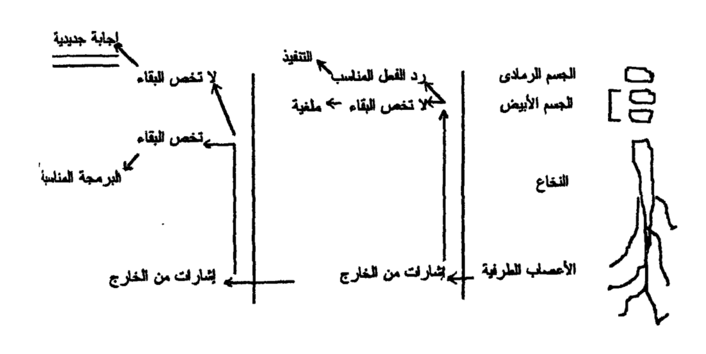
بناءاً على ما سبق يمكننا القول أن للأجهزة العصبية البدائية الأولية البسيطة ثلاثة مجالات عمل :

١- المجال الأول هو مجال « الإحساس » و « تسجيل » الإشارات سواء كانت واردة من الوسط المحيط بالحيوان أو من داخل أعماق جسمه . تقوم بهذه الوظيفة خلايا حساسة - (celulles receptrices sensory cells) موجودة إما على السطح الخارجي للجسم إما بداخله . الخلايا الحساسة الموجودة على السطح الخارجى للجسم مسئولة عن تسجيل الإشارات الخاصة بدرجة حرارة الوسط المحيط بالحيوان ، باختلاف اتجاه التيارات الهوائية والمائية ، بوجود حيوان آخر مفترس ... إلخ . الخلايا الحساسة الموجودة بداخل الجسم مسئولة عن تسجيل تركيز المواد الغذائية فى الدم ، تركيز الفاضلات التى يجب التخلص منها ، الضغط على جدران الأوعية الدموية ، نسبة التقلص العضلى ... الخ .

٢- المجال الثانى الذى يعمل فيه الجهاز العصبى هو مجال « التعامل مع الإشارات » (نقلها بإخلاص - تقويتها - تقليلها - إلغائها) و« نقلها » ، حسب الإجابة المطلوبة ، إلى الجزء التنفيذى من الجهاز العصبى الذى يطلق البرمجة الخاصة بهذه الإشارة . الجزء المختص من الجهاز العصبى الذى يعملَ فى هذا المجال يستقبل الإشارات ، يقيمها ويصنفها ثم يوجهها إلى الجزء المختص بتنفيذ الاجابة المطلوبة . على سبيل المثال : إشارة تعنى وجود خطر بسيط سوف تنقل إلى جهاز تحريك العضلات حتى يبتعد الحيوان عن مصدر التهديد ، بينما إشارة تعنى انخفاض نسبة السكر فى الدم سوف تنقل إلى الجزء الخاص بالتغذية لتنفيذ برنامج يعيد السكر وباقى الاحتياجات الغذائية إلى نقطة توازنها ... الخ .

٣- أما المجال الثالث الذى يعمل فيه الجهاز العصبى هو مجال «تنفيذ البرمجة » الكروموزومية « المحتمة » التى تتناسب والإشارة

المسجلة ، بما معناه أن إشارة خاصة بالخطر تُطلق البرنامج الخاص بالهروب أو البرنامج الخاص بالمجابهة ، بينما إشارة تفيد بوجود الأنثى فى موسم التكاثر تُطلق برنامج الغزل والتقارب الجنسى مثلاً . من الجدير بالذكر أن ليس هناك « إشارة خاصة ب ... » ولكن مجموعة إشارات مختلفة تمثل محصلتها المعنى النهائى الذى يتصرف المخ بناءاً عليه . هناك مثلاً مجموعة لإشارات واردة من أماكن مختلفة من الجسم تفيد محصلتها بانخفاض نسبة السكر فى الدم . الجزء من الجهاز العصبى الذى يعمل فى هذا المجال الثالث هو الذى سوف يُطلق عمليات تنفيذ البرمجة التى تؤدى إلى معالجة هذا الوضع ، أى برمجة شاملة تبدأ أولاً بالشعور بالجوع ، ثم التغذية ، ثم الهضم فالامتصاص وإعادة التوازن السكرى للجسم .



شكل رقم (٥) الجهاز العصبى   شكل رقم (٦) ما قبل الثدييات   شكل رقم (٧) بدءاً من الثدييات

الإجابة « المحتمة » التى يطلقها الجهاز العصبى استجابة للإشارات الغير الملغية الواردة إما من داخل جسم الحيوان أو من الوسط المحيط به كلها فى خدمة « بقاء » الحيوان - وبقاء المجموعة التى يعيش فيها إذا كان حيوانًا اجتماعيًا - وبالتالى فهى فى خدمة استمرار الفرد والفصيلة والنوع وحمايتها من الانقراض .

لنحاول الآن تحديد الأجزاء الأساسية النهائية للجهاز العصبى (شكل رقم ٥) لنرى كيف تعمل فى إطار ما سبق ذكره من نشاط .

ينقسم الجهاز العصبى إلى جهاز عصبى مركزى وجهاز عصبى طرفى . ينقسم بدوره الجهاز العصبى المركزى إلى جسم أبيض وجسم رمادى (cortex) ، وينقسم الجسم الأبيض إلى جزء علوى وآخر سفلى (télencephale et diencephale) . أما الجهاز العصبى الطرفى فهو مكون من النخاع الشوكى الموجود فى العمود الفقرى والأعصاب الطرفية . لنلقى نظرة سريعة على ما يدور فى كل مستوى من هذه المستويات مع ملاحظة أن الجسم الرمادى (cortex) هو الجزء الوحيد الذى يهمنا اهتماماً خاصاً لأنه المستوى الذى يدور فيه ما يميز الإنسان عن باقى المخلوقات .

البرامج العصبية الطرفية البحتة :

إنك منهمك فى الكتابة عندما يُقرِّب شخص ما طرف عود كبريت ساخن من ذراعك . فجأة وبدون تفكير تسحب ذراعك وتبعده عن مصدر الحرارة والألم . ماذا حدث ؟ سجلت الخلايا العصبية الحاسية الجلدية ارتفاع درجة الحرارة فأرسلت إشارة إلى النخارع الشوكى الذى استجاب مرسلاً بدوره لعضلات الذراع إشارة بالتقلص حتى يتحرك الذراع مبتعداً عن سبب الألم . إذا كان عود الكبريت دافئاً فقط لابتعد الذراع فى حركة بطيئة هادئة . الإشارة المرسلة من الخلايا الحاسية إلى العمود الفقرى كانت اشارة ضعيفة فولّدت الاجابة التى تتناسب معها . أما إذا كان عود الكبريت ساخناً فعلاً كانت الإشارة قوية وملُحة فولّدت

إجابة قوية وسريعة وفجائية للغاية . إن الإجابة فى هذا الحال مبنية على ردود أفعال من نوع : جلد - نخاع شوكى - عضلات ، وتنفيذ مثل هذه البرامج لا يمر بالمخ إطلاقاً . الدجاجة التى تواصل حركات الجرى بقدميها بعد أن تم فصلها مثال آخر لردود الأفعال الانعاكسية هذه التى لا تمر بالمخ وتعتمد على المسار : إشارة طرفية واردة غير ملغية - نخاع شوكى (عمود فقرى) - عضلات طرفية تولد تقلصاتها الحركة . نستطيع إذاً أن نقول أن هناك إجابات جاهزة « مبرمجة » لدى الجهاز العصبى الطرفى ، وأن هذه الإجابات يمكن دائماً معرفتها معرفة مسبقة لأنها « محتمة » الحدوث ، وأنها إجابات من النوع الأولى البسيط ، وأنها دائماً فى خدمة المتطلبات الأولية البسيطة لبقاء الكائن الحى .

البرامج العصبية الطرفية والمركزية معًا :

إن البرامج التى يتطلب تنفيذها أكثر مما يفترضه سحب الذراع فى حالة حرقه بعود الكبريت الساخن ، البرامج التى يؤدى تنفيذها إلى عمليات معقدة مثل عملية التغذية والهضم والامتصاص والتخلص من الفضلات ... إلخ ، كلها برامج صعبة التنفيذ ، لا تستطيع الاعتماد على الجهاز العصبى الطرفى وحده . تنفيذ هذه البرامج يعتمد على مساعدة الجسم الأبيض من المخ (جهاز عصبى مركزى) . تعرّضْتَ لدرجة حرارة منخفضة وأحرق جسمك كمية كبيرة من الجلوكوز ليحفظ درجة حرارة ثابتة بداخله حتى انخفضت نسبة الجلوكوز فى الدم وأخذْتَ تشعر بالبرد . بعض الخلايا الجلدية تسجل درجة حرارة الجلد وترسل الإشارة المناسبة بمجرد انخفاض هذه الحرارة دون درجة معينة . هناك خلايا أخرى داخل الجسم تسجل نسبة السكر فى الدم وترسل إشارة معينة بمجرد انخفاض هذه النسبة دون المستوى الأدنى . هناك خلايا عصبية أخرى داخل بعض الأعضاء الداخلية للجسم التى تعتمد فى أداء وظائفها على وجود تركيز معين من السكر فيها والتى ترسل إشارة معينة فى حالة عدم وصول هذه الأعضاء التركيز المطلوب من الجلوكوز مما يعرقل أداء الوظيفة . محصلة هذه

الإشارات المختلفة الواردة من أماكن مختلفة من الجسم تولد شعوراً بما سميناه « بالجوع » . يُطلَق إذاً الجوع البرنامج الخاص بالبحث عن الطعام والتغذية والهضم والامتصاص حتى تتم إعادة نسبة السكر إلى المستوى الطبيعي . اشترك الجهاز العصبي الطرفي والمركزي للقيام بالعملية المعقدة التي أدت إلى حماية الحيوان من الإغماء أو الركود اللذان يهددان بقائه ويقللان من مستوى إنجاز المجموعة التي ينتمي إليها الفرد العاجز .

الجسم الرمادي :

الجسم الرمادي للمخ - سوف نرى تفاصيل أدائه بعد قليل - يعمل على ثلاثة مستويات مختلفة (١) بطريقة عامة جداً نستطيع أن نقول أنه يسيطر ويتحكم في تنفيذ برمجة الإجابات المعقدة التي سبق ذكرها مضيفاً لمسة من الدقة والرفع والتميز ، (٢) أنه يقوم بجمع وتركيب الإشارات الواردة من شتى المصادر مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى الإنجاز ودقة التنفيذ ، و(٣) أنه - عند الإنسان - يقوم بجميع العمليات الذهنية .

لنطبق الآن المستويات الثلاثة لأداء الجهاز العصبي لوظيفته ، أي :

١- تسجيل الإشارات الواردة .

٢- التعامل مع الإشارة (نقل صادق - إلغاء - تقوية ... الخ) .

٣- تنفيذ الإجابة حسب البرنامج الموضوع .

على ثلاثة مستويات مختلفة من الكائنات الحية وهي :

١- الحيوانات ما قبل ظهور الثدييات - Mammifères) (Mammals .

٢- بدءاً من الثدييات .

٣- ما هو خاص بالإنسان وما يفرّق بينه وبين باقي الكائنات الحية ويميزه عنها .

لا يختلف الجهاز العصبي في مكوناته الأساسية وفي فروع نشاطه

الثلاثة قبل الثدييات مما هو عليه بدءاً من الثدييات أو فيما يخص الإنسان . سوف نلاحظ فقط – وهذه الملاحظة هامة للغاية – أن الأجهزة العصبية المختلفة الموجودة لدى هذه المجموعات الثلاثة من الكائنات ، بفضل احتوائها على عدد دائماً متزايد من الوحدات العاملة ، وبفضل التعقيد المتزايد فى العلاقات التى تربط بين هذه الوحدات العاملة ، تكتسب دائماً المزيد من القدرة ، محققة دائماً إنجازاً أفضل ، حتى يظهر أخيراً ، فى حالة الإنسان والإنسان فقط ، « منتجاً » جديداً تماماً سوف نحدده بعد قليل (ليعد القارئ بخصوص ظهور « المنتج » الجديد نتيجة لتعقيد العلاقات بين الوحدات العاملة لعضو أو لجهاز ما إلى ما ورد فى الفصل الأول) .

ما قبل الثدييات :

السيناريو الذى يتصرف الكائن الحى بناءاً عليه بسيط جداً . جميع الإشارات الواردة من الجهاز العصبى الطرفى ، سواء كانت واردة من داخل جسم الكائن أو من خارجه (تعرف بعد ذلك جميعها بكلمة « الإشارات ») تصل إلى الجزء الأسفل من الجسم الأبيض للمخ (le Diencephale) الذى يقوم بتصنيف الإشارات إلى « خاصة بالبقاء » و« غير خاصة بالبقاء » . (شكل رقم ٦) . **يتم إلغاء جميع الإشارات « الغير خاصة بالبقاء » ويتجاهلها المخ بعد ذلك تماماً** . تنقل الإشارات التى صنِّفَت « خاصة بالبقاء » إلى الجزء الأعلى من الجسم الأبيض (le télencephale) الذى يُطلقْ الأمر بتنفيذ الإجابة الخاصة بالإشارة أو بالإشارات الواردة . هذا الأمر يُنشِّط بدوره الأجزاء المختلفة من الجهاز العصبى المسئولة عن تنفيذ النتيجة المتوقَّعة من الاجابة «المحتمة » المبرمجة كروموزومياً المُعدَّة لمثل هذه الظروف . لا يهمنا هنا الدخول فى تفاصيل الأحداث وكيفية الوصول إلى النتائج المختلفة بقدر ما يهمنا أن نلاحظ الآتى :

أولاً : جميع الإشارات التى لا تخص البقاء ملغية تماماً كأنها لم تحدث .

ثانياً : الإجابات التى ينفذها المخ ونتائجها كلها خاضعة « لحتمية » كروموزومية وراثية خاصة بالكائن الحى المذكور وهى دائماً فى خدمة احتياجات البقاء .

بدءً من الثدييات :

تتمتع الثدييات بتنفس رئوى (حتى المائية منها) ، تلد أحياء وترضعها لبناً من ثدى الأم . لا توجد إلا حوالى ألفان وخمسمائة نوع منها . بدءاً من الثدييات يختلف السيناريو الذى سبق وصفه ويأخذ الجسم الرمادى (cortex) يلعب دوراً هاماً تترتب عليه نتائج خاصة .

جميع الإشارات الواردة من الجهاز العصبى الطرفى تُحوَّل إلى الجسم الرمادى (شكل رقم ٧) . يقوم الجسم الرمادى بتصنيف الإشارات ويُحوِّل بدوره جميع الإشارات المصنفة « خاصة بالبقاء » إلى الجزء الأعلى من الجسم الأبيض (têlencephale) الذى يُطلِقْ الأوامر الخاصة بتنفيذ الإجابة « المحتمة » المطلوبة . الجسم الرمادى هو الذى يقوم بحل شفرة الإشارة ويحدد « الخاص بالبقاء » منها من « الغير خاص بالبقاء » بدلاً من أن يقوم بهذا العمل الجسم الأبيض . أما ما هو جديد ومهم للغاية ، هو عدم إلغاء الإشارات المصنفة « غير خاصة بالبقاء » كما حدث فيما قبل الثدييات . هذه الإشارات تظل موجودة فى الجسم الرمادى للمخ ، لكنها لا تولِّد رد فعل محتم سابق البرمجة الكروموزومية . ليس للإشارة « الغير خاصة بالبقاء » إجابة يمكن معرفتها معرفة مسبقة بسبب « حتميتها » . **مهم : الجسم الرمادى ، بفضل ثروته من الوحدات العصبية العاملة فيه وبفضل غزارة ودرجة تعقيد العلاقات الموجودة بين هذه الوحدات ، « يبتكر » لهذه الإشارات « الغير خاصة بالبقاء » إجابات « جديدة » بمعنى أنها ستكون دائماً إجابات غير مبرمجة على مستوى وراثة الحيوان ، وبالتالى لا يمكن معرفتها معرفة مسبقة .** على سبيل المثال : يمر عصفور أو ثعبان أو تمر سمكة (وهى كائنات سابقة للثدييات فى الوجود وأقل تعقيداً عصبياً منها) أمام أنبوبة معجون أسنان . تسجل هذه الكائنات

الإشارات الآتية من الأنبوبة لكنها تلغيها تماماً بمجرد تصنيفها « غير خاصة بالبقاء » . أما إذا مر قرد مثلاً بنفس الأنبوبة (وهو من الثدييات) فى وقت لا تشغله فيه متطلبات البقاء ، سوف « يتعامل » مع الإشارات الآتية من الأنبوبة « مبتكراً » لها إجابات جديدة سرعان ما تؤدى إلى ملء أيديه ووجهه وشعره كله بالمعجون ... هذا القرد قادر على «اللعب» . الثدييات قادرة على ما سماه الإنسان « باللعب » (« اللعب » بالنسبة للطفل الصغير عبارة عن حياته نفسها ، يمارس من خلاله الخبرة الحيوية التى سوف تبقى رصيداً له مدى الحياة . أما بالنسبة للبالغ ، إن « اللعب » نشاط إضافى فرعى ، يمارسه للترفيه والمتعة...) . الثدييات « تلعب » وفقاً للمفهوم الآدمى . أما وفقاً للمفهوم المطلق ، المفهوم الذى يخص الجهاز العصبى ، إن الثدييات تمارس نشاطاً جديداً لم يمارسه مخلوقاً من قبلها : إنها « تبتكر » إجابات جديدة غير مبرمجة كروموزومياً ، لإشارات « غير خاصة بالبقاء » لم يتم الغائها للمرة الأولى فى تاريخ الحياة على وجه الأرض . ما زال الوقت مبكراً لنتحدث عن « حرية » أو عن « تحرر » لأن هذه الحيوانات لا تتخذ « قرارات » . إنها لا تعرف « النزاع الداخلى » (conflit) الناتج عن الانجذاب فى اتجاهين مختلفى الأهداف والأولويات . إنها فقط تلاحظ أن الأنبوبة قابلة للضغط عليها وأن هذا الضغط يسبب خروج المعجون من الأنبوبة ، فتكرر وتعيد السبب (الضغط على الأنبوبة) حتى تتكرر النتيجة (خروج المعجون) . وهذا يمثل بالنسبة لهذه الحيوانات تجربة جديدة يتم تسجيلها فى الجهاز العصبى وتصبح رصيداً جديداً لخبرتها المكتسبة . لكن ، بمجرد ظهور أى نداء خاص بمتطلبات البقاء سوف يترك الحيوان « اللعب » فى الحال ليعود إلى تنفذ البرامج التى تحتمها عليه كروموزماته ووراثته وغريزته . لنلاحظ الآن مبدءان سوف تزداد أهميتهما بعد قليل :

المبدأ الأول :

الإجابات التى «يبتكرها» الجسم الرمادى لمخ الحيوان استجابة للإشارات التى « لا تخص البقاء » خاضعة من حيث

فكرتها وفرديتها (originalité) لمستوى الآلة التى تبتكرها ، أى أنها خاضعة لعدد الوحدات العاملة بالجسم الرمادى ولتعقيد الروابط والعلاقات التى تربط بين هذه الوحدات ؛ لكنها غير « محتمة » وغير سابقة البرمجة . أنها تمثل إذاً هروباً من الدوائر المغلقة الخاصة بالغريزة وخدمة البقاء . كل جسم رمادى لكل حيوان « يبتكر » حسب إمكاناته وحسب قدراته ، لكن ما يبتكره من إجابات يمثل دائماً تعبيراً لفردية الحيوان لأنه غير « مبرمج » كروموزومياً .

يلعب قردان بأنبوبتين معجون أسنان . يبتكر القرد صاحب المخ « الموهوب » بالنسبة للقرد الآخر العاباً لا يستطيع القرد الثانى أن يؤلفها . موهبة التأليف التى يتمتع بها القرد الأول صفة وراثية كروموزومية توسع أو تضيق من قدرة القرد على « تأليف » الإجابات الجديدة الغير المبرمجة ، سنعود إلى هذا الاعتبار بعد قليل . يهمنا فقط الآن الإشارة إلى أن فى كلتا الحالتين ، حالة القرد الأقل « موهبة » وحالة القرد الأكثر « موهبة » ، جميع الإجابات المؤلفة ، الأكثر تطوراً وفردية منها والأقل ، كلها جديدة ، كلها تمثل تعبيراً لفردية هذا الحيوان وكلها نابعة من جزء من الجسم الرمادى مستقل تمام الاستقلال عن الدوائر المغلقة الخاصة بحتمية الغرائز والإجابات السابقة البرمجة الكروموزومية .

أما المبدأ الثانى فهو :

نادراً ما تتعارض الإجابات الجديدة التى يبتكرها الحيوان ومتطلبات البقاء ممثلة خطورة بالنسبة له أو للمجموعة أو للفصيلة أو النوع . إذا فرضنا وحدث ذلك عفواً ، سرعان ما تولد إشارات خاصة بهذا الخطر نتيجتها إطلاق الأوامر الخاصة بتنفيذ إجابات أخرى سابقة البرمجة ، تعيد الأحوال إلى مجراها الطبيعى وتزيل الخطر الذى ولدته الإجابة المؤلفة الجديدة .

إذا فرضنا وجذبت رائحة معجون الأسنان حيواناً مفترساً

(جارحة) ، سرعان ما توقف الإشارات الخاصة باقتراب هذا الحيوان « اللعب » لتتولى دوائر « حتمية الغريزة » عجلة القيادة مولدة الإجابات التى تحمى الفرد والمجموعة من اقتراب هذا الخطر .

لنحاول الآن أن نفهم كيفية أداء الجسم الرمادى (cortex) وظيفته لأنه هو الذى يتوقف عليه أخيراً الفرق الشاسع الموجود بين الإنسان وباقى المخلوقات .

يعمل الجسم الرمادى فى ثلاثة مجالات تمثل ثلاثة مستويات مختلفة من الوظائف :

١- المستوى الأول يقوم بتحليل الإشارات الحاسية الواردة . على سبيل المثال : دخلت الجزيئات الخاصة برائحة اللحم أنف الكلب النائم والتصقت بالطبقة المخاطية التى تطلى الأنف من الداخل . حدث تفاعل كيميائى بين هذه الجزيئات والأطراف الرفيعة لعصب حاسة الشم الموجودة بالطبقة المخاطية . نتج عن هذا التفاعل الكيميائى تيار كهربائى ضئيل جداً نقله عصب حاسة الشم إلى مركز حاسة الشم فى الجسم الرمادى للمخ . يقوم عندئذ المستوى الأول الذى نتحدث عنه « بحل شفرة » هذا التيار الكهربائى وبترجمته إلى حقيقته الأصلية وهى « رائحة لحم » .

٢- المستوى الثانى يترجم المعلومة الناتجة عن « حل شفرة » الإشارة إلى ما يناسبها من إجابة ليحول هذا المضمون إلى المستوى الثالث للتنفيذ . مثلاً : هل تتناسب معلومة « وجود لحم » بعملية تكاثر أو بعملية جرى ومصارعة ؟ لا . هذه المعلومة تخص التغذية . بناءاً على هذا التحليل يتم تنشيط الدوائر الخاصة بالعمليات المناسبة .

٣- المستوى الثالث لأداء الجسم الرمادى للمخ هو المستوى الوحيد الذى يهمنا حقاً . يقوم هذا المستوى بعملية تركيب لما يحدث فى جميع المستويات الثانية الموجودة فى المخ . أعطينا مثالاً بسيطاً خاصاً برائحة اللحم . لكن ، فى الواقع ، العملية أكثر تعقيداً من ذلك بكثير ، لأن الإشارات الحاسية الخاصة بالرائحة قد تكون واحدة فقط من عدة إشارات حاسية مختلفة واردة للمخ بخصوص هذه القطعة من اللحم .

قد تكون هناك أيضاً إشارة مرئية خاصة بلون اللحم مثلاً (أحمر = طازج ... الخ) وكذلك إشارة ملمسية خاصة بليونة اللحم إذا كان الكلب قد وضع قدمه على القطعة أو إذا كان قد عض فيها . يقوم المستوى الثالث للجسم الرمادى بتركيب (جمع المعلومات) كل هذه الترجمات لكل المستويات الثانوية المعنية ليصدر حكمه الأخير . فى هذا الحال لا يكون الحكم : « وجود لحم » فحسب ، بل يكون « وجود لحم طازج وصالح للأكل » أو « وجود لحم غير طازج وغير صالح للاستعمال » ... إلخ . فى حالة وجود قطعة من العظم لا يكون الحكم النهائى « وجود عظم » فحسب ، لكن يكون « وجود عظم عليه قطع من اللحم صالح للأكل » أو « وجود عظم قديم وجاف لا يمثل أى جاذبية غذائية » . هذه التركيبات التى يقوم بها المستوى الثالث للجسم الرمادى هى التى تسمح للرجل « ذو الخبرة » أن يقول من نظرة واحدة : « هذه السمكة طازجة وجيدة الطهى وهى صالحة للأكل » . سوف نعود بعد قليل إلى سبب قولى « الرجل ذو الخبرة ... » .

لدى الإنسان :

من المهم أن ندرك جيداً أن الجسم الرمادى للإنسان ، خاصة الجزء الخاص بالمستوى الثالث منه ، أكثر تعقيداً وتكويناً وتركيباً وعلاقات وإنجازاً من جميع الأجهزة العصبية الأخرى الخاصة بجميع الثدييات بما فيها الرئيسات نفسها . من المهم أيضاً أن يعطى القارئ الصفحات الآتية القدر الكافى من اهتمامه ومن تركيزه لأنها أساسية وجوهرية بالنسبة لتحديد المسافة بين الإنسان وباقى المخلوقات التى تعيش على سطح الأرض .

يستطيع المستوى الثالث للجسم الرمادى لمخ الإنسان أن يقوم بالآتى :

١- يستطيع أن يشرك ويجمع بين عدد كبير من التركيبات الحالية التى تحدث فى مراكز المستوى الثانى المختلفة ، أى من التركيبات التى يجريها المخ فى مجالات مختلفة فى الوقت الحاضر .

٢- يستطيع أن يجمع بين تركيبات حالية وخبرته السابقة الناتجة عن تركيبات مضت .

لكى يحكم الرجل الذى تحدثنا عنه منذ قليل على السمكة المشوية من النظرة الأولى بأنها طازجة وجيدة الطهى يجب أن يكون فعلاً رجلاً ذو خبرة . إنه جمع بين التركيبات السابقة لعدد كبير من الأسماك المشوية أكلاها فى حياته الماضية والتركيبات الخاصة بالسمكة الموجودة أمامه حالياً ، حتى استطاع إصدار الرأى السليم بمجرد النظر إلى الطبق . هذه هى المرحلة الأولى من المراحل المميزة لنشاط مخ الإنسان وهى مرحلة « **التعميم** » **(généralisation)** .

وصلنا إذاً إلى القدرة على التعميم . السؤال الآن هو الآتى : كيف نستطيع من منطلق التعميم الوصول إلى تكوين « المعنى » أو « المفهوم » (concept) ؟ إنى أرى أو أكل للمرة الأولى كائناً حياً جسمه أبيض وأملس ومسحوبى ويعوم فى البحر . أرى أو أكل مرة ثانية كائناً يشبه تماماً الكائن السابق لكن لونه بمبا إلى حد ما . فى مرة ثالثة من نفس التجربة يميل اللون إلى البنى . لكن ، فى كل مرة ، كان لهذا الكائن نفس الطعم ونفس الشكل العام وكان دائماً من الكائنات التى تعوم فى البحر . مع تكرار هذه التجربة عدد كبير من المرات ، وبفضل جمع التركيبات السابقة المختلفة التى قام بها الجسم الرمادى فى كل مرة ، وبفضل الجمع بين هذه التركيبات السابقة والتركيب الناتج من التجربة الحالية ، أخذت أُميِّز هذا الكائن وأفرق بينه وبين الكائنات الأخرى التى تطير فى الهواء أو تجرى على الأرض . بدءاً من هذه اللحظة ، بدءاً من لحظة القيام بجمع معقد لتركيبات عديدة بعضها حاضر وبعضها مضى ، أَصِلُ إلى إمكانية تكوين « **المفهوم** » أو « المعنى » . إننى انتقل من التفكير أن « هذه سمكة » (تحديد الشئ الواحد فى وقت واحد وفى مكان واحد) إلى مفهوم « هذا سمك » . هكذا أكون انتقلت من تفكير « هذه قطعة خشب » إلى مفهوم « هذا خشب : الخشب مفيد لكنه قابل الاشتعال » .

لم يكتف هذا الرجل بأن يُكوِّن خبرته الماضية بناءاً على أكل السمك لشوى فقط . إنه أكل أيضاً سمك مقلى وسمك « طاجن » ... إلخ ، بالاضافة إلى أكله أنواعاً من الأسماك المختلفة فى الشكل واللون والحجم

والطعم ، حتى استطاع فى يوم من الأيام أن يصل إلى تكوين فكرة أو مفهوم « السمك » ، وهو مفهوم « تجريدى » (abstrait) لأننا نستطيع أن نلمس ونمسك « بسمكة » معينة أو بعدد معين من الأسماك ، لكننا لا نستطيع أن نلمس أو نمسك « بالسمك » . وبما أن هذا الرجل أكل أيضاً – ضمن المشويات والمقليات المختلفة التى أكلها – لحم بقرى ولحم ضانى ... الخ ، وكذلك فراخ ودندى وبط ووز ، استطاع أن يكون لنفسه **مفاهيماً « تجريدية »** (notions abstraites) تحت عنوان « صنف السمك » و « صنف الطيور أو الدواجن » و « صنف اللحم » ... الخ . إذا فكر وقال « هذه القطعة من اللحم » أو « هذه الفرخة » يكون فكر تفكيراً واقعياً يرتبط بالشئ الموجود أمامه فى تلك اللحظة . لكنه إذا فكر « اللحم » أو « السمك » إنه يفكر تفكيراً « تجريدياً » لأنه يستعمل كلمة تمثل الصنف أو النوع كله وليس واقع معين على شكل قطعة أو وحدة ما منه . عندما يفكر « هذه الفرخة » يفكر فى شئ يستطيع أن يلمسه أو يمسك به . عندما يفكر « الدواجن » إنه يدور فى حلقة المفاهيم التجريدية لأنه ليس هناك شئ اسمه « الدواجن » يستطيع أن يمسك به . لم يمسك أحد « بالدواجن » أبداً ... هذه إذاً هى المرحلة التالية ، مرحلة انتقال الجهاز العصبى الإنسانى المعقد الغنى بالوحدات العاملة والروابط المعقدة التى تربط بينها ، من « التعميم » إلى **« التجريد »** **(de la généralisation au concept et à l'abstraction)** .

قدرة هائلة على « التركيب » فتحت لنا أبواب القدرة على «التعميم» الذى سمح لنا بالوصول إلى « التجريد » . لكن : أليس عالم «التجريد» هو نفس عالم **«التفكير »** ؟ كنتُ فى مرحلة سابقة أقول فقط « هذه الشجرة » و « هذه الكوسى » أو « هذه التفاحة » . أصبحت قادراً على أن أقول « الشجر » و « الخضار » و « الفاكهة » . والآن أستطيع أن أقول «عالم النبات» . أليس « عالم النبات » هذا « فكرة» بالمعنى الكامل للمفهوم الذى لا يرتكز على وجود مادى وملموس؟ نفس عمليات « التركيب » و « التعميم » و « التجريد » توصلنى إلى مفاهيم مثل « الوفاء » و« الإخلاص » و« الصراحة » و « المكر »

و«الخبث» ... الخ . أليست هذه كلها «أفكار» بالمعنى الكامل «للمفهوم» الذى لا يرتكز على وجود مادى ملموس لا فى تكوينه ولا لحظة التعبير عنه ؟

لعل القارئ يدرك المسافة الشاسعة التى قطعها الجسم الرمادى للمخ منذ بداية تحليلنا هذا حتى هذه اللحظة . بدأنا بإشارات بسيطة ومتعددة يسجلها الجهاز العصبى الطرفى ، ووصلنا ، من خلال عدم الغاء هذه الإشارات بل التعامل معها بالطرق المختلفة التى وصفناها ، إلى القدرة على تكوين «الفكر»

لحظة ظهور إمكانية «الفكر التجريدى» تمثل بالنسبة للإنسان نقطة التخلص النهائى من دوائر الغريزة المغلقة والإجابات السابقة البرمجة «المحتمة» وراثيـاً وكروموزومياً . الرجل الذى وصل «للتجريد» هو رجل «يفكر» . التفكير لا يمكن أن يكون سابق البرمجة أبداً . التفكير لا يمكن أن يكون له «حتمية» وراثية أبداً

الحيوان البدائى الأولى الذى لا تناديه ولا تدفعه متطلبات البقاء «ينام» . البقاء هو المبرر الوحيد للنشاط العصبى بالنسبة له . الثدييات المتطورة التى لا تناديها متطلبات البقاء تستطيع تأليف إجابات جديدة غير سابقة البرمجة للإشارات القادمة من الجهاز العصبى الطرفى والغير خاصة بالبقاء . إنها تستطيع أن «تلعب» . الإنسان الذى لا تناديه متطلبات البقاء لا ينام ولا يلعب ، إنه «يفكر» . التفكير هو الخطوة التى «تحرر» الإنسان من «حتمية» الغريزة و«حتمية» إجاباتها التى تخدم البقاء والبقاء وحده

لكنك سوف تقول : «الرجل المفكر يقوم بعملية التفكير مستخدم الجسم الرمادى للمخ ، والمخ نفسه خاضع فى تكوينه وفى إمكاناته لعوامل وراثية واجتماعية وبيئية وثقافية وتربوية ... إلخ . هذه العوامل كلها تمثل «حتمية» لا يستطيع المخ أن يتخلص أو يتحرر منها . هذا الرجل غير قابل للتحرر إذاً » .

إجابتى ، يا عزيزى القارئ : « لا » بل و« ثلاثة مرات لا » . اسمح لى أن أذكرك بأول المبدأين الذين تم نصهما منذ قليل

الإجابات التى « يبتكرها » الجسم الرمادى لمخ الحيوان استجابة للإشارات التى « لا تخص البقاء » خاضعة من حيث فكرتها وفرديتها (originalité) لمستوى الآلة التى تبتكرها ، أى أنها خاضعة لعدد الوحدات العاملة بالجسم الرمادى ولتعقيد الروابط والعلاقات التى تربط بين هذه الوحدات : لكنها غير « محتمة » وغير سابقة البرمجة . إنها تمثل إذاً هروباً من الدوائر المغلقة الخاصة بالغريزة وخدمة البقاء . كل جسم رمادى لكل حيوان « يبتكر » حسب إمكاناته وحسب قدراته ، لكن ما يألفه من إجابات يمثل دائماً تعبيراً لفردية الحيوان لأنه غير « مبرمج » كروموزومياً .

هذا يعنى أن ثروة وعمق ونبل ورقى « الفكر » سوف يخضع دائماً لجودة وثروة العلاقات الخلوية للمخ والوراثة بصفة عامة . جودة الإنجاز سوف يخضع دائماً – ضمن حدود معينة – لجودة الآلة العاملة . لكن لا يجوز « للفكر » نفسه ، فى أى حال من الأحوال ومهما كانت درجة ثروته ونضجه ونبله أو عدمها ، أن ينتج عن برمجة وراثية كروموزومية سابقة . لا يجوز فى أى حال من الأحوال أن يكون « الفكر » « محتم » . أما كثرة انتشار بعض الأفكار فى بعض العائلات ، فهذا يدل فقط على أن الأجهزة العصبية المتقاربة التكوين الوراثى تميل إلى العمل بطريقة متشابهة ، لكن هذا لا يدل على أن هذه الأفكار سابقة البرمجة وأنها « محتمة » التكوين . سنرى فى الصفحات المقبلة المزيد من العناصر المؤيدة لهذا الرأى

يستطيع إذاً مخ الإنسان التعامل و**الأفكار** بينما لا تستطيع الأمخاخ الأقل منه تعقيداً أن تتعامل إلا و**الأشياء** . إن التعامل مع « الشئ » لا يعتمد إلا على تصور هذا الشئ من حيث شكله ومظهره . أستطيع ، إذا فكرت « تفاحة » مثلاً ، أن اكتفى بالتفكير فى شكل التفاحة ولونها

ومظهرها . وإذا أردتُ أن أقول لك « تفاحة » أستطيع أن أكتفى بأن أريك واحدة منها لتفهمنى . أما إذا تعامل المخ بالفكرة وعالم التجريد فإن تمثيل الشئ وتصوره لا يكفيان لإعطاء المعنى . لو فكرتُ مثلاً « صداقة » أو « وفاء » أو « جمال » وإذا أردتُ أن أنقل لك هذه الأفكار التجريدية ، لا بد من اللجوء إلى « الكلمة » . حتى إذا أردت أن أفكر « جمال » لنفسى دون أن أشرك أحداً تفكيرى ، لا بد أن أكوِّن فى مخى كلمة « الجمال » لكى أستطيع أن أتصور هذا المفهوم وأعبر عنه لنفسى . التعامل والأشياء يعتمد على صورة وشكل الشئ . أما التعامل والأفكار فإنه يفترض وجود « كلمة » تمثل الفكرة وتعبر عن مفهومها . عملية « التفكير » تستند على استعمال « الكلام » . هذا الكلام هو ما سماه العلماء « بالحديث الداخلى » . أى « قرار » يتخذه الإنسان فى وحدة وفى سكون غرفته المغلقة ، يتخذه عن طريق اللجوء إلى « الحديث الداخلى » . الحيوان لا يفكر . الحيوان لا يتخذ قرارات . الإنسان فقط يفكر ، يتخذ قرارات ويستعمل الحديث الداخلى . بهذا المعنى إن الإنسان هو الكائن الوحيد القابل « للتحرُر » على وجه الأرض . « الكلام » ، أى القدرة على الحديث الداخلى والقدرة على تبادل الحديث والأفكار مع الآخرين ، يمثل دليلاً عصبياً علمياً فسيولوجياً إضافياً فى صالح إثبات قدرة الإنسان على « التحرر التدريجى » . من المثير أن نذكر هنا العلاقة الوثيقة الموجودة بين تطور « الكلام » وتطور إمكانات الإنسان العصبية خلال حياته .

لنعد إلى تسلسل الأحداث حيث تركناه خاصة وأن هذا كله لم ينته بعد . خطواتنا السابقة مرت بالتركيب فالتعميم فالتجريد فالفكر فالحديث . مع مرور الوقت وتعدد التجارب تزداد قدرة المخ على التحليل والتركيب . يبدأ المخ يفكر ويقارن بين تأثير التفاح على الجوع وعلى صحة الإنسان وبين تأثير لذعة العقرب على الجلد وعلى صحة الإنسان . من ناحية أخرى ، إن المخ يعرف أشياء كثيرة تأثيرها على الصحة مثل تأثير التفاح ، وكذلك أشياء كثير أخرى تأثيرها مثل تأثير لذعة العقرب . سرعان ما يصل المخ ، بفضل قدرته على التعميم ومن

خلال المقارنة بين مجموعة من النتائج ومجموعة أخرى من النتائج المختلفة أو المضادة ، إلى مفهوم « **الجيد** » ومفهوم « **السيئ** » . الوصول إلى مثل هذه المفاهيم يمثل « تقييماً » للأشياء وللأوضاع . لقد وصل إذاً مخ الإنسان إلى القدرة على « **التقييم** » . سرعان ما يترتب على هذه القدرة على « التقييم » تدرجاً يمثل أولويات فى الاختيارات والميول . سأفضل دائماً ما هو جيد جداً على ما هو جيد ، كما أفضل الجيد على المتوسط والمتوسط على ما هو أقل من المتوسط حتى أرفض ما هو سيئ رفضاً نهائياً . قد أخطأ فى تقييمى للأشياء وقد يترتب على هذا الخطأ تدرج اختيارات وأولويات غير صحيح وغير سليم . يرجع ذلك إلى أن مخى ، وخاصة الجسم الرمادى ، قابل للخطأ . بهذا المعنى إنى ما زلت تحت سيطرة العوامل الوراثية فيما يخص جودة الأداء لأن تكوين المخ وقدراته خاضعة لحتمية الوراثة . أما « التدرج التقييمى » الذى وضعته لنفسى ، سواء كان صحيحاً أو لا ، سواء كان سليماً أو لا ، لا يجوز فى أى حال من الأحوال أن ينتج عن برمجة سابقة مبنية على « حتمية » الدوائر المغلقة للغريزة والوراثة . حذار من أن ننسى المبدأ الأول الذى وضعناه منذ قليل .

فى حياتى أفعال أفتخر بها وأخرى أخجل منها . أريد أن يعلم الناس عن الأشياء التى أفعلها وأفتخر بها كما أتمنى أن يجهل الناس الأشياء التى أفعلها وأخجل منها . إذا قمت بتركيب مفهومى « الجيد » و « السيئ » من ناحية وإحساسى بالفخر أو بالخجل بما أفعله من ناحية أخرى ، أصل إلى مفهومى « **الخير** » و « **الشر** » على أن يكون « الخير » هو « الجيد » الذى أفتخر به و« الشر » هو « السيئ » الذى أخجل منه . إنى أؤيد الخير وأعارض الشر . هذا لا يعنى بالطبع أننى قادر على أن أفعل فى كل مرة ما أريد أن أفلعه وما اختار أن أفعله . هذا يعنى فقط أن هناك مفهوم جديد ظهر إلى الوجود : مع القدرة على التقييم وتأييد الخير ومعارضة الشر ظهرت « **الخُلُقية** » La Morale .

إن ظهور « الخُلُقية » يمثل خطوة إضافية هامة فى التحرر من حتمية الغريزة وحتمية الإجابات المبرمجة لخدمة البقاء .

يجب أن نلاحظ هنا أيضاً أن مستوى خُلُقية الشخص خاضع لمستوى أداء المخ لوظائفه . لكن في جميع الأحوال لا يمكن أن تمثل « الخُلُقية » نفسها أبداً إجابة سابقة البرمجة ، محتمة الحدوث . المبدأ الأول ما زال قائماً . في الواقع ، لا توجد خُلُقية واحدة بل خُلُقيات مختلفة :

١- هناك خُلُقية ثابتة موجودة بصفة عامة لدى جميع الآدميين وتسمى « بالخُلُقية الأساسية » .

٢- هناك خُلُقية تقوم بناءً على التأثيرات الاجتماعية الخاضع لها الإنسان وتسمى « بالخُلُقية الاجتماعية » . تختلف الخُلُقية الاجتماعية لفرد من أفراد قبيلة « الزولو » عن الخُلُقية الاجتماعية « للإسكيمو » .

٣- هناك خُلُقية تتكون نتيجة لخبرة الإنسان الشخصية في الحياة والظروف المختلفة التي يمر بها . هذه هي « الخُلُقية الفردية » . سببها أن الخبرة الشخصية لرجل كافح على مر سنوات طويلة لتحقيق جزء من أهدافه لا تقارن بخبرة رجل وفّرت له الحياة وسائل الراحة منذ ولد .

مستوى خلقية الفرد ليس خاضعاً لحتمية تكوين مخه الوراثي فحسب ، لكنه خاضع أيضاً لتأثير الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ولخبرته الشخصية في الحياة . لكننا لا نستطيع أن نختار الوسط الاجتماعي الذي نعيش فيه حياتنا ولا نوع هذه الحياة . **تأثر هذه العوامل كلها على نوع ودرجة إحساسنا بالخُلُقية وعلى درجة قدرتنا على تطبيق وتنفيذ الإجابات التي تقترحها علينا هذه الخُلُقية . أما الإجابات والاقتراحات نفسها ، يستحيل أن تكون محتمة الحدوث وسابقة البرمجة الكروموزومية لأنها إجابات جديدة يؤلفها الجسم الرمادي للمخ خارج دوائر حتمية الغريزة وخدمة البقاء تماماً .**

عاش الإنسان البدائي تحت رمز « الخضوع » . تحمل دائماً . تحمل الرعد والصاعقة ، تحمل الجوع والعطش ، تحمل تغييرات المناخ وعداء الوسط المحيط به وقلة الحظ . تحمل « الخوف » . علمته خبرته

السابقة أنه يستطيع تهدئة غضب عدو أقوى منه عن طريق تقديم الهدايا . كان إذاً من البديهى أن يقدم القرابين والعطاءات للقوات الخارقة العمياء التى خضع لها وخافها . ماراً بـ « **إلهام** » بالقوى الكونية ثم بتقديم **القرابين والرتب** ، تحول الخوف تدريجياً إلى **تعظيم** أولاً ثم إلى **عبادة** . تركيب العبادة والخليقة أدى إلى ظهور **الدين** . اختلف مفهوم الله مع اختلاف الحضارات التى عرفها الإنسان . الاله الذى يعبدونه الذين يعيشون فى خوف كبير إله مخيف وجبار ، يتربص للإنسان حتى يدفع لأخطائه ثمناً غالياً عسيراً . الاله الذى يعبدونه من هم أقل خوفاً من السابقين إله عادل ، يحاسب الإنسان على أخطائه فيعاقبه ، لكنه يكافئه أيضاً على حسناته ، الاله الذى يعبدونه الذين يفكرون أن الله يريد أن يذهب إليه الإنسان بإرادته وبدون ضغوط أو قيود إله محبة ، يحب الإنسان ويريد أن يبادله الإنسان محبته . هذا هو التاريخ الدينى للانسان منذ بداية البشرية حتى ظهور الديانات الحديثة المعاصرة ، ماراً بكل العقائد وكل الميول الروحية التى عرفتها الإنسانية . إن دراسة كل خطوة من هذه الخطوات فى غاية الإثارة ، إلا أنها ليست مجال بحثنا هذا . **لنكتف بالإشارة إلى الآتى : من تركيب الخلقية والتجربة اليومية نبعت الدينات المختلفة والشعور بوجود الله** .

ها هو أمامنا الآن المخ الآدمى كاملاً . يحتوى هذا المخ على برمجة كروموزومية ورثية كاملة تمثل محصلتها « حتمية » الغريزة التى يخضع لها الإنسان . يستطيع أيضاً هذا المخ ، بفضل المنتج الجديد الذى نتج عن تعقيد العلاقات بين وحداته العاملة وتركيباتها الجديدة (ليعد القارئ إلى مفهوم « المنتج الجديد » الموضح فى الفصل الأول) الخروج من حتمية الإجابات السابقة البرمجة الخاصة بالغريزة والتى تخدم البقاء وتأليف الإجابات الجديدة الغير مسبقة البرمجة والخاصة به وبه وحده . يستطيع إذاً هذا المخ أن يتحرر من حتمية الوراثة والغريزة . اتفقنا على أن مستوى الأداء والقدرة على التحرر يخضعان دائماً – وهناك فرق جذرى أساسى شاسع بين « خاضع » و « محتم » – لجودة

الآلة التى تقوم بالأداء (المخ) ولتأثيرات البيئة والمجتمع والخبرة الشخصية للإنسان . لنحاول الآن الآتى :

١- تحديد السيناريو الخاص « بالحتمية » وتحديد السيناريو الخاص « بالتحرر » .

٢- تحديد كيفية تعايش وتعامل الإنسان وهذين السيناريوهين ، وهذا يعنى تحديد النماذج البشرية المختلفة الموجودة بناءاً على وجود هذين الاحتمالين .

السيناريو الخاص بكل من « الحتمية » و « التحرر » :

١- جميع الإجابات الخاصة بسيناريو « الحتمية » التى تخدم البقاء مبنية على الترتيب الآتى فى الأولويات :

أ - « أنا » أولاً .

ب- « المجموعة » فى المرتبة الثانية مباشرة لأنها تحمينى (تحمى « أنا ») .

جـ- « الفصيلة » أو النوع أخيراً لأنها تحمى وتضمن بقائى واستمرارى .

(كل ما هو خاص بالترتيب النقرى والسيطرة والتدرج الاجتماعى الوارد فى الفصل الثالث والخاص بالدوافع الداخلية الخفية التى تحرك الإنسان يمثل ما سبق تمثيلاً ويفسره تفسيراً يستغنيان عن شرح أو توضيح) .

٢- خدمة البقاء ما هى إلا نوع من أنواع « البحث عن الذات » . الإدراك بالخير والشر وبالدين ، و« **الضمير** » الذى ينتج عن تركيب هذه العوامل ، يقترحون على الإنسان تصرفاً يختلف بل ويتعارض تماماً مع خدمة البقاء والبحث عن الذات . فى جميع الأحوال ومهما كانت الظروف سوف أجد نفسى دائماً وفى كل مرة أمام « ما أريد أو أتمنى » أن أفعله من جهة ، وما « أعرف أو أشعر فى قرار نفسى أنه يجب » أن أفعله من ناحية أخرى . هناك بعض الحالات النادرة التى يصدف فيها التوافق بين ما « أميل إليه » وما « يجب أن » أفعله . هذه

هى المرات النادرة التي يتفق فيها ميولى الطبيعى واقتراحات الضمير والخلقية والدين . لكن فى جميع الحالات الأخرى ، سوف يجذبنى ميولى الطبيعى إلى البحث عن ذاتى وخدمة البقاء واشباع متطلباته ، بينما يملى على الجزء « المتحرر » من مخى (من الجسم الرمادى) اقتراحات وواجبات جديدة من تأليفه ، تتعارض مع ميولى الطبيعى وتسير فى اتجاه عكسى تماماً . جميع السيناريوهات الخاصة «بالتحرّر» تضع الإنسان أمام ضرورة « **الاختيار** » . من الخواص المميزة «للتحرر» إجبار الإنسان على « الاختيار » . الإنسان الوحيد الذى لا يواجه ضرورة الاختيار هو الإنسان الأكاديمى النظرى الغير موجود حالياً والكامل « التحرر » . هذا الرجل الوهمى يتصرف بكامل « حريته» دون أن يُجْبَر على الاختيار لأن تحرره الكامل يلغى جميع الإشارات الخاصة بالبقاء والغريزة وخدمتها . وضْعْ هذا الرجل الكامل التحرر هو عكس وَضْعْ الحيوان الأولى الذى لا يعرف سوى تلبية أوامر « الحتمية » تماماً . إنه لا يعرف سوى تلبية نداء « التحرر » فقط . سوف نرى سيناريو « الاختيار » بعد قليل عندما نرى النماذج البشرية الموجودة بناءاً على وجود « الحتمية » و « التحرر

رجل آخر لا يواجه ضرورة الاختيار هو الرجل الكامل التحرر الذى اختار نهائياً أن يعيش ليبحث عن ذاته فقط وليبحث عن البقاء وإشباع الغرائز التى تخدمه . ألغى هذا الرجل وجود « الآخر » من حياته تماماً ونهائياً . لا مكان فى ذهنه وقلبه ومشاعره إلا لنفسه ولنفسه فقط . هذا الرجل تجسيم « للرفض » على الأقل ، إن لم يكن تجسيماً للشر . يحلو لى التفكير أنه لا يوجد مثل هذا المخلوق على وجه الأرض .

النماذج البشرية الموجودة بناءًا على السيناريوهات السابقة :

لنحاول أن نفهم أولاً قطبى التصرف الإنسانى ، القطب الأول الممثل فى حالة التخلف العقلى الشديد ، والقطب الثانى الممثل فى الإنسان الكامل « التحرر » الذى وصفناه منذ قليل . سوف يساعدنا ذلك

على إدراك مدى اختلاف النماذج البشرية الموجودة بين هذين الطرفين .

فى حالة التخلف العقلى الشديد لا يألف الجسم الرمادى ولا يقترح على الإنسان أى إجابات جديدة خارجة عن حتمية الإجابات السابقة البرمجة الكروموزومية . يتصرف هذا الإنسان وفقاً لحتمية الغريزة . إن مخ هذا الإنسان لا يتمتع بالخاصة المميزة للمخ الآدمى . لا يواجه هذا الإنسان ضرورة « الاختيار » أبداً .

الرجل الكامل « التحرر » لا يواجه ، هو الآخر ، ضرورة الاختيار . إن الدوافع الناتجة عن الإجابات السابقة البرمجة لا تزن شيئاً فى ميزان تصرفاته . رؤيته صافية وهو يلقى على الأشياء والعالم والكون نظرة لا يلونها أى نداء نابع من حتمية الإجابات التى يولّدها الإحباط أو الغيرة أو حُب السيطرة أو أى عامل آخر من العوامل الغريزية الخفية التى تعمل فى باطن الإنسان المتوسط العادى . **إنه يعيش فى « انسجام » كامل مع نفسه أولاً ثم مع الكون كله ، وهذه « السوية » تجعله يعرف دائماً وبدون تردد ما يجب أن يقرره ويفعله فهو يقرر ويفعل ذلك فعلاً بكل تلقائية واتزان .** إنه لا يعرف النزاع الداخلى الناتج عن نداء ميلين متناقضين فى الاتجاه لأن لا مكان فى سيكولوچيته لميلين متناقضين . ميول واحد فقط له وجود بالنسبة له وهو الميول الناتج عن ممارسة « تحرره » . هذا الميول ، أى ميول « التحرر » ، هو الذى سنحاول الآن تحديده وتعريفه . فى الواقع ، إن هذا الإنسان يعيش فى قطب مختلف تماماً عن القطب الذى يعيش فيه الإنسان الذى تسيطر عليه نداءات حتمية الغرائز وخدمة البقاء . إن سيناريو تصرف هذا الرجل الكامل « التحرر » بالمقارنة بالسيناريو السابق الخاص « بالحتمية » يعطى ما يلى ، **وما يلى هو فى الواقع تعريف سيناريو « التحرر » الذى كنا نبحث عنه :** (لنتذكر أن السيناريو الأول كان مبنياً على « أنا » الأول ، ثم « المجموعة » ثم « الفصيلة » .

١- « الآخر » أولاً بدلاً من « أنا » أولاً . انعكست هنا الأولوية رأساً على عقب .

٢- مفاهيم « المجموعة » و « الفصيلة » تفقد معانيها للسبب الآتى : من لحظة انعكاس الأولويات ، أى من لحظة وضع « الآخر » قبل « الذات » وقبل « أنا » ، من لحظة إعطاء سعادة وتحقيق ذات « الآخر » الأولوية على سعادة وتحقق الذات ، يبدأ الإنسان يشعر «بالمسئولية» . (كلمة أخرى بالخط الثقيل نمر بها مر الكرام بالرغم من أنها تمثل حقلاً مثيراً جداً للتفكير والبحث) . هذا الإحساس بالمسئولية يفوق ، وبكثير ، حدود المجموعة أو الفصيلة . إنه إحساس يخص الأرض بل الكون كله ، وسوف يهتم ويساهم ويشارك هذا الرجل فى مجالات مثل مكافحة تلوث الكرة الأرضية والفضاء ، وإنقاذ الحيوانات المهددة بالانقراض ... الخ ، وسوف « يتألم » ... لأن الألم هو ثمن المسئولية : ليس الثمن الذى يدفعه الشخص المسئول لكن الثمن الذى يتقاضاه ... كتب لى صديق مؤخراً : « هل حكم علينا ، نحن الذين نشعر بالمسئولية ، بالألم والتَّعذيب ؟ أنحن من عشاق العذاب (masochistes) كما يدعى البعض ؟ أليس من الأفضل أن نعود إلى حسابنا بالبنك وننشغل فى مصالحنا الشخصية ونترك الباقى كله وننساه ... بدلاً من أن يسألنا دائماً الذين لا يفهموننا ولا يقدرون دوافعنا عما هى « مصلحتنا » من وراء ما نفعل ، لأن مقياسهم الوحيد للتصرف الإنسانى هو « المصلحة » ؟ ها هى صرخة الرجل المسئول ... ما هى وحدة الرجل المسئول ... لو كان هذا الرجل كاملاً مثل كمال الرجل الذى كنا نتحدث عنه منذ قليل ، لكانت الوحدة والآلام قضت عليه . كان مات الرجل وحدة وألماً ... متحملاً متطلبات واحتياجات « الآخر » والعالم كله ... لتَحْمِلْ هذه الأسطر إجابة لصديقى ولجميع الأصدقاء الذين لا أعرفهم: «نعم .المسئولية تفترض الألم . لا . الرجل المسئول ليس عاشقاً للعذاب (masochiste) لأنه لا يقبل العذاب ولكنه يرفضه بكل قوته . إن الشعور الذى ينتج عن أداء الواجب واحترام المسئولية شعور براحة البال وارتياح النفس . يختلف هذا الشعور كل الاختلاف عن المتعة الناتجة عن إشباع الشهوات الطبيعية » .

ماذا هناك بين هذين الطرفين ؟ ماذا بين المتخلف العقلى الشديد التخلف الذى يمثل سيناريو « الحتمية » ، والرجل الكامل التحرر والنضج الذى يمثل سيناريو « التحرر » ؟ هناك « نحن » . نحن الذين نمثل البشرية فى مسيرتها إلى « التحرر » ، التحرر الذى أنتج مثل هذه الصفحات ، التحرر الذى ينادى إلى المساهمة في تحقيقه .

السيناريو الخاص بالرجل العادى المتوسط الممثل فينا كلنا :

يواجه فى أغلب الأحيان الرجل العادى المتوسط ميلين مختلفين بل ، كما رأينا من قبل ، متناقضين فى الاتجاه والنتيجة : الميول الأول هو الميول الممثل فى سيناريو « الحتمية » المبينة على البرمجة الكروموزومية الوراثية السابقة وأولويتها « أنا » قبل أى اعتبار آخر ، والميول الثانى الممثل فى سيناريو « التحرر » المبنى على الاجابات الجديدة الغير سابقة البرمجة النابعة من الجسم الرمادى ، والمبنية على أولوية « الآخر » قبل « أنا » . سواء اعتبرنا رجلاً وزوجته عندما يريد كل منهما رؤية فيلم سينمائى مختلف أو سواء اعتبرنا قرار القفز فى عاصفة البحر لإنقاذ الغريق ، سواء نظرنا إلى التفاصيل الصغيرة الخاصة بالحياة اليومية أو سواء نظرنا إلى المبادئ الأساسية والقيم الهامة ، المبدأ واحد وثابت لم يتغير ولن يتغير . هناك جملة كثير ما بُنِيَتْ عليها قصص وروايات وكثير ما أُخْرِجَت بناءاً عليها أفلاماً سينمائية ، تعبر خير تعبير عن هذا الوضع وعن هذا التناقض فى الميول الداخلية التى تحركنا ، وهى « لكل رجل ثمن » . يجب أن تُفْهَمَ هذه الجملة على أن كل رجل ، مهما كانت قوة مبادئه وصلابة عزيمته، يمكن غالباً إفساده إذا قُدِّمَ له الثمن المناسب . قد يختلف هذا الثمن اختلافاً كبيراً من شخص إلى آخر ... مع حفظ المبدأ للأسف ... هذا المعنى يعطينا مثالاً جيداً لتوضيح نقطة الاتزان بين سيطرة الميول الغريزى ، أى الميول « الحتمى » الذى يخدم البقاء ، وسيطرة الميول العكسى ، ميول « التحرر » وخدمة « الآخر » والدين والخلقية والمبادئ والضمير . لنرى كيف يتم ذلك .

أولاً : فى هذا المثال الأول الثمن المقدم لشراء ضمير ومبادئ الإنسان ليس بثمن مغرى الإغراء الكافى ليحرك دوافع الغريزة والاهتمام الشخصى . يقترح الجسم الرمادى للمخ إجاباته « المتحررة » السامية النبيلة التى تدافع عن الآخر والدين والخلقية ، وهذه الإجابات قوية لدرجة تكفى للسيطرة على الموقف ومنع الشخص من الوقوع فى فخ الفساد . ليس هناك أى نزاع بين ميلين مختلفين : يعلم الرجل ما يجب أن يفعله فيفعله بدون تردد .

ثانياً : ارتفع الثمن المعروض (قد يكون الثمن مالاً أو منصباً أو امتيازات ... الخ) حتى أصبح مغرياً جداً . ما معنى « مغرياً جداً » ؟ هذا يعنى أن الثمن المعروض أخذ يثير الدوافع الغريزية (إشباع الرغبة فى الامتلاك أو فى القوة أو فى السيطرة أو فى المتعة ... الخ) حتى أخذت ترفع صوتها : يخسر البقاء خسارة كبيرة إذا رفض مثل هذا الثمن وتجاهله . يقاوم الجسم الرمادى بكل قوة ولا يستسلم حتى تستطيع أخيراً وبعد جهود كبيرة أن تسيطر المبادئ وأن يتغلب « التحرر » على دوافع « حتمية الغريزة » .

ثالثاً : ارتفع الثمن المعروض مرة أخرى وارتفع معه صوت « البقاء » والغريزة عالياً . ما زالت اقتراحات « التحرر » قوية ، لكن الإنسان أخذ يناقش الوضع ويضع فى اعتباره جميع الاحتمالات : « المبادئ جميلة وضرورية ، لا شك فى ذلك . لكنى فى أمس الحاجة إلى هذا المبلغ (أو المنصب ، أو الامتياز ... الخ) . هل تفيدنى المبادئ مستقبلاً إذا واجهت أزمة هامة ؟ ألا يجب أن أضع باقى أفراد العائلة فى الاعتبار ؟ هل يحق لى أن أحرمهم من هذه الميزات كلها باسم المبادئ ؟ أليس لديهم حقوق كذلك ؟ ألستُ لدىّ واجبات تجاههم أيضاً ؟ » . وهذه بداية « المساومة » . يجب أن يبرر الإنسانَ دائماً نفسه حتى أمام نفسه لأنه لا يستطيع أن يعترف بكل بساطة أنه قرر أن يكون جباناً وأن يتنازل عن مبادئه وقيمه . إذا تكافأ الميلان قوة وشدة كانت النتيجة « النزاع الداخلى » ، أى التمزق بين الرغبة فى تنفيذ ميول البقاء وتنفيذ ميول التحرر فى نفس الوقت . إذا كانت القيم المتداخلة فى هذا النزاع الداخلى

قيم بسيطة لا تأثير لها على حياة الإنسان ، كان التناقض الداخلى ضعيفاً ولا يؤدى إلى اضطرابات نفسية . أما إذا كانت القيم المتداخلة فى الموضوع هامة تترتب عليها نتائج كبيرة قد تغير من حياة الشخص وأفراد عائلته ومن مستقبلهم ، حينئذ يمكن أن تكون نتيجة هذا النزاع الداخلى اضطراب الاتزان النفسى للشخص قد يصل فى بعض الأحيان إلى المرض العقلى . دائماً ما يكون « النزاع الداخلى » بين ما يريد أو يتمنى الإنسان أن يفعله وما يعرف الإنسان جيداً فى قرار نفسه أنه يجب أن يفعله ، على أن يرتكز الميول الأول (ما يريد أن يفعله) على أولوية « أنا » وخدمة البقاء ويرتكز الميول الثانى (ما يجب أن يفعله) على أولوية « الآخر » وخدمة الضمير والخلقية والمبادئ والدين .

من الجدير بالذكر هنا أن الحيوان أيضاً يستطيع أن يعيش « النزاع الداخلى » . استطاع العلماء توليد تناقض داخلى فى بعض الحيوانات فى المعمل فى درجة من الشدة والعنف أدت إلى الجنون والتشنج العصبى . لكن الحيوان لا يستطيع أن يعيش سوى نزاع داخلى بين ميلين كليهما فى خدمة البقاء . ها هى تجربة من التجارب التى أجريت فى هذا المجال . يستطيع القط فى قفصه أن يحصل على طعام إذا لمس بقدمه مربعاً أحمر اللون . أما إذا لمس المربع الآخر الأزرق اللون فإنه يصاب بصدمة كهربائية . مع تبديل وظيفة المربعين وضبط شدة الصدمة الكهربائية لتتناسب مع الإحساس بالجوع المتزايد الذى يشعر به القط استطاع العلماء إصابة الحيوان بآخر درجات الجنون . النزاع الداخلى الذى عاشه هذا القط هو التناقض بين الرغبة فى تناول الطعام لإشباع الإحساس بالجوع (خدمة البقاء) والرغبة فى الهروب من احتمال الصدمة الكهربائية والألم الذى تسببها (خدمة البقاء أيضاً) . **الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى يستطيع أن يعيش نزاعاً داخلياً مبنى على التناقض الموجود بين ميول سببه حتمية الغريزة وخدمة البقاء من جهة ، وميول آخر « متحرر » غير محتم ، أولويته « الآخر » وخدمة المبادئ والخلقية والدين من جهة أخرى .** الإنسان هو المخلوق الوحيد

الذى يستطيع أن يعيش نزاعاً داخليا مبنى على التناقض الموجود بين ميول نابع من دوافع كروموزومية غريزية سابقة البرمجة وميول آخر نابع من أداء الجسم الرمادى للمخ وظيفته وتأليفه إجابات جديدة وفريدة تمثل « التحرر » وخدمته .

رابعاً : ارتفع الثمن مرة أخرى حتى كاد يصبح خرافياً . استطاعت دوافع « الحتمية » أن تزيل إزالة تامة كل اقتراحات الجسم الرمادى والتحرر . حُقِّقَ مستوى الإفساد . يسلك الشخص مسلك تنفيذ « حتمية » الغريزة وإشباع متطلباتها وغالباً ما يحصل على الثمن المعروض ... يحقق طموحاته المبنية على إشباع الشهوات الطبيعية وسيادة « أنا » على كل الاعتبارات الأخرى . لكن ذلك يتركه أخيراً بطعم الفشل بالرغم من حصوله على ما كان يتمنى الحصول عليه ، وبمرارة العجز عن الصمود واحترام المبادئ والمثاليات التى يشعر فى قرار نفسه أنها كانت تمثل الأولوية الحقيقية التى كان عليه احترامها .

يجب أن نعود الآن إلى الخلف ونتذكر المبدأ الثانى الذى ذكرناه والذى كان يخص المرحلة من الثدييات حتى ظهور الإنسان .

نادراً ما تتعارض الإجابات الجديدة التى يألفها الحيوان ومتطلبات البقاء ممثلة خطورة بالنسبة له أو للمجموعة أو للفصيلة أو النوع . إذا فرضنا وحدث ذلك عفواً ، سرعان ما تولد إشارات خاصة بهذا الخطر نتيجتها إطلاق الأوامر الخاصة بتنفيذ إجابات أخرى سابقة البرمجة ، تعيد الأحوال إلى مجراها الطبيعى وتزيل الخطر الذى ولدته الإجابة المؤلفة الجديدة .

نلاحظ أن ما كان صحيحاً بالنسبة للثدييات عموماً لم يعد صحيحاً فيما يخص الإنسان :

المستوى الثالث للجسم الرمادى لمخ الإنسان ، بسبب التغيير الذى طرأ فى اختيار الأولويات وعكسها تماماً عما كانت عليه من

قبله ، لا يألف فى الواقع سوى إجابات تتعارض تمامًا واحتياجات البقاء . كل الإجابات التى يقترحها الجسم الرمادى تخدم « الآخر » والخلقية والدين . إنها توفر للإنسان المسئول نوعًا من السعادة ولكنها تعرضه أيضًا للألم ولمواجهة صعوبات كثيرة ، وتدفعه إلى اختيارات تمثل بالنسبة للامتلاك والقدرة والسيطرة والتمتع وكل أبعاد « البقاء » بصورة عامة ، خطر المحو والفناء والموت .

كل هذا باسم توظيف عصبى متحرر من حتمية الإجابات السابقة البرمجة ... ماذا يعنى كل هذا ؟

هذا يعنى أن كل منا ، حسب درجة ومستوى « تحرر » جهازه العصبى المركزى ، يتمتع بقدر معين من الإحساس بالمسئولية يجعله أكثر أو أقل ميولاً إلى اتخاذ القرارات وتبنى الاختيارات التى تعطى الأولوية للخليقة والدين والآخر ، بالرغم من أننا على دراية كاملة وعلم أكيد بأن هذا التصرف وهذه الاختيارات تتعارض تماماً والاختيارات التى تعطى الأولوية للنفس والسيطرة والامتلاك والقدرة والبقاء . لكن : أليس ما نقوله الآن هو نفس تعريف « النضج » الأنسانى ؟ إذا كان الإنسان الناضج فعلاً هو الإنسان المسئول الذى ينطبق عليه ما سبق ، يمكننا أن نقول إذاً أن :

١- درجة « النضج التى يحققها الإنسان تتناسب ودرجة « تحرر » جهازه العصبى .

٢- أولوية « الآخر » على « أنا » تسبب « عطاءً » وقدرة على التضحية . هذه القدرة على « العطاء » تمثل « منتجًا » جديدًا لتعدد الوحدات العاملة بالجسم الرمادى للمخ وتعقيد الروابط والعلاقات بين هذه الوحدات بعد ظهور « التفكير » ثم « الخلقية » ثم « الدين » ... وأخيرًا وليس آخر : « الآخر » .

٣- إذا كان « النضج » يتناسب ودرجة « التحرر » وإذا كان « العطاء » نتيجة طبيعية ومنتجًا طبيعيًا للنضج ، إذًا

« العطاء » صفة من الصفات المميزة للمخ « المتحرر » أى المخ « الناضج » . العطاء هو إذاً الموهبة الطبيعية لكل شخص ناضج ومتحرر .

٤- أثبتنا أن العطاء بصفته نتيجة طبيعية للتحرر والنضج يدور فى مجال يتعارض تماماً واحتياجات البقاء وحمايته . العطاء يضع إذاً البقاء فى خطر . التحرر والنضج يضعان إذاً البقاء فى خطر . نقول إذاً أن الشخص الناضج المتحرر المسئول الذى يمارس عطاءاً حقيقياً ، يجازف - ويوافق على المجازفة - بحياته نفسها .

لا توجد « حرية » بالمعنى الذى يناقشه الفلاسفة . إن هذه الحرية تفترض أن يكون الإنسان قادراً على الاختيار قبل أن يولد لكى يختار بحرية كاملة نوع المخ الذى يريده وكذلك الأوساط العائلية والثقافية والاجتماعية والدينية التى سوف يعيش فيها . لذلك ، إن الحرية استحالة. الحرية « مفهوم » فقط . لا توجد « حرية » . الشئ الوحيد الموجود الذى يمكن الاعتماد عليه لأسباب علمية هو إمكانية « التحرر التدريجى » للإنسان . يكفى أن نقارن بين وجود « الرأى » والقدرة على « الاختيار » (المبينة هى نفسها على وجود الرأى) الموجودين لدى المولود الجديد ثم لدى الطفل ثم لدى المراهق ثم لدى البالغ المتوسط النضج ثم لدى البالغ الناضج فعلاً وتماماً ، لنقتنع بوجود تدرج فى التحرر . هذا التدرج الذى وصفناه يمر به كل إنسان خلال حياته من لحظة ولادته حتى وصوله إلى أفضل درجة نضج يستطيع أن يحققها تلقائياً من خلال تطوره الشخصى . **إنى اقترح أن يقرر المراهق وكذلك البالغ المساهمة الإرادية الفعالة فى مجال « التحرر التدريجى » الذى يمر به تلقائياً ببذله الجهود فى مجالات التفكير والفهم والإدراك ثم محاولة التحكم والسيطرة على الدوافع التى تعرقل مسيرة هذا التحرر وتحد من ازدهاره .** يكفى أن « يقرر » و « يحاول » المراهق وكذلك البالغ دون أن يفترض القرار أو تحتم المحاولة عليهما إنجاز « نتيجة » محددة . سنرى بعد قليل

سبب قولى هذا . فى استطاعة الإنسان أن يترك مخه لإمكاناته الطبيعية، وفى استطاعته أن يقرر محاولة استثمار ومضاعفة هذه الإمكانات باختياره تصرفات وأولويات تتماشى ودرجة أفضل من التحرر التلقائى الذى حققه طبيعياً .

الحديث عن « التحرر التدريجى » يفترض شيئين :

١- وجود حدود معينة أمارس داخلها هذا « التحرر » .

٢- إمكانية إحداث تغييرات ضمن هذه الحدود .

أولاً : وجود حدود أكون ، حرًا ، داخلها :

- أحمل فى تكوينى الخلوى « حتمية » الغريزة التى تخدم البقاء .
- « أخضع » فى كل أداء لجودة الآلة التى استخدمها وهى المخ .
- أقع تحت « تأثير » الوسط الاجتماعى والثقافى الذى ولدت وأعيش فيه .

هذه النقاط الثلاثة تمثل « هامشاً » ، تمثل « حدوداً » لحيزى الذهنى فيما يخص ممارستى لحريتى . إنى أعيش خبرة وأمارس إمكانية « الاختيار » فقط ضمن هذه الحدود وداخل هذا الهامش . هذا لا يمنع أننى أواجه - داخل وضمن هذه الحدود وهذا الهامش - ضرورة « الاختيار » بين ميول غريزى سابق البرمجة ويخدم البقاء ويخدم « أنا » ، واقترح تصرف جديد غير سابق البرمجة ، مضاد للميول الأول فى كلا الاتجاه والنتائج ، حيث أنه يخدم « الآخر » ويضع البقاء والذات فى خطر . إن « ما أريد أن أفعله » و « ما أعرف أنه يجب أن أفعله » دائماً خاضعان وواقعان تحت تأثير عوامل لا أستطيع التحكم فيها والسيطرة عليها . لكن سيكون دائماً هناك « ما أريد أن أفعله » و « ما أعرف أنه يجب أن أفعله » وسأكون دائماً مضطر للاختيار بينهما . مهما زادت الاختلافات السيولوچية بين الإنسان اليابانى المتوسط والإنسان البرازيلى المتوسط ومهما سببت هذه الاختلافات من فروق فى قواعد وأساليب العطاء والأنانية بينهما ، لا شك أن كلاهما يعيش يومياً « نزاعاً داخلياً » بين هذين الميلين .

ثانياً : وجود إمكانية إحداث تغييرات فى درجة « التحرر » الشخصى داخل هذه الحدود :

نفى إمكانية إحداث إرادى لتغييرات فى درجة « التحرر » ضمن الحدود التى سبق وصفها عبارة عن نفى معنى « **المجهود** » ونفى معنى الدافع الذى يحركنا فى اتجاه بذله . إذا أدركت فعلاً معنى « التحرر » و « النضج » وإذا اقتنعت بصحة الطريق الذى يسيران فيه ، ليس هناك ما يمنعنى من بذل كل الجهود الممكنة للسير فى نفس الاتجاه واحترام نفس الأولويات واتخاذ القرارات ثم التصرف وفقاً لمستوى من النضج والتحرر يفوق المستوى الذى حققته تلقائياً ، وهذا جوهر « التحرر التدريجى » الذى اقترحه . السؤال هنا هو : ماذا عن نتيجة هذه الجهود وهذه المحاولات ؟ نعود هنا إلى الخضوع لجودة الآلة العاملة وهى المخ . قد يكون مخى أكثر أو أقل « موهبة » وراثية وكروموزومية لبذل المجهود من مخ آخر . القدرة على بذل المجهود محتمة علىّ ولا تمثل اختياراً . لدينا إذاً هنا هامش وحدود . ماذا عما يدور « داخل » هذه الحدود وضمنها ؟ لا شك أن ضمن هذه الحدود توجد مسئوليتى الكاملة عن أخذ قرار بذل المجهود أو عدم أخذ مثل هذا القرار ... لكن ، يجب ألا ننظر إلى « المجهود » وإلى « النتيجة » بنفس النظرة ، على الأقل فيما يخص تقييمهما . المجهود الذى يبذله الشخص والنتيجة التى يحققها مستقلان عن بعضهما البعض كل الاستقلال . قد يستثمر مخ ذو قدرة هائلة على بذل المجهود ٥٠ ٪ فقط من إمكاناته ليحقق نتيجة تفوق بكثير النتيجة التى يحققها مخ آخر ذو قدرة أقل على بذل المجهود . النتيجة لا تهمنا هنا . إن الكشافة الذين يقولون أنهم يحبون مواجهة الصعوبات وبذل المجهود للتغلب عليها يشيرون إلى حقيقة هامة وعميقة وهى أن بذل المجهود يحمل مبرراته فى حد ذاته لأن :

بذل المجهود فى محاولة للتقدم فى طريق التحرر يمثل فى حد ذاته خطوة هامة إلى الأمام فى الاتجاه المطلوب بصرف النظر

عن النتيجة العملية التى يحققها الإنسان من خلال مجهوده هذا .

إن النتيجة المدهشة التى حققها المخ الموهوب الذى لم يستثمر سوى ٥٠٪ من إمكاناته أقل قيمة وتقديراً من النتيجة المتواضعة (أو الفشل الكامل) التى حققها المخ الأقل موهبة الذى قرر استثمار ١٠٠٪ من امكاناته الضعيفة . المسألة مسألة صدق وأمانة وقرار وليست مسألة تحدى بهدف مقارنة الإنجازات والتحقيقات والنتائج .

أفكر ، إذاً أنا قابل ... للتحرر .

الفصل الثالث

بعض الدوافع الخفية التي
تؤثر على تصرفاتنا

دخل الجمهور قاعة الاجتماعات لحضور محاضرة ما . دخل التلاميذ قاعة الاجتماعات لحضور درس من الدروس . فى كلتا الحالتين تختار أقلية من الحاضرين المقاعد الأمامية بينما تزدحم الأغلبية فى المقاعد الخلفية .

انحرفت السيارة المجاورة وقطعت فجأة مسار سيارتك . يسبب ذلك انفعالاً يتراوح بين ملاحظة الحدث دون أى غضب والغضب الشديد الذى يترتب عليه ملاحقتك السيارة الأخرى « للتفاهم » من سائقها ! .

دخل ثلاث رجال مكتباً للقيام باجراءات معينة . اتجه الأول إلى الموظف المختص مباشرة . سأل الثانى أسئلة كثيرة قبل أن يتجه إلى الشخص المختص . سأل الثالث عن مكتب المدير واتجه إليه مباشرة.

يمارس شخصان رياضة فردية ما : قد يتعامل دائماً أحدهما مع خصم أقوى منه حتى يتقدم لعبه وتزداد مهارته ، بينما يرفض الثانى التعامل مع من تفوق عليه مرتين متتاليتين .

على صعيد آخر إننا نرى فى بعض الأحيان سيدات تعشقن إثارة الرجال من الناحية الجنسية بالرغم من أن الجنس لا يمثل فى حد ذاته جاذبية خاصة بالنسبة لهن .

ما معنى : « اتق شر من أحسنت إليه » ؟ ولماذا يكون هكذا ؟

لماذا يلجئ أواخر الفصول ورجل الشارع إلى الشتائم والأساليب القبيحة أكثر من الآخرين ؟

لماذا تغرى المخدرات الإنسان التعس المسكين ولا تغرى بنفس الدرجة وبنفس الطريقة الشخص الناجح السعيد ؟

لماذا يشعر بعض الشباب برغبة شديدة فى التدخين بينما لا يمثل ذلك إغراء بالنسبة لغيرهم ؟

لكل تصرف إنسانى دوافع .

ليس هدفنا تحليل جميع الدوافع التى تحركنا وتحدد اختياراتنا أو تؤثر على تصرفاتنا . علّمنا « فرويد » Freud أن للعقل الباطن أسرار كثيرة وأنه يستطيع أن يلعب أدواره دون أن نشعر به . هدفنا متواضع . نأمل فقط فى توضح النقطتين الآتيتين :

أولاً : إرادة السيادة The will for power . سوف يتولى هذا الجزء مناقشة مواضيع مثل التدرج الاجتماعى والسيادة والمجال الشخصى ... الخ .

ثانياً : التعويض النفسى وبعض ظواهره .

هدفنا الإشارة – فى هذين المجالين – إلى بعض المعلومات العامة البسيطة التى يفضل أن يكون كل شخص معاصر متعلم ومثقف ، بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، مدركاً بها ، لعل ولّد ذلك فيه الرغبة فى معرفة وإدراك المزيد ، ولعل اقنعت هذه الأسطر القارئ بضرورة التأنى والتفكير والتحليل قبل إصدار الأحكام فيما يخص تصرفات الآخرين ، حيث أن الأمور قد لا تكون على درجة البساطة والوضوح التى تبدو عليها .

الجزء الأول

إرادة السيادة

يجب ألا نرى ، حتى فى اكتشاف الطاقة النووية وتقدم العلوم والتكنولوچيا ، سوى محاولات لإرضاء إرادة السيادة وحب السيطرة . الانتصار الوحيد الذى يمثل تحدياً حقيقياً للإنسان هو التحكم على عناصر التحرر والسيطرة على الذات .

لم يجذب الشجار المستمر الذى يدور بين دجاج الحظيرة اهتمام أحد قبل أن يهتم به العالم الدانمركى « توركليف شيلدروب – إب » Thorleif Schelderup-Ebbe فى عام ١٩١٣ . اندهش فى أول الأمر عندما لاحظ أن دجاجة معينة كانت هى التى تضطهد دائماً باقى الدجاج حتى يصل هذا الاضطهاد إلى منع بعضها من تناول الطعام . أخذ يدرس الحياة الاجتماعية للدجاج فى الحظيرة وسرعان ما اكتشف أن وراء ما يبدو وكأنه مجرد نوع من العداء البسيط ، تنظيم اجتماعى ثابت جداً لا يعرف الاستثناءات ويخضع له الدجاج بالاجماع .

لاحظ الباحث أن فى جميع حالات الشجار بين دجاجتين معينتين كانت دائماً نفس الدجاجة هى المعتدية والأخرى المنسحبة . اتضح له بعد قليل أن الدجاج خاضع لتدرج اجتماعى معين بمعنى أن كل دجاجة سائدة بالنسبة لعدد من الدجاج وخاضعة أو متنحية بالنسبة لبعض أخر ، ما عدا الدجاجة الموجودة أعلى سلم التدرج ، وهى سائدة بالنسبة لجميع دجاج الحظيرة ولا تعرف الخضوع ، والدجاجة الموجودة أسفل سلم التدرج ، وهى خاضعة بالنسبة لجميع زميلاتها ولا تعرف السيادة. ألقى العالم « توركليف » اسم « الترتيب النقرى » على هذا التدرج الاجتماعى المبنى على القوة التى تحدد أولوية النقر والسيادة فى اختيار الحبوب Pecking Order . لم يكن « توركليف » نفسه يعلم أن « الترتيب النقرى » الذى اكتشفه لا يخص الدجاج فقط ، لكنه تدرج اجتماعى يمثل النظام الداخلى لجميع مجتمعات الفقريات التى تعيش حياة جماعية .

لذلك انتشرت تسمية « الترتيب النقرى » لباقى الفقريات حتى اللاتى لا « تنقر » منها .

أسكن العالم الأسترالى « كونراد لورنز » Konrad Lorenz جالية من طيور « الشوكاس » على شجرة بالقرب من منزله فى منطقة ملائمة تماماً لهذه العصافير . لاحظ هو أيضاً أن للعصافير ترتيب اجتماعى محدد ، فى غاية الصلابة ولا يتقبل الاستثناءات . لدرجة أن بمجرد ملاحظة تصرفات عصفور منها كان يستطيع « لورنز » إعطائه رقماً فى « الترتيب النقرى » للجالية . وكان لكل عصفور إحساس دقيق جداً بمرتبته على سلم التدرج : فى حالة الدجاج ، تستطيع أى دجاجة سائدة الهجوم على جميع الدجاج الأقل منها سيادة على سلم « التدرج النقرى » دون استثناء أو تميز ؛ الأمر غير ذلك لدى طيور « الشوكاس » . لهذه الطيور قانون شرف : يستطيع « الشوكاس » رقم ٦ فى « الترتيب النقرى » للجالية أن يهاجم رقم ٧ أو ٨ مثلاً . لكنه لا يليق به وبمركزه الاجتماعى أن يهاجم رقم ١٢ ! أما الشجار التافه ، فهو متروك لأصحاب الأماكن الأخيرة فى « الترتيب النقرى » . الأوائل ، الأفراد ذوو السيادة والقدرة والسيطرة لا يتشاجرون ولا يصدرون أصواتاً كثيرة أو مزعجة ولا يتحركون كثيراً . يبدون وكأنهم فى غاية الإدراك بمرتبتهم الاجتماعية ، وهم يتدخلون فى بعض الأحيان لإنهاء الخلافات بين من هم أقل منهم على سلم « الترتيب النقرى » بضربة منقار أو ضربة جناح تمثل أمراً واضحاً ينفذه المشاغبون فى الحال .

« الترتيب النقرى » مبنى على المجابهة :

لكل نوع من أنواع الحيوانات طقوس مجابهة خاصة به .

خلال الدقائق السابقة للمجابهة تمر الأيائل جنباً إلى جنب ، مرفوعة الرأس منصوبة الأخشاب . بعد دقائق من هذا العرض لقوتهم الجسدية يواجه فجأة كل أيل الآخر وتتشابك أخشابهم فى صدام عنيف فى محاولة لدفع الخصم إلى الخلف . يخسر الذى يتراجع لمسافة بضعة أمتار المجابهة لتحديد السيادة وتحديد « الترتيب النقرى » تاركاً للآخر

حق اختيار الحيز أو الأنثى التى يريدها دون أى معارضة لاحقة من المنافس بعد ذلك .

يبدأ سمك « الششليد » مراسم المجابهة بالعوم جنباً إلى جنب . يبدو أن لدى كلا الأيائل والسمك السير جنباً إلى جنب ينتج عن التناقض بين الرغبة فى الهجوم والرغبة فى الفرار . يزداد التوتر تدريجياً أثناء هذا العرض وتأخذ كل سمكة ترمى الأخرى بالماء بواسطة ضربات ذيلها . يسمح ذلك لكل سمكة بتقدير قوة السمكة الأخرى ولو بالتقريب . فجأة ، يتوقف العوم جنباً إلى جنب وتعوم كل سمكة فى اتجاه الأخرى وجهاً لوجه . تبدو كلتا السمكتان فى غاية الإصرار ويبدو وكأن لا مفر من الصدام والالتحام . لكن الهجوم يتوقف دائماً فى اللحظة الأخيرة ولا يحدث التحام جسدى أبداً . تعاد عملية الهجوم هذه مرات عديدة مع ازدياد التوتر فى كل مرة حتى تنهار أعصاب إحدى السمكتين فتنسحب تاركة الساحة للفائزة .

لمجابهة قرود « الغوريلا » مراسم مشابهة تماماً لمراسم مجابهة سمك « الششليد » . يؤكد الذين حضروا المشهد أن ذكرين من « الغوريلا » فى وضع المجابهة يمثلان عرضاً مرعباً للغاية . يقف الغوريلا على أطرافه الخلفية ويوجه إلى قفصه الصدرى ضربات عنيفة تجعله يصدر أصواتاً عالية كصوت الطبل . يشد شفاه ويُظْهِر أسنانه وتحتقن أعينه بالدماء الحمراء حتى يظنه الشاهد على أتم استعداد لارتكاب مذبحة حقيقة . هذه كلها حيل للتأثير النفسى العصبى على الخصم لا غير . سرعان ما يعجز أحد الخصمين تحمل المزيد من التوتر ويفر فى الغابة . أما إذا كانت أعصاب الخصمين متينة جداً وطالت المجابهة دون أن يفر أحدهما ، فى هذا الحال يلقى كل منهما بنفسه على الآخر . بدلاً من الصراع الدامى الذى يتوقعه الشاهد ، يفاجئ بأن يضرب كل منهما الآخر على وجهه ضربة خفيفة جداً ، ثم يفر الاثنان فى اتجاهين مختلفين . سيكولوچية الغوريلا هذه معروفة لدى أهل الغابات لدرجة جعلتهم يعتبرون أن الجبان فقط تستطيع الغوريلا أن تعضه ، لأنه يكفى الوقوف ثابتاً أمام الغوريلا مدة كافية والنظر إليه بهدوء لكى يفر هو الأول : قرد الغوريلا لا يعض سوى

الجبان الذى سيطر عليه الخوف ففرَّ قبل أن يفر الحيوان الذى أمامه ... المسألة مسألة شجاعة فقط وليست مسألة قوة .

نستطيع أن نتساءل الآن عن دوافع المجابهة ، منطق المجابهة ، ونتائج هذه المجابهة .

دوافع المجابهة :

هناك دافع داخلى يدفع كل الفقريات إلى (أولاً) تحقيق أقصى درجة من القوة تستطيع تحقيقها على المستوى الفردى ، ثم (ثانياً) تدفعها إلى مقارنة تحقيقاتها فى هذا المجال بتحقيقات الأفراد الأخرى فى المجموعة التى تعيش فيها . أى أن هناك قوة تدفع كل الفقريات التى تعيش حياة جماعية إلى تحديد موقعها ومكانتها من باقى حيوانات المجموعة . يتواجد دافع المقارنة هذا كلما تقابل حيوانان للمرة الأولى . من هنا ضرورة وجود مجابهة ما ، على أن نفسر مراسمها بعد قليل .

منطق المجابهة :

حققت المجابهات التى وصنفاها درجة من الدقة فى التنظيم والتخطيط فى التحركات منعت العلماء من اعطائها اسم « معركة » فألقوا عليها تسمية « شبه المعارك لتحديد السيادة » . حقاً نادراً جداً ما تحدث فعلاً معركة . ربما كانت أجداد الحيوانات الموجودة الآن تقود معارك دامية لتحديد السيادة ، تلك المعارك التى كانت تنتهى فى كثير من الأحيان بموت أحد الطرفين . فقط الحيوانات التى نظمت مجابهاتها بطريقة تحمى الأفراد ولا تُضْعِف المجموعة استطاعت البقاء واستمرت لأيامنا هذه . ماذا يكون حال جالية من الغوريلا تفقد واحد أو اثنين من ذكورها الصاعدة كل يوم فى معركة حقيقية لتحديد السيادة ؟ تركيز مثل هذه الجالية على مشاكلها الداخلية يجعلها تصرف النظر عن مخاطر البيئة المحيطة بها – بالاضافة إلى إصابتها بالضعف نتيجة لوفاة بعض الذكور وإصابة البعض الآخر بعاهات مستديمة – مما يعرضها للفناء . كان إذاً لا بد من تنظيم المجابهة بطريقة تلبى الاحتياجات الآتية:

١– يجب أن تكون المجابهة سريعة ينتج عنها تحديد أكيد ونهائى لسيادة أحد الطرفين على الآخر .

٢– يجب أن يتم تحديد السيادة بطريقة لا تُضْعِف المجموعة بفقدان بعض ذكورها الأقوياء ولا تترك مصابين تتحملهم المجموعة بعد ذلك .

٣– يجب أن تتم المجابهة بطريقة تسمح بتنفيس الطاقات العدوانية التى لا بد من تنفيسها فى أى مجابهة ، وذلك بالنسبة لكلا الطرفين .

نتائج هذا المنطق :

١– تجنب الالتحام الجسدى والمعركة نفسها وتجنب الإصابات والجروح التى تعوق المجابهين والمجموعة .

٢– تنفيس الطاقات العدوانية الموجودة فى كل فرد .

٣– تحديد المكانة الحقيقية لكل فرد فى المجموعة . ينتج عن تحديد موقف الفرد من « الترتيب النقرى » للمجموعة تحديد « المجال الشخصى » لهذا الفرد . سوف نتكلم عن « المجال الشخصى » بعد قليل .

٤– تحديد « الترتيب النقرى » يحرر المجموعة من التناقضات الداخلية والنزاعات المستمرة بين أفرادها .

٥– تحديد « الترتيب النقرى » يزيد من تماسك وترابط المجموعة الداخلية . يصبح البقاء أسهل وأمتع بكثير .

العناصر التى تساهم فى تحديد درجة سيادة الفرد :

لنذكر هنا عنصرين فقط :

أولاً : القامة :

يلعب طول القامة ووزن الجسم دوراً هاماً خاصة بعد أن تحولت المعارك لتحديد السيادة إلى « شبه معارك » . الأفراد السائدة من الغوريلا والرئيسات الأخرى تتمتع عادة بعدة سنتمترات إضافية فى طول القامة وعدة كيلو جرامات إضافية فى وزن الجسم بالنسبة لباقى

أفراد المجموعة . من الطبيعى أن يكون الأيل الأثقل والأقوى هو السائد حيث أن قدرته على دفع خصمه إلى الخلف تتناسب وهذه العناصر .

ثانيًا : قدرة العين والنظرة :

ثبات النظرة وحركة العضلات المحيطة بالعينين تدل على إرادة الفرد وإصراره على الفوز والسيادة . يعتمد كل مجابه على العينين لمعرفة رد فعل منافسه . تترجم العينان وتشير فى الحال إلى أى تردد أو أى ضعف يصيب المجابه مما يشجع الخصم على المزيد من التشبث والإصرار . تنتقل الإشارات البصرية بسرعة فائقة تنهى فى كثير من الأحيان المجابهة قبل ظهور احتمال أى التحام جسدى . خفض العينين يدل على رفض التحدى إن لم يكن يدل على الهزيمة والخضوع . نادراً جداً ما تقبل « شبه المعركة لتحديد السيادة » المساومة . إنها تنتهى عادة بسيادة طرف وخضوع الطرف الآخر .

نتيجة هامة لتحديد السيادة والترتيب النقرى :

يمثل أى اقتراب جسدى احتمال اعتداء . لذلك ، كلما كان الفرد أكثر سيادة كلما أراد التحكم والسيطرة على مجال أوسع من حوله ليضمن الحماية ورد الاعتداء إذا حدث . **ألقى العلماء على حجم الفضاء الذى يريده الحيوان فارغاً من أى وجود من حوله اسم « المجال الشخصى »** . إذا اتجهنا إلى حديقة الحيوان ولاحظنا القرود على « الجبلاية » الخاصة بهم لرأينا الذكور السائدة الضخمة القوية جالسة قرب القمة وحولها مجال فارغ كبير ، بينما تتزاحم الذكور الخاضعة والإناث والصغار على المستويات السفلى . عندما يتجول الغوريلا السائد وسط المجموعة أثناء الراحة يجب أن تتراجع الذكور الخاضعة بالنسبة له وتحافظ على وجود مسافة معينة بينهم وبينه . فى حالة عدم الابتعاد بالسرعة المطلوبة يتلقى الجانى ضربة خفيفة رمزية على كتفه لمجرد التنبيه ، وفى هذا الحال سوف يقترب بعد ذلك الغوريلا السائد من نفس القرد الخاضع عدة مرات متتالية ليتأكد من أنه فهم الدرس جيداً .

فيما يخص الإنسان :

يروقنا الظن أن الإنسان استبدل « الترتيب النقرى » بنظام آخر أكثر عدلاً وأكثر ملائمة للخلقية ، يحترم المساواة بين الناس ويرعى ظروفهم . هذا ، لأشد الأسف ، غير مطابق للواقع . لا يستطيع حتى اليوم أن يتصرف الإنسان وفقاً لمبادئه بقدر ما يتصرف وفقاً لبنيته الأساسية وتشكيله الوراثى . لذلك السبب ، فإن الإعلام البحت لا يكفى لتشكيل التصرف . حتى يستطيع الإنسان التصرف وفقاً لتفكيره ، أى لكى يتغلب التفكير على دوافع الغريزة ، يجب أن نتعدى حد الإعلام الصرف وأن نقوم « بتربية » حقيقية تؤثر على الدوائر المغلقة العميقة لبرمجته الوراثية . (أنظر إلى « الإعلام والتربية ») هناك فرق بين العلم والمعرفة . ما يصعب على الإعلام تحقيقه عن طريق العلم بالشئ ربما تستطيع إنجازه تربية حقيقية تولت الفرد منذ سن مبكر وحققت معرفة حقيقية وإدراك مؤكد . بالنسبة للوقت الحاضر ، ما زال الإنسان يشارك الحيوان ليس فى البُعْدُ الفسيولوچى والوظائف العضوية فحسب ، لكن فى كثير من الأبعاد السيكلولوچية الفردية والاجتماعية أيضاً .

١- ورثنا من ماضى الإنسانية دافعاً قوياً للارتقاء على سلم التدرج الاجتماعى . كلنا نبحث عن « مكانة » ، عن « مرتبة » اجتماعية معينة . ينتج عن ذلك أن كل مجتمع فى حاجة إلى « ترتيب » اجتماعى فعال . المبارزة وليدة « الرغبة فى السيادة » وهى تشجع الإنسان على التضحية بجزء كبير من جهوده وطاقاته لتحقيق « مرتبة » اجتماعية معينة ، حبذا إن كانت عالية . مفاهيم مثل « الاحترام » و « السمعة » و « الشرف » و « العظمة » لا تعنى شيئاً إلا فى إطار السعى وراء مرتبة اجتماعية مميزة .

٢- لكى يتحقق الاتزان الاجتماعى لا بد من أن يضع الفرد حداً لرغبته فى السيادة وأن يقبل التوقف عند درجة معينة من درجات السلم الاجتماعى . لقد ورث أيضاً الإنسان من ماضى الإنسانية دافعاً إلى الاحترام ، احترام من هو سائد عليه وأعلى منه على السلم الاجتماعى ،

يُحدّ من الرغبة فى المجابهة ويسمح له بالاعتراف بسيادة بعض الآخرين .

من إرضاء الدافعين ، الدافع إلى المجابهة لإثبات السيادة والدافع إلى الاحترام والاعتراف بسيادة بعض الآخرين ، ينتج الاتزان النفسى الداخلى الذى يساهم فى إسعاد الفرد الذى عرف مكانته الحقيقية فى المجتمع ورضى بها .

٣- لا توجد مساواة بين أفراد المجتمع : هذه نتيجة محتمة لما سبق . من يقول « تدرج » اجتماعى يتكلم عن « سلم » ، والتصور المنطقى الوحيد « لسلم » ما هو فى وضعه الرأسى . هذا الواقع مغروز فى أعماق طبيعة الإنسان إلى درجة جعلت الثورات المختلفة التى شاهدها التاريخ على مر السنين ، بالرغم من اختلاف الأسس التى قامت عليها من سياسية واجتماعيةوغيرها وبصرف النظر عن أى اعتبارات دينية أو خلقية ، والتى هدفت إلى إقامة مجتمع تعادلى ، وقعت آجلاً أم عاجلاً فى نوع أو آخر من التدرج الاجتماعى الذى يميز بعض الأفراد أو بعض الفئات على حساب الآخرين . إن النظم السياسية الأكثر تعادلاً من حيث مبادئها ، مثل الشيوعية والاشتراكية ، تعيش فى واقع ممارستها نفس قدر استغلال النفوذ وتوزيع الامتيازات التى يعرفها النظام الراسمالى . من الصعب أن يكون الإنسان على درجة مثالية أهدافه ... بعض الثورات التى منعت رسمياً استعمال الألقاب التى كانت تمثل بل وتجسم التفرقة الاجتماعية والتفرقة الطبقية المكروهة التى قامت الثورة للقضاءعليها ، رأت إعادة تلقائية لاستعمال هذه الألقاب فى الشوارع والمحلات العمومية والأندية الاجتماعية ، لمجرد احتياج الإنسان إلى رموز للقوة والسيطرة والسيادة الاجتماعية .

لا شك فى أن العناصر التى تحدد السيادة لدى الحيوان موجودة أيضاً لدى الإنسان . مثال واضح لذلك هو نظام التدرج المتبع فى جميع جيوش العالم . هناك زى رسمى يلبسه جميع الجنود . توحيد المظهر يؤكد الانتماء إلى قاعدة موحدة ويؤكد كذلك التماسك الذى يربط بين جميع الذين ينتمون إلى هذه القاعدة . فكرة توحيد الزى لتأكيد الانتماء

والتماسك فكرة تم استعمالها فى مجالات كثيرة . تضاف إلى الزى الشارات و« الدبابير » التى تشير إلى رتبة الذى يحملها . هذه الرتب محددة بدقة . نظام قاسى وقوانين مفصلة تحدد واجبات كل رتبة وتضمن التزام كل منها بمكانها فى الجدول العام . الخروج عن القواعد وعدم الالتزام أو عدم الخضوع يمثلون أزمة حادة . كلما ارتفعت « رتبة » الجندى كلما ازدادت امتيازاته من سكن وسيارة ونوع الغذاء ... إلخ . الجيوش كلها ، حتى الحديثة جداً منها ، تتعارض بمنطقها التدرجى والمجتمع التعادلى الذى تدعى خدمته .

ماذا عن المجتمع التعادلى الذى تخدمه هذه الجيوش ؟ هل هو فعلاً تعادلى كما يدعى ؟ هل هناك مجتمعات تعادلية فعلاً ؟ تُطْلِقْ الشركات الكبيرة الحملات الضخمة لامتصاص وضم الشركات الأصغر منها . يتربع على قمة « هرم السيادة » المدير العام أو رئيس مجلس الإدارة أو صاحب الشركة ، ومن حوله جيوش من السكرتيرات والسائقين والخدم يمثلون الحاشية الثابتة لهذا الإمبراطور الحديث . مديرى المكاتب ورؤساء الفروع المختلفة يمثلون المجموعة التنفيذية التى تمتلك الدرجات المتوسطة من سلم « الترتيب النقرى » : يخضعون تمام الخضوع لأقل رغبات الذكر السائد ويسودون كل السيادة على باقى الموظفين الصغار المجهولين الذين يكافحون للحصول على « مكافئة آخر السنة » أو « الشهر الثالث عشر » . ألا تعبر ذات نفس كلمة «مكافئة » خير تعبير عن الواقع السيكولوچى المختبئ ورائها ؟ يسود العلاقات الموجودة بين مختلف درجات سلم « الترتيب النقرى » نظام محكم معروف لدى الجميع . لا يرتفع ضد هذا النظام صوت واحد ... إلا فى حالات « الإضراب » للمطالبة ببعض الحقوق ، عندما يكون رقم ١ اعتدى بشدة بالغة على مجموعة من أرقام ٢٢ أو ٣٠ ، وحيثما يسمح القانون الذى ينظم العلاقات بين مختلف درجات السلم الاجتماعى « بالإضراب » ... إن قانون الشرف الموجود لدى عصافير « الشوكاس » والذى يمنع الاعتداء على الأرقام المتباعدة على سلم « الترتيب النقرى » لم يكتشفه الإنسان بعد ...

تحيط رموز « المرتبة » الاجتماعية بالإنسان من كل ناحية : ترتيب الفرد على سلم التدرج الاجتماعى يحدد نوع المكتب الذى يجلس عليه ، الغرفة التى يعمل فيها ، المكان الذى يتناول فيه وجباته إذا أكل خارج المنزل ، نوع الوجبات التى يتناولها سواء تناولها بالمنزل أو خارجه ... الخ . يحدد أيضاً « الترتيب النقرى » المرتب الشهرى والامتيازات وقدر الاحترام وإمكانات الحياة التى ينالها الفرد . من هنا العبارة التالية :

مبدأ التدرج الاجتماعى – أى « الترتيب النقرى » – يلعب دوراً هاماً فى حياتنا اليومية .

ربما يعترض البعض على ما سبق قائلاً أن استمرار هذا النظام الاجتماعى يبرره فقط تسهيل الحياة العملية وأن لكل أفراد المجتمع نفس الحقوق فى الواقع . يدعى العلماء عكس ذلك ويقولون أن مبدأ التدرج يدق جذوره عميقاً فى سيكولوچية الإنسان وأنه يلعب دوراً عملياً هاماً فى حياتنا اليومية .

هناك ألفاظ وكلمات مثل : الغطرسة ، قلة الاحترام ، التقدير ، وضع الآخر فى مكانه ، ... الخ ، لا تأخذ معناها الكامل إلا فى إطار تدرج اجتماعى و « ترتيب نقرى » حيث يعتبر الطرف الأول نفسه فى « مكانة » اجتماعية أعلى من الطرف الثانى . أما الطرف الثانى ، فيحتمل أن يكون تجاهل هذه السيادة إما عفواً ، وإما عمداً إذا كان ثائراً ضدها أو معترضاً عليها . أن « يضع شخص شخصاً آخراً فى مكانه » ، أليس هذا بالضبط ما يفعله الغوريلا السائد عندما يلمس كتف الذكر الخاضع الذى سهى عن الابتعاد فى الوقت المناسب ؟ إن هذه الألفاظ وهذه الكلمات قابلة للترجمة إلى جميع لغات العالم مما يدل على أن جميع المجتمعات الإنسانية خاضعة للقانون العام .

هناك مجموعة أخرى من الكلمات يقال أنها « ذات اتجاه واحد » مثل « الثورة » و « الطاعة » و « التمرد » و « العصيان » ، و « التنازل » . هل « يثور » أبداً حاكم ضد محكوميه ؟ هل يعامل الخادم سيده « بتنازل » ؟ .

لا شك أن المجتمعات الإنسانية « مدرجة » . إرادة السيادة هى الأساس الذى يقوم عليه « الترتيب النقرى » الإنسانى . عوامل السيادة عند الإنسان هى نفس عوامل السيادة الموجودة لدى الحيوان و « شبه المعركة لتحديد السيادة » يمارسها الإنسان أيضاً وليس الحيوان وحده . لنناقش ذلك :

أ- عوامل السيادة

١ - *القامة :*

قد يظن البعض أن طول القامة والوزن لا يلعبان دوراً هاماً فى تحديد سيادة الفرد ، وأن تقدير قيمة الإنسان يستند إلى مقاييس أهم بكثير من هذه . هذا صحيح إلى حد ما ، ولكن ...

كثيراً ما يقوم « الترتيب النقرى » داخل العصابات بناءاً على مجابهة جسدية . هذا النوع من المجابهة المبنى على « معركة » حقيقية ، تُعطى الفرد النبيه الذكى فرصة إثبات سيادة الفن والمهارة والعقل على القوة العضلية البحتة المجردة من الذكاء . يستطيع إذاً أن يكون شخص عادى القامة والقوة العضلية رئيساً لعصابة من « الفتوة » المحدودى الذكاء . أما فى الأوساط التى أُستُبْعِد فيها الالتحام الجسدى على أنه لا يليق بالمرتبة الثقافية والفخرية للمجموعة ، تُبيِّن الدراسات الاحصائية أن ترتيب الفرد فى المجموعة يتناسب وما يفترضه الآخرون من احتمالات الانتصار فى حالة قيام معركة حقيقية . لم يجد « هيكتور » أى صعوبة فى تعريف أخيه « باريس » على الأبطال اليونانيين تحت حوائط مدينة طروادة Troie. أبطال « هوميروس » كانوا يتمتعون جميعاً بقامة تفوق متوسط قامة باقى الجنود الإغريق برأس كاملة. ألف سنة قبل « هوميروس » كان قدماء المصريين يراعون نفس التفرقة : الالهة وفرعون والكَهنة ممثلون على حوائط المعابد وعلى أوراق البردى أطول قامة من باقى أفراد الشعب . كثير من الشعوب والقبائل البدائية تعتبر رفع رأس المرءوس أعلى من رأس الرئيس إهانة أو تحدى . من هنا اللحظات الممتعة التى أعشناها مع « أنّا » وملك « السيام» فى الكوميديا الشهيرة : The King and I . ألا يعنى « منحى السيادة »

أنـه « مغلوب على أمره » ؟ وعلى عكس ذلك ألا يعنى « مرفوع الرأس » أنه « انتصر » أو « ساد » أو « سيطر » ؟ قيل مراراً أن « نابليون » كان قصير القامة وأنه مضى حياته فى التعويض عن « مركب نقص » سيطر عليه لهذا السبب . حتى إذا فرضنا أن هذا غير صحيح وأن « نابليون » لم يعانى من قصر قامته أبداً ، مجرد قول الناس هذا يدل على الأقل أن الآخرين عانوا من ذلك بدلاً منه ... هل يليق الحديث عن جمال طول القامة أمام شخص قصير القامة لدرجة ملفتة للنظر ؟ ألا يدل ذلك على اعتبار الناس الموضوع مؤلم بالنسبة لهذا الشخص ؟ تبين الاحصائيات ما يلى : متوسط الأساقفة أكثر طولاً من متوسط رجال الدين العاديين . عميد الكلية أطول من مدير المدرسة . مندوب شركة التأمين أطول من البائع « من الباب للباب » . رئيس الفرع فى محل عمومى أطول من البائع فى نفس المحل . يختار الأمريكيون البائع ذو الجسم الطويل القوى لأنهم يرون من الهام جداً أن يسود ويسيطر البائع على المشترى منذ اللحظات الأولى من لقائهما . ومن ناحية أخرى ، ألا تصف اللغة العامية الرجل الذى « نجح » فى الحياة وثبت سيادته على المواقف وعلى الآخرين بأنه « رجل كبير » بصرف النظر إلى طول قامته الحقيقى ؟ .

٢ – *المجال الشخصى :*

المجال الشخصى ليس فقط عامل من عوامل تحديد السيادة لكنه أيضاً نتيجة لها . ها هى بعض الأمثلة التى تدل على أن للمجال الشخصى أهمية لدى الإنسان لا تقل عنها لدى الحيوان . كان العالم الأمريكى « إدوارد هول » يدافع أمام العالم « روجر براون » من جامعة «هارفارد » عن نظرية « المجال الشخصى » . وكان « براون » يرفض هذه النظرية . ها هى ، بقلم « براون » نفسه ، قصة هذا اللقاء وكيفية إقناع الأول الثانى بصحة النظرية :

جلس فى أول اللقاء كل من « براون » و « هول » فى المواجهة على بُعْدٍ معين من الآخر . دارت المناقشة وكل منهما يحاول إثبات صحة آرائه. ازداد الحماس وازداد التركيز فى الموضوع . أخذ « هول » ينقل ،

بطريقة طبيعية جداً وكأنها حركة عادية وغير مقصودة ، المقعد الذى جلس عليه ويقربه بضعة سنتمترات من معقد « براون » ، مكرراً هذه العملية كل بضعة دقائق . يعترف « براون » أنه ، بطريقة لا إرادية ودون أن يلاحظ هو نفسه ما كان يفعله ، كان يرجع بمقعده إلى الخلف كلما اقترب منه « هول » . أدرك « براون » ما كان يدور فقط عندما أوقف « هول » الحوار مشيراً إلى أن « براون » كان قد تراجع بمقعده مسافة متر كامل فى محاولة لحماية مجاله الشخصى من اقتحام «هول» ، خاضعاً فى ذلك التصرف إلى الدوافع العميقة الناتجة عن الاحتياج إلى حفظ المسافة الأدنى التى تريحه نفسياً .

مر مسجونى الحرب العالمية الثانية بمعسكرات مؤقتة بمجرد خروجهم من معسكرات السجون التى كانوا فيها . عانى هؤلاء الرجال من التزاحم الذى عاشوا فيه سنوات طويلة لدرجة جعلتهم يرسمون بالتباشير على مائدة الطعام مربعاً يحدد المساحة التى اعتبروها يحق لهم استعمالها أثناء تناول الوجبات . لكى ندرك تماماً أسباب تمسك الفرد بمجاله الشخصى يجب ألا ننسى أن أى اقتحام لهذا المجال يمثل تهديداً ويحمل إمكان عدوان يجب صده عن طريق إعادة اتزان القوى المتداخلة ، إما عن طريق إعادة المجال الشخصى لما كان عليه قبل اقتحامه ، وإما عن طريق شن هجوم مضاد كلما استحال تنفيذ الاقتراح الأول .

يتناسب « المجال الشخصى » وارتفاع الشخص على سلم التدرج الاجتماعى . هذه الظاهرة ملموسة جداً فى طريقة تصميم المكاتب . مكتب مدير عام مثلاً تحفة حقيقية من وجهة نظر دراسة المجال الشخصى . كلما ارتفعت « رتبة » المدير كلما ازدادت الحجرة حجماً وفخامة فى الديكور ، وكلما ازدادت المسافة بين المكتب نفسه وباب الحجرة . هذا يعنى : « الاقتراب منى صعب وشاق . عليك أن تقطع كل المسافة الكبيرة التى تفصل بيننا قبل أن تصل إلىّ . أثناء سيرك هذا أستطيع أن ألاحظك جيداً لأضع خطتى وأسود على الموقف » . لا سيما

وقد سبق دخول الحجرة الطرق على بابها وانتظار إذن اقتحام المجال الشخصى للذكر الكبير السائد .

إذا كان الزائر خاضعاً بكثير بالنسبة لصحاب المكتب - رقم ١٢ يزور رقم ٢ مثلاً - يطرق الباب وينتظر الإذن بالدخول . ثم يدخل الغرفة وينتظر الإذن بالتقدم . ثم يتقدم ليقف على مسافة من المكتب توضح احترامه للجالس خلفه . إذا كان الفرق الاجتماعى بين الزائر والرئيس أصغر من ذلك ، يستطيع الزائر أن يطرق الباب ويسير إلى المكتب مباشرة فور السماح له بالدخول . إذا كان الفرق فى التدرج الاجتماعى اقل من ذلك يستطيع الزائر أن يطرق الباب ويدخل المكتب دون انتظار الإجابة . فى جميع هذه الحالات يقف الزائر على ناحية المكتب المواجهة لرئيسه . رقم قريب جداً من رقم الرئيس يستطيع الدخول دون طرق الباب كما يستطيع الوقوف على نفس الجانب الخاص بصاحب المكتب ، لا يعتبر الرئيس وقوف زائره على نفس الناحية من المكتب إهانة له إذا كان هو الآخر يعتبر الزائر مساوياً له فى التدرج الاجتماعى ، وهذا التصرف يسمح فى حالات كثيرة للزائر بأن يثبت لباقى المتواجدين فى الغرفة سيادته عليهم .

أما إذا كان الزائر رقم ١ يزور رقم ٢ أو رقم ٣ فإنه يدخل دون أن يطرق الباب وإذا دار حول المكتب سوف يقف صاحب الغرفة ، بالرغم من أنه فى مكتبه ، ليعرض على زائره استعمال المكتب إذا شاء .

طريقة السلام ، من تقديم اليد وفرد أو ثنى الكوع وانحناء الصدر أو اعتداله ، بروتوكول آخر من البروتوكولات المعقدة الخاصة بالتعبير عن رأى الشخص فى نفسه ورأيه فى الآخرين . إفساح الطريق للآخرين فى الشارع ، طريقة التعامل مع الباعة فى المحلات ومع الموظفين فى أماكن عملهم ... الخ ، كلها علامات صادقة لمكانة كل منا الاجتماعية لأنها ناتجة عن « الترتيب النقرى » العام وعن مدى موافقتنا على المرتبة التى ننالها منه وارتياحنا لها .

تكرار مثل هذه التصرفات بطريقة غير مدروسة ، بطريقة تلقائية ، ألوف المرات فى كل يوم وفى كل مكان ، يدل على أن احترام

مرتبة الآخرين الاجتماعية ، وكذلك احترام مرتبتنا الاجتماعية الشخصية ، رد فعل تلقائى وأتوماتيكى . بالرغم من تعقيد نسيج العلاقات الإنسانية نستطيع أن نختار فى لمحة بصر التصرف المناسب بالنسبة لبروتوكول معين ، دون أى تفكير ودون أى تردد .

« المجال الشخصى » الذى تحدثنا عنه مجال مادى يقدر بمقاييس المسافات والأحجام . هناك « مجال شخصى » آخر ، مجال شخصى نفسى وسيكولوچى سوف نتحدث عنه بعد قليل .

٣- العينان وقدرة النظرة :

مارس وما زال يمارس أطفال العالم كله لعبة يفوز فيها الذى يجعل الخصم يخفض عينيه الأول أو على الأقل يحولها إلى اتجاه آخر . لا حاجة إلى تعليم الأطفال هذه اللعبة : إنهم يكتشفونها تلقائياً . الاستنتاج المنطقى الوحيد هو أن الأطفال يشعرون غريزياً أن خفض العينين أو تحويلها قبل الخصم يمثل نوعاً من الخضوع والاعتراف بقوة الخصم وعدم القدرة على إبراز قوة مساوية لها لصدها أو أكبر منها للسيطرة عليها . خفض العينين يعنى « هزيمة » . هذا اللعب ، كما هو الحال بالنسبة لكثير من ألعاب الأطفال ، يمثل مجابهة حقيقية وصريحة تكمن فيها جميع عناصر الصراع للسيادة . فى كثير من الأحيان تلجئ الأمهات إلى نظرات معينة لإعادة طاعة الطفل الطائش ... يجب أيضاً ألا ننسى أن هناك « نظرات قاتلة » .

ب- شبه المعركة :

أثبتنا أن القامة والمجال الشخصى والعينين يلعبون دوراً لا يقل أهمية فى حياة الإنسان منها فى حياة الحيوان . السؤال التالى البديهى هو الآتى : أليس للإنسان الذى تدفعه رغبة تحقيق ذاته إلى أقصى درجة ممكنة وتدفعه أيضاً رغبة مقارنة تحقيقاته بتحقيقات غيره من الناس ، أليس لهذا الإنسان مراسم معينة يستطيع من خلالها تنفيذ هذه المقارنة ؟ أليس للإنسان « شبه معركة لتحديد السيادة » ؟ أليس للإنسان « شبه معارك » خاصة بكل ثقافة وبكل حضارة ، خاصة بكل

عقلية وبكل مستوى علمى واجتماعى ، يستطيع بواسطتها تحديد « ترتيبه النقرى » الذى سبق وأثبتنا وجوده ؟ .

يثور العقل ، فى بادئ الأمر ، ضد فكرة لجوء الإنسان إلى « شبه معارك لتحديد السيادة » . كيف ؟ يجابه الإنسان أخاه وفقاً لمراسم معينة لحل مشاكل خاصة بسيادته عليه ؟ غير معقول ... نحن « فوق » هذه الاعتبارات . لكن ...

لا ضرورة لوصف تاريخ « شبه المعارك » الإنسانية القديم . الأمثلة التى يمكننا استخلاصها من الحياة المعاصرة كثيرة ومعبرة تخص رجال يبعدون عنا جغرافياً كما تخصنا نحن مباشرة . الإنسان الذى يعيش اليوم على سطح كوكبنا إما إنسان بدائى وإما إنسان متحضر . سوف نرى أن هناك ، للأسف الشديد ، فرق ضئيل جداً بين الاثنين : تختلف المراسم ويختلف البرتوكول لكنهما يسعيان إلى هدف واحد لأنهما يستجيبان إلى مبدأ سيكولوچى واحد .

يعيش « المانوس » Manus على الساحل الجنوبى للجزر الأميرية (شمال غينيا الجديدة) . لا توجد « ألقاب » فى هذا المجتمع . كلا الصياد والتاجر يتمتعان بسمعة واحدة وباعتبار اجتماعى واحد . ترتكز سمعة الشخص على كمية الممتلكات وحجم الثراء الذى يمر بين أيديه أثناء حفلات التبادل التى تعودها هذا الشعب . الزواج أفضل مناسبة لقيام مثل هذه الحفلات . تُسلِّم العروس للعريس نظير مهر باهظ خرافى بعد أن تكون كلفت ولى أمرها مبالغ لا تقل عنها ضخامة وجنوناً . يتبنى إذاً الرجال الأثرياء أكبر عدد من البنين والبنات يستطيعون زواجهم . يتولون بهذه الطريقة زواج أكبر عدد من الشباب ، ويتبادلون فى كل مرة الهداية المتزايدة القيمة مع خصم ثابت رسمى ومعروف لدى جميع . كلما زادت ثروة الرجل مع مرور الوقت ، كلما ارتفعت قيمة الهدايا المقدمة للعروسين . ماذا يعنى هذا كله بالنسبة للعريس الجديد ؟ .

تبادل الهدايا فى إطار الزواج وصل فى بعض الأحيان إلى تقديم

عشرة آلاف درس كلب وعدة أطنان من البقول . الهدف السيكولوچى من وراء هذه الهدايا هو وضع العريس (أى الرجل القوى الصاعد) فى ديون كبيرة تجاه المجتمع وإثبات عظمة الرجل الذى قدمها . أطفال « المانوس » يعيشون حياة جميلة وسهلة ، خالية من المسئولية والتوتر . لكن ، بمجرد الزواج يتحول هذا الشاب إلى أحقر فرد فى المجتمع كله . إنه مدين الآن بقيمة الهدايا التى قدِّمت ثمناً لزوجته . إنه ليس مدين للرجل الذى تولى زواجه ، لكنه مدين تجاه المجتمع وعليه رد الهدايا بأن يتولى هو بدوره زواج أفراد أخرى من شباب المجتمع الصاعد . تراه يعمل بنشاط فائق فى صمت وخجل ، ينفذ أوامر وتعليمات سيده ويصطاد ليلاً كالسارق ... أمامه نوعان من الأمثلة تخص مستقبله : يرى من جهة قبضة من الرجال عملوا بنشاط حتى نجحوا فى السيطرة على النظام الاقتصادى ودخلوا بدورهم نظام تبادل الهدايا لحسابهم الخاص ، ومن جهة أخرى يرى عدداً كبيراً من الذين فشلوا فى التحرر من سيادة ولى زواجهم وما زالوا حقراء يعيشون خدماً للذكور السائدة . يحتقر الجميع هؤلاء الرجال ويعتبرهم الناس « قمامة » المجتمع من الناحية الاقتصادية . وحيث أننا سبق وقلنا أن الكيان الاجتماعى مبنى على الوضع المادى ليس من حيث الممتلكات نفسها ولكن من حيث كمية الثراء التى تمر بين أيدى كل رجل أثناء حفلات التبادل ، فهناك ، بالتالى ، لا مكانة اجتماعية لهؤلاء الرجال الذين يعتبروا الأواخر على سلم التدرج الاجتماعى .

أمامنا ، فى حالة « المانوس » مجتمع ينظم « ترتيبه النقرى » عن طريق مجابهة (شبه معركة لتحديد السيادة) مبنية على فكرة التأثير على الشباب الصاعد بضغط وحمل وثقل الثراء والممتلكات المادية المكتسبة (حيث أن لا توجد ممتلكات موروثة ، والشاب يبدأ حياته فى الديون) على أن يكون عرض هذا الثراء أمام المجتمع هو عامل تحديد المرتبة الاجتماعية .

يعيش هنود « الكراو » فى أمريكا الشمالية . يدخل المراهق مجتمع البالغين عندما يحقق أربعة إنجازات حربية ملفتة للنظر . لا حاجة

للاستعجال . إنه يملك كل الوقت الذى يريده للقيام بهذه الأعمال البطولية . لكنه ، طالما أنجزها ودخل مجتمع البالغين فعلاً ، يضطر إلى مواصلة الإنجازات الأكثر بطولة فى كل مرة ، لأن مركزه الاجتماعى وترتيبه النفرى يتوقفان على المقارنة بين إنجازاته وإنجازات الرجال الذين يتنافسون معه على نفس الدرجة من السلم الاجتماعى . لا مكانة اجتماعية ولا اعتبار للمسالمين الذين يرفضون العنف والمبارزة .

فى المثالين السابقين المحور الذى تدور حوله الحياة الاجتماعية هو التسابق على التكريم والسمعة . رفض دخول هذه المعركة يعنى الاحتقار الأتوماتيكى والعزل الاجتماعى النهائى .

يعيش هنود « الكواكليوتل » الحمر على ساحل أمريكا الشمالية المطل على المحيط الهادى . نظامهم الاجتماعى أكثر تعقيداً من الأنظمة التى سبق وصفها . تمتلك كل عائلة ألقاباً مثل : « الذى يوزع البطاطين أثناء تنقلاته » و « الذى تعدى آخر درجات العظمة » ... الخ . يستطيع هذا النوع من التعظيم الذاتى أن يحمل صاحبه إلى أعلى درجات الغرور . الأنجال لا يملكون ألقاباً . يتم اكتساب حق استعمال لقب ما من ألقاب العائلة أثناء احتفال يرى توزيع هدايا ذات قيمة كبيرة تثبت أن الشخص على درجة من العظمة تسمح له بطلب اللقب . يسمى هذا الاحتفال « البوتلاتش » ويكتسب حق استعمال لقب جديد واحد فقط فى كل « بوتلاتش » . كلما كان اللقب الذى يطالب به صاحب الاحتفال عظيماً كلما زاد « البوتلاتش » عظمة وفخامة . كان الثراء يقدر فى بدء الأمر بعدد البطاطين المصنوعة من قشر الأرز وعدد اللعب المصنوعة من الخشب والمنحوت . رأت السنوات الأخيرة توزيع هدايا على شكل مكنات للخياطة وأحواض من البلاستك وحمامات بكميات تفوق بكثير إمكانات الاستعمال . هنا أيضاً المنافس رسمى ومعروف وعليه أن يرد الاحتفال والهدايا بهدايا أخرى أعظم وأفخم من التى استلمها منتهزاً الفرصة لطلب اللقب التالى على قائمة ألقاب العائلة المشهورة . الشتائم والاحتقار والعزلة فى انتظار المسكين الذى يعجز فى يوم من الأيام عن رد « البوتلاتش » . أثناء الفترة التى يستعد فيها الشخص

لـرد « البوتلاتش » يقال أن خصمه « يغطيه بظله » أى أنه « تحت ظل » منافسه .

قـد تبـدو المنـافسـة ودية ، خـاصـة وكل من الخـصـمـين يسـاعـد فى الواقع منافسه على صعود درجات السلم الاجتماعى درجة بعد الأخرى . الواقع مـخالف لذلك تماماً ... تتصاعد إلى ما لا نهاية قيمة الهدايا المتبادلة على مر السنين ويتزايد معها إما الشرف والتكريم الذى يناله الفائز المسيطر ، وإما الإهانة والاحتقار للذى يعجز عن رد « البوتلاتش » . من السهل أن نتصور إذاً التوتر النفسى الذى يقضى فيه الشخص حياته كلها . لا يصح أبداً أن نرى فى « البوتلاتش » عملية « تسليف » يرد الخصم قيمة السلفة بعد فترة . « البوتلاتش » استعراض للعظمة والسيادة فقط . الأمنية الكبرى لرجل من « الكواتليبيوتل » هى أن يعجز خصمه عن رد « البوتلاتش » حتى يفوز عليه نهائياً ... كثيراً ما يكون الانتحار هو اللجوء الأخير لمن عرف الهزيمة ومرارتها . يعيش الفرد فى هذه المجتمعات مراهناً حياته كلها على اعتراف المجتمع به وعلى العظمة والتكريم الناتجين عن هذا الاعتراف . هدفه الوحيد فى الحياة هو المجد . الموت أفضل من الحياة بدون مجد .

هـل نبعـد كثيـراً مـن رجـال « الكـراو » و « المـانـوس » و « الكواكييوتل » ؟

ألا تمثل الهدايا التى نقدمها لأصدقائنا وأنجالنا نوعاً من التعظيم الذاتى المتنكر ؟ ألا يقول الناس أن قيمة الهدية لا تتوقف على الشخص الذى يتلقاها بل على الشخص الذى يقدمها ؟ عندما نرى أن شخص قدم هدية متواضعة جداً بالنسبة لإمكاناته ألا نقول : « يا للعار . كيف يشغل هذا المنصب الهام ويقدم هذه الهدية السخيفة ... » .

فى مجتمعنا ، المواد الاستهلاكية رموز النجاح بالنسبة للناس العادية . دخول التسابق على الحفلات والدعوات للعشاء وغيرها يمثل طريقة حديثة « لحفظ الشخص على مستواه » . يصرف هذا الرجل مبالغ كبيرة لشراء سيارات وملابس ينافس بها « فلان » و « علان » .

عظماء هذا النظام ، الذكور السائدة الذين سيطروا على النظام الاقتصادى ، ينظمون « بوتلانشات » يسجلها التاريخ ، من أنشطة وحفلات خيرية ورحلات فى البحر الأبيض المتوسط وفى أماكن أخرى أبرزتها « المودة » على شاشة الأولويات الاجتماعية الرفيعة ، وتتسابق دائماً أنشطتهم بريقاً وشهرة .

« قائم ترتكز عليه السماء » ، « نهر العظمة » ، « الذى لا مثيل لفخامته » ، هذه بالطبع ألقاب لم نعد نستعملها بعد . نحن فى غنى عنها : لقد استبدلناها بغيرها مثل « عظامة ... » ، « فخامة ... » ، « بك » ، « باشا » « جناب المدير » ، « سير » ، « لورد » ، « جلالة ... » ، « رئيس مجلس ... » ، « عضو الجمعية الملكية ... » ، « دكتور » ، « أستاذ » ، أو ... فى بعض الأوساط الأخرى ، « معلم » ، « أسطى » ... الخ . ألقاب مختلفة عن الألقاب التى يستعلمها الهنود ، لكنها ألقاب تخدم نفس التسابق ونفس الهدف .

نادراً ما نفكر ، عندما نستعمل آلة فوتوغرافية مثلاً ، فى كل المهارات والعمل والمجهود الذى تطلبته هذه التحفة الصغيرة لكى تعمل وتسعدنا . من العامل المتواضع فى أعماق المنجم إلى المهندس الأنيق الجالس وراء مكتبه ، كلهم ضروريين أشد الضرورة لتحقيق الآلة النهائية . ومع ذلك ، إذا سألنا « ماذا يفعل أحمد ؟ » وأُجِبْنَا أنه مهندس كبير فى شركة مشهورة عالمياً نتأثر بذلك ونعجب به ، بينما إذا أُجِبْنَا أن أحمد يعمل موظفاً صغيراً فى المكاتب أو عاملاً يدوياً متواضعاً فى ورشة التركيب ، نحول الحديث إلى مجال آخر حتى لا نتثاقل على هذه النقطة المؤسفة الحساسة الحرجة فى نظرنا . المهندس رجل ناجح بينما العامل اليدوى رجل فاشل . من منا يوافق ، حتى لو قدَّمت له كل ضمانات السعادة والهناء ، أن يقضى ابنه حياته سائقاً لسيارة أحد جبابرة الاقتصاد ؟ .

لم تتغير قيمة اللقب الرمزية بالرغم من تغيير الألقاب نفسها مع تغيير الحضارات ، ولم يتغير التسابق على المكانة الاجتماعية والسعى

وراء « مرتبة نقرية » نريدها عالية على قدر الإمكان . إرادة السيادة موجودة بعينها لدى جميع أفراد الأجيال المتتالية والحضارات المختلفة .

لم تعد الألقاب العنصر الوحيد للتقييم الاجتماعى بعد . لقد تقدمنا خلال السنوات الأخيرة . لم نعد « كواكلييوتل » فقط لكننا أصبحنا « مانوس » أيضاً . يستطيع المال أن يحل محل الألقاب . يستطيع الذين يصطفون على خط بداية التسابق الاجتماعى أن ينالوا التقدير والاعتراف عن طريق كسب المال والتفوق المادى . ربما أصبح المال أكثر تأثيراً كعامل للسيادة من الألقاب التى لم تعد تؤثر نفسياً إلا على فئة معينة من الناس . كل دولار ، كل فرانك ، كل ين ، كل جنيه ، يعتبر اليوم وحدة صغيرة ، ولكن دقيقة جداً ، لمعايرة الأولوية الاجتماعية . الرجل الذى يستطيع دفع قيمة الشئ يمتلك هذا الشئ . الرجل الذى يستطيع دفع مرتبات موظفيه سائد عليهم ... وعلى الموظف الانتباه وعدم الخروج عن الطاعة المتوقعة منه ... وإلا تدخلت لائحة الجزاءات . كلما ازدادت الإمكانات المادية للذكر السائد كلما ازدحم حوله جيش من الخدم والسائقين والخفر ... الخ .

تفكرنا كلمة « مندوب » بأهل جزر « ساموا » الذين يتمتعون بنظام اجتماعى خاص فيما يخص القيادة . يرأس القبيلة رئيسان : « القائد المقدس » الذى لا يتكلم ، لا يجيب أحد ، يتربع فقط على عرش الرئاسة فى صمت وكبرياء ، و« القائد المتحدث » الذى يلعب دور الوسيط بين الشعب والقائد المقدس . يقدم الشعب التماساته ويخاطب دائماً القائد المتحدث وهو بدوره يفيد الشعب علماً باجابات وقرارات القائد المقدس . دور آخر يلعبه أيضاً القائد المتحدث هو أن يعظم ويمجد دائماً القائد المقدس ... ما عدا فى حالة قيام ثورة بالطبع .

إننا نشبه أهل جزر « ساموا » أيضاً . « قوادنا ورؤسائنا المقدسون » يجلسون فى الوزارات وفى مكاتب إدارات الشركات والمؤسسات الكبيرة الضخمة . يستطيع الشعب تقديم طلباته والتماساته « للقادة والرؤساء المتحدثين » ، سكرتيرين أو نواب مديرين أو مندوبين كانوا. يقوم هؤلاء بنقل وتوصيل الالتماسات إلى « الرؤساء المقدسين » وفى

نفس الوقت يؤكدون أن سيادة الوزير حساس جداً لمشاكل الناس وأنه سيدرس الوضع بكل عناية وبكل دقة معطياً الموضوع قدر كبير من وقته واهتمامه ... الخ .

ما سبق يخص الزاوية الجماعية « لإرادة السيادة » . ماذا عن الناحية الفردية الشخصية ؟

١- من أين تأتينا هذه الإثارة الداخلية الخفيفة التى نشعر بها مقدماً عندما نعلم أننا سوف نقابل شخصاً مشهوراً جداً ؟ (من الجدير بالذكر هنا أن الشهرة ، أى السمعة التى تسبق صاحبها ، دليل على نوع من السيادة العامة اعترفت بها الجماهير ، على الأقل فيما يخص مجال معين) . أى سيادة معترف بها رسمياً تمثل تحدياً بمعنى انها تولد فينا الرغبة فى تحديد وضعنا الشخصى بالنسبة لهذا المقياس الرسمى للنجاح والتفوق فى المجال المعنى . سواء تحدثنا مع هذا الشخص أو لا ، سواء دار بيننا حوار برئ أو مجابهة حقيقية ، النتيجة النهائية هى دائماً إعادة تقييم الذات بعد المقارنة بالآخر . فرسان القرون الوسطى كانوا يبارزون على ظهور الخيل وعلى قمة الرماح . الرمح الحديث فى كثير من الأحيان هو لسان الإنسان وهو سلاح فتاك لا يقل خطورة عن رماح الماضى .

٢- من أين يأتى التوتر الخفيف الذى يسود الجو كلما تقابل شخصان يمارسان مهنة واحدة فى وسط مجموعة من ذوات المهن والوظائف المختلفة ؟ إنهما يشعران دائماً أن هناك فرصة « لشبه معركة » فنية تهدف إلى التأثير على باقى الجمهور لكسب النقاط والصعود على سلم الاعتراف الاجتماعى . وبالتالى ، بدلاً من أن يشجع كل منهما الآخر ويتمنى له المزيد من النجاح والتوفيق ، نراهما يدافعان عن مواقف متناقضة مستعملان العبارات الفنية التى لا يفهمها أحد فى معظم الأحيان . تسابق للمرتبة ...

٣- يقال فى كثير من الأحيان أنه يفضل عدم التدخل فى حالة وجود مشكلة بين شخصين . لماذا يصعب عادة حل الخلافات بين

شخصين فى وجود طرف ثالث ؟ وجود الطرف الثالث يشجع روح التنافس . يأخذ كل من الخصمين يقدم الأدلة فى محاولة إقناع الشاهد بصحة آرائه ، بدلاً من أن يحاول الخصمان معاً إيجاد الحل السليم الصحيح العادل لمشكلتهما . تتحول المناقشة من بحث إلى محاكمة ...

٤– وراء أى تصرف ظالم مشكلة خاصة « بإرادة السيادة » .

٥– وراء أى تصرف عدوانى من أى نوع نستطيع تخيله مشكلة « إرادة السيادة » .

٦– كثيراً ما يكون مركب النقص والشعور بعدم الاطمئنان أو عدم الاستقرار وبعض أنواع القلق سببها مشاكل خاصة « بإرادة السيادة » . يحتاج كل إنسان إلى معرفة مكانه الحقيقى فى « الترتيب النقرى » حتى يستقر نفسياً . عدم معرفة هذا المكان أو شغل ترتيب يعتبره الشخص غير عادل أو غير مناسب لقيمته الحقيقية يجعل حياة هذا الإنسان مجابهة مستمرة وصراع مستديم مع نفسه ومع الآخرين فى محاولة إعادة الوضع لصحته أو لما يعتبره أنه صحته . من الصعب أن يسعد ويزدهر مثل هذا الشخص . ومن هنا الشعور بآلام الظلم ومرارته . يلوم هؤلاء الناس الآخرين لأنهم يحرمونهم من حقهم فى الاعتراف والسعادة وينسبون إلى اللّه والمجتمع نتائج مشكلة يحملون مسئوليتها وحدهم ، لأن المشكلة تنبع فى الواقع منهم ومنهم فقط . أن نعتبر اللّه مسئولاً عن فشلنا الاجتماعى من التصرفات التى نشارك جماعة « الكواكليبيوتل » فيها : عندما يشعر « الكواكليبيوتل » بالإهانة يرفع يديه إلى السماء صارخاً إلى اللّه « أنت عبد » !

٧– لماذا نحاول دائماً أن تكون لنا « الكلمة الأخيرة » فى مناقشة أو حوار ؟ تعود « الكلمة الأخيرة » للفائز ، أى للذى وقف الأخير على أرض دارت عليها « شبه معركة » لتحديد السيادة الاجتماعية .

٨– يقول الشرقيون : « أتق شر من أحسنت إليه » . الإحسان ، سواء كان يخص القلب أو يخص المحفظة ، يضع المنتفع فى وضع خضوع بالنسبة للمحسن . يشعر المحسن إليه أنه « تحت ظل » المتبرع

وأنه مدين بالمال أو المعروف حتى يرد « البوتلاتش » ... أغلبية الناس لا تعيش هذا الوضع بسهولة وبساطة بل تلعن اليوم الذى رأها فى مثل هذه الظروف . لذلك يقول البعض أن « العطاء أسهل من الاستقبال » . العطاء ليس أسهل من « الأخذ » لكنه أسهل من « الاستقبال » ، لأن الأخذ أنانية وانتهازية ، والأنانية دائماً أسهل من العطاء ، بينما « الاستقبال » هو الموافقة الغير انتهازية على الانتفاع بعطاء الغير ، والإنسان عادة لا يوافق على ذلك إلا للضرورة القصوى ...

بالرغم من كل الفروق الموجودة بين الإنسان والرئيسات الأخرى إلا أنه يمارس هو الآخر « شبه المعركة لتحديد السيادة الاجتماعية » وفقاً لمراسم خاصة بكل مكان وبكل حضارة ، على أن تكون لهذه المجابهة نتائج فى غاية الخطورة والقسوة بالنسبة للمغلوبين . لا رحمة فى تنظيم « الترتيب النقرى » . لنأمل إذاً فى مستقبل أفضل ...

توحى طريقة تقديم الموضوع أن الوزن والقوة العضلية والقامة والنظرة والمجال الشخصى كلها عوامل تحدد « الترتيب النقرى » . يجب إجراء تصحيح بسيط لهذه النظرة . لا يجب أن ننظر للمجال الشخصى كعنصر يدخل فى تحديد « الترتيب النقرى » فحسب . يحدَّد فى بعض الأحيان « الترتيب النقرى » بناءاً على اعتبارات وعوامل لا دور للمجال الشخصى فيها . بعد تحديد « الترتيب النقرى » يشغل كل إنسان المجال الشخصى الذى يتناسب ومرتبته الاجتماعية . المجال الشخصى فى هذا الحال نتيجة للترتيب النقرى وليس من أسباب تحديده . ومن جهة أخرى ، إن الترتيب النقرى ليس العامل الوحيد فى تحديد المجال الشخصى . تقييم الشخص لذاته مستقل إلى حد ما من رأى المجتمع فيه . يعيش إذاً كل منا احتياجاً نفسياً عميقاً لمجال شخصى معين ، يعترف لنا به المجتمع إذا اتفق تقييمه لنا بتقييمنا لنفسنا ، ويرفضه لنا أو يعارض عليه المجتمع كلما اختلف تقييمه لنا عن تقييمنا لنفسنا . الفرق بين المجال الذى نريده والمجال الذى يعترف لنا به المجتمع يحدد درجة السعادة والاتزان أو درجة الضيق والاختناق والاحباط الذى نعيشه .

لهذه النقطة أهمية عظمى إذا أدركنا أن ليس للإنسان مجال شخصى مادى فحسب ، ولكن له أيضاً مجال نفسى وسيكولوچى يتناسب والأول فى الحجم ويفوقه أهمية . اختيار الأصدقاء والأنشطة ، اختيار الملابس وأنواع الطعام ، حرية التصرف ، مواعيد الخروج والعودة إلى المنزل ، أين أقضى فترة الأجازة ، التربيةِ التى يتلقاها أطفالى ونوعها ، اختياراتى المهنية ... الخ ، تمثل بعض العناصر - وليست من أهمها - المكوّنة لمجالى الشخصى السيكولوچى . أهمية وجود هذا المجال السيكولوچى هى أننا نعيش أى تعرض له وكأنه هجوم حقيقى واعتداء مقصود ، يتطلب منا صده ورده فى الحال ، بعد أن ولدٌ فى أعماقنا عاصفة فى منتهى العنف . لا بد من إعطاء مثال لما سبق . وحيث أن فصل هام من هذا العمل يتولى التربية الاجتماعية الجنسية ، سوف أضرب المثال فى مجال الحياة الزوجية . ها هى إذاً ثلاثة سيناريوهات مختلفة لسيكولوچية شاب على أبواب الزواج :

السيناريو الأول : الزواج بالنسبة للشاب عبارة عن إضافة ممتلك جديد إلى قائمة الممتلكات الموجودة فى مجاله الشخصى المادى والسيكولوچى . يصبح لهذا الشاب اختياراته وأولوياته وحريته وأفكاره وميوله الطبيعية ... الخ ، وأيضاً : زوجته . ومثلما يحق له التصرف فى جميع ممتلكاته ، هكذا يرى أن من حقه التصرف فى زوجته . ومثلما تخضع له ممتلكاته كلها كذلك يجب أن تخضع له زوجته . لم يخطر على بال هذا الشاب أبداً أن لزوجته أيضاً مجال شخصى مادى وسيكولوچى . لم يخطر على باله أبداً أن لهذه المرأة ، ولمجرد أنها من الرئيسات ، الحق الطبيعى الكروموزومى الوراثى فى مجال شخصى معين ، مادى ونفسى فى نفس الوقت ، وهذا الواقع مستقل تماماً عن موافقته أو رفضه الاعتراف به . إنه « يفيدها علماً » بالمكان الذى يذهبان إليه و « يقول » لها ما يجب أن ترتديه فى هذه المناسبة . ماذا ؟ تريد الخروج للعمل ؟ ما هذا الجنون ؟ إنها ستعمل فقط بعد أن تحصل على إذن صريح منه ... إذا أذن ! أما أن تساعد أحد أفراد أسرتها ، فيجب أن تعلم وتفهم جيداً أن من لحظة زواجها من هذا الشاب ، هذه المرأة

كرست حياتها كلها لزوجها وزوجها فقط . من السهل أن نتصور نتائج الزواج بين شخصين مختلفى الرؤية ومختلفى الميول السيكولوچى .

السيناريو الثانى : الشاب مثقف ويعلم جيداً أن لديه ولدى زوجته مجال مادى وسيكولوچى شخصى خاص بكل منهما . لكن الواقع النفسى الذى يعيشه هو أن الزواج عبارة عن إضافة وضم مجال زوجته إلى مجاله الشخصى حتى أصبح الآن يدير مجالاً واحداً واسعاً يشمل المجالين معاً . أفقد الزواج الزوجة حق السيادة على مجالها الشخصى . إنه يعترف بحقها فى الازدهار الاجتماعى ... هل تريد الخروج للعمل ؟ فليكن . يحاول أولاً اقناعها بعدم ضرورة ذلك وإذا فشل فى اقناعها يوافق على العمل . لكنها سوف تعمل فى الوظيفة التى يختارها هو وبالطريقة ، ووفقاً للاشتراطات التى يضعها هو . وكثير ما تكون هذه الاشتراطات يستحيل تلبيتها . المعنى المستتر لهذا التصرف هو فى الواقع الآتى : « تنازلت عن حقى فى منعك من العمل ووافقت عليه . ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ إن كان صاحبك عسل ... ! » هل يحتاج أحد أفراد عائلتها لمساعدة ما ؟ من حقها أن تساعد من تشاء . لكنها سوف تذهب فى الأيام التى تناسبه هو وفى المواعيد التى تناسبه هو حتى إذا كانت تلك الأيام والمواعيد لا تناسب سواه . « وافقت على أن تساعدى من تشائين . ألا يكفى ذلك ؟ إن كان صاحبك عسل ... ! » من السهل أن نتصور الخلافات التى تحدث نتيجة للفرق السيكولوچى بين الزوجين إن وجد ، وصدام الشخصيات حتى تنجح الشخصية القوية فى فرض رأيها على الزوج الآخر ، واحباط الشخصية الضعيفة التى تشعر أن مجالها السيكولوچى قد اغتصب .

السيناريو الثالث : الشاب ليس بمقتنع أن لزوجته أيضاً مجال شخصى سيكولوچى خاص بها فحسب ، لكنه مدرك كامل الإدراك أن من حقوقها الطبيعية تحقيق ذاتها والازدهار فى حدود هذا المجال مثلما الحال بالنسبة له تماماً . لذلك فهو يعتبر الزواج شركة يدخلها كل من الشريكين برصيده من المجال الشخصى ، على أن يوحد رأس المال هذا

فيصبح الشريكان يديران معاً المجال المشترك الموحد الجديد ، وعلى أن يحتفظ كل منهما بركن سرى خاص به يخفى فيه ويحمى ويصون نوعاً من « الحياء » Pudeur الجسدى والروحى والنفسى والاجتماعى . هذه العلاقة الزوجية مبنية على التبادل والنقاش والمشاركة والانتباه إلى احتياجات الآخر وعناصر إسعاده ، بهدف مساعدته على تحقيق ذاته إلى أقصى أبعاد التحقيق ، وبهدف بناء سعادة زوجية مشتركة قوية وعميقة وصلبة ودائمة . « احتياجات الآخر الطبيعية حقوق يجب احترامها » (أنظر إلى « الخلية التى حققت التحرر » وكذلك « التربية الجنسية ») .

من الضرورى عند هذا الحد ، وبعد وصف السيناريوهات الثلاثة السابقة ، أن نذكر هنا ثلاثة ملحوظات أساسية وهى :

الملحوظة الأولى : لا شك فى أن العقليات المختلفة التى وصفناها تمثل درجات مختلفة من النضج الجنسى الاجتماعى . الاعتبارات التربوية تشغل مكاناً هاماً فى هذا العمل . السؤال إذاً هو الآتى : « ما هو الدور الذى يستطيع أن يلعبه المربى فيما يخص هذا الموضوع ؟ » هل يتجه إلى تشكيل العقلية وتشجيع النضج ، أو هل يتجه إلى تجنب حدوث المشاكل الزوجية مستقبلاً ؟ « الإعلام » الذى يأتى فى فترة متأخرة من حياة الشخص ، عند آخر فترة المراهقة أو أثناء فترة الخطوبة مثلاً ، لا يكفى لتشكيل عقلية حقيقية ، لأن تشكيل العقلية يستند على الخبرة الحيوية وليس على الاقتناع الذهنى فقط (أنظر إلى « الإعلام والتربية » ، الجزء الخاص بالعلم والمعرفة) . أما الإعلام الذى يأتى بعد ظهور المشاكل الزوجية الأولى فهو إعلام لا قيمة له فى رأيى ، لأن الرصيد العاطفى المستثمَر فى المشكلة أقوى بكثير من أى تفكير ومن أى منطق ويكنسها كنساً . وهذا يفسر قولنا أحياناً عن بعض الأشخاص : « ماذا حدث له فجأة ؟ هل جن جنوناً ؟ » وكذلك قول الأجانب الذين يقولون (وهذه ترجمة حرفية) : « مهما طردت التصرفات التلقائية إنها تعود دائماً للظهور مسرعة » Chassez le naturel, il revient au galop.

يجب أن تبدأ التربية (أنظر إلى « الإعلام والتربية ») الحقيقة في هذا المجال ، كما هو الحال في جميع المجالات الأخرى ، في سن مبكر جداً من حياة الطفل . الخطوة الأولى هي خلق عادات مثل طرق باب الأخ أو الأخت قبل الدخول حتى إذا كانوا أصغر منه سناً والاستئذان قبل أخذ القلم أو الكتاب الذي يريده . يجب أن يسبق اكتشاف المجال الشخصي المادي للآخر اكتشاف مجاله الشخصي السيكولوجي ، حتى يمهد الأول إدراك حقيقية أمر الثاني . ثم يكبر الطفل . إنه لا يعيش المشاكل المرتبطة بالإعجاب والحب بعد ، لكن المربي يستطيع أن ينمي الإدراك بالمجال الشخصي السيكولوجي للآخرين من خلال تحليل علاقات هذا الطفل الكبير بأولياء أموره وبأصدقائه . إن تحليل علاقات الشباب بأصدقائهم يعطي فرصة إدراك أهمية احترام المجال الشخصي السيكولوجي للصديق وأهمية إشراك الصديق في مجال الذات . ثم يكبر الشاب ويصبح مراهقاً كبيراً أو بالغاً على أبواب الزواج . يسهل على هذا الشاب نقل ما أدركه من مبادئ العلاقات في مجال الصداقة إلى مجال الحب . وإذا فشل في إجراء نقل المبدأ من مجال الصداقة إلى مجال الحب تلقائياً ، يستطيع المربي مساعدته وقتئذ .

إن هذه الخطوات التي وصفناها تشكل برنامجاً تربوياً كاملاً يبدأ تطبيقه قبل البلوغ ويستمر حتى النضوج الجنسي الاجتماعي الكامل ، ويستطيع حقاً تشكيل عقلية معينة تؤثر على تصرفات الشخص البالغ وتؤثر على مصير حياته الزوجية . المدرسة التي تسعى إلى إضافة التربية إلى التعليم تستطيع أن تفعل الكثير في هذا المجال .

الملحوظة الثانية : قلنا في الملحوظة الأولى أن السيناريوهات المختلفة التي وصفناها تمثل درجات مختلفة من النضج الجنسي الاجتماعي . من الجدير بالذكر هنا أن درجة النضج هذه لا تلعب دائماً الدور الرئيسي في سعادة الزوجين ونجاح زواجهما . ما هو أهم من درجة نضج كل من الزوجين على حدى هو مدى تكامل وانسجام

الشخصيتين وعدم التناقض بين احتياجات كل منهما . إذا تزوجت سيدة صاحبة إرادة سيادة متضخمة من رجل يتهرب من المسئولية ويسعد عندما تؤخذ القرارات دون أن يكون ساهم فيها ، ربما أنتج لقاء هاتين الشخصيتين الغير متزنتين زواجاً سعيداً ناجحاً ، بينما يفشل زواج شخصين أكثر نضجاً فردياً منهما ، لأن المسافة التى تفصل بين احتياجات وطموحات ومشاعر ورؤية كل منهما أكبر مما يستطيعان قطعه حتى يلتقيان . تكامل عدم الاتزان أفضل من « سوء الاختيار » .

ملحوظة ثالثة : وتخص هذه الملحوظة مسألة « حياد » المربى أمام موضوع النضج الشخصى وتأثير درجة هذا النضج على كيفية التصرف فى المجال السيكولوچى الشخصى . أريد أن أعبر هنا عن احترامى الشديد وتقديرى الغير مشروط للسيد « بيير ستانيارا » - رحمه اللّه ، فقد توفى خلال عام ١٩٩٥ - وحرمه السيدة « دينيز » وللعمل العظيم الذى قاما به فى مجال التربية الاجتماعية الجنسية . إنهما يعارضان بشدة ، فى الفصل الرابع من كتابهما « التربية العاطفية والجنسية فى الوسط المدرسى » ، مبدأ « حياد » المربى ويتهمان المربى المحايد بالسلبية . أشعر بشئ من التحفظ تجاه هذا الرأى وأقول الآتى : يعيش المربى فى بعض الأحيان ظروفاً خاصة تتطلب منه إعادة النظر فى المبدأ التربوى الذى يطبقه والتغيير فيه حتى يلبى احتياجات الناس التى يتعامل معهم . لا يستطيع المربى المسئول عن أطفال صغار أن يكون محايداً . يعرف هذا المربى أنه يستطيع تشكيل عقلية هؤلاء الأطفال على مدى سنوات طويلة وأنه يستطيع أن يساهم فى بناء مستقبل زوجى أفضل لأغلبيتهم ، فيجب أن يفعل ذلك . نعم : الحياد فى هذا الحال سلبية . والسلبية فى هذا المجال جريمة . لكن ، ماذا يفعل المربى الذى يقابل للمرة الأولى مجموعة من المراهقين والمراهقات الكبار أو مجموعة من البالغين على أبواب الزواج ؟ من الخرافى أن يأمل هذا المربى فى التأثير التربوى العميق الذى يهدف إلى تشكيل عقلية سوف تترتب عليها تصرفات أكثر نضجاً من التصرفات التى يمليها عليهم النضج الطبيعى التلقائى الذى حققوه . حتى إذا أجاد المربى الشرح وحتى

إذا فهم الحاضرون الدرس جيداً واقتنعوا به اقتناعًا كاملاً ، هذا « الإعلام » السكيولوچى الذى لا يمثل « تربية » حقيقية ، لا يستطيع أن يولد التصرفات المطلوبة فى حالة وجود أزمة علاقة زوجية لاحقة . كما سبق وقلنا ، فى حالة وجود أزمة حقيقية ، الرصيد العاطفى المستثمَر فى المشكلة يسيطر على المنطق والتفكير ويمنع تأثير « الإعلام » . يجب أن يكون المربى فى هذا الحال « محايداً » للغاية . يجب أن ينسى ما هو الأفضل وما هو المثالى ويتجه إلى أفضل طريقة لاستثمار الإمكانات الموجودة أمامه حيث أنه لا يستطيع إعادة تشكيل البنية الأساسية فى فترة وجيزة . اقترح فى مثل هذه الظروف التصرف التربوى الآتى ، وهو مبنى على ثلاث خطوات : الخطوة الأولى هى إعلام بحت : يشرح المربى الواقع السيكولوچى الخاص بالمجال الشخصى النفسى كما وصفناه . الخطوة الثانية هى إعطاء الأمثلة المقنعة التى تثبت أن (أولاً) « الاحتياجات الطبيعية للآخرين حقوق يجب احترامها » وأن (ثانياً) تجاهل هذه الاحتياجات لا يجلب سوى الاحباط والغضب والرغبة فى الدفاع عن النفس بهجوم مضاد والرغبة فى الانتقام . الخطوة الثالثة هى اقتراح استعمال فترة الخطوبة لدراسة سيكولوچية الشريك الآخر واحتياجاته وعقليته وعناصر إسعاده وطموحاته ... الخ ، دراسة أمينة وصادقة ، بدلاً من أن تُستعمل فترة الخطوبة للمتعة فقط أو لإظهار صفات حميدة مبالغ فيها سوف تخلى منها الحياة الزوجية فيما بعد ، على أن تهدف هذه الدراسة إلى معرفة فرص نجاح هذا الزواج الحقيقية وتجنب خطورة « سوء الاختيار » الذى وصفناه . يعتمد هنا المربى على وجود قدر أدنى من الأمانة الخُلُقية وصدق المشاعر من طرف أزواج المستقبل بدلاً من أن يعتمد على تغيير شامل لعقليتهم فات أوان الأمل فيه لكبر سنهم وقصر الوقت المتاح « لتربيتهم ».. بمعنى آخر : لا بد من عدم الحياد تجاه أطفال صغار ، ولا بد من الحياد التام تجاه بالغين لم تعد « تربيتهم » ممكنة . بمعنى ثالث : تربية الأطفال الصغار تهدف إلى خلق مستوى أفضل من النضج يؤدى إلى تصرفات زوجية أفضل تتجنب المشاكل وتعرف كيف تحلها إن حدثت ، بينما التعامل مع الكبار

يرتكز على مستوى النضج الموجود ويحاول أن يتجنب أخطاء الاختيار التى تولد مشاكل لا يعرف الزوجان حلها .

ماذا نستنتج من كل ما سبق ؟

اخرج من منزلى لأرى قذرات ملقية على سقف سيارتى . أقدم الشكوى للبواب فيقول لى أنه كان من الأفضل أن تقف السيارة فى مكان آخر . إذا كان رد فعلى : « كيف ؟ بواب يخاطبنى بهذه اللهجة ؟ بدلاً من أن يلاحظ ما يفعله السكان ، يقول لى أين يجب أن أترك سيارتى ؟ » (لاحظ ، أيها القارئ العزيز، أن هناك دائماً درجة من التواؤم بين رجل وسيارته) . إذا كان هذا هو رد فعلى إنى لا اختلف كثيراً عن باقى الفقريات ولا أمتلك الكثير مما يمثل الفرق بين الإنسان وباقى الرئيسات . أما إذا كان رد فعلى : « غضبى هذا ينتج عن تجريح إرادة السيادة . يجب أن أفكر بهدوء ربما كان البواب محق » يختلف وقتئذ الوضع . يمكننى أن أعترف للبواب أنه كان على حق فيما قال . لكن ، سواء استطعت ذلك أم لا ، سوف أفكر فى احتمال وقوف السيارة فى مكان آخر ... إن وجد ! .

لا قيمة لأفعال الإنسان إلا إذا كانت أفعال حرة ناتجة عن قرار مبنى على معرفة الدوافع العميقة التى تدفعنا فى اتجاهات معينة وتؤثر على تصرفاتنا . إنسان اليوم ما زال بعيداً كل البعد عن هذا النوع من التحرر . ما زال إنسان اليوم لعبة تحت تأثير هذه الدوافع الخفية . الخطوة الأولى فى طريق السيطرة عليها والتحكم فيها هى معرفتها وإدراك مدى أهميتها فى حياتنا .

الجزء الثانى

الأوان المتصلة

التعويض

يحتاج المولود الجديد إلى تغذية مناسبة . إنه يحتاج إلى قدر أدنى من النظافة وإلى الحماية من البرد والحر . إنه يحتاج كذلك إلى جو عائلى صحى سليم متزن إن لم يكن مثالى . إنه فى حاجة إلى حب .

يحتاج الطفل أن يكتشف إمكاناته الجسدية . يحتاج لذلك إلى حرية التعامل مع عدد معين من الأشياء . إنه يحتاج إلى أن « يلعب » : اللعب بالنسبة للطفل تجربة وخبرة لا يستغنى عنهما . عندما يكبر الطفل يسأل العديد من الأسئلة المختلفة . إنه فى حاجة إلى من يجيب هذه الأسئلة . إنه يحتاج أيضاً إلى جو عائلى يسمح له بالنمو والازدهار دون قلق ودون خوف . إنه فى حاجة إلى حب .

يحتاج المراهق إلى اكتشاف ذاته . يحتاج أيضاً إلى اكتشاف الجنس الآخر . يحتاج إلى المعارضة : معارضة السلطة والتقاليد والعائلة . إن هذه المعارضة تمثل وسيلة من وسائل اكتشاف حدود إمكانات الذات وكذلك وسيلة لإظهار وإثبات شخصيته الجديدة . يحتاج إلى اكتشاف وممارسة الصداقة والوفاء والإخلاص والارتباط والانتماء والاستقامة واحترام الذات واحترام الآخرين والعطاء الغير المشروط ... الخ . إنه فى حاجة إلى حب .

يحتاج الشاب ، فى أوقات مختلفة من حياته ، إلى منافسة والده ، وتحتاج الشابة إلى منافسة والدتها . تساهم هذه المجابهة فى تشكيل الشخصية وبناء الثقة فى الذات . مهما كانت شدة الصدام يجب أن تحدث هذه المجابهات فى جو من الثقة المتبادلة . يجب أن يجرب الشاب الصاعد قدراته النامية بمقارنتها بقدرات البالغين دون أن يسبب ذلك له قلقاً أو توتراً . يجب أن يكون دائماً الحب فى خلفية المجابهات .

يريد البالغ أن ينجح فى حياته المهنية : إنه فى حاجة إلى الانتماء الاجتماعى وإلى تحديد مكانته من « الترتيب النقرى » (أنظر مشكوراً إلى « إرادة السيادة » وما يخص الترتيب النقرى فى هذا الجزء من الفصل الثالث) . إنه يحتاج أيضاً إلى حياة عائلية سوية ومتزنة . إنه فى حاجة إلى أن يُحَبْ .

هذه بعض أمثلة لما يسمى « بالاحتياجات الأساسية » Basic needs .

للمولود الجديد احتياجات أساسية .

للطفل احتياجات أساسية .

للمراهق احتياجات أساسية .

للبالغ احتياجات أساسية .

لدينا جميعاً احتياجات أساسية .

يمرض المولود الجديد إن لم يتوفر له الغذاء المناسب . يمرض كذلك إذا أصابه البرد . اندهش الباحثون عندما لاحظوا أن اضطراب الجو العائلى وتدهور العلاقات بين الوالدين وما يترتب عليه من ارتفاع الصوت وخشونة الحديث يولّد لدىَ بعض المواليد الجدد ، أثناء نومهم ، سلوكاً يشبه تماماً ممارسة العادة السرية : تقلصات عضلية إيقاعية ، متزايدة الشدة ، تصل إلى ذروتها بعد وقت قصير ، ثم يليها ارتخاء عضلى كامل وفترة نوم عميق . تختفى هذه الظاهرة تماماً عند عودة الجو العائلى إلى وضعه الطبيعى . من البديهى أن هذا المولود الجديد ليس بسعيد .

الطفل المحروم من لمس الأشياء ، الطفل الذى لا يستطيع أن يقذف بها فى الهواء أو يلعب بها كما يشاء ، الطفل الذى تسيطر على حياته كلمة « لا » ، الطفل الذى لا يجد من يجيبه على أسئلته الكثيرة يشعر أن البالغين من حوله لا يهتمون به ولا يحبونه . الطفل الذى يرى والديه فى خلافات مستمرة يعيش فى قلق وتوتر . كيف يكون هذا الطفل سعيداً ؟ .

المراهق الذى لا يستطيع أن يقول سوى « نعم » والذى لا يستطيع أن يبدى برأى وينافس أباً غائباً ، المراهقة التى لا يحق لها الكلام والسؤال والتى لا تستطيع أن تنافس أماً متهربة أو خاضعة ، الشاب الذى ارتبط فى ذهنه اكتشاف البُعْدُ الجنسى الطبيعى الذى وضعه الخالق فينا بشعور بالذنب أو بالقذارة والذى ، بدلاً من أن يتعلم كيف يسيطر على مثل هذه الدوافع ، تعلم فقط كيف يرفضها ويكبتها ، هؤلاء جميعاً مراهقون ومراهقات لا يستطيعون الازدهار والتفتح على العالم وعلى الآخرين كما كان فى إمكانهم وكما كان المفروض أن يتم ذلك . هؤلاء الشباب لا يتذوقون طعم السعادة .

البالغ الذى لا يستطيع أن يجد مكانه الحقيقى فى المجتمع ، البالغ الذى لا ينال من المجتمع قدر الاعتراف الذى يشعر أنه يستحقه ، البالغ الذى يشعر بالاحباط المهنى أو العائلى أو العاطفى ، هذا البالغ لا يستطيع أن يتزن وأن يزدهر . هذا البالغ ليس بسعيد .

عدم إرضاء متطلبات أى احتياج من الاحتياجات الأساسية يولِّد ألمًا نفسيًا ويقلل من سعادة الإنسان .

الآلام الناتجة عن عدم إرضاء متطلبات أى احتياج من الاحتياجات الأساسية تهز الإنسان مسببة له خللاً فى اتزانه النفسى . هذا يفسر صعوبة ازدهار الشخصية فى مثل هذه الظروف ، خاصة إذا استمر هذا الوضع فترة طويلة من الزمن . يسعى دائماً الإنسان إلى الاتزان والثبات . أى اهتزاز فى الاتزان الداخلى للإنسان ينادى بما يتناسب معه تناسباً عكسياً فى محاولة إرجاع الميزان إلى نقطة الاتزان والثبات . لا يستطيع الإنسان أن يتحمل آلاماً نفسية تفقده اتزانه لمدة طويلة : يجب إما أن يجد حلاً لمشكلته أو أن يتعلم كيف يتعامل معها للتخفيف من شدة الضيق والألم . يمكننا إعطاء الأمثلة الأولى فى مجال موازى للمجال النفسى وهو المجال المادى العضوى : جسد الإنسان مثلاً . التعرض إلى البرد الشديد يخل اتزان الجسم الحرارى . هذا الخلل ينادى بالتعويض . الحل الأول هو تناول الطعام على أن يمد هذا الغذاء الجسد بالسعرات اللازمة لإعادة الميزان الحرارى للجسم إلى نقطة الاتزان . إذا

استحال تناول الغذاء أو فى حالة بطء إجراء عملية توفير السعرات المطلوبة بواسطة الطعام يأخذ الجسم يرتعش . هذه الرعشة ، أى التقلصات العضلية القوية السريعة الإيقاع ، تنتج سعرات فورية الاستعمال تستطيع أن تحل المشكلة مؤقتاً لحين تنسيق الحل الجذرى النهائى . مثال أخر : فقدان الإبصار عاهة تسبب إعاقة شديدة . المعاق الكفيف يحتاج إذاً إلى ما يعوض إلى حد ما عائقه . نعلم اليوم أن من نتائج فقدان حاسة من الحواس تضخم تعويضى فى بعض الحواس الأخرى . الكفيف يتمتع بشدة سمع ودقة فى تمييز الأصوات غير عادية بالإضافة إلى أن جلد الجسم كله وخاصة جلد الوجه يكتسب قدرة على الإحساس بوجود الأشخاص ووجود الحواجز لا يملكها البصير العادى . فى كلا هذين المثالين يحاول الجسد إعادة الاتزان المفقود بسبب عدم الإرضاء المؤقت (فى حالة البرد) أو النهائى (فى حالة الكفيف) لاحتياج أساسى عن طريق استبدال ما ينقصه بما يستطيع « تعويض » النقص .

لا يختلف الوضع النفسى عن الوضع العضوى الذى وصفناه . لذلك يشجع الشر الانتقام والعدوان العدوان المضاد والألم الدموع والاحباط الاجرام ...

الشعور بالألم أو الضيق النفسى ، سواء كان ذلك لمدة قصيرة أو لمدة طويلة ، ينادى « بالتعويض » .

لنحاول تحليل ديناميكية « التعويض » بطريقة مبسطة ومختصرة ، ولنحاول إدراك تأثير هذه العمليات التعويضية على سلوكنا وتصرفاتنا .

تتوقف طريقة التعويض على نمط الشخص :

ليرجع القارئ إلى بداية الفصل الخاص بعناصر الأنماط المختلفة « الانفعال » Emotivité و« النشاط » Activité و « الرنين » Retentissement مفاهيم أساسية لإدراك ما يلى . من ناحية أخرى ، يجب ألا ننسى أبداً احتياج كل منا إلى « التبرير الذاتى » auto

وأن « التبرير » justification نفسه يمثل فى بعض الأحيان طريقة « للتعويض » السيكولوچى الذى نتحدث عنه . سوف نناقش هذه النقطة فيما بعد .

زوجة أحمد أقوى نمطاً منه . فى كثير من الأحيان تستطيع أن تفرض إرادتها عليه ويكون القرار قرارها حتى فى حالة عدم موافقته عليه . يشعر أحمد بشئ من الاحباط كلما زادت الضغوط عليه وأجبرته على قبول ما لا يرضيه فعلاً . هناك احتمالات ثلاث . الاحتمال الأول هو وقوع الحدث على فترات متباعدة ولا يترتب وقتئذ عليه نتائج سيئة : يمكن التعامل مع الشعور بالاحباط الخفيف بطريقة سوية إذا مثل حدثاً نادر الحدوث لا يؤدى إلى الحرمان من احتياج أساسى . الاحتمال الثانى هو تكرار الحدث عدة مرات خلال اليوم الواحد : الاحتياج إلى إثبات الرأى الشخصى وإثبات استقلال الشخصية وعدم خضوعها لآراء الغير ، خاصة الغير مقنع منها ، وهذا النوع من إثبات الذات يمثل قطعاً احتياجاً أساسياً ، لا يجد الإشباع الكافى الطبيعى المستحق . عدم إشباع هذا الاحتياج بهذا المعدل المرتفع يسبب لأحمد ألماً وضيقاً نفسياً تجبره شدته على إيجاد حل جذرى نهائى . هذا الحل الذى سوف يجده أحمد لإنهاء أو لتخفيف العذاب الذى يعيش فيه يمثل عملية « التعويض » التى نتحدث عنها . أما الاحتمال الثالث فهو ممثل فى الحالات المتوسطة المعدل التى يتكرر فيها الحدث بمعدل مرة أو مرتين فى الأسبوع . بالرغم من أن هذا المعدل قد يبدو من الممكن إدارته بطريقة سوية ، إلا أن نمط أحمد هو الذى سوف يحدد أهميته الحقيقية وكذلك نوع واتجاه التعويض الذى سوف يتم اللجوء إليه .

(١) درجة « الانفعال » يترتب عليها عمق وشدة الألم الناتج عن الشعور بالاحباط . الشخص الشديد الانفعال يشعر بألم أشد من الألم الذى يشعر به الشخص الضعيف الانفعال أو الشخص ذو انفعال شديد الاختيارية والذى لا يهتم بمسألة خاصة بفرض الرأى أو إثبات الشخصية . (٢) « الرنين » يحدد نوع تأثير الألم على حياة أحمد . إذا كان أحمد يعيش فقط فى الوقت الحاضر (رنين من النوع الأولى)

وإذا كانت الفترة الزمنية بين كل حدث والآخر كافية نسبياً ، يستطيع أحمد « هضم » الحدث والتعامل معه فى كل مرة قبل وقوع الحدث التالى . أما إذا امتدت التأثيرات التى يولدها الانفعال فى الزمن واستمر تأثيرها لمدة طويلة (نمط ذو رنين ثانوى) قد تكون الفترة الزمنية بين كل حدث والآخر غير كافية لاتمام عملية « هضم » كاملة . يؤدى ذلك إلى عملية « إضافة » أو « تراكم » تأثيرات الأحداث المتتالية مع « تراكم » الآلام المسببة فى كل مرة وتصاعد شدة العذاب الذى يعيشه يوماً بعد يوم . هذا يفسر أن ما هو فى غاية الأهمية والخطورة بالنسبة لنمط معين قد يكون فى بعض الأحيان بسيط الأهمية وقليل التأثير والنتائج بالنسبة لنمط آخر . تتراكم الآلام ويتصاعد العذاب مع مرور الوقت :

(٣) درجة « نشاط » أحمد هى التى سوف تحدد اتجاه رد الفعل ، أى اتجاه ونوع التعويض الذى سوف يلجأ إليه فى مَحاولة التخلص أو التعامل مع الألم وتخفيفه . رد الفعل هذا يمثل دائماً تعويضاً يهدف إلى إعادة الميزان الداخلى الذى اضطرب بسبب الألم الناتج عن حرمان إشباع احتياج أساسى إلى نقطة الاتزان . لا بد إذاً من حدوث رد فعل ما . إذا كان أحمد « ضعيف النشاط » و « ثانوى الرنين » يستطيع أن ينطوى وأن « يجتر » آلامه (حذار من انتقام الضعيف الذى تنفجر فجأة آلامه المجترة ...) إذا كان أحمد « ضعيف النشاط » و « أولى الرنين » سوف يعيش انفجارات غضب وقتية خاضعة لتلقائية هذا النمط . (هذا الوضع أقل خطورة بكثير من الوضع الأول : حتى إذا صفع أحمد زوجته صفعة إنها تعرف جيداً أن ذلك يزيد من فرص تقديمه الاعتذار أو الهدايا فى اليوم التالى ...) أما إذا كان أحمد « نشيطاً » سوف يتجه التعويض إلى التنفيذ العملى فيعذب مرؤوسيه فى العمل معطياً أفضل مثال للرئيس الاستبدادى الذى يظنه الجميع دكتاتور حقيقى فى منزله بينما الحقيقة غير ذلك تماماً . هذا الرجل « يعوض » خارج المنزل الاحباط الذى يعيشه داخل منزله .

يمكن أن يولّد عدم إشباع نفس الاحتياج الأساسى تعويضات مختلفة الاتجاه وفقًا لنمط الشخص الذى يعيش الاحباط .

كلنا نلجأ إلى قدر من التبرير الذاتى . لذلك فإن أحمد لا يعتبر نفسه ولا يشعر أنه عبدى . إنه يرى أنه سعيد الحظ فيما يخص رؤسائه وأنه فقط يرد لهم الجميل حينما يعاملهم باحترام وتقدير . كذلك لا يشعر أنه رئيس مستبد تجاه مرؤوسيه . أنه يعاقبهم ويجازيهم فقط لأنهم لا يقدرون حظهم فى العمل فى مثل هذه الشركة وبالتالى لا يقومون بعملهم على الوجه المطلوب . الأحكام التى يصدرها أحمد على كلا رؤسائه ومرؤوسيه تمثل التعويض لاستحالة النظر إلى نفسه وتحليل وضعه السيكولوچى بصراحة وبدقة ، حيث أنه لا يستطيع أن يقول : « أنا أضعف نمطاً من زوجتى ويمثل تعاملى مع الرؤساء والمرءوسين تعويضاً للاحباط الذى أعيشه فى منزلى » .

أريد الآن ، وبعد استئذان القارئ ، إعادة عرض ما سبق بطريقة مختلفة .

نديم رئيس قسم « التأمين على الحياة » فى شركة تأمين كبيرة تغطى كافة أنواع التأمين . إنه مسئول عن أداء عشرين موظف ولديه رئيسان مباشران . إننا ننظر إلى نديم فى مجال العمل ونلاحظ أنه يعامل رؤسائه باحترام مبالغ فيه وأنه لا يتنازع معهم أبداً . الابتسامات المستمرة والانحناءات الدبلوماسية تخفى الأخطاء التى لا يخلو منها أى أداء مهنى متوسط كأداء نديم مثلاً . إنه يتعذر بمنتهى السرعة والسهولة كلما احتاج الأمر إلى ذلك . إنه لا يعارض السلطة أبداً . يتوقع من يرى هذا اللطف اللذيذ تجاه الرؤساء أن يكون نديم أباً حقيقياً لمرؤوسيه . الواقع عكس ذلك تماماً . نديم رئيس شديد فى طلباته ، قاسى فى أحكامه ، يوجه اللوم باستمرار وبدون تميز ويجازى أقل خطئ جزاءاً يفوق بكثير أهمية الحدث . إن مرءوسى نديم لا يقدرونه ولا يحبونه .

هناك احتمالات عديدة لتفسير تصرفات نديم :

١ – لم يستطع نديم أثناء طفولته ممارسة إمكاناته بطريقة تسمح له باكتشاف حدودها الحقيقية . عندما كبر لم يستطع منافسة والده

لأسباب كثيرة . لم يوفق فى بداية حياته العاطفية بما يسعد هذه المرحلة من حياة الإنسان ومر ببعض التجارب الفاشلة . عدم ممارسة الإمكانات الطبيعية للشخصية لاكتشاف حدودها ، مضافاً إلى عدم منافسة الأب والفشل العاطفى ، أحالوا دون اكتمال شخصية نديم فيما يخص ثقته فى ذاته . نديم رجل لا يثق فى نفسه بالقدر الأدنى المتوقع من رجل ناضج ومتزن . حيث أنه لا يعرف حدود إمكاناته تماماً إنه يتهرب من مواجهة رؤسائه . من هنا نوع من الخضوع – خضوع يختفى وراء مبدأ احترام وتقدير قيمة الرؤساء – يتجنب كل احتمالات الاحتكاك . خضوعه الشديد للرؤساء جعل نديم يحتاج إلى مجال يستطيع أن يثبت وجوده فيه ويعبر فيه عن آرائه وشخصيته دون خطر المجابهة التى تحمل دائماً احتمال الهزيمة والمزيد من الخضوع . يحتاج نديم إلى مجال لا تناقش فيه آرائه ولا تحاكم فيه قراراته بل تنفذ بلا جدال ، أى مجال يخلو من احتمالات المجابهة ، « يعوض » فيه خضوعه الكامل لرؤسائه . مرؤوسيه هم الذين سوف يوفرون له هذا المجال . يهاجم نديم عندما يشعر أن لا خطورة فى الهجوم ويتراجع عندما يشعر أن هناك إمكانية مجابهة حقيقية تحمل خطورة الهزيمة والخضوع . فى الواقع : إن نديم يهاجم مرؤوسيه ويعتدى عليهم لأنه ضعيف الثقة فى نفسه .

٢– نديم رجل خجول جعلته الظروف من زواج ومعارف ومصالح ومجاملات يشغل منصب إدارة ومسئولية لا يتناسب وخجله . ماذا يستطيع أن يفعل نديم ؟ هل يستطيع أن يرفض المنصب ؟ طبعاً لا . هل يجمع مرؤوسيه ويقول لهم : « أنا رجل خجول ولا أصلح للقيادة . أرجو أن تساعدونى على إدارتكم ! ؟ لا يجوز ذلك . ليس أمام نديم سوى إخفاء خجله بأى طريقة وإدارة الفرع كما يستطيع ... المدير الحقيقى ، القائد الصالح هو – فى تصور نديم – الرجل الذى يثق فى نفسه ، يصدر أوامر يتوقع تنفيذها ويعاقب من يخالف تعليماته . سوف يقوم إذاً نديم « بتمثيل » هذا الدور مع كل ما يفترضه وضعه من مبالغة فى الخواص وخطئ فى تقييم المفاهيم بسبب ابتعاد الشخصية التى يمثلها

كل البعد عن الواقع النفسي الحقيقي الذى يعيشه . يهاجم نديم مرؤوسيه ويعتدى عليهم لأنه خجول ومتردد .

٣- يهاجم نديم مرؤوسيه ويعتدى عليهم لأنه « يعوض » فى حياته المهنية احباطاً عائلياً مماثلاً للاحباط الذى يعيشه أحمد والذى وصفناه فى المثال الأول .

٤- يهاجم نديم ويعتدى لأنه ورث چيناً خاصاً بالميل إلى الاجرام . هذا الاحتمال يمثل اكتشافاً جديداً يجب النظر إليه بحذر كما هو الحال بالنسبة لكل الاكتشافات الجديدة .

تصرفان مماثلان تماماً نلاحظهما فى شخصين مختلفين قد تختلف مسبباتهما كل الاختلاف . حذار من « التعميم » ... تعميم الرأى أو تعميم الحكم أو تعميم التحليل .

من الهام جداً أن أدرك الفرق بين نوعين مختلفين من الظروف التى أواجهها فى حياتى العملية ، لأن كل نوع منهما يولّد دوافع خفية خاصة به تؤثر على سلوكى وانفعالاتى بطريقة مختلفة .

فى وضع أول : أنظر إلى نديم وألاحظ تصرفاته فى العمل ، ما يدور لا يخصنى شخصياً . أنا « ملاحظ » فقط لاغير . ألاحظ وأدرس تصرفات وانفعالات نديم وإما أصل إلى إدراك ما لحقيقة الأمور ، إما استنتج فقط أن نديم يعانى من مشكلة نفسية دون الوصول إلى اكتشاف وإدراك الأسباب العميقة لهذه المشكلة ، وهذا لا يهم : يكفى أن أدرك أن هناك مشكلة نفسية . إن الذين يستطيعون أن يدركوا أن هناك مشكلة قليل ... للأسف .

فى وضع ثانٍ : أنا نفسى من مرؤسى نديم وأعانى من تصرفاته تجاهى وتجاه زملائى الموظفين والآخرين . يخصنى إذاً الموضوع بصفة شخصية جداً . فى هذا الحال الدافع الذى يجعلنى ألاحظ تصرفات نديم ليس الرغبة فى محاولة مساعدته من خلال إدراك ما يدور فى مجاله النفسى . هذه فقط علتى . الدافع الحقيقى نابع من مشكلتى أنا أى من المعاناة والألم الذى أعيشه من خلال علاقتى برئيسى نديم . إذا كنت

من نمط « انفعالى » وإذا كنت أعانى من هذه العلاقة الظالمة منذ مدة طويلة نسبياً ، إذاً لا بد من أن أعانى من قدر معين من الاحباط فيما يخص احتياج من احتياجاتى الأساسية وهو مجال الاعتراف المهنى . بدلاً من أن يكون تحليلى النفسى حيادياً ، سوف يمثل هذا التحليل طريقتى الخاصة « للتعويض » عن آلامى واحباطى . بدلاً من أن أحاول تحليل نديم بهدف فهم نديم وإدراك ما يدور فى نفسه وفى قلبه ، سوف أميل مثلاً إلى ملاحظة قائمة نقاط الضعف وقائمة الأخطاء التى تبرر استبداله بمسئول آخر ، محققاً بهذه الطريقة « تعويضى » الشخصى عن طريق « الانتقام » من نديم ، ومبرراً ذاتى فى نفس الوقت لأن إثبات عدم كفاءة نديم كرئيس يفسر ويؤكد كفاءتى أنا كمرؤس ، موضحاً أن الملاحظات والجزاءات التى « أصابتنى » كانت كلها غير عادلة .

ما سبق يفسر ما يلى :

– تختلف نظرتنا للأمور عندما تخصنا شخصياً عما هو عليه عندما تخص الآخرين .

– « الموضوعية » من أصعب الإنجازات فى العالم . إننا نُسقِطُ دائمًا جزءاً من انفعالاتنا وتعويضاتنا فى تفكيرنا وأحكامنا وتحليلاتنا ومحاولاتنا لفهم الآخرين .

– المحللون والمعالجون النفسيون يجرون جلسات تحليل نفسى فى محاولة لإدراك أكبر عدد من الدوافع الخفية التى تحركهم قبل بداية تحليل أو علاج الآخرين .

إن عدم ارضاء احتياج أساسى والتعويض الذى ينادى به الألم أو الاحباط الناتج عنه مثل إناءان متصلان أو مثل ذراعى ميزان واحد ، تنعكس حركة كل منهما على الآخر حتى يتساوى مستوى الماء فى الإناءين أو حتى تتزن كفتى الميزان . الأمثلة التالية توضح ما نعنيه بذلك .

ليس الهدف من هذه الصفحات تحويل القارئ إلى محلل نفسى . أنا الذى أكتبها لست بمحلل نفسى . أريد فقط الاشارة إلى (١) أنه من

الصعب جداً معرفة الذات معرفة كافية لإدراك كل ما يدور بداخلنا من دوافع ومؤثرات مختلفة ، وبالتالى من الصعب إصدار الأحكام على تصرفاتنا وأسبابها الخفية وكذلك أن (٢) ليس من الحكمة التسرع فى تكوين الرأى وإصدار الأحكام على تصرفات الآخرين . لعل ولدت قراءة هذه الصفحات الرغبة فى معرفة المزيد ... محتوياتها تمثل فى نظرى الحد الأدنى من العلم فى هذا المجال الذى يجب على كل إنسان معاصر بلغ الخامسة والعشرين من عمره ويقود حياة اجتماعية طبيعية أن يمتلكه .

من اليأس العميق الذى يدفع بعض الناس إلى الانتحار إلى الثورة الدامية والاجرام ، ماراً بتمثيل دور الشخصية المظلومة التى لا يفهمها أحد ، والغضب البارد والغضب المتفجر ، والاستسلام السام ، والانتقام التلقائى والانتقام الذى ينتج عن خطة موضوعة ومنفَّذة بكل هدوء واسرار ، والخيانة الخبيثة والسلوك الاستبدادى ، والاضطهاد والظلم والتفاصيل البسيطة الخاصة بالجياة اليومية ، هناك مجموعة واسعة من التصرفات « التعويضية » المعروضة علينا ، الكثيرة الأنواع والمتعددة المجالات ، نلجأ إلى ما نحتاج إليه منها وفقاً لنمطنا وسننا ومكانتنا الاجتماعية ... الخ . لابد من الإشارة إلى أن اللجوء إلى وسيلة ما من الوسائل « التعويضية » التى أشرنا إليها ليس « اختيار » أو « قرار » يتخذه الإنسان ، **لكنه رد فعل تلقائى من العقل الباطن الذى يحاول إعادة التوازن النفسى المختل** . بهذا المعنى إننا لا « نختار » وسيلة للتعويض لكننا « نلجأ » إليها .

أ- فى مجال إرادة السيادة والاعتراف الاجتماعى :

١- هشام شاب فى السادسة عشر من عمره . يتمتع بحياة عائلية طيبيعة ومتزنة . يمر أولياء أموره فقط بالأزمات الطبيعية بالنسبة للحياة الزوجية . هشام موفق نسبياً فى دراسته . إنه ليس من أوائل الفصل لكنه ينجح فى كل امتحان دون بذل جهود متناهية . تترك له الدراسة وقتاً يكفيه لممارسة الرياضة . إنه ليس ببطل من الأبطال لكنه لاعب متوسط يهوى الرياضة للمتعة وليس للإنجاز . لذلك فهو يجد

بسهولة من يشاركه ألعابه . لديه أصدقاء . إنه لا يميل لكل معارفه نفس الميول ولا يتقبله جميع الذين يعرفونه نفس القبول ، لكنه يتمتع بحياة اجتماعية سوية ومتزنة ، متوسطة لكن مُرْضية . إنه عضو فى نادى اجتماعى حيث يقابل بنات من نفس عمره . إنهن تقدرن بساطته وصفاته الحميدة وترون فيه رفيقاً مسلياً يمكن الاعتماد عليه عند اللزوم لإبداء الرأى المحايد والوقوف على جانب الحق بصراحة وهدوء . يريد هشام أن يكون محامياً . والد هشام صيدلى ويتمنى أن يغير هشام رأيه ليرث من صيدليته من بعده . لكنه رجل حكيم يترك لابنه حرية تقرير مصيره . إنه يعيش سنه الحالى بطريقة سوية . لا يشعر بأى استعجال للوصول إلى الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره . لديه بطبيعة الحال تطلعات وطموحات كثيرة بالنسبة للمستقبل ، لكنها لا تمنع من أن يعيش الحاضر بارتياح وسعادة. إنه يعيش حاضره ويتذوقه ، ويبنى مستقبله فى نفس الوقت . إنه لا يحسد الآخرين . إنه سعيد وراضى بما لديه ولا يطمع فى المزيد أو المختلف بطريقة تقلل من متعته بالحاضر . إنه سعيد . حاول مراراً بعض معارفه التأثير عليه لكى يشعل سيجارة . أخيراً أشعل سيجارة . تأكد عندما ذاق طعمها واختنق بدخانها أن ليس فى السجاير ما يجذبه وما يبرر الإساءة الى صحته . إن السيجارة لا تمثل شيئاً ولا ترمز إلى شئ ذو معنى أو جاذبية خاصة بالنسبة له . استعمال الشتائم والألفاظ القبيحة أيضاً لا يمثل اى جاذبية بالنسبة له . أنه بالطبع يعرف ويفهم كل الشتائم وكل الألفاظ التى يستعملها بعض الزملاء ، لكنه لا يشعر بالاحتياج إلى اللجوء إليها : يستطيع أن يعبر عن أفكاره وعن مشاعره وعما يدور بداخله بالأساليب المؤدبة العادية ولا يعيش دافعاً إلى الانحلال اللغوى . لا يشعر هشام أنه فى حاجة إلى « إثبات شئ » ما ، لا لنفسه ولا للآخرين .

يختلف الأمر بالنسبة لكثير من الشباب من حوله . بل إن الذين يتمتعون بوضع نفسى مماثل لوضع هشام نادرون نسبياً ويمثلون أقلية فقط . هذا النوع من « السوية » النفسية نادر نسبياً أثناء فترة المراهقة . أولياء أمور بعضهم منفصلون وأولياء أمور البعض الآخر

يتشاجرون بدون انقطاع . البعض فاشل فى الدراسة والبعض الآخر غزا « حب الشباب » وجههم لدرجة جعلتهم أضحوكة بالنسبة للزملاء ، خاصة وهم يربطون هذه الظاهرة بممارسة العادة السرية ... البعض فاشل من الناحية الرياضية والبعض الآخر لا يعرف كيف يتعامل والجنس الآخر أو يعانى من عدم إمكانية التعامل مع الجنس الآخر ، إما بسبب الظروف وإما بسبب أوامر صريحة من الأب والعائلة ، وهم لا يعرفون ولا يجدون من يلجئوا إليه . البعض « صعب النمط » ويتجنبهم الآخرون حتى شعروا أن ليس هناك من يحبهم وشعروا بالفشل الاجتماعى والحرمان العاطفى الصريح . إن جميع هؤلاء لا يعيشون مراهقة سوية . إنهم لا يتمتعون بالقدر الكافى من السعادة والتفتح والازدهار . إنهم يتمنون الآتى :

١- أن يكونوا أكبر سناً .

٢- أن يكسبوا من المال ما يحررهم من الاحتياج إلى ولى أمرهم .

٣- أن يعملوا وينجحوا فى عمل ما حتى ينالوا الاعتراف الاجتماعى والاحترام والتقدير الذى ينقصهم حالياً .

٤- أن يكونوا وسماء يُعْجَب بهم الناس ، أذكياء يبرقوا فى سماء المجتمع ، أبطالاً تصفق لهم الجماهير ، أصحاب سيارات جميلة يحسدهم الجميع عليها .

قد تكون هذه كلها أيضاً تطلعات وطموحات الشاب الراضى بحاضره والمتزن نفسياً . إلا أن هناك فرق جوهرى بين أن يتطلع الشاب إلى مستقبل معين أثناء ما يعيش حاضره بارتياح ، وبين أن يرفض حاضراً مؤلماً ويُسْقِط رؤيته للمستقبل الذى يتمناه فى هذا الحاضر المرفوض . حيث أن لا هروب من الحاضر ، هؤلاء المراهقون يعذبون . العذاب ينادى « بالتعويض » . سوف « يعوض » هذا الشاب عذابه النفسى بالوهم بأنه حر ومستقل ، متبنياً مظاهر ومسالك ورموز الحرية والاستقلال دون أن يحاسبه أحد على تصرفاته . أنه « يمثل » الدور الذى لا يستطيع أن يعيشه فى واقع حياته . إنه يسير بطريقة

معينة ويرتدى ملابس معينة وأيضاً يحرك جسمه ويتكلم بطريقة معينة . أن يقود سيارة والده (بعد استئذان الأخير أو بدون إذنه) و«يشرب» السجاير من رموز حياة البالغين الأحرار . استعمال الشتائم والألفاظ القبيحة يولد شعوراً بالتحرر من التزامات المراهقة والخضوع لعالم البالغين . هذا ليس كل ما فى الأمر . إن هؤلاء الشباب ، أثناء بحثهم عما « يعوض » آلام مراهقة غير مريحة ، يضطرون أيضاً إلى تشكيل العلاقات بينهم بعضاً لتحديد مرتبتهم الاجتماعية وتحديد « الترتيب النقرى » للمجموعة (ليرجع القارئ إلى « إرادة السيادة ») . سوف يتمادى كل منهم ويبالغ فيما يراه من مظاهر الرجولة والتحرر لينال تقدير الآخرين ويرتقى على السلم الاجتماعى . من هنا التصاعد التدريجى لهذا النوع من انحراف الشباب البسيط نسبياً ، الذى ليس سوى طريقة « للتعويض » عن الآلام والقلق الناتجان عن ممارسة الحياة وفقاً لقوانين البالغين ومقاييسهم . لأن قوانين البالغين ومقاييسهم هى التى تسبب – للأسف– فى كثر من الأحيان القلق وعدم الارتياح الذى نتحدث عنه . لا يجذب هشام « تمثيل دور البالغ المستقل المتحرر » لأنه لا يشعر بضرورة الهروب من الحاضر واستبداله بخيال المستقبل الذى يتمناه وينتظره بفارغ الصبر . من العناصر التى جعلته يعيش حاضره بسوية وانسجام أن عائلته ، إما بسبب نوع من الاتزان الطبيعى وإما بسبب إدراك عميق لاحتياجاته ، تحترم مراهقته وتوفر له الحب الناضج البناء المفيد . نجد أن كل عنصر من عناصر حياة هشام وكل مجال من مجالاتها على انفراد « متوسط » جداً فى المستوى والأداء والإنجاز . هذا لا يهم . المهم أن ليس هناك عنصراً واحداً يسبب له ألماً ينادى « بالتعويض » .

إن السيناريو « التعويضى » الذى وصفناه يكون دائماً مؤقتاً وعابراً بالنسبة لشاب (وكذلك الشابة إلى حد كبير) الذى يعيش فى ظروف اجتماعية تسمح له بالأمل فى أن يقود فى يوم من الأيام الحياة التى يتمناها ، محققاً بذلك أحلامه وطموحاته . أما فى ظروف اجتماعية معادية ، حيث الأمل فى تحقيق الأحلام والطموحات مفقود أو ضعيف

جداً بسبب شدة المنافسة أو لأى سبب آخر ، قد يفر ويهرب البعض إلى حياة وهمية تتميز بالمعارضة والثورة ضد المجتمع القاسى ، حتى يؤدى ذلك ، بعد مضى بضعة سنوات من الاحباط والفشل المتكرر ، إلى تكوين « العصابات » أو إلى دخول المنظمات الثورية المعارضة . هذه الظاهرة ليست إلا طريقة أخرى للتعويض عن الفشل الاجتماعى ، حيث أن قواعد المجابهة وقوانين المنافسة التى وضعها البالغين للحصول على المكانة الاجتماعية والاعتراف الاجتماعى – أى تحديد الترتيب النقرى – تفوق قدرات هؤلاء من ناحية التحمل والالتزام والتضحية والمجهود .

٢– امتلكتُ دائماً سيارة متواضعة . لا شك فى أن السيارة تمثل اليوم مقياساً لمكانة صاحبها الاجتماعية . التعليقات التى تدور أحياناً حول سيارتى جديرة بالاهتمام والتحليل . هناك الأثرياء الذين يتمتعون بمرتبة اجتماعية مماثلة أو تفوق المرتبة التى أتمتع بها أنا وهناك الأثرياء الذين حصلوا على شهادات مماثلة أو تفوق شهاداتى العلمية . هؤلاء يمثلون المجموعة الأولى من الناس والتعليقات . إنهم يشعرون بارتياح نفسى تجاهى ولا يشعرون أن هناك « ما يجب إثباته » بالنسبة لى . بالتالى إنهم لا يشعرون بالاحتياج إلى « تعويض » ما . إذا دار الحديث حول السيارات تكون تعليقاتهم دائماً لطيفة ومهذبة . يقولون على سبيل المثال : « سيارتك مناسبة جداً بالنسبة لمن لا يسافر كثيراً » أو : « ليس هناك سيارة رديئة . السائق الماهر والصيانة المناسبة يحفظان أى سيارة فى حالة جيدة » . سواء اقتنعوا بما قالوا أم لا فإنهم لا يشعرون بضرورة جرح شعورى وإثبات عدم لياقة سيارتى . إنهم يشعرون بالمساواة أو بالتفوق علىّ والسيارة التى أقودها لا تهمهم إطلاقاً ... تتكون المجموعة الثانية من أثرياء لا يتمتعون بمرتبة اجتماعية مماثلة لمرتبتى ولم يحصلوا على شهادات مماثلة لشهاداتى ، أى مجموعة من الذين يحققون اليوم أرباحاً هائلة ويكونوا ثروات ضخمة بالرغم من أنهم شبه أميين . أنهم يمتلكون عادة سيارات أفخم بكثير من سيارتى . كثير ما يقولون لى فجأة ، دون أن يدور الحديث

حول موضوع السيارات ، وكأنهم يعطونني نصحية غالية : « متى تغير سيارتك لتشترى ما يتناسب و« مقامك » ؟ سيارتك الحالية ليست من مستواك ... » والمعنى المستتر لهذه الجملة هو أن السيارة التى يقودونها هى السيارة الملائمة تماماً « لمقامى » . لدينا إذاً سلوك تهجمى يبدو وكأن لا مبرر له . يقطن المبرر الحقيقى فى الرغبة فى « تعويض » القلق الناتج من الفرق الاجتماعى والثقافى بيننا . إذا كنت أعلى منهم من ناحية الشهادات العلمية والمرتبة الثقافية والاجتماعية ، فهم أعلى منى من ناحية المكانة المادية ويقودون السيارة التى تناسب مستواهم . إن هذا « يعوض » ذاك . هل أتستطيع أن أنافسهم فى هذا المجال ؟ هذا مثال يخصنى شخصياً . قد يفاجأنى الهجوم خاصة وأنا لا أتوقعه . هناك فرق شاسع بين تحليل نقاش يدور بين أى شخصين بأعصاب هادئة وبين الإجابة الفورية على مثل هذا الاعتداء المفاجئ الموجه لى شخصياً . يجب أن أدرك جيداً وفور وقوع الحادث أن الاعتداء (إذا اعتبرته اعتداءاً : هذا يرجع إلى درجة ارتياحى النفسى للسيارة التى أقودها ... !) ليس موجه لشخصى كما يبدو – هذا الشخص يثق فى مهارتى الفنية فيما يخص علاج أفراد عائلته مثلاً – لكنه « يعوض » فى الواقع شعوراً بالنقص تجاه الشهادات العلمية والاعتبار الاجتماعى المرتبط بها والذى لا يستطيع أن يشتريه مال .

٣– أراد محمود استعمال جزء من سطح المنزل لتركيب مستقبل هوائى لجهاز التليفزيون . رفض صاحب العقار . ليس فى ذلك ظلم لأن من حق المالك الموافقة أو الرفض كما يشاء . بعد شهرين من وقوع الحادث رأى صاحب المنزل أن من مصلحة السكان تغيير الماسورة الرئيسية لدخول مياه الشرب . مشاركة السكان فى هذا المشروع ليست اجبارية لأن تغيير الماسورة ليس ضرورى . لذلك سأل المالك السكان ليأخذ موافقتهم . وافق جميع السكان ، خاصة والمشروع مفيد جداً ، وإن كان غير قاسى الأهمية ، ما عدا محمود الذى رفض مقدماً ألف سبب وسبب لتبرير رفضه . التفسير الحقيقى لرفض محمود هو فى الواقع الآتى : عاش محمود رفض المالك استعماله جزء من سطح المنزل

علـى أنه مجـابهـة للسـيـادة والسيطرة انتـصـر فيـهـا المـالك وفاز ، فـارضـاً رغبتـه وسيطرته على مـحمـود الذى حُرِمَ من تركـيب المستقبل الهوائى للتـليفـزيون . عاش إذاً مـحمودا إحـباطاً شـديداً لم يتـم « هضمـه » خلال الشـهرين المـاضيين . مـرت الأيام وأتيحـت لمحمـود فرصـة ممـارسـة حـقه فى الموافـقة أو الرفض بدوره . يسـتطيع الآن أن يفرض إرادته عـلـى المالك ويسـيطـر علـى الموقف . هـل يسـتطيع أن يقـول مـحـمود : « أنـا أرفض لأننى أريـد الانتقـام التـعويضـى من رفض المالـك استـعمـالـى للسـطح » ؟ طـبـعاً لا . إن مـحـمود لا يـسـتـطيـع أن يـقـول ذلـك للآخـريـن كـمـا أنـه لا يستطيع أن يعـترف بذلك لنفسه أيضاً . (تذكر : التـبرير الذاتى) . سوف يجد إذاً ألف مبرر للرفض بينما المبـرر الوحيد الحقيقى هـو « تعويض » إحباطه وعلاج قلقه .

العلاقات التى تسـود بين أعضاء مجلس إدارة جمعية من الجمعيات – لتـكن جمـعـية خـيرية مثـلاً أو جمـعـية تربـط بين خـارجى مـدرسـة أو جامـعة واحدة – جـديرة بالانتباه والوقـوف عندهـا . من أين يـأتى أن فى كثيـر من الأحيان ، إن لـم يـكن فى أغلبهـا ، تنقسـم هـذه المجـالس إلـى فرق أو مـجمـوعات تـختـلـف فى الآراء وفى وجـهـات الـنظر وتـنادى بـأنشـطة مختلفة وبأسـاليب كثير ما تكون متنـاقضة ومتضـاربـة ؟ « حيث أنهـم لا يسـاعدوننا فى تحـضير حفلنا سوف لا نسـاعدهـم فـى تنظيم رحلتهم ! » هـنـاك « هـم » وهـنـاك « نـحـن » ، والمجـلس واحـد ولا يـهـدف سـوى الخدمـة ... مبـدئيـاً ! ثم هـنـاك « حفـلنـا » و « رحلـتهم » ، والأنـشـطة كلـهـا أنشـطة خـاصة بالمجلس ومـقامـة لخدمـة هدف مـشـترك ومـوحد ... مـا يدور هنا على مستوى المجموعة هـو مـا يدور على مستوى الأفراد بعينه حينمـا نسمع : « لم يحـضـر لتقديم العزاء عندما تـوفى أخى . لماذا أذهـب أنا الآن وقد توفى أبوه ؟ » وكذلـك عندما نـسمع : « إنه لـم يحضـر حـفل عرض لوحـاتى . سوف لا أحضـر مسرحـيته ... » . الواقـع أن الـشخص المـعنى لا تـهمـه مـشـاهـدة لوحـاتى بـينمـا أهـتم أنا كـثـيراً بمـشـاهـدة مسـرحيته . لا أهمـية لذلك . أنه جـرح شعورى بأهمـية وجمال لـوحاتى وعمـلـى الفنـى مسـبباً لـى ألماً ينـادى بالتـعويـض . هـذا النوع مـن الانتقـام

البسيط و الذى يتعارض فى بعض الأحيان ومصلحة فاعله ، يمثل إمكانية « تعويض » منتشرة جداً ، سارى اللجوء إليها فى إطار الحياة العملية اليومية ليس على المستوى الفردى فحسب لكن على المستوى الجماعى كذلك .

٤ – الكرامة وعزة النفس مشاعر تنتج عن تقييم الذات فى المجال الاجتماعى . الشعور بالاستغلال والشعور بمحاولة التأثير الخفى على قراراتنا وتصرفاتنا (manipulation) من المشاعر التى تجرح كرامتنا وعزة نفسنا . الشخص الذى يحاول استغلالى يهين كرامتى لأنه لا يحترمنى ولا يعاملنى على قدم المساواة من حيث المرتبة الاجتماعية . الشخص الذى يحاول التلاعب بمشاعرى والتأثير الخفى على قراراتى وتصرفاتى يهين كرامتى لأنه يعتبرنى أقل منه ذكاءاً ويظن أنه فى إمكانه أن يقودنى كيف وحيث يشاء . ليس هناك مبدئياً ما يمنع التفكير بالطريقة الآتية : « يحاول فلان التأثير الخفى علىّ حتى أفعل ما يريد وأقول ما يشاء . إنه لا يطلب منى ذلك بصراحة إما لأنه ليس من النوع الصريح الذى يقول ما يدور فى ذهنه ببساطة ، إما لأنه يخشى أن أرفض طلبه . إنى أستطيع أن أنفذ له طلبه دون أن يكلفنى ذلك شيئاً . إذاً، سوف أفعل ذلك . لنعترف بصراحة أن هذا النوع من التفكير نادر جداً . رد الفعل التلقائى للأغلبية العظمى من الناس هو أن نقول : « إنه يحاول التلاعب حتى يحقق غرضه دون أن الاحظ ! سوف أريه من منا الأكثر ذكاءاً ومن الذى يستطيع أن يخدع الآخر ! » لدينا هنا رد فعل « تعويضى » يهدف إلى تخفيف الألم والقلق الناتجين عن جرح الكرامة وعزة النفس بسبب السخرية وعدم إبداء قدر الاحترام الذى يشعر الشخص أنه يستحقه .

ب- فى مجالى النقص الحقيقى والنقص الوهمى :

٥- ماجدة سيدة فى الثلاثين من عمرها . إنها جميلة ، متعلمة ، متزوجة من رجل ممتاز ووالدة طفلين لذيذين . يبدو أن لديها جميع عناصر السعادة . مع ذلك ، إنها ترتدى دائماً ملابس مثيرة للغاية وتحاول إثارة الرجال وكأنها توعدهم وعوداً لا تنوى استيفائها . إنها « تشعل » الرجال لمجرد إثارتهم ولا تهتم بهم بعد ذلك .

بحث الحالة يكشف أن هذه المرأة ، التى تبدو وكأنها بركان شهوة ودوافع جنسية ، مصابة فى الواقع « بفتور جنسى » صريح . ليس موضوعنا أن نبحث الأسباب التى تؤدى إلى الفتور الجنسى . إنها متعددة ومختلفة ولا تهمنا كثيراً فيما يخص حالة السيدة ماجدة . المهم أن ماجدة تشعر وكأنها مبتورة من جزء هام جداً من أنوثتها . تشعر أنها امرأة غير كاملة ينقصها شئ فى غاية الأهمية . الألم الناتج من الشعور بالنقص الجنسى ينادى بالتعويض . قد تختلف وسائل وطرق التعويض مع اختلاف للأنماط والشخصيات . لجأت ماجدة إلى إثارة الرجال : إنها تثبت لنفسها بهذه الطريقة أنها مثيرة وجذابة وأن أنوثتها قوية وفعالة . إنها « تعوض » فشلها فى المجال الجنسى البحت بنجاح مبالغ فيه فى مجال الأنوثة والجاذبية وإثارة الذكور . هذا يفسر أيضاً عدم تنفيذها لما يبدو أنها تعد به.إنها فى الواقع لا تعد بشئ . إنها فقط تثبت لنفسها أنها تستطيع إذا أرادت ...

لا تسلك جميع السيدات المصابات بفتور جنسى مسلك السيدة ماجدة . على صعيد آخر ، كل سلوك مماثل للسلوك الذى وصفناه لا ينتج إجبارياً عن فتور جنسى ...

٦- كريم شاب فى السابعة عشر من عمره . إنه يعرف بنات كثيرات . لا تعلم عائلته ذلك . صدر أولياء أموره أوامر صريحة لكريم بعدم لقاء بنات وهم يظنونه يطيع أوامرهم وينفذها بكل دقة . زارنى كريم ليشكو من أن البنات اللاتى يصاحبهن تشكين دائماً بأنه غيور وامتلاكى النمط . وضح تبادل الحديث أن كريم يغضب بشدة كلما تتحدث صديقته مع شاب آخر أو عندما يعلم أن شاب آخر اتصل بها تلفونياً . يغضب أيضاً من أى علاقة بين صديقته وأى بنت أخرى إذا كانت هذه الأخيرة تحتاج إلى شئ من وقت فراغها أو من اهتمامها ، كما هو الحال فى بعض حالات المرض مثلاً . لا يطيق أن تصرف صديقته اهتمامها عنه حتى ولو كان ذلك لتهتم بصديقتها المرضية . سألته عن سبب ضيقه فى كل من هذه الأمثلة التى وصفها . كانت إجابته أنه « لا يثق فى البنات » ويخاف دائماً أن يفقد صديقته إذا انشغلت

فى أشخاص أو فى ظروف تبعدها عنه . أخذنا نحلل الأمثلة المذكورة واستنتجنا أنها لا تمثل فى الواقع خطورة فعلية تستطيع أن تحول عواطف صديقته وتبعدها عنه . الظرف الوحيد الذى يستطيع أن يحول عواطف وارتباط صديقته ويبعدها عنه هو ظهور شاب أخر أكثر جاذبية وإثارة من كريم. لكن كريم غيور مبدئياً من كل الذكور الموجودين فى الوسط المحيط بصديقته . سرعان ما يستنتج كريم أنه ينفعل فى كل مرة كما لو كان جميع الذكور الآخرين أكثر جاذبية وإثارة منه وأنهم يمثلون جميعاً خطورة جذب صديقته وتحويل عواطفها بعيداً عنه . الاستنتاج التالى لكريم – وهو شاب قوى الملاحظة والقدرة على التحليل الذاتى – هو أن يقول : « إذاً ، أنا لست بغيور من باب عدم ثقتى فى البنات أو لأن البنات غير جديرات بالثقة ، لكننى غيور من باب عدم ثقتى فى نفسى .» . مرت الشهور واستطاع أن يغير كريم من سلوكه . أثبتت له التجربة أنه يستطيع أن يثق فى البنات وفى نفسه أيضاً وأن الغيرة بعلة عدم جدارة البنات بالثقة ما هى إلا « تعويض » لعدم الثقة فى الذات عند المقارنة بالآخرين .

الغيرة لا تنتج دائماً عن نفس السبب . عدم الثقة فى الذات لا تؤدى إجبارياً إلى الغيرة ...

جـ- فى مجال العاطفة والانفعال :

٧- نادية أنسة فى الخامسة عشر من عمرها . إنها فاشلة فى مجال الدراسة . تم طردها من عدة مدارس حتى الآن . لا تجيد الرياضة . انفصل والداها وهى تعيش حالياً مع والدتها . إنها تعتبر والدتها هى المسئولة عن فشل زواج الوالدين . إننا لا نتوقع أن تقود نادية حياة امرأة حرة خاصة وهى تعيش فى مجتمع محافظ حيث المزيد من الحرية يضر مصالحها ومستقبلها . الواقع أن نادية تهوى الذكور بلا خجل ولا اختفاء حتى سبقتها سمعتها فى كل مكان .

عانت نادية منذ كان عمرها خمسة أو ستة سنوات من حرمان عاطفى شديد . لم تنل القدر الأدنى من حنان الوالدين الذى يحتاج إليه

كل طفل لينمو ويزدهر . عانت من هذا الحرمان العاطفى منذ قبل سن البلوغ . اجتاح الألم الناتج من عدم إرضاء هذا الاحتياج الأساسى إلى « التعويض » . حيث أنها تعتبر والدتها مسئولة عن فشل زواج الوالدين ، إنها تعتبرها فى نفس الوقت مسئولة عن العذاب والفراغ العاطفى الذى تعيش فيه . أدى ذلك إلى الشعور بالكراهية . إن نادية تكره والدتها . تحتاج نادية إلى التعبير عن هذه الكراهية وإلى محاولة تعويضها بطريقة ما . تحتاج إذاً نادية إلى خلق جو من العاطفة والحنان من حولها ، جو يقترب على قدر الإمكان من دفء الحب الحقيقى ، وتحتاج فى نفس الوقت إلى الانتقام من والدتها . الشباب الذكور هم الذين سوف يوفرون لها إمكانية تحقيق هذا « التعويض » المزدوج . حيث أنها ينقصها الجمال اللازم لجذب الأولاد ، لجأت إلى الوسيلة الأخرى وهى التساهل والتسامح الجنسى . تضمن نادية بهذه الطريقة الوجود المستمر للذكور من حولها ، مسببة لوالدتها مشاكل لا حصر لها ، بالإضافة إلى طردها من مدارس متتالية وانعكاس سمعتها على والدتها التى تعتبر المسئولة الأولى والأخيرة عن تربيتها وسلوكها . أما الذكور – الذين لا يدركون شيئاً من الأبعاد الحقيقية للمشكلة – فينتهزون الفرصة بكل بساطة وسرور ، وهم لا يعرفون أن تصرفهم هذا يسيئ إلى اتزان نادية السيكولوچى ويغلق عليها الدائرة الملعونة .

نادية ليست بنت « منحلة الأخلاق » . نادية تتصرف وكأنها كذلك لأنها تعانى من حرمان عاطفى شديد ، لأنها تتألم ولأنها تريد أن تدفع والدتها ثمن كل ذلك .

يكفى فى بعض الأحيان أن يأتى بالغ – رجل أم امرأة كان – بشئ من الدفء والحنان والعاطفة الأبوية فى حياة مثل هؤلاء البنات لتسترجعن الأمل فى جمال الحياة والثقة فى قيمتهن الإنسانية والروحية والذاتية ، وليتحول الكابوس اليومى إلى حياة سعيدة متزنة موفقة . كم من هؤلاء البنات يقابلن فى حياتهن مثل هؤلاء البالغين ؟

من ناحية أخرى ، لا شك أن تربية الأجيال الصاعدة تربية سيكولوچية صالحة بناءة ، تهدف إلى إدراك أفضل للأحداث وتحليل أعمق للوقائع التى يعيشونها ، تستطيع خلق روح من التماسك والتضامن بين الشباب المراهق من الجنسين يحول دون الانتهازية الغبية لما يعتبرونها فرص تُستَغل لأنهم لا يفهمون أسبابها العميقة ولا مكوناتها الحقيقية . لا يسعد أبداً مراهق عندما يستغل يأس مراهق آخر أو مراهقة أخرى . الذين يفعلون ذلك لا يدركون ماذا يفعلون . يتصرفون كذلك فقط من باب الجهل بالشئ . رأيت الدموع فى أعين شاب عمره ثمانية عشر عاماً عندما أدرك أنه لعب دوراً سلبياً فى مسرحية موضوعها الحقيقى اليأس والآلام والعذاب ، بينما كان فى استطاعته أن يلعب دوراً هاماً وأساسياً وجميلاً وبناءاً لو أدرك حقيقة الأمر فى الوقت المناسب .

٨- كان فريد فى الثامنة من عمره عندما توفت والدته . كان دائماً من أوائل فصله قبل وفاتها واستمر من الأوائل بعد وقوع الكارثة . مرت خمس سنوات . بلغ فريد الثالثة عشر من عمره . أعلن والده رغبته فى الزواج وقدم السيدة المعنية لأطفاله . لم يظهر فريد أى رد فعل خاص . بل وعقد وخطيبة والده علاقات طيبة ، تبدو طبيعية جداً . الفرق الوحيد هو أن مستوى الدراسة أخذ يتدهور تدريجياً لدرجة أن ، بعد مضى شهور قليلة ، كاد يرسب فى امتحان آخر السنة . بعد أن كان فريد من أوائل فصله أصبح اليوم تلميذاً يبذل الجهود الضخمة لاحراز نتائج متوسطة جداً . فى يوم من الأيام استيقظ فريد فى الصباح الباكر وأخذ سيارة أبيه ليقودها فى الشوارع المحيطة بمنزلهم . يظن الأب أنه شم فى بعض الأيام رائحة سجاير فى غرفة فريد . « زوغ » فريد مرتين من المدرسة خلال النصف الثانى من العام الدراسى . كان دائماً فريد طالباً مثالياً . سلوكه خلال الشهور الأخيرة يثير الدهشة والتساؤل . الوالد الذى يحب فريد بكل قلبه فى غاية الضيق . يريد أن يفهم ما يدور فى ذهن ابنه لكى يعيد الأمور إلى مجراها الطبيعى .

أدار فريد الفراغ العاطفى الذى تركته والدته عند وفاتها إدارة

موفقة. كان صغيـر السن نسبياً وعرف أبوه كيف يعوض إلى حد ما غياب الأم . أما اليوم ، وهو فى الثالثة عشر من عمره ويعيش أزمة البلوغ وبداية المراهقة ، فهو قابل للجرح والإصابة بسهولة نسبية . إنه فى حاجة إلى عطف وحنان ووجود واهتمام واستقرار مادى وعاطفى يستند عليها فى اجتيازه هذه المرحلة الصعبة الحرجة الحساسة . فجأة يغير والده مجرى الأمور مولداً تهديداً جديداً فى حياة فريد : يأتى بامرأة جديدة لتحل محل الأم المفقودة علماً أن مكان الأم لا يحل محله أحد . ومن ناحية أخرى سوف يحول جزءاً كبيراً من عواطفه واهتمامه ووقته بعيداً عن أطفاله حيث أن لكل زوجة جديدة طلبات وتمنيات يسعد الزوج أن يوفرها وينفذها . كل هذا يهز عالم فريد هزة فى غاية العنف. التهديد بفقدان عاطفة واهتمام الأب - وهو الشخص الوحيد الذى تبقى لفريد بعد وفاة والدته - يولد قلقاً وألماً يناديان بالتعويض . يحتاج إذاً فريد لإثارة اهتمام والده ولشغل جزء كبير من وقته ومن جهوده ومن تفكيره . تدهور الدراسة يخقق هذه الاحتياجات . قد توحى طريقة وصف الحالة القارئ أن فريد ينفذ خطة وضعها عن تفكير للفت نظر والده وشغل وقته واهتمامه . الواقع غير ذلك بالطبع . لا يتصرف فريد بناءاً على خطة موضوعة لكنه يتصرف تلقائياً وبدون تفكير ، لاجئاً دون أى وعى إلى ما « يعوض » آلامه ويخفف قلقه .

٩- قابلت بعض المراهقين يدعون أنهم وقعوا فى حب سيدات تبلغ أعمارهن ضعف أعمارهم . يشعر شاب فى السابعة عشر من عمره بفخر كبير عندما يستطيع لفت انتباه وجذب سيدة فى الرابعة والثلاثين من عمرها . بالرغم من أن ما يحدث فى الواقع هو العكس تماماً . هذا الفخر يمثل دافعاً قوياً لعواطف هذا الشاب ، على أن يلعب الدافع الجنسى البحت دوره الهام جداً أيضاً . بحث الموضوع أوضح فى بعض هذه الحالات وجود تشابهاً كبيراً بين المرأة المحبوبة والأم : سمحت الظروف لهؤلاء المراهقين بتحقيق أحلامهم الجنسية وبتعويض غياب الأم فى نفس الوقت . كثيراً ما كانوا يستأذنون السيدة ويبحثون عن موافقتها ويستشيرونها تماماً كما يفعل الطفل

الصغير مع والدته . من ناحية أخرى ، هذه العلاقة تُشعِر الشاب أنه يشارك البالغين فى حياتهم . أما عن سيكولوچية مثل هؤلاء السيدات ، استطيع أن أنقل لكم كلمات بعضهن كما نقلها شاب من المراهقين . السيدة تقول للشاب : « لك الفضل فى أننى لا أشعر بمر السنين ولا أعانى من ابتعاد شبابى عنى ... » تعوض السيدة خوفها من تقدم السن من خلال علاقة غرامية تثبتها وتأكدها فى عناصر الشباب المستمر . أما عن أهمية عقدة « أوديب » Oedipe ودورها فى العلاقات من هذا النوع ، أفضل عدم التعرض إليها .

د- فى مجال إدارة الحياة اليومية :

١٠- استطعت لشهور طويلة أن أجعل صديقاً يشعل سيجارة كلما شئت . لاحظت أنه كان يشعل سيجارة كلما دار الحديث حول موضوع معين . ظننت فى أول الأمر أن الموضوع هو الذى يجعله يشعل السيجارة ، ثم لاحظت أن هذا الموضوع مقلق جداً بالنسبة له وتساءلت عن السبب الحقيقى لاشعال السيجارة : الموضوع نفسه أم القلق الناتج عنه ؟ اخترت بعد ذلك مواضيع أعرف جيداً أنها تثير قلق صديقى وكنت دائماً أثير إحدى هذه المواضيع فى وقت لم تكن بيده سيجارة مشعلة . كان يشعل واحدة باستمرار فى الدقائق التالية لبدء الحديث . سواء كان المدخن « مزمن نيكوتين » أو « مدخن سيكولوچى» ، لا شك أن الضيق والقلق والتوتر أو عدم الارتياح لمناقشة ما أو لوجود شخص ما أو لوضع ما ، من العوامل البسيطة التى تتكرر مراراً فى الحياة اليومية والتى تدفع المدخن إلى اشعال سيجارة . اشعال عود الكبريت أو غاز الولاعة ، اشغال السيجارة ونفخ الدخان وشغل اليدين فى كل هذه العمليات ، من الوسائل الفورية التى يلجأ إليها كثير من الناس « لتعويض » التوتر والقلق وعدم الارتياح .

هـ- فى مجال الشعور بالأمن والاستقرار :

١١- عاش بعضنا فى طفولته ظروفاً عائلية أو اجتماعية أو مادية أثارت القلق وهزت شعورهم بالأمن والاستقرار ، وهى من الاحتياجات

الأساسية جداً لازدهار شخصية الطفل . كبر عبد الله وهو يرى والديه يقلقان كل يوم بسبب الحالة المادية ومصاريف المنزل وتكاليف الأكل نفسه . كلما زاد التوتر بينهما اتهمت الأم الأب بعدم الكفاءة والقدرة على مواجهة مسئولياته وهددت بالانصراف والانفصال والطلاق . كبر عبد الله فى الخوف وفى عدم الاستقرار ، المستقبل كله علامات استفهام ، لا تضامن بين أفراد العائلة ولا ضمان لاستمرار الحياة العائلية نفسها . ترك هذا التهديد المستمر بعض العلامات فى الاتزان النفسى لعبد الله . الطفل الذى يعانى من عدم الاستقرار والشعور بالتهديد المستمر فى صغره يحتاج لما يؤمنه ويعطيه شعوراً بالحماية والاستقرار فى كبره . إن « الامتلاك » من العوامل التى تولد شعوراً بالأمن والحماية والاستقرار . الرجل الذى يمتلك مالاً أو أشياء قيمة أو ثراء ما يشعر أنه أمن مستقبله وتخلص من الخوف من المفاجآت المؤذية وقلق التابعية المستمرة للآخرين . الامتلاك يشعره أن الناس والظروف لا تستطيع جرحه وأن ممتلكاته تحميه من الإصابات والأذى ... تنظيم الحياة فى كل تفاصيلها من العوامل الأخرى التى تشعر الإنسان بالأمن والاستقرار . لجأ عبد الله إلى هذه الوسيلة الثانية . عبد الله مصاب بهوس النظام والترتيب maniaque . إنه ينام ويستيقظ فى مواعيد ثابتة ، يضع أحذيته دائماً فى نفس المكان ، ويشعر بضيق شديد إذا لمس أحد أشيائه أو نقلها من مكانها إلى مكان أخر . إذا ذهب إلى النادى إنه يجلس دائماً على نفس المنضدة . بالطبع ، لديناجمعياً مكاننا المفضل فى النادى . أما عبد الله فإنه لا يجلس سوى على منضدته المعتادة وإذا اضطر للجلوس على غيرها يشعر بضيق يفسد يومه كله . الأتربة تضيقه أيضاً . يجب أن يكون المنزل دائماً فى غاية النظافة والترتيب . لا يختلف الوضع فيما يخص شخصه وملابسه . إنه يشترى قمصانه دائماً فى نفس المحل التجارى ولا يغير أبداً من طراز الأحذية التى يرتديها ولا من طريقة قص شعره . النظام والنظافة والمواعيد الثابتة والعادات التى لا تتغير والروتين اليومى الذى لا يعرف المفاجآت والتخطيط المحكم للحاضر والمستقبل كلها من العناصر

التى تشعره بالدفء والأمن والاستقرار والحماية ، وهذا « يعوض » شعوره بالقلق وعدم الاطمئنان الناتج عن طفولته المهزوزة .

ماهر أيضاً عاش فى طفولته ظروفاً مماثلة لظروف عبد اللّه . لكنه لجأ إلى التعويض بالطريقة الأولى ، التعويض الذى يمر بقناة الامتلاك . أصيب عبد اللّه بهوس النظام والترتيب ، ماهر مصاب بالبُخل : إنه بخيل . إنه ليس من النوع الذى يتعذب عندما يصرف مالاً لا بد من صرفه . لا . لدى ماهر موضوعية كافية ليعرف أن بعض المصاريف ضرورية وهو يصرف بمنتهى البساطة إذا اقتنع بضرورة الصرف . لكن الامتلاك بالنسبة له ضرورة . لذلك فهو يحاول فى كثير من الأحيان أن يقنع نفسه أن الصرف غير ضرورى حتى يتهرب منه . هناك بخلاء ينتقدون الذين يصرفون بسهولة . ماهر ليس من هؤلاء . كما أنه لا يحسد أبداً الذين يمتلكون أكثر منه . كل ما فى الأمر أنه يحتاج للتوفير والامتلاك لأنه يشعر أن ممتلكاته تضع مسافة بينه وبين خطر المفاجآت ، وأنها تمثل تأميناً وضماناً ضد التابعية والاحتياج .

١٢– سيكولوچية « هاوى الجمع » collectionneur تستحق الإشارة إليها ، خاصة الهاوى المتطرف المستعد لأى تضحية والذى لا يتردد أمام مخالفة القانون فى سبيل الحصول على القطعة التى يشتهيها .

و- فى مجال التبرير الذاتى :

١٣– التبرير الذاتى التعويضى ظاهرة سهلة الملاحظة على مستوى تبادل الحديث اليومى العادى .

أ– إذا قابلنا الواحد بعد الآخر ثلاث رياضيين لعبوا مباراة رياضية وخسروها وسألنا كل واحد منهم على انفراد : « هل كسبت أو هل خسرت المباراة ؟ » ماذا تكون إجابتهم ؟ غالباً ما تكون الإجابة : « خسرت ... لم أنم ليلة البارحة بطولها ... » أو : « خسرت ... يؤلمنى ظهرى منذ ثلاثة أيام ألماً لا يوصف ... » علماً بأننا لم نسأل عن أخبار النوم أو أخبار الظهر ! كانت كلمة : « خسرت » . كافية جداً كإجابة

مرضية بالنسبة للسؤال ... الضيق الناتج عن الخسارة – ولا شك أن الأغلبية لا تحب الخسارة مهما كانت روحهم الرياضية مرتفعة – ينادى بالتعويض . التبرير الذاتى عن طريق تحويل مسئولية الخسارة من مستوى الأداء الرياضى إلى قلة النوم أو ألم الظهر يخفف من احباط الخسارة ويعوض عن الضيق الناتج عنه . الشخصية النادرة التى لا تحبطها الخسارة سوف تقول : « خسرت ، لعبت جيداً لكن كان خصمى لعبه أفضل من لعبى ... » .

ب– احتاج لمعرفة إذا كان المريض يصوم شهر رمضان أم لا حتى أنظم علاجه وفقاً لمواعيد تناوله الطعام . لذلك أسأل كل مريض : « هل أنت صائم ؟ » الذين لا يصومون يقولون : « لا . أنا فاطر منذ الأمس لأننى اضطررت إلى شراب ... إلخ » أو يقولون : « لا . اضطررت إلى الفطور منذ ثلاثة أيام عندما أصيب أخى ... إلخ » . أنا لم أسأل أبداً منذ متى أوقف المريض صيامه ولا أسأل عن سبب ذلك . يستطيع أن يجيب المريض قائلاً : « لا . أنا فاطر » . عدم الصيام يشعرهم بالذنب بالإضافة إلى الضيق الناتج عن خوفهم من حكمى عليهم . التعويض الطبيعى التلقائى للشعور بالذنب والضيق هو القول أن الانقطاع عن الصيام حديث جداً وأن أسبابه خارجة عن إرادة الشخص وأجبرته على ذلك .

جـ– للعزبة أسباب كثيرة ومختلفة . من بين هذه الأسباب (١) الخوف من الارتباط والتعهد ، وكذلك (٢) الخوف من المسئولية التى يفترضها الزواج . لا أعرف أعزباً بسبب أحد السببين السابقين يجيب على السؤال : « لماذا لم تتزوج ؟ » بالإجابة السهلة البسيطة التالية : « لم أتزوج خوفاً من الارتباط » . أو « لم أتزوج خوفاً من المسئولية » . لا يعترف هذا الأعزب أبداً أنه هو المسئول الأول والأخير عن عزبته . يلقى عادة بالمسئولية على القدر قائلاً : « لم أقابل فى حياتى المرأة المناسبة » . أو يلقى بها على الجنس الآخر بقوله : « النساء غير جديرات بالثقة ... » من الصعب ومن النادر أن يعترف المرء بعيوبه وبنقاط ضعف شخصيته . نقاط الضعف وعيوب الشخصية تسبب ضيقاً ينادى

بالتعويض . التبرير الذاتى يقوم بهذا الدور التعويضى فى هذه الحالات.

قد يبدو الحديث البسيط اليومى مجرد من المستترات والتعقيدات بينما يخفى فى الواقع قدراً هاماً من الدوافع العميقة التى تحدده وتوجه مجراه .

م - بعض وسائل التعويض « للاستعمال العام » :

١٤- يعرف كتاب Price's textbook (طب بشرى) اللازمة العصبية (le tic nerveux) بأنها « التعبير عن ضيق نفسى لدى شخصية حساسة جداً وغير متزنة نفسياً » ويقول : « هناك دائماً رغبة فى تخفيف الضيق وتقليل الحرج عن طريق ممارسة اللازمة ، وهناك أيضاً راحة حقيقية بعد تنفيذها ، على أن تشارك هذه الراحة خيبة أمل خاصة بملاحظة أن الضيق والحرج لم تتم إزالتهم النهائية بعد .» هذا التعريف خير تفسير للدور التعويضى الذى تلعبه « اللوازم العصبية » . الشخص الذى يمرر باستمرار أصبعه فى ياقة القميص ، الشخص الذى يشد باستمرار ذقنه إلى الأمام ، الشخص الذى يدلك باستمرار طرف أنفه أو يلعب باستمرار بأذنه ، شخص يعانى من مشكلة نفسية لا يستطيع حلها . هذا الشخص يتعذب ويتألم . إنه جدير بالشفقة والمساعدة بدلاً من الضحك والسخرية . ليس من السهل إدراك سبب الضيق النفسى الذى يعانى به هذا الشخص لأن اللوازم العصبية من الوسائل التى يمكن اللجوء إليها لتعويض أى ضيق كان . بهذا المعنى فهى تمثل وسيلة « للاستعمال العام » ! لنكتفِ بإدراك أن حيث اللازمة العصبية مشكلة نفسية عميقة لا يستطيع صاحبها حلها . فيعوضها كما يستطيع .

١٥- يعرف قاموس Larousse « جوع البقر » (la Boulimie) بأنه : « شعور بجوع زائد يدفع إلى استهلاك كميات متزايدة من الطعام » الشخص المصاب بهذه الحالة مصاب أيضاً بدرجة من السمنة الغير عادية . إنه تعس بسمنته وغير قادر على التحكم فى دافع الجوع

المسيطر عليه . « جوع البقر » أيضاً من وسائل التعويض «للاستعمال العام » . التوتر ، القلق ، الاحباط ، الخوف من المستقبل ، عدم الرضا بالحاضر ، الندم ، الحرمان العاطفى ... إلخ . كلها من عوامل الضيق النفسى الذى نستطيع تعويضه عن طريق المبالغة الغذائية . «رچيم التخسيس » حقاً مضحك بالنسبة لمن يدرك أن وراء هذه المبالغة مشكلة نفسية عميقة يحاول الإنسان أن يعوضها عن طريق التهام كميات ضخمة من الطعام . من جهة ، إن محاولة منع هذا الشخص من الأكل يعنى منعه من ممارسة التعويض الوحيد الذى لجأ إليه لتخفيف آلامه وضيقه النفسى ، ومن جهة أخرى ، إذا استطعنا إقناع أو إجبار هذا الشخص على فقدان بعض الكيلو جرامات خلال فترة زمنية معينة ، سوف يسترجع الوزن المفقود فور انتهاء « الرچيم » بل ويضيف إليه بعض الكيلو جرامات الإضافية ، تعويضاً « للحرمان من التعويض الذى عانى منه أثناء إجراء رچيم التخسيس ... ! .

١٦– ممارسة العادة السرية ليست دائماً بحثاً عن المتعة للمتعة نفسها . إنها تستطيع أن « تعوض » إحباط الطالب الذى أراد الخروج وأجبره والده على البقاء بالمنزل للدراسة . وفى هذا الحال إنها تحمل معانى الثورة والانتقام . إنها تستطيع أيضاً أن تمثل فى بعض الأحيان مكافئة للشخص الذى أنجز عملاً جديراً باعتراف المجتمع ولم يلاحظه أحد ... الخ

١٧– تحركات الجسم وطريقة المشى متوقفة طبعاً على شخصية الإنسان . بعض التحركات الجسدية « تعويضية » بكل تأكيد . هناك الشخص الرفيع البدن الخفيف الوزن الضعيف العضلات القصير القامة الذى يسير مبتعد القدمين ، مبتعد الكوعين ، موجهاً النظرات الحادة المخيفة فى كل اتجاه ... يستغنى هذا السلوك ، على الأقل فيما يخص هذا الشخص ، عن أى تحليل نفسى . كذلك الفاعل البسيط الذى يشرب كوباً من الشاى واقفاً على الرصيف ، مرتدياً ثياب العمل الملوثة أو المبتلة ، رفعاً خنصره إلى السماء بطريقة أرسطوقراطية جداً كلما رفع الكوب ليشرب . كثيراً ما لا يعرف الشخص الخجول أو الشخص

المحرَج ماذا يفعل بيديه . تلعب سلسلة المفاتيح وقتئذ دوراً تعويضياً للخجل أو الحرج لا تقل أهميته عن دورها الأساسى ! .

الطب « النفسى العضوى » la medecine psycho somatique غزير بالأمثلة الخاصة بتعويض القلق والضيق والتوتر النفسى عن طريق اللجوء إلى أعراض عضوية لا تتلاشى إلا عند معالجة الحالة النفسية .

لا داعى من التطويل فى موضوع لا نهاية له ، خاصة والهدف من هذه الصفحات هو توسيع الآفاق وفتح نافذة صغيرة على حياتنا الداخلية . سواء اعتبرنا ضيقاً عابراً أو نقصاً عميقاً فى إشباع احتياج أساسى ، رأينا أن رقصة الأوان المتصلة تعرض علينا إمكانات مختلفة وغزيرة فى مجال « التعويض السيكولوجى » . عدم الإدراك العميق السليم للدوافع التى تحرك الآخرين يجعلنا فى أحيان كثيرة نشعر أنهم يهاجموننا ويعتدون علينا بلا سبب أو مبرر . يؤدى ذلك إلى رد فعل من طرفنا وتتصاعد المجابهة بدءاً من هذه اللحظة . أما إدراك الدوافع التى تفرض علينا فى كثير من الأحيان تصرفات تتعارض والاختيارات الحرة للشخصية الخالية من هذه المؤثرات ، فهو يزيد من قوة تحملنا ومن قدرتنا على قبول الآخرين والترحيب بهم ، وهذه هى الخطوة الأولى على طريق التفاهم والتسامح على أن تكون الخطوة التالية – على الأقل بالنسبة لبعضنا – محاولة إصلاح الأوضاع وتعديل الأمور وإرجاع الموازين إلى نقطة توازنها ... من يفهم ويدرك يتقبل ويتسامح ويسعى – إذا استطاع ذلك – إلى التصحيح بصدر رحب وقلب واسع .

معرفة الآخرين تسلك دائماً مسلك معرفة الذات ...

الفصل الرابع

العناصر المكونة للأنماط

« لا تكتشف حقيقية المرء إلا فى نتائج أفعاله وليس فى دوافعها » أ . راى. دراسة الأوجه المختلفة للنقص السيكولوچى .

لنحاول فهم وإدراك بعض هذه الدوافع الخاصة بالنمط .

يقرب تعداد سكان الأرض من ستة مليار نسمة . كل منهم فريد ويختلف عن الآخرين . من الواضح إذاً أن محاولة تصنيفهم محاولة خاطئة ويائسة فى نفس الوقت . لخص قدماء الإغريق الحكمة فى العبارة التالية : « أعرف نفسك » . لنحاول معرفة بعض العناصر التى تسبب الفرق الموجود بين الناس من الناحية النمطية . أما إذا أجبرنا أثناء دراستنا هذه إلى « تصنيف » الأنماط ، سوف يكون ذلك بهدف جمع بعض الخواص المتشابهة لهذه الأنماط فقط ، وليس بهدف جمع الأشخاص وتصنيفهم تحت « عناوين » قليلة ، حيث أن ذلك من رابع المستحيلات .

من السهل التحليل والفصل بين بعض العناصر المكونة للأنماط. المهم ألا ننسى أن النمط « وحدة » لا تتجزأ . النمط ، حسب تعريف العالم « لو سين » Le Senne هو : « النواة الممثّلة فى الميول الوراثية للإنسان والتى تكوّن البنية الأساسية العضوية والسيكولوچية ، أى الهيكل الذهنى والعقلى للشخص» . أما قاموس « اللاروس » Larousse فهو يقول ببساطة أن : « النمط هو مجموعة العناصر السيكولوچية والذهنية المكوّنة لشخصية الإنسان » . نلاحظ أن ، فى كلتا الحالتين ، يعرّف النمط بأنه « محصلة » تداخل عدة عناصر . ليس هناك ما يمنع تحليل النمط إلى عناصره فى محاولة لفهم مكونات الشخصية . أما الخطأ فهو النظر إلى الشخص فى كل عنصر من عناصر نمطه على حدا دون إعادة تركيب هذه العناصر لإعادة

الشخصية الكاملة إلى وحدتها الأساسية بعد إجراء هذا التحليل . **قد تساعدنا دراسة عنصر معين للنمط على فهم تصرفات وانفعالات الشخص فى ظروف معينة . لكن ، يجب الا ننسى، عند الانتهاء من التحليل ، أن نعيد لهذا الشخص وحدته الأساسية وفردية نمطه ، حيث أن الشخصية وحدة متكاملة ، لا تتجزأ ولا تُشَطَر .**

وضع العلماء قائمة طويلة للعناصر المكونة للأنماط . سوف نهتم بستة منها فقط ، على أن نعتبر الثلاثة الأولى أساسية جداً والثلاثة الأخرى ناتجة إلى حد ما عن اندماج العناصر الثلاثة الأولى . **الصفحات التالية تحتوى على الحد الأدنى من المعلومات السهلة البسيطة والمسلية ، التى يستطيع الإنسان العادى المتوسط الحصول عليها ببساطة نسبية ، والتى يجب على كل من بلغ من العمر عشرين أو خمسة وعشرين عاماً أن يحصل عليها.**

العناصر الأساسية الثلاثة المكونة للأنماط هى : الانفعال – النشاط – الرنين .

١ ـ الانفعال :

الانفعال هو عنصر النمط الذى يتسبب فى تحرير وإصدار جزء من طاقة الإنسان الحيوية استجابة لحدث ما . قد يُدهش هذا التعريف القارئ فى بدء الأمر لأنه يعنى بكل وضوح تناسباً مباشراً بين شدة الانفعال الذى يشعر به الإنسان استجابة لحدث ما وكمية « الطاقة » الحيوية التى يولدها ويحررها هذا الانفعال ، على أن تؤخذ كمية الطاقة المولَّدة مقياساً لشدة الانفعال . سوف نرى أن هذا صحيح لأن كل انفعال عبارة عن « هزة » ، عبارة عن « صدمة » ... لنبدأ التحليل : وحيث أن لدينا ثلاثة عناصر أساسية سوف يصحبنا فى تحليلنا هذا كل من نديم ومجدى وكريم ، على أن يمثل الأول المستوى « القوى » أو « العالى » للعنصر الذى ندرسه ،

والثانى المستوى « المتوسط » أو « المعتدل » والثالث المستوى « الضعيف » . طريقة عرض الموضوع فى الصفحات التالية ليست الطريقة التقليدية المتبعة عادة فى كتب علم الأنماط ، لكنها الطريقة التى فضلتها أنا – من خلال مناقشاتى للموضوع مع الشباب – لعرض الموضوع بطريقة أكثر جاذبية من الطريقة الأكاديمية الجافة .

يسير أصدقائنا الثلاث فى الطريق . فجأة يعبر كلب الشارع . تصدمه سيارة ويموت الكلب فى بحر من الدماء الحمراء .

١– يحب نديم الكلاب . إنه شخص حساس وتأثر كثيراً بمنظر الكلب الميت ومنظر الدم . إنه يرى أنه ليس من العدل أن تنتهى كذلك حياة هذا الكلب ، وهو يثور إلى حد ما ضد السائق الذى لم يستطع تجنب الحادث . يشعر نديم فى قلبه بالألم والظلم والخسارة ... إلخ . تقلقه دوامة هذه المشاعر الكثيرة وتولد قوتها كمية كبيرة من الطاقة الحيوية . سوف نصف نديم بأنه « شديد الانفعال » . إذا حاولنا تقدير درجة انفعال نديم يمكننا اعطائه درجة تتراوح بين سبعة وتسعة من عشرة درجات مثلاً .

٢– مجدى أيضاً يحب الكلاب ولا يروق له أن تصطدم بهم السيارات . هو أيضاً انفعل عندما رأى الحادث . لكن : « هكذا الحياة ... تعيش الكلاب ثم تموت ... » . إن المشاعر التى تولدها رؤية الكلب الميت ليست بشدة المشاعر التى عاشها نديم . إن الانفعال الذى يعيشه مجدى يولد فيه كمية من الطاقة الحيوية أقل بكثير . إن مجدى أقل انفعالاً من نديم . سوف نقول أنه « متوسط الانفعال » . لنقدر إذاً درجة انفعال مجدى بخمسة درجات فقط من عشرة .

٣– ضحك كريم عندما رأى الحادث . إن الكلاب لا تهمه ، إن ما يحدث للآخرين عموماً لا يهمه كثيراً . إنه يرى أن الكلب الذى يعيش فى الشوارع عليه أن يدرك خطورة السيارات وألا يعرض نفسه للخطر ... أما إذا كان كلب متخلف الغريزة ... ربما كان هذا الكلب يستحق الموت . ربما لم يضحك كريم : لكن الحدث مر عليه دون أن يولد فيه شيئاً من الانفعال الذى عرفاه نديم ومجدى . بقى نديم فى

منتهى الهدوء الداخلى ولم يضطرب بتاتاً . لم تولد فيه أى كمية من الطاقة الحيوية . سوف نقول أن كريم « ضعيف الانفعال » وسوف نعطيه درجة لا تزيد عن اثنين أو ثلاثة من عشرة درجات .

بعض التعليقات حول « الانفعال » التى توضح عمق وأهمية هذا المفهوم :

١- يمكننا استبدال مثال الكلب والسيارة التى صدمته بأى حادث آخر من أحداث حياتنا اليومية دون تغيير مضمون المثال . الصديق الذى يتأخر عن الميعاد المحدد لمقابلتنا ، الموسيقى التى نستمع إليها ، العلم بما يقال عنا من مدح أو نقد ، السائق الذى يقطع أمامنا الطريق (ليعد القارئ إلى « إرادة السيادة ») ، الخطاب الذى ننتظره بفارغ الصبر والذى لا يصل ، المفاجأة السارة ، المشاكل الخاصة بالعمل أو بالمنزل ، كل هذه الأحداث الخاصة بتفاصيل حياتنا اليومية تولد انفعالاً تتوقف شدته على الظروف المحيطة به وعلى نمط الإنسان . **الانفعال هو إذاً العنصر النمطى الذى يسمح لنا بالاتصال بالعالم الخارجى وبالكون كله ، وهو يحدد - إلى حد كبير - نوعية وعمق هذا الاتصال** . إدراك حقيقة ما يدور فى ذهن شخص بينما يقول لنا عكس ذلك تماماً لمجرد ملاحظة ملامح وجهه يتوقف على القدرة على الاحساس والانفعال . الاحساس بجمال الطبيعة ، بشاعرية الهواء فى أغصان الأشجار ، بتعبيرات الموسيقى وبمأساة شخص آخر يتوقف على القدرة على الإحساس والانفعال . رد الفعل الذى يلى وفاء الصديق أو خيانته يتوقف على القدرة على الانفعال . احترام الأشياء واستعمالها استعمالاً حسناً لمجرد أنها تمثل محصلة جهود آدمية كثيرة وبالرغم من إمكان استبدالها مرات عديدة لرخص قيمتها أو لضخامة ثروتنا يتوقف على القدرة على الانفعال . الشعور بأننا جزء لا يتجزأ من واقع الكون ومن صميم حقيقة الآخرين الأساسية يتوقف على القدرة على الانفعال . الانفعال هو الباب المفتوح على الكون وعلى الآخرين . الانفعال الضعيف باب يسمح فقط بمرور بعض النظرات الخجولة . الانفعال المتوسط الشدة والرقة باب يسمح بمرور الرأس والكتفين لإلقاء نظرة

أكثر حدة ودقة . أما الانفعال القوى الشديد الراقى الحساس فهو باب مفتوح على مصراعيه ليسمح لصاحبه بالاتصال والمساهمة والمشاركة والتبادل مع البشرية كلها وفى جميع المجالات .

٢- قد لا ينفعلَ شخصان يتمتعان بدرجة انفعال واحدة بنفس الطريقة أو بنفس الشدة عندما يعيشان ظروفاً متشابهة . إن للانفعال « **اختيارية** » (بمعنى « الانتقائية ») . يختار كل نوع من الانفعال المجالات التى يتجاوب معها . قد لا ينفعل بشدة الشخص المتزن نفسياً عندما يُنتَقد مثلاً ، بينما ينفعل شخص أقل منه « انفعالاً » بقوة وبشدة أكبر بكثير لنفس الانتقاد ولنفس اللوم لمجرد أنه يعانى من « شعور بالنقص » ويحتاج إلى اعتراف المجتمع به كنوع من التعويض لهذا الشعور (ليعد القارئ إلى «دوافع خفية تتحكم فى تصرفاتنا »- التعويض -) . الشخص الذى يعانى من شعور بالنقص هو شخص شديد الحساسية فى هذا المجال ولا يستطيع تحمل الانتقاد أو اللوم . الشخص الأقل انفعالاً ، الذى حوَّل الجزء الكبير من طاقاته العاطفية إلى الحيوانات بسبب فشل حياته العاطفية مثلاً ، سوف يفوق مدى تجاوبه وقدر انفعاله استجابة لحادث الكلب المصاب مدى تجاوب وانفعال شخص أخر أكثر منه « انفعالاً » لكنه يتمتع بحياة عائلية وعاطفية سعيدة ناجحة وموفقة . بناءاً على تكوينه ومدى تعليمه والبيئة التى يعيش فيها وميوله الفنية وغيرها ، سوف يميل الشخص إلى المزيد من التجاوب الانفعالى فى مجالات معينة فضلاً عن مجالات أخرى يقل فيها مدى تجاوبه الانفعالى . هذه الظاهرة تمثل « اختيارية » selectivité لا إرادية تفسر اختلاف شدة الانفعال أمام الحادث الواحد لشخصين يتمتعان بقوة انفعال متشابهة أو متقاربة . هذه الفكرة تعود بنا إلى المبدأ الكبير الذى يجب ألا ننساه أبداً : لا بد ، بعد إنهاء كل عمليات التحليل المطلوبة ، من إعادة تركيب الشخصية الكاملة للإنسان حيث أن الشخصية عبارة عن « محصلة » لا تتجزأ .

٣- إن الهزات والصدمات الناتجة عن تحرك الانفعال سيكولوچية وعضوية فى نفس الوقت . قد يولِّد الانفعال تحركات جسدية تعبر عن

اليأس أو الحزن أو – فى أحيان أخرى – تعبر عن الإثارة والفرحة والبهجة والتفاؤل . ينشط الانفعال العاطفى الذى يهيج ويثير إفراز هرمون الأدرينالين الذى يقلص جدار الأوعية الدموية ويرفع الضغط الشريانى ويضيق حدقة العين ويسرع ضربات القلب ويزيد قوة تقلص العضلات . أما الانفعال العاطفى المهدئ الذى يولّد شعوراً براحة البال والاطمئنان والأمان والاستقرار مثل الانفعال الذى يغمر عاشق الموسيقى الذى يستمع إلى مقطوعته المفضلة التى تولد فيه شعوراً بالاتزان الداخلى والسعادة والسوية بصفة عامة ، هذا الانفعال يولد عكس النتائج العضوية التى وصفناها تماماً . لكل وضع انفعالى رد فعل عضوى مباشر .

٤– تتوقف درجة « انفعال » الشخص على شدة رد فعله للأحداث التى يعيشها ، كما سبق القول . يجب ألا نترك المظاهر تخدعنا . إن « رد الفعل » هذا الذى نتحدث عنه لا يعنى دائماً كوباً مكسوراً أو انفجار حزن أو سرور . قد يكون « رد فعل » الانفعال العاطفى عميقاً جداً ولا تظهر نتائجه أمام الموجودين . يعتبر بعض الناس أنه غير لائق أن يعبر المرء عن عواطفه وانفعالاته أمام الآخرين ، وأنه من أبواب التربية الجيدة الناجحة أن يخفيها تماماً . الشعب الانجليزى جعل من هذا النوع من السرية والإخفاء مبدءاً اجتماعياً هاماً يُدرّس لكل طفل ويكوّن جزءاً هاماً من تربيته الأساسية ، مما ساهم فى انتشار سمعة كاذبة تتهم هذا الشعب بنوع من « البرودة » العاطفية . بعض الشعوب الأخرى – على عكس الشعب الإنجليزى تماماً – ترسل « النادبات » (النائحات – الباكيات) لحضور المناسبات الحزينة لتضمن إظهار معالم مشاطرة الحزن التى تتناسب والظروف ! ... حذار من التسرع فى الحكم : ما نراه قد لا يمثل حقيقة الأمر فى بعض الأحيان .

٥– القدرة على الانفعال تمثل ضماناً للعلاقات الإنسانية العميقة والاتصال بالآخرين وبالكون كله . لكنها تمثل أيضاً نقطة ضعف لأنها تزيد من تعرض الإنسان للألم وللإصابات ، لأنها تقلل من وسائل الدفاع عن النفس . الإنسان الغير عاطفى والغير حساس مدرع ،

تصعب إصابته لأنه يصعب الوصول إليه . الإنسان العاطفى الحساس مثل وتر الكمان المشدود ، يتجاوب ويتذبذب لأقل إثارة : الريح نفسه يفقده ثباته ويجعله يصدر نغمة ... مثل هذا الشخص يشعر وينفعل ويتجاوب مع كل ما يدور حوله من أحداث ومن أوضاع إنسانية . لا شك أن « الانفعال » النظرى الكامل المثالى ، الذى لا وجود له بالنسبة لنا والذى يجعل صاحبه يشعر بداخله ويعيش فعلاً واقع الكون كله فى أدق تفاصيله ، لا شك أن هذا النوع من الانفعال ، إن وجد ، قاتل بالنسبة لصاحبه . هذه الفكرة موضحة بشئ من التفصيل فى الفصل الخاص « بالخلية التى حققت التحرر » . لكل شئ ثمن يزداد كلما ازدادت قيمته . « القدرة على الانفعال » من أجمل تحقيقات الإنسان ومن أرق انتصاراته على الكائنات الحية التى سبقته فى الوجود على سطح كوكبنا . لا بد إذاً أن يكون الثمن الذى يدفعه لها صاحبها مرتفعاً . ما نقصده « بانتصار الإنسان على الكائنات الحية التى سبقته على سطح كوكبنا » موضح فى الفقرة القادمة .

٦- سبق القول أن « القدرة على الانفعال » هى التى تسمح للإنسان بالاتصال بالآخرين وبالكون كله . من الجدير بالذكر أن هذا الإمكان الذى يصل إلى ذروة قدرته لدى الإنسان موجود على شكل بذرة أو على شكل « مشروع » بدائى ليس لدى عالم الحيوان فحسب ولكن لدى عالم النبات كذلك . فيما يخص عالم الحيوان لا شك أن كثير من الحيوانات تتصرف وفقاً لوجود مشاعر الأمومة مثلاً أو وفقاً لمشاعر الإخلاص والوفاء . هذه التصرفات نابعة من الغريزة وليس من إرادة واعية للحيوان . لكنها هى بالضبط التصرفات التى نتوقعها فى حالة وجود انفعال عاطفى ناضج وحر بدلاً من وجود غريزة وما تفترضه من « حتمية » (ليعد القارئ إلى « الخلية التى حققت التحرر ») . أما فيما يخص عالم النبات ليعد القارئ إلى تجارب « كليف باكستر » (١٩٦٦) التى تم وصفها ببعض التفاصيل فى مجلة « الاكسبرس » (الأسبوع من ٣ إلى ٩ يوليو ١٩٧٤) . كان « باكستر » يعمل فى البوليس سابقاً . كانت خبرته فى استعمال « البوليجراف » polygraphe كبيرة لأنه كان

يستعمل هذا الجهاز ، الذى يستطيع أن يقيس التغيرات التى تطرأ على التوازن الكهربائى المغنطيسى لسطح الجلد ، كوسيلة لتحديد مدى صدق المتهم أو الشاهد وتحديد احتمال الكذب فى أقواله . فكر « باكستر » فى استعمال هذا الجهاز لقياس التغييرات الكهربائية المغناطيسية التى تحدث على سطح نبات . ثبت الأطراف على النبات والإبرة المتذبذبة على ورقة بيضاء وبدأ يروى النبات . لم يحدث شيئاً فى بدء الأمر . قرر بعد ذلك تعذيب النبات بحرقه بعود كبريت مشتعل . يقول « باكستر » : « فى لحظة اتخاذى قرار تعذيب النبات حدث اختلاف مفاجئ فى الرسم على شكل انحراف شديد ومتواصل إلى أعلى . حدث هذا التغيير قبل أن أتحرك أو ألمس النبات . مجرد التفكير فى تعذيب النبات أحدث التغير » . وضع « باكستر » بعد ذلك إناءاً من الماء الساخن بجوار النبات وأخذ يلقى فيه « جمبرى » حى ، ببطء ، الواحد بعد الآخر . كلما وقع « جمبرى » فى الماء الساخن أحدث ذلك قفزة فى الرسم . حاول « باكستر » أن يخدع النبات وأخذ يلقى فى الماء بعض « الجمبرى » الميت . كلما ألقى « بجمبرى » حى انفعل النبات واختلف الرسم ، وكلما ألقى « بجمبرى » ميت لم ينفعل النبات ولم يختلف الرسم . أراد « باكستر » إزالة إمكان التأثير البشرى فى التجربة واستبدال يده بموزع أتوماتيكى يلقى « بالجمبرى » فى الماء دون أن يميز بين الحى منه والميت . لم يغير ذلك شيئاً من النتيجة . اختار بعد ذلك « باكستر » نباتاً كان بمنزله منذ فترة وكلف مساعده « هنسن » بتمثيل دور الشخص الشرير كلما أراد تعذيب النبات . بعد تكرار عمليات الإرضاء والتعذيب لمدة كافية أخذ النبات يرسم ذبذبات مثلت القلق والتوتر كلما دخل « هنسن » الغرفة أو تحدث فيها ، وأخذ يرسم ذبذبات تمثل الارتياح والانسجام (أى رسم ثابت لكل مناسبة من المناسبتين) كلما دخل « باكستر » الغرفة أو تحدث فيها . استمر النبات ينفعل بنفس الطريقة حتى بعد عزله وغلقه فى علبة من الرصاص السميك . أطلق « باكستر » على هذه الظاهرة اسم « الانفعال أو الاحساس الأولى أو البدائى » .

« الانفعال العاطفى » ، وهو نوع متطور جداً من الاتصال والإدراك والمشاركة ، خاصة مميزة من خواص المخ الآدمى ، نمتلكها كلنا مع مراعاة وجود تفاوت كبير فى القدرة والرقة والدقة ، ويعود تاريخ مشروعها الأول إلى قديم أشكال الحياة الموجودة على كوكبنا .

٢ - النشاط :

لم ينفعل كريم استجابة لحدث الكلب الذى صدمته السيارة . لنتجاهله مؤقتاً . انفعل كلا نديم ومجدى . أنهما لم ينفعلا بنفس الشدة وبنفس القوة لكن ذلك لا يهمنا للوقت الحاضر . المهم فقط أنهما انفعلا . **يستطيع أن يأخذ هذا الانفعال ، أى إدارة الطاقة التى ولدتها الهزة العاطفية ، اتجاهين مختلفين :**

١- قد يتجه انفعال نديم الاتجاه الآتى مثلاً : « ليس من الطبيعى أن تُصادَم الكلاب بهذه الطريقة . يجب أن تتدخل جمعية الحيوان . يجب أن يكون هناك قانون يعاقب الذين يصطدمون بالحيوانات أيضاً وليس بالناس فقط . إذا لاحقت بهذا السائق عند الإشارة القادمة سوف أقول له رأيى فى الطريقة التى يقود بها سيارته ... » من الواضح أن رد فعل نديم متجه إلى الخارج ، إلى ما هو ليس « نفسه » . إدارة الطاقة التى ولدها الحادث متجهة نحو الاتصال بجمعية أصدقاء الحيوان ، أو تجاه العمل لإصدار قانون جديد ، أو ملاحقة السائق عند الاشارة التالية ... الخ .

٢- اتجاه انفعال مجدى - حيث أنه لا يبقى لنا سوى مجدى - اتجاهاً مختلفاً : « هذا شئ محزن فعلاً ... ليس المفروض أن تحدث مثل هذه الحوادث . لكن ، هكذا الحياة ، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً لنغير ما هو حتمى ... كان من نصيب الكلب أن يموت فى هذه اللحظة . سائق السيارة معذور إلى حد ما . ماذا كان يستطيع أن يفعل ؟ كلنا معرّضون لمثل هذه الحوادث ... » صدر الانفعال من مجدى ليلتف حول نفسه ويعود إلى مجدى دون أن يبدى أى استعداد لنشاط خارجى ما . ما كان بداخل مجدى بقى هناك دون وجود أى ميول للخروج منه للاتجاه إلى إنجاز أو تنفيذ ما .

يوضح هذان المثالان تعريف النشاط وهو الآتى :

النشاط هو الميول إلى البحث المستمر عن فرص للفعل واتخاذ القرارات . النشاط ليس كثرة « الأفعال » لكنه « ميول » إلى سهولة الفعل . « النشاط » المعنى هنا هو إذاً « ميول سيكولوچى نمطى » قبل أن يكون فعل أو مجموعة افعال أو نتيجة لها .

بعض التعليقات الخاصة بمفهوم « النشاط » :

١- حذار من التسرع فى إصدار الحكم حتى لا تخدعنا المظاهر هنا أيضاً : يبدو لنا فى بعض الأحيان أن « انفعال » شديد جداً لا تتجه الطاقة الناتجة عنه تجاه أى « نشاط » . يبدو لنا ذلك خاصة مع بعض الأنماط التى تحتاج إلى برمجة طويلة ودقيقة قبل بدأ الحركة والنشاط ، كما سنرى بعد قليل . هذا لا يعنى أن هذا النمط « غير نشط » . تأجيل « النشاط » لا يعنى ضعفه أو انعدامه . قد يحدث « النشاط » فيما بعد .

٢- يختلف « النشاط » عن « الهياج » . ليس « النشاط » أن يجهز الشاب عرضاً مسرحياً بتوتر يسوده جو من الهياج . لننتظر ولننظر إلى هذا الشاب بعد انتهاء عرض المسرحية وبعد إطفاء شعلة الإثارة ، وهو يطوف بالمنزل فى حالة كسل وركود ، ولا يستطيع كتابة الخطاب الذى أجل كتابته منذ قبل بدء العمل فى المسرحية بالرغم من أنه يعرف جيداً أهمية هذا الخطاب وضرورة كتابته فى أقرب وقت . قد يكون « النشاط » الحقيقى فورى أو قد يؤجل إلى مدى أبعد لأسباب كثيرة . لكن ، يجب أن نميزه دائماً من « القلق الفوضوى » و« التسرع الغير منظم » الذى يبديه الشخص « الحامى » أو « العصبى » الذى لا يستطيع الهدوء ولا يعرف التأنى . الشخص - كما هو الحال عندما يزداد نشاط الغدة الدقية ازدياداً طفيفاً جداً مثلاً - الدائم الحركة اللامع العين السريع الإجابة الذى يوزع النصائح على الناس كلها لأنه يعرف ما هو المفيد بالنسبة لهم ولكنه لا يستطيع أن يدير حياته الشخصية إدارة سليمة فعالة وناجحة ، هذا الشخص ليس « بنشط النمط » . ليس أيضاً

« بنمط نشط » الشخص الذى يجرى فى كل اتجاه فى محاولة يائسة لإثبات وجوده وإثبات أهميته بينما لا يحتاج إليه أحد ولا يرغب فى وجوده ولا فى مساعدته أحد .

٣- « النمط النشط » ينشط تلقائياً . إنه يبحث عن إمكانات النشاط ويشعر بالسعادة عندما يجدها وينشط . إنه يزدهر فى النشاط . إن « النشاط » بالنسبة « للنمط النشط » وسيلة لتحقيق الذات واستثمار شامل إمكانات العقل والذهن والجسد . « النشاط » يمثل إذاً بالنسبة لهذا النمط نداءاً لا يستطيع أن يتجاهله ولا يريد أن يتجاهله . الشخص « النشيط النمط » يتصرف دائماً وفقاً للظروف ويتحمل مسئولية أفعاله كاملة . النمط « الغير نشط » يتهرب من النشاط ويقدم لنفسه وللآخرين الأعذار والعلل لتأجيل العمل والتهرب منه . يفضل ترك الشروع والبداية للآخرين . يستطيع أن يكون « منفذاً » متوسطاً لكنه لا يستطيع أن يكون فى أى حال من الأحوال قائداً ومسئولاً . « النشاط » لا يعنى الاندفاع . قد لا يكون الشخص « النشط » شخصاً مندفعاً على الإطلاق ، لكنه دائماً ينشط « بتلقائية » وسرور .

٤- لا يجهد « النشاط » النمط « النشط » لأنه يجد فى نشاطه سعادة . إنه يستطيع أن يعمل فى مجالات مختلفة فى آن واحد أو يستطيع أن يشرع فى عمل جديد بمجرد إنهاء العمل الأول . أما إذا شكى بكثرة الأعمال أو كثرة المسئوليات ، فذلك بالنسبة له نوع من الافتخار بأهمية وضعه أكثر منها شكوى حقيقية . قلة النشاط عذاب بالنسبة له . قلة النشاط تشعره بالتفاهة ، كثرته بالأهمية وبتحقيق الذات . « النشاط » يجهد النمط « الغير نشط » وإذا اضطر للعمل فهو يحتاج بعده لوقت طويل حتى يستعيد قوته وقدرته على القيام به ... أو ما لديه منها .

٥- مهما كانت الظروف يتساءل دائماً النمط « النشط » عما يجب أن يقوم به . يحاول دائماً السيطرة على الظروف . يحاول دائماً التدخل للتحكم على الظروف بدلاً من أن تسيطر هى عليه وعلى حياته . النمط « الغير نشط » يتحمل ويقاسى . إنه لا يشعر أنه يغير من مجرى الأحداث . النمط « النشط » يلعب الدور الفعال ، بناء كان أم هدام ، بينما

الدور الوحيد الذى يلعبه « الغير نشط » هو دور المتفرج . تمر الحياة أمام « الغير نشط » وكأنها فلم سينمائى قد تهمه مشاهدته أو قد لا تهمه ، قد تثيره بعض أحداثه أو قد لا تثيره على الاطلاق – ويتوقف ذلك على مدى « انفعاله » – لكنه لا يمثل فيه دوراً ايجابياً فعالاً أبداً .

٦– بناءاً على كل ما سبق نستطيع أن نقول أن النمط « الغير نشط » يترك بعد مروره فى حياة الآخرين « ذكرى » فقط – على أن تكون هذه الذكرى طيبة أو سيئة حسب الانطباع الذى تركه فى نفوس الناس – بينما يترك النمط « النشط » بعد مروره فى حياة الآخرين « بصمة » حقيقية خاصة به تميزه من باقى الناس .

٣ – الرنين :

نديم من النمط « الانفعالى – النشط » . مجدى من النمط « الانفعالى – الغير نشط » كريم من النمط « الغير انفعالى » . لم يتم تحديد إذا كان كريم من النمط « النشط » أو « الغير نشط » .

مر أسبوع على حدث الكلب وما زال مجدى (أو نديم إذا فضل القارئ ذلك) يتحدث عن هذا الموضوع . إنه يشعر بالحزن والانفعال كلما يتذكر الحدث . كلما رأى كلب يفكر أن هذا الكلب محظوظ لعدم وجوده مكان الكلب الآخر ! مرت بضعة أيام ورأى حصاناً يضربه صاحبه بقسوة . ربط بين الحدثين واستنتج أن الإنسان غير عادل بالنسبة للحيوانات بصفة عامة ، وأن الحيوانات تستحق أفضل من ذلك . مرت الأسابيع والشهور . خرجت التفاصيل الدقيقة للحدث من ذكراته الواضحة النشطة ، لكن ، ما زالت الذكرى تدوى فى نفسه وتؤثر على تفكيره وتصرفاته ، مثل الصدى الذى أضعفه كلا الزمن والمسافة ، ولكنه ما زال موجوداً فى مكان ما فى حياته . تزداد الأحداث وتتنوع التجارب على مر الأيام ، مع إضافة الانفعالات الخاصة بكل واحدة منها الواحدة للأخرى . يتذكر مجدى لمدة طويلة جداً ما يقوله له أصدقائه . تبقى الذكريات حية فى نفسه ، يعود إليها كل بضعة سنوات ويكتشف لها معانى وأبعاداً جديدة فى كل مرة لأنه ازداد سناً وخبرة

ونضجاً ويرى الأمور والناس تحت إضاءة جديدة . **يرتبط مفهوم « الرنين » بطول الفترة الزمنية التى تبقى خلالها ذكرى الأحداث حية وفعالة فى الوعى العام للإنسان** . سوف نصف نمط مجدى بأنه « ثانوى الرنين » .

سبق ورأينا أن نديم ، وهو أشد « انفعالاً » من مجدى ، استجاب لحادث الكلب بقوة أكبر نسبياً من مجدى . سوف نرى الآن أن « الرنين » مستقل تماماً عن درجة « الانفعال » . بعد مرور شهر كامل على الحادث نجد أن نديم ، بالرغم من شدة انفعاله وقتئذ ، يكاد يكون قد نسى القصة . إنه يتذكر بالطبع واقع ما حدث ، لكن هذه الذكرى لم تعد تحرك انفعاله ويستطيع أن يستعيد الذكرى دون أن يشعر بغضب ولا بثورة ما . إذا رأى حيوان آخر يعانى ويقاسى فهو لا يربط بين الحدثين . كل « انفعال » يعيشه نديم يستمر لفترة زمنية قصيرة فقط ليستبدله « انفعال » آخر أكثر منه حداثة . يعيش نديم بصفة أساسية فى الوقت الحاضر فقط ، فى اللحظة الأولى فقط . لذلك سوف نقول أن نمط نديم ذو « رنين أولى » . إن كلمة « أولى » لا تعنى هنا « بدائى » لكنها تعنى أن « انفعال » نديم لا يدوم إلا للحظات الأولى القليلة التالية للأحداث فقط ، على أن تتحول بعد ذلك إلى ميكانيكية ذاكرة بحتة – إذا بقيت الذاكرة ، – وذلك ليس شرط أساسى – دون أن تحرك هذه الذكرى العاطفة أو تثير « الانفعال » ، أى دون أن تولّد طاقة جديدة فى كل مرة . الدليل على ذلك هو أن نديم يستطيع أن يكرر نفس الخطأ مرات عديدة وأنه لا يستفيد بخبرة أخطائه بسرعة وبسهولة . دليل آخر : دار خلاف بين نديم وزجته أو بين نديم وصديق له وانتهى اليوم ونديم فى حالة نفسية سيئة جداً وفى حالة توتر عصبى شديد جداً . يتساءل الجميع ما ترى سوف تكون نتائج ذلك فى اليوم التالى وماذا تكون الحالة النفسية لنديم فى الصباح التالى . ثم يفاجئ الجميع برؤية نديم ، فى صباح اليوم التالى ، فى أفضل الحالات النفسية ، وكأنه لم يحدث أى خلاف أو أى توتر على الاطلاق فى اليوم السابق !

بعض التعليقات الخاصة بمفهوم « الرنين » :

١- حيث أنه يعيش فى الوقت الحاضر ، يجد الشخص « الأولى الرنين » بعض الصعوبة فى مواصلة الجهود وإتمام ما يحتاج إلى « طول نفس » من أعمال . يكون عادة « نشاطه » من النوع المتقطع المتغير والمتعدد الاتجاهات ، لأنه سرعان ما يغير اتجاه تفكيره واتجاه تركيزه أثناء القيام بعمل واحد . أما النمط « الثانوى الرنين » فهو لا يسمح للظروف أن تصرف تركيزه عن عمل أشرع فيه . سواء نجح فيه أو فشل ، سوف يقود هذا العمل لنهايته . الإصرار والمثابرة و« طول النفس » من صفات النمط « الثانوى الرنين » . النمط « الأولى الرنين » « قصير النفس » ، متغير ومتقلب ، غير قادر على الإصرار والمثابرة .

٢- رد فعل النمط « الأولى الرنين » دائماً سريع . قد يكون رد فعل صائب أو رد فعل مخطئ ، المهم أنه دائماً سريع . يتحرك ، بالكلام أو بالفعل ، دون أن تبطأ حركته اعتبارات خاصة بالماضى أو بالمستقبل . سوف يندم فى بعض الأحيان لرد فعله السريع هذا وسوف يسعد جداً لنتيجته فى أحيان أخرى ، على أن يكون ذلك ، فى كل مرة ، نتيجة للصدفة وليس نتيجة لتفكير وتخطيط وبرمجة مدروسة . النمط « الثانوى الرنين » يحتاج دائماً إلى وقت للتفكير والحساب قبل بداية الحركة . هناك دائماً ما يؤجل رد الفعل لما بعد إعادة النظر فيما يفضل إجرائه . النمط « الثانوى الرنين » هو الذى يكتشف ما كان يجب أن يقوله وما كان يجب أن يفعله بعد أن انتهى الاجتماع وانصرف المدعوون وفاتته الفرصة ...

٣- أى تعهد ، أى ارتباط ، سواء كان سياسياً أو اجتماعياً أو دينياً ، يفترض قدراً أدنى من المواظبة والاستمرارية فى طريقة التفكير وفى العمل . النمط « الأولى الرنين » نمط « مزاجى » يصعب عليه الارتباط والتعهد . قد يتعهد بكل صدق وبنيّة صافية وسليمة . لكن صعوبة مواصلة الجهود التى يفترضها أى نوع من أنواع التعهد تحول دون قدرته على احترام ما تعهد به . النمط « الثانوى الرنين » هو نمط

«النظام » . يتعهد عادة هذا النمط مع نفسه قبل أن يتعهد مع الآخرين . وفائه وفاء لنفسه ولقراراته قبل أن يكون وفاء لغيره .

هناك ثلاثة عناصر أخرى سوف لا ندخلها فى جدولنا اللاحق للأنماط ، لكنها تستحق الوصف هنا .

٤ - وسع أو ضيق « حقل الوعى » :

لنعطى مثالاً لما نعنى بذلك . تنظر الناس إلى المشاهد الطبيعية بطريقتين مختلفتين . هناك من يرى المشهد كاملاً دون أن يقف عند التفاصيل الثانوية الصغيرة ، وهناك من يسجل أدق تفاصيل المشهد على حساب النظرة الاجمالية الشاملة . لنعتبر أن الحياة نفسها مشهد من المشاهد . هناك من يلقى على الحياة نظرة شاملة على أنها وحدة متماسكة فيعطى كل شئ وكل شخص مكاناً تقريبياً فقط فى هذا النظام الشامل ، وهناك من يرى كل الأشياء وكل الأشخاص بدقة فى التفاصيل تفقده الشكل الاجمالى ، مما يفقده ملاحظة العلاقات التى تربط بين هذه الأشياء أو الأشخاص وبعضها . يمكننا مقارنة ذلك بما يحدث عند ضبط التصوير قبل أخذ الصورة مثلاً . نستطيع أن نضبط الجهاز لتحتوى الصورة على أشياء كثيرة : سوف يكون ذلك على حساب التفاصيل الخاصة بكل شئ على حدا . أو نستطيع ضبط الجهاز لتوضح الصورة تفاصيل كثيرة لأشياء قليلة : سوف يكون ذلك على حساب « اجمالية » المشهد .

« حقل الوعى الضيق » هو الذى يعى بالتفاصيل الكثيرة على حساب النظرة الاجمالية للحياة ككل ، بينما « حقل الوعى الواسع » هو الذى يشمل الحياة كلها بمختلف أوجهها ومختلف أبعادها على حساب الدقة فى رؤية التفاصيل وتمييز الفروق الدقيقة .

نتيجة ما سبق أن النمط ذو « حقل الوعى الواسع » ، الذى يستوعب فى وقت واحد عدداً كبيراً من العناصر ، نمط حساس لتداخل تأثيرات هذه العناصر وللحركة والتغييرات التى تنتج عنها . إنه يميل إذاً

إلى توقع الأحداث . إنه نمط « موسيقى » و « نغمى » ذو ميول فنية واضحة . أما النمط ذو « حقل الوعى الضيق » ، الذى يركز فى شئ واحد فى وقت واحد ، سواء مال إلى التحليل أو إلى التركيب ، سوف تكون دائماً نظرته للحياة نظرة هندسية خاضعة للمنطق والتفكير الرياضى .

٥ ـ الذكاء الملاحظ للفروق والذكاء الملاحظ لنقاط التشابه :

للنمط علاقة بالذكاء وللذكاء علاقة بالنمط . بعض الأنماط تلاحظ فى الأشياء والظروف وجه التشابه الموجود بينها . إنها حساسة لهذا التشابه أكثر منه للفروق . هذا النوع من الذكاء ، الموجود عادة لدى الأنماط « الضعيفة الانفعال » ، يميل عادة إلى أعمال « الجمع » و « التركيب » . أنماط أخرى ، خاصة « الشديدة الانفعال » منها ، تميل إلى ملاحظة الفروق الموجودة بين الأشياء . هذه الأنماط تميل إلى « التحليل » وتجيده .

٦ ـ « الذاتية » و « التقاط خواص الغير » :

الأنانية وصف « خُلُقى » . علم النفس لا يصدر أحكاماً خاصة بالخُلُقية . لذلك عبر علم الأنماط عن النمط الذى يلتف حول نفسه ويضع نفسه مركزاً لتفكيره ومقياساً لأحكامه بقوله أنه نمط يميل إلى « الذاتية » . على عكس هذه « الذاتية » ، هناك أنماط أخرى ، وهى تمثل الأغلبية ، التى تميل إلى التجانس مع الآخرين وتتقبل أفكارهم وتصرفاتهم بصدر رحب . النوع الأول من الأنماط ممثل فى الشخص الذى ترك بلده وشعبه وهاجر إلى بلد بعيد وما زال ، بعد مضى ثلاثون عاماً من هجرته ، يصعب عليه الحديث بلغة أهل البلد الجديد ولا يتقبل عادات الأهالى ونظام حياتهم . أما النوع الآخر من الأنماط فهو ممثل فى الشخص الذى مضى أجازة قصيرة ، مدتها أسبوعين فقط ، فى مكان ما وعاد منه يتكلم بنبرة أهالى المكان الذى زاره ! من الجدير بالذكر هنا أن القدرة على « التقاط خواص الغير » ، أى القدرة

على هذا النوع من التجانس ، لا تمثل فى أى حال من الأحوال « ضعف الشخصية » ولا إذابة الخواص أو الصفات أو الملامح المميزة للنمط فى الوسط الجديد المكتسب .

إمكانات تقابل « الانفعال » و« النشاط » و« الرنين » أدت إلى تشكيل الجدول الآتى للأنماط :

١- انفعالى	نشط	ثانوى الرنين	=	مولق
٢- انفعالى	غير نشط	ثانوى الرنين	=	عاطفى
٣- انفعالى	نشط	أولى الرنين	=	غضبى
٤- انفعالى	غير نشط	أولى الرنين	=	عصبى
٥- لا انفعالى	نشط	ثانوى الرنين	=	هادئ (بلغمى)
٦- لا انفعالى	نشط	أولى الرنين	=	دموى
٧- لا انفعالى	غير نشط	ثانوى الرنين	=	بليد (لا حماسى)
٨- لا انفعالى	غير نشط	أولى الرنين	=	amorphe (لا ملحمى لا شكلى-لا متبلر)

يجب أن نكرر هنا قولنا أن ليس لهذا الجدول قيمة مطلقة وانه لا يصلح فى أى حال من الأحوال لتصنيف ستة مليار شخص ... ليس هناك ، بالمعنى الكامل ، نمط دموى ولا نمط عصبى ولاغيرها من الأنماط النهائية التحديد هذه . هناك فقط درجات متفاوتة من كل من « الانفعال » و « النشاط » و « الرنين » تتداخل وتمتزج لتكون انماطاً فريدة وشخصيات لا تتكرر أبداً . هذا بالإضافة إلى أن هناك خمسة وأربعين عنصراً مختلفاً يتدخلون فى تكوين الأنماط وليس ستة أو ثلاثة منهم فقط ، مما يسبب فى كل مرة تعديلاً فى صفة من الصفات أو ملمح منَ الملامح المميزة للنمط . من ناحية أخرى ، إن نمطنا لا يتكون عادة من خواص نمط واحد فقط من الأنماط الثمانية المحددة بالجدول ، لكنه يتكون من خليط من خواص أكثر من نمط واحد منها ، مع مراعاة سيادة خواص نمط معين على خواص الأنماط الأخرى

المتداخلة . لذلك نجد أن هناك النمط « المولع المتطرف » ، والنمط « المولع المعتدل » ، والنمط « المولع المائل إلى النمط العصبى » ، والنمط « المولع المائل إلى النمط الغضبى » ، ... الخ . نجد كذلك أننا نستطيع أن نقسم النمط العصبى إلى « عصبى ضيق » و « عصبى واسع » وأن نقسم النمط « العصبى الضيق » إلى : هستيرى ومختل التوازن ومتكبر وفرط الانفعال ونهكى ومعارض وهائج وخاضع للصدفة ، وينقسم النمط « العصبى الواسع » إلى : سوداوى ودويرى وطائش ومولع بالكذب وطوباوى . لذلك أرى شخصياً أنه من الأفضل اللجوء إلى كل عنصر من العناصر المكونة للأنماط فضلاً عن اللجوء إلى «الأسماء » و « العناوين » المخصصة لتركيباتها المختلفة عند محاولة تحليل وإدراك عواطف وتصرفات وانفعالات الآخرين . نحن لا نعمل محللون نفسيون . إننا نحاول فقط مساعدة النشء على خلق علاقات إنسانية أفضل ، مبنية على إدراك أعمق لواقع الآخرين وحقيقة أمرهم . كلما دار التساؤل حول انفعالات أو تصرفات أو أفكار أحد الأصدقاء أو أحد المعارف وقدمت للمجموعة تفسيراً مبسطاً جداً للظاهرة المثيرة للإعجاب أو التساؤل ، على أن يقوم هذا التفسير بناءاً على (١) تحليل النمط بالإضافة إلى (٢) ما نعرفه من ظروف حياة هذا الشخص وفى ضوء (٣) أهم « الدوافع الخفية التى تؤثر على انفعالاتنا وتصرفاتنا » ، وجدت أن هذا الإدراك يزيل التساؤل والانتقاد ، ويسهل كثيراً تقبل ما يصعب علينا تقبله عادة بسبب الفروق العميقة الكثيرة الموجودة بيننا . لذلك السبب أفضل ، قبل أن أعطى للقارئ مثلاً عن التفاصيل التحليلية الخاصة بنمطين فقط من الأنماط والتى يستطيع قراءتها فى كتب علم الأنماط ، أن أعطى بعض الأمثلة التى توضح أهمية وقيمة تحليل الأنماط لنا ولأصدقائنا ومعارفنا من حولنا ، وللمربين وللناس كلهم .

بعض الأمثلة التى توضح أهمية علم الأنماط العملية :

١ - *فى مجال حياتى المهنية* :

عالجت خلال السنوات الأخيرة مريضاً بمرض السكر عجز تماماً عن الاستمرار فى مراعاة نظام الأكل الخاص بهذا المرض . بالتالى أجريت له عدة عمليات لبتر أصابع القدم الأيسر أولاً ثم القدم الأيمن ثم

الساق الأيمن ثم القدم الأيسر كله ، وذلك فى بحر سنوات خمسة فقط . لا شك أن مثل هذا المريض مُحبط جداً بالنسبة للطبيب المعالج ويستطيع أن يسبب للطبيب رد فعل « تنافر ورفض » .

كان هذا الرجل « متوسط الانفعال » . كان يترك عيادتى فى كل مرة مقتنعاً ذهنياً وعقلياً بضرورة بذل المجهود فى مجال تنظيم التغذية ، لكن « الحماس » الناتج عن تحريك الانفعال كان ينقصه دائماً . من ناحية أخرى كان هذا الرجل من نمط « ضعيف النشاط » ، أى من نمط يكره المجهود ويختار دائماً الطريق السهل الذى لا يتطلب التحكم والسيطرة على الذات وعلى الظروف . ومن ناحية ثالثة كان هذا الرجل من نمط « أولى الرنين » أى أنه ، حتى إذا قرر فى بعض الأحيان محاولة تنظيم الغذاء وبذل الجهود المطلوبة لتحقيق ذلك ، لا يستطيع الاستمرار فى بذل المجهود لمدة طويلة لأن « المواصلة والاستمرارية » ليست من قدراته النمطية . لا يهمنى أن أعطى هذا النمط اسماً أو عنواناً . لا يهمنى أن أقول أنه « لا حماسى » أو أنه « لا ملمحى (لا متبلر) » . المهم أن علم الأنماط مكننى من إدراك عجز هذا الرجل العميق ، عجزه الجذرى الذى يمحو كل احتمالات تحقيقه أى تقدم فى مجال معالجة مرضه . بناءاً على ذلك استطعت أن أتقبل هذا الرجل إلى حد ما واستطعت أن أتعامل معه بشئ من الحنو والشفقة بدلاً من أن أعيش احباطاً مهنياً شديداً وبدلاً من أن انتقده وأن أرفضه ... هذه القصة أيضاً مثال جيد يوضح أن « الإدراك هو الخطوة الأولى على طريق التقبل والتسامح والعطاء » .

٢ - فى مجال « الكذب » :

الكذب غير مقبول وهذا أمر مسلم به . لكن هناك فرق بين الشخص الذى يكذب هادفاً إلى الخداع والشخص الذى يكذب لمجرد أنه يختصر الطريق ويتهرب من المشاكل والمضاعفات دون أن يهدف إلى الغش أو الخداع .

أتخيل نمطاً « انفعالى » - « غير نشط » - « أولى الرنين » . كلما زاد الانفعال وكلما زادت أولية الرنين كلما زاد الميول إلى عدم الثابت

وعدم الاستقرار . حيث أنه يعيش سلسلة من لحظات من الحاضر لا علاقة لها بالماضى ولا بالمستقبل ، إذاً من المنطقى جداً أن يحاول حل مشاكل الحاضر بأقرب وأسهل وأبسط وسيلة يجدها فى متناول يده فى اللحظة التى يعيشها . إذا كان الكذب هو الحل السريع الموجود أمامه فى تلك اللحظة فمرحباً بالكذب ! الكذب بالنسبة لهذا النمط يمثل الطريقة التى يدير بها ظروفه الحاضرة ويحل بها مشاكله . نعم ، إنه يغشنى ويخدعنى ، لكن هذه نتائج للكذب وليست أهدافاً له ، لأن فى الواقع لا أهمية لى بالنسبة له . ما يهمه هى المشكلة التى يعيشها ويسعى إلى حلها . اختصر الطريق إلى الحل بواسطة الكذب متجنباً التركيز والمناقشات والمضاعفات التى تمثل « نشاطاً » وجهوداً لا تتناسب وطبيعة نمطه .

لنعكس الآن العنصرين الأولين لهذا النمط ولننظر إلى نمط « ضعيف الانفعال » · أى نمط من النوع القادر على الدراسة الهادئة والتخطيط الدقيق) و « نشط » (أى أنه لا يتردد أمام تنفيذ الخطط التى وضعها) . الصعوبات الناتجة عن المشاكل التى يواجهها لا تضعه تحت ضغط كبير لأنها لا تحرك فيه « الانفعال » حيث أنه ضعيف . إنه لا يحتاج إذاً للكذب كحل سريع للتخلص من هذا الضغط . هذا النمط لا يلجأ إذاً إلى الكذب كوسيلة للدفاع عن النفس والحماية السهلة من الضيق والألم ، لكنه يخطط الكذب بكل هدوء و « يبرمجه » بكل دقة ، وهدفه الأول والأخير من وراء هذا الكذب هو الغش والخداع . « الهروب فى الكذب » كان حل النمط الأول . النمط الثانى « يهاجم عن طريق وبواسطة الكذب » . كان النمط الأول « يتراجع » فى الكذب بينما « يتقدم » الثانى بواسطته .

٣ – فى مجال الاعتداء :

يهرب شاب من المدرسة . فى أحيان نادرة أخرى يشعل بعض المراهقون الحرائق أو يظهرون بعض الميول الإجرامية . من الواضح أن هناك ميكانيكية « تعويض » خلف كل هذه التصرفات . الشخص السعيد الموفق لا يعتدى على الغير · ليعد القارئ إلى « الدوافع الخفية

التى تؤثر على تصرفاتنا » – « التعويض ») . اختيار وسيلة التعويض يخضع لنمط الشخص . يجب أن نضع فى اعتبارنا نمط المعتدى لأن نفس الاعتداد قد يختلف معناه وتختلف أهميته بناءاً على نمط فاعله . على سبيل المثال :

النمط « الشديد الانفعال » تولد فيه عواطفه كميات هائلة من الطاقة . إذا كان « غير نشط » قد تلتف هذه الطاقة على نفسها ولا تظهر للوجود أبداً . أما إذا كان « نشط » فلا بد أن تتجسم هذه الطاقة على شكل فعل ما . إذا كان « ثانوى الرنين » سوف يكون « الفعل » المعنى مبرمجاً ومدروساً . أما إذا كان من النوع « الأول الرنين » ، خاصة إذا كانت هذه الأولية شديدة إلى حد ما ، سوف تحول تلقائية هذا النمط دون التفكير والدراسة قبل الشروع فى « الفعل » ، وسوف تصدر منه الأفعال المعنية قبل أن ينسقها ويبرمجها العقل . إذا كان « الانفعال » و « النشاط » و « أولية الرنين » أقوياء ، وإذا شعر هذا النمط بانفعال شديد مثل الشعور بالظلم المتناهى أو الشعور بتقييد حريته مثلاً ، قد يثور ثورة فى غاية الشدة والعنف ، لكن أهمية مثل هذه الثورات لدى هذا النمط نسبية جداً . فى أغلب الأحيان سرعان ما يصفو الجو ويعود الهدوء ويبدأ اليوم الجديد وكأنه لم يحدث شيئاً بالأمس . حقاً ، إن هذا الغضب وهذه الثورة يمثلان اعتداءاً حقيقياً . لكن مثل هذا النمط سريع النسيان ولا يعرف الحقد ولا الضغينة التى تقوم على الاجترار وتخص فقط الأنماط « الثانوية الرنين » .

لنفترض الآن نمطاً آخر فى نفس قوة « انفعال » النمط الأول لكن ذو رنين « شديد الثانوية » . لنفترض أيضاً أنه « متوسط النشاط » وأنه قاد بحكم نمطه بعض التجارب السلبية التى أسفرت فقط على خيبة الأمل . توارثت مع الوقت حدة طبع هذا الشخص . النتيجة هى أن مثل هذا النمط يميل دائماً إلى اعتبار الآخرين مسئولين عن فشله . (ليعد القارئ إلى « التعويض – تبرير الذات – ») . من الطبيعى أن يشعر الشخص الذى يعتبر الآخرين والحياة والقدر مسئولين عن فشله وخيبة آماله بشئ من العداء تجاههم . فى هذا الحال ، العداء الذى يشعر

به هذا النمط يجب ألا نعتبره رغبة فى الإساءة إلى الآخرين كما كان الحال بالنسبة للنمط الأول . هذا العداء نوع من المطالبة بإعادة حقوق سلبتها منه الظروف والحياة ، أى نوع من الدفاع عن النفس . هذا النوع من العداء لا يهاجم ، كما كان الحال فى المثال السابق . إنه يدافع عن نفسه وعما يعتبره حقه فى السعادة وفى تحقيق ذاته ... أو هكذا يظن ... انفجار الغضب العدائى فى هذا الحال لا ينتج عن « تلقائية » لا يسيطر عليها العقل والتفكير . إن هذا الانفجار ينتج عن تراكم الألم يوماً بعد يوم لأن ليس لدى هذا النمط التقائية الكافية لتسمح للغضب بالتعبير عن وجوده والظهور إلى ضوء الشمس بمجرد تكوينه . لذلك يتراكم لينفجر فى ظروف يبدو للحاضرين أنها لا تبرر شدة الانفجار ولا تفسره . من الواضح أن هذا النوع من الغضب والعداء أهم بكثير من غضب وعداء النمط الأول . هذا الغضب لا تتم تصفيته مع بدء اليوم التالى . عدم إعطاء هذا الانفجار الغضبى القدر الذى يستحقه من الاهتمام خطئ كبير جداً .

٤ - فى مجال « العقد النفسية » :

أدى تعميم استعمال لفظ « العقد النفسية » فى اللغة العامية إلى فقدان معناه السيكولوچى الأصلى . أصبحت كلمة « عقدة » تستعمل فى كل المناسبات بينما هى فى الواقع تشخيص خطير ولا يجب استعماله إلا فى الحالات التى ينطبق عليها هذا التشخيص فقط . هناك علاقة بين الأنماط المختلفة والعقد النفسية :

العقدة النفسية يعيشها الإنسان فى أعماق نفسه . وجود مثل هذه الأعماق يفترض وجود درجة معينة من « الانفعال » . الأنماط « اللا انفعالية » محمية طبيعياً من احتمال ظهور « العقد النفسية » فيها .

تستطيع أن تعيش العقدة وتستمر فقط فى الأنماط التى لا تخرج منها الطاقة التى يولدها « الانفعال » ، أى الأنماط التى تلتف فيها هذه الطاقة على نفسها ولا تتجه إلى الخارج على شكل « فعل » أو « إنجاز » .

الطاقة التى تلتف حول نفسها وتعود لمولدها تغذى العقدة وتحييها . « النشاط » ، أى صرف الطاقة التى يولدها « الانفعال » واستثمارها فى « أفعال » متجهة نحو الوسط المحيط ، من العوامل التى تقضى على العقدة النفسية بمجود تكوينها ... إذا افترضنا أنها تستطيع أن تكون فى مثل هذه الأنماط النشطة . الأنماط « النشطة » محمية إذاً طبيعياً من استمرار العقد النفسية فيها .

نتيجة ما سبق أن العقد النفسية تحتاج لتتكوّن إلى نمط « انفعالى » وتحتاج لتعيش وتستمر إلى نمط « غير نشط » . الدافع المسبب للعقدة الوارد من العقل الباطن لا تثبت جذوره إلا على أرض « الانفعال » الخصبة ، ولا ينمو ويزدهر إلا فى هدوء انعدام « النشاط » .

هناك إذاً ستة من الأنماط الثمانية الموجودة بالجدول أعلاه – أى كل الأنماط « اللا انفعالية » وكل الأنماط « النشطة » – تتمتع بحماية طبيعية ضد العقد النفسية .

٥ – فى مجال العادة السرية :

هذا أيضاً مجال كثير ما تعمم فيه الآراء دون إعطاء علم الأنماط أهميته الحقيقية . حذار من تعميم الرأى فى هذا المجال لاستخلاص قانون أو رأى يطبق فى جميع الحالات دون استثناء أو تمييز . يقول البعض أن العادة السرية من الانحرافات الخطيرة التى تؤدى إلى أسوأ المضاعفات العضوية والنفسية بينما يعتبر البعض الآخر العادة السرية خطوة طبيعية من خطوات المراهقة فى سيرها إلى النضج الجنسى . يرى مدافعى كلا الرأيين أنهم أصحاب الحقيقة المطلقة وينادون بتعميم رؤيتهم إلى جميع المراهقين والمراهقات بدون استثناء . هذه استحالة . لا يستطيع مدافعى الآراء المتناقضة الاتفاق على رأى واحد – على الأقل فيما يخص البُعْد النفسى للمشكلة وبصرف النظر عن الأبعاد الدينية والخُلْقية والعضوية – إلا إذا أدخلوا فى تحليلهم لها علم الأنماط بكل أبعاده .

كلما ضعف « الانفعال » كلما قلت علاقة البُعْد الجنسى بالاعتبارات

العاطفية واختصر على مجال الاحتياجات العضوية والهرمونية والمتعة البحتة . الجنس ، فى هذا الحال ، مسألة « شخصية » فقط وليس « علاقة » يلعب فيها « الآخر » الدور المهم . كلما ازدادت « أولية الرنين » كلما قل امتداد أهمية الفعل الجنسى وما يرتبط به فى الزمن . بالنسبة للأنماط « اللا انفعالية » - « الأولية الرنين » ممارسة العادة السرية تهدف فقط إلى فك التوتر الجنسى العضوى البحت . تتم ممارسة العادة السرية دون أن تحمل رموزاً معقدة ولا معانى خفية معينة تخص الشخص نفسه أو تخص غيره وينساها ممارسها بمجرد الانتهاء منها.

كلما ازداد « انفعال » النمط كلما شمل النشاط الجنسى كامل أبعاد الشخصية . النمط « الانفعالى » حساس لوجود « الآخر » ، مما يُحمِّل الجنس أبعاداً جديدة من رموز كثيرة ومعانى سيكولوچية وروحية مستترة ومعقدة . يصبح الجنس إذاً وسيلة للتعبير عن العواطف ووسيلة للاتصال الانفعالى . (بالطبع ، لا نتوقع أن تفهم الأنماط « اللا انفعالية » الجملة السابقة : قال لى بعضهم أن هذه كلها « تفاهات» وهراء وأن الجنس فعل حيوانى المقصود منه المتعة والمتعة فقط . لم يدرك هذا الشخص أن قوله هذا جاء إثباتاً لنفس القول الذى كان ينتقده وأنه أثبت فقط أنه ينتمى للأنماط « اللا انفعالية » ، وأنه شخص غير ناضج جنسياً ... !) . يعيش إذاً النمط « الانفعالى » واقع « العادة السرية» وكأنه نوع من الفشل ينتج عن ضعف الإرادة ونقص وعدم اكتمال الشخصية ، علاوة على الشعور الدينى بالذنب والخطيئة . إذا أضاف هذا النمط إلى « انفعاليته » هذه « ثانوية الرنين » (أى إذا كان من نمط «مولع » أو « عاطفى » ... لكن هذا لا يهم ...) سوف يجتر شعوره بالذنب وينميه تحت تأثير امتداد الانفعال فى الزمن وتراكم سلبية تجارب ممارسة العادة السرية . يؤدى ذلك بدوره إلى تحميل العادة السرية معانى « التعويض » المختلفة (ليعد القارئ إلى الفصل الخاص «بالتعويض ») لتأخذ تارة معنى الاحتجاج أو الثورة وتارة معنى المواساة أو المكافئة الذاتية ... إلخ . ازدياد أهمية واقع العادة السرية من خلال إضافة هذه المعانى كلها لممارستها يزيد من الشعور بالذنب .

اجترار الشعور بالذنب يولد « الانطواء » ، أى تقليل أو قطع العلاقات مع العالم الخارجى وقطع العلاقات مع واقع الحياة للهروب إلى عالم الخيال والخرافة والوهم .

إذا استثنينا النواحى الدينية والخلقية والعضوية نستطيع أن نقول أن من الناحية السيكولوچية البحتة وفيما يخص الأنماط المختلفة ، تمثل ممارسة العادة السرية بالنسبة لبعضها أهمية كبيرة وخطورة بالغة بينما لا تمثل بالنسبة لغيرها سوى حدث ذو أهمية وذو امدادات نسبية جداً .

٦ - فى مجال الشذوذ الجنسى أثناء فترة المراهقة :

الشذوذ الجنسى أثناء فترة المراهقة أيضاً من المجالات التى توضح خطورة تعميم الآراء لتطبيقها دون تميز . سبق وأوضحنا أن العادة السرية قد تكون هامة وخطيرة بالنسبة لبعض الأنماط فقط ، وليس بالنسبة لجميع الأنماط بدون استثناء.سوف نوضح نفس المبدأ فيما يخص الشذوذ الجنسى الذى نتحدث عنه . علم الأنماط يفرق بين الشذوذ الذى لا يمثل سوى خطأ اتجاه مؤقت فى اختيار المسار والذى لا تترتب عليه مضاعفات خطيرة على المدى الطويل ، وبين الشذوذ الجنسى الذى يمثل أحد أعراض انحراف عام لسيكولوچية الشخص والذى يحتاج لعلاج نفسى سريع وفعال . لنتأمل بعض اللحظات الجدول الآتى :

الرجاء فهم كلمة « متفتح » بأنها عكس كلمة « منطو » ، أى : متجه إلى خارج الذات extraverti ، وكلمة « متآلف » syntone وصفاً للنمط المتناغم الذى « ينسجم وصفات الغير » . « متكيِّف » = adapté .

متفتح – متكيف – متآلف	متفتح – غير متكيف	منطو
لا انفعالى / نشط / أولى الرنين	انفعالى / غير نشط / أولى الرنين	لا انفعالى/غير نشط/ ثانوى الرنين
لا انفعالى / نشط / ثانوى الرنين	لا انفعالى / غير نشط / أولى الرنين	انفعالى / غير نشط / ثانوى الرنين
انفعالى / نشط / ثانوى الرنين		
انفعالى / نشط / أولى الرنين		

لنلاحظ أولاً طريقة توزيع هذه الأنماط . يشمل العمود الأيمن الأنماط الأربعة « النشطة » . من خواص هذه الأنماط من خلال « نشاطها » ، أنها « متفتحة » على العالم المحيط ، أنها « تتكيف » وتتفق مع الظروف ومع الحياة عموماً ، وأنها « تلتقط » بسهولة نسبية صفات ومميزات الوسط الذى تتواجد فيه (تألف) . نجد فى العمودين الآخرين الأنماط « الغير نشطة » ، على أن يجمع العمود الأوسط الأنماط « الأولية الرنين » منها والعمود الأيسر « الثانوية الرنين » . يصعب على الأنماط « الأولية الرنين » أن تلتف حول نفسها وأن « تنطوى » لأنها تعيش فقط فى الحاضر . سوف يتميز إذاً هؤلاء أيضاً « بالتفتح » . لكن ، « أولية الرنين » نفسها تعرقل قدرتهم على « التكيف » والاتفاق مع الوسط الذى يعيشون فيه . الأنماط « النشطة » ، سواء كانت « أولية الرنين » أو « ثانوية الرنين » وسواء كانت « انفعالية » أو « لا انفعالية » (العمود الأيمن) سوف « تتكيف » وتتفق مع العالم الذى تعيش فيه فى جميع الأحيان . أما الأنماط « الغير النشطة » ، إذا كانت « أولية الرنين » سوف تكون « متفتحة » على العالم لكن محدودات القدرة على « التكيف » والاتفاق معه ، بينما تميل « الثانوية الرنين » منها (العمود الثالث ، على اليسار) إلى « الانطواء » لأن « ثانوية رنينها » مضافة إلى « ضعف النشاط » تجعل أصحابها يلتفون حول المشاكل التى لا يستطيعون « هضمها » وحلها ، ليعيشونها ويجترونها فى عزلة داخلية ، بعيداً عن الاتصال بالآخرين وعن مشاركتهم . إنهم لا « يتآلفون » والوسط الذى يعيشون فيه ويميلون إلى طرد من يختلف عنهم من عالمهم الداخلى . **العوامل الهامة جداً ، العناصر الأساسية التى تختفى تدريجياً أثناء انتقالنا من المجموعة أو العمود الأيمن فى اتجاه المجموعة على اليسار هى « التفتح على العالم ومستوى التعامل مع ظروف الحياة وسوية العلاقة بالواقع »** . يجب فقط أن نضيف هنا أننا ، عندما نتحدث عن « الانطواء » نتحدث عن إمكان أو ميول فقط ولا نتحدث عن واقع وراثى حتمى ، على أن تدفع ظروف الحياة وتجاريها هذا النمط إلى الانطواء أو تحميه من هذا الخطر .

المجموعة الأولى : بعض أنماطها تعيش الواقع بارتياح وسوية وانسجام . بعض آخر يتجه دائماً اهتمامهم إلى المستقبل ولا يضيعون وقتهم وجهودهم بخصوص مشاكلهم الحاضرة . بعض آخر يتمتعون بحيوية فى درجة من الصحة والاتزان تحمى حياتهم الجنسية من مخاطر الانحراف والشذوذ . من الواضح أن بالنسبة لمثل هذه الأنماط أى شذوذ جنسى ، وبصرف النظر عن الأبعاد الدينية والخُلُقية ، لا يمثل أكثر من خطأ اختيار عابر سببته الظروف من فرص ومن صدف ، ولا يمثل فى أى حال من الأحوال تهديداً لاتزان النفس ولا لسوية الشخصية على المدى الطويل . مجرد نصيحة ودية أو إرشاد مجرد من التهديد والتخويف يكفون فى أغلب الأحيان لإعادة الأمور إلى المسار الطبيعى الذى غالباً ما كانت ستسلكه تلقائياً وبدون أى تدخل من طرفنا .

المجموعة الثانية : يطالب غالباً أعضاء هذه المجموعة الحياة والآخرين بأكثر مما يعطونهم . هذا يعنى أنهم يبحثون دائماً عن أحاسيس جديدة وتسالى متنوعة . ضعف « نشاطهم » يسبب الكسل . لذلك لا يبذلون الجهود لابتكار وسائل لتجديد التسالى وينتهزون فرص المتعة السهلة الجاهزة حيث يجدونها . الانحراف والشذوذ الجنسى من التسالى والمتع الجاهزة السهلة التناول . هذا النوع من الشذوذ والانحراف فى غاية الأهمية والخطورة . هذا النوع من الشذوذ ، الذى ينتج عن إضافة جاذبية السهولة للأنانية والبحث عن المتعة ، يناسب خللاً عاماً يصيب شامل الشخصية وأوجه الحياة الأخرى كلها . يجب أن يلفت نظرنا ويثير اهتمامنا فوراً الشاب (أو الشابة) الطائش ، المداعب ، الذى اعتاد السخرية ولا يتراجع أمام اللجوء إلى القسوة فى بعض الأحيان . هناك احتمال كبير أن ينتمى هذا الشاب (أو الشابة) إلى المجموعة الثانية . بالنسبة لمثل هذا النمط الشذوذ الجنسى جزء لا يتجزأ من نظام حياة معين ومن بنية سيكولوچية كسولة وعاشقة للمتعة، يلبى الانحراف احتياجاتها البدائية الأولية . الشذوذ فى هذا الحال بعيد كل البعد عن « خطأ الاختيار » الخاص بالمجموعة الأولى .

المجموعة الثالثة : وهى تشمل ، كما قلنا ، الأنماط القابلة للانطواء . « ثانوية رنين » هذه الأنماط تجتر تجارب الحياة فى جو يسوده هدوء ضعف « النشاط » إذا تحدثنا عن النمط « الانفعالى » ، على أن يتحول هذا الهدوء إلى « فراغ » داخلى حقيقى لدى الأنماط « اللا انفعالية » . اجترار التجارب يترك آثار دائمة ونهائية تزيد بدورها من شدة الانطواء . الشذوذ الجنسى بالنسبة لهذه المجموعة نتيجة مباشرة للانطواء . نتيجة مباشرة لكنها ليست حتمية ، لأن ظروف الحياة تستطيع أن تدفع الإنسان فى اتجاهات مختلفة ، كما سبق وقلنا . الشذوذ الجنسى والانحراف يمثلان أيضاً ، بالنسبة لهذه الأنماط ، رفضاً للواقع ومحاولة للهروب منه . النتيجة الوحيدة لتوجيه اللوم والعتاب لمثل هؤلاء الأنماط هى زيادة شعورهم بالذنب وزيادة آلامهم ورغبتهم فى الهروب من الواقع وتقوية احتياجهم الدفاعى إلى نفس الشذوذ الذى نحاول علاجه وإغلاق الدائرة الملعونة عليهم . هذه الأنماط تحتاج على عكس اللوم والاضطهاد إلى كثير من الحنان والتفاهم . يجب على قدر الإمكان أن نشجع رجولة الشاب وأنوثة الشابة وأن نوفر لهم أحسن فرص السعادة وتحقيق الذات فى إطار الشخصية الطبيعية والتصرفات الصحية السليمة المتزنة التى نريدهم أن يعيشوها[1] .

قد يكون نفس التصرف الشاذ أو نفس الانحراف ذو أهمية بسيطة نسبياً فى بعض الأحيان أو ذو خطورة بالغة وأهمية درامية فى أحيان أخرى . علم الأنماط يساعد على فهم الأوضاع على حقيقتها ويسمح بتقييم أفضل للأشخاص ولمشاكلهم .

القيمة المطلقة والقيمة النسبية للأشخاص بناءًا على نمطهم :

القيمة النسبية :

أثبت « باكستر » أن الكائنات البدائية مزدوة بما سماه « بالإدراك أو الإحساس الأولى » . الكائنات الأكثر تعقيداً فى بنيتها مزودة بإحساس أو بانفعال أكثر دقة وكمالاً . الجهاز العصبى هو المركز الذى تتم فيه العمليات النهائية التى ينتج عنها هذا « الإحساس » . (ليعد القارئ إلى

« الخلية التى حققت التحرر ») . يتحول ، لدى الإنسان ، هذا الإحساس إلى « انفعال عاطفى » . ما عرّفناه « بالانفعال » هو ، لدى الإنسان ، هذا الباب المفتوح على العالم الخارجى وعلى وجود الآخرين من حولنا . «الاحساس » بالآخر ، « الانفعال » والتفاعل مع الآخرين ومع ظروف وأحداث الحياة ، عبارة عن مشاركة حقيقية لواقع هؤلاء ولحقيقتهم الأساسية . لا نجرأ القول أن « اللا انفعاليين » يعيشون أقل « من « الانفعاليين » لكن نستطيع أن نقول بلا تردد أنهم يعيشون بطريقة مختلفة وأنهم تنقصهم أبعاد كثيرة من الأبعاد التى تميز الآدمية . قد يكونوا فى غاية « الذكاء » ويعيشون من ذكاءهم . نستطيع وقتئذ أن نشبههم « بكمبيوترات » فى غاية التطور : آلات هائلة تنقصها الروح. « الانفعال » ، هذه الظاهرة التى تسمح بالاتصال والمشاركة ، وهما من قوائم الحب والعطاء ، قدرة مرتبطة بدرجة تعقيد الأجهزة العصبية الأكثر كمالاً والأفضل انجازاً . (ليعد القارئ إلى « الخلية التى أنجزت التحرر ») . القدرة على « الانفعال » إذاً من خواص الأجهزة العصبية الأكثر تعقيداً وانجازاً . يبدو أن النمط « الانفعالى » يتمتع بقدرة لا يتمتع بها النمط « اللا انفعالى » .

النمط « الغير نشط » يتأمل الحياة متفرجاً . يتابع الأخبار بانتظام وينصح الآخرين . ينشط بالتوكيل ! ليس « الغير نشط » الذى يصنع التقدم ويغير من أحوال العالم . الإنجازات الإيجابية البناءة التى تتناقض والأنانية والبحث عن الذات ، كلها إنجازات الأنماط « النشطة » . النمط « الغير نشط » معوق إلى حد ما فى قدرته على الإنجاز وعلى تحقيق أهدافه . القدرة على « النشاط » من خواص الأجهزة العصبية الأكثر تعقيداً وإنجازاً . يبدو أن النمط « النشط » يتمتع بقدرة لا يتمتع بها النمط « الغير نشط » . النمط « النشط » يتقدم مسيرة الإنسانية : هو الذى يبنى المستقبل .

النمط « الأولى الرنين » ، بصفته منفصل إلى حد ما من الماضى والمستقبل ، لا يرى من الحياة سوى الشريحة الحاضرة . النمط « الثانوى الرنين » هو الوحيد الذى يستطيع تركيب الماضى والحاضر

والمستقبل . لإجراء هذا التركيب نتيجتان هامتان للغاية . النتيجة الأولى هى أن النمط « الثانوى الرنين » هو الوحيد الذى يستطيع أن يُسقط محصلة خبرته الماضية والحاضرة على المستقبل . إنه إذاً الوحيد الذى يستطيع برمجة المستقبل بناءاً على ذكاء تغذية محصلة خبرات واسعة . لا ننسى أنه يتمتع كذلك بالقدرة على « المواصلة » و « الاستمرارية » ... النتيجة الثانية هى أن من ناحية العلاقات الإنسانية ، النمط « الثانوى الرنين » ينظر إلى شامل شخصية الآخرين بينما « الأولى الرنين » يرى من الشخصية مقاطع متتالية فقط ولذلك يصعب عليه إدراك وحدة الشخص وتماسك مكوناته. « الثانوية الرنين » من خواص الأجهزة العصبية الأكثر تعقيداً وإنجازاً. يتمتع « الثانوى الرنين» بقدرات لا يتمتع بها « الأولى الرنين » .

ينتج عما ورد فى الفقرات الثلاث السابقة أن النمط « الانفعالى – النشط – الثانوى الرنين » هو النمط الرائد ، النمط الأكثر تقدماً وإنجازاً والأكمل قدرات وإمكانات ، وبالتالى فهو النمط الأكثر قيمة إنسانية ، بينما النمط « اللا انفعالى – الغير نشط – الأولى الرنين » هو الأقل نجاحاً وبالتالى الأقل قيمة إنسانية . **من ناحية علم وظائف الأعضاء وبعد ملاحظة القدرات الجديدة التى اكتسبها الجهاز العصبى البشرى ومقارنتها بقدرات الأجهزة العصبية للكائنات السابقة له فى الوجود ، (ليعد القارئ إلى « الخلية التى حققت التحرر ») . لا بد من الاعتراف بأن ليس لجميع الآدميين نفس القيمة النمطية . قد يسبب هذا الاعتراف مشكلة للبعض ، لكن ذلك واقع لا نستطيع أن نتجاهله ...**
ما سبق كان يخص **القيمة النسبية** .

القيمة المطلقة :

أما من الناحية **المطلقة** فليس فى ذهنى أدنى شك أن الناس يتساوون فى القيمة الإنسانية مهما كان نمطهم ومهما كانت درجة نضجهم السيكولوچى والاجتماعى وغيرهما . لجميع أفراد الجنس البشرى قيمة مطلقة واحدة . التناقض بين تفاوت القيم الخاصة بالنمط

والشخصية والذى لا يقبل الجدال وتوحيد القيمة الإنسانية والآدمية الذى لا يقبل هو أيضاً النقاش ، تناقض ظاهرى فقط ، أترك لرجال الفلسفة ولرجال الدين مهمة شرحه وتوضيحه حيث أنهم أكبر كفاءة منى فى هذا الموضوع . أريد فقط الإشارة إلى أن القيمة المطلقة للشخص لا يجب أبداً أن توضع فى الاعتبار بالمقارنة بينه وبين الآخرين (عقلية نتيجة امتحانات المدارس الفرنسية) لكن بالمقارنة بين ما كان عليه قبل بذله الجهود للتقدم والنتيجة التى أنجزها فى هذا المجال (عقلية تقدير الطلبة فى المدارس الانجليزية ، حيث لا يُعطى الطالب « ترتيب » بالنسبة لباقى طلبة الفصل بل علامات مثل « أ + » أو « ب - » ... الخ).

فيما يخصنا ومن الناحية العملية لا شك أن الشاب أو الصديق الذى يستجيب لمشاعرنا (انفعالى) والذى نستطيع الاعتماد عليه عند اللزوم (نشط) والذى يعرف الإخلاص والوفاء والاستمرارية فى هذه الصفات الحميدة (ثانوى الرنين) شخص يجذب صداقتنا ويجعلنا نقول عنه : «هذا الشخص جدير بحبى وبصداقتى وبإخلاصى ... » . تعبر هذه الجملة الأخيرة عن كل ميكانيكية الجاذبية والتنافر الموجودة بين الأنماط المختلفة والتى تحول دون استطاعة المربى التعامل مع كل الناس بحماس واحد وبقدر واحد من العطاء . الجاذبية والتعاطف من ناحية والتنافر من ناحية أخرى منحدران يسهل الانزلاق عليهما .

بعض الاستنتاجات العملية :

١- كل إنسان فريد . يستحيل إذاً تصنيفه . توزيع الأنماط إلى ثمانية مجموعات يساعد فقط على تحديد الخطوط العريضة لنمط الشخص الذى نحاول دراسته بهدف فهم ما يدور فى عقله وفى قلبه . يجب أن نضع دائماً فى اعتبارنا عوامل مثل ميوله الخاصة وتأثير الوسط الاجتماعى والدينى والثقافى ... الخ .

٢- إننا لا نرى نمط الآخرين إلا من خلال شخصيتنا وواقع نمطنا الشخصى . لذلك يفضل عند محاولتنا فهم الآخرين أن نتبادل الآراء ونناقش أوجه النظر مع بعض المربين الآخرين . على مستوى المدرسة

مثلاً إن اشتراك مدرسين أو ثلاث فى مناقشة نمط طالب من الطلبة ومحاولة تحديد خطة تربوية لمعالجة أموره أفضل عادة بكثير من محاولة فردية من قبل مدرس منعزل .

٣- أجمع علماء الأنماط على أن النمط وراثى ومحدد منذ قبل الولادة . إلا أنهم أجمعوا كذلك على أن النمط مجرد نقطة بداية وأن الميول والاتجاهات ، الجيدة منها والسيئة على قدم المساواة ، لا تأخذ شكلها النهائى حتى بعد سن العشرين عام . هناك إذاً دائماً ما نستطيع القيام به لتنمية واستثمار ما يمكن اعتباره مجرد رأس مال لا غير . قال « أندريه جيد » : « اتبع منحدر طبيعتك ... فى الاتجاه الصاعد » . يمكننا اعتبار الشخص الذى لا يحاول ذلك أو الذى لا يستطيع ذلك ، من الحفريات ! .

٤- توجد مجموعة من جداول الأسئلة والاختبارات لتحديد نمط الإنسان . يستطيع الذى يريد إثارة اهتمام الأجيال الصاعدة بعلم الأنماط أن يلجأ إلى هذه الاختبارات كمقدمة جذابة لهذا الموضوع .

٥- تصف كتب علم الأنماط كل نمط على انفراد معطيه الاتجاه التربوى للتعامل مع كل نمط منها . سوف نصف هنا على سبيل المثال نمطين فقط من الأنماط الثمانية ، وسوف نختار لذلك النمطين الذين يمثلان طرفىّ الإمكانات النمطية التى سبق وصفها ، أى النمط « المولع » (انفعالى - نشط - ثانوى الرنين) والنمط « اللامتبلر » (انفعالى - غير نشط - أولى الرنين) .

النمط « المولع » Passionnés

انفعالى - نشط -ثانوى الرنين

« الولع » عبارة عن دافع داخلى قوى جداً تجاه شخص أو أشياء أو أفكار أو مبادئ . وهذا يفسر اختيار علماء الأنماط هذا الاسم لوصف هذا النمط . الخاصة الثانية المرتبطة بولع هذا النمط هى أن الدافع الداخلى يخضع دائماً للتأنى والتفكير والدراسة (بفعل ثانوية الرنين ، بالطبع) .

يميز النمط « المولع » Les Passionnés درجة معينة من العنف ، الحزم والعزم ، سرعة البديهة والتصور ، التفكير والتصرف العملى ، وسع الآراء والآفاق ، حب الاستقلال ، قوة الملاحظة ، قوة الذاكرة ، اهتمام نسبى بالرياضة والفنون ، التواضع ، الشفقة ، المروءة ، الطيبة تجاه من هم أقل منه ، حب الوطن ، الوفر ، الأمانة ، الصدق ، المحافظة على المواعيد ، الإيمان الدينى ، حب الحيوانات ، وفى بعض الأحيان قلة الشجاعة أمام الخطر .

هناك « المولعون المتطرفون » الذين يتمتعون بدرجة قوية جداً من « الانفعال » تضاعف من قوة الخواص التى وصفناها ، وهناك « المولعون المعتدلون » الذين يتمتعون بنفس الخواص لكن بحدة أقل من الأوائل .

« المولع المتطرف » شديد وقاسى فى طلباته وأحكامه مع نفسه ومع الآخرين ، يميل إلى الكآبة وتعكير المزاج . إنه يقف على هامش الآدمية ليحاكمها ويستعلمها لأغراضه وأهدافه الشخصية دون أن يعنى ذلك أن تكون هذه الأغراض وهذه الأهداف أنانية أو سلبية . إنه أيضاً شديد التلقائية (لكن أقل من الانفعالى - الأولى الرنين) ، نافد الصبر ، سريع التأثر ، قاسى الانتقاد ، وصعب التعامل . يريد السيادة والسيطرة .

« المولع المعتدل » يخالط الآخرين ويتعامل معهم (متآلف) . إنه أكثر تقبلاً لأفكارهم واحتراماً لحدودهم ولحريتهم .

ما الذى جعل علماء الأنماط يجمعون بين اشخاص مختلفين لهذه الدرجة تحت عنوان واحد ؟ الإجابة بسيطة : يتم جمع الأنماط بناءاً على خمسة وأربعين خاصة . يشترك نوعا « المولعين » فى أربعة وثلاثين منها ليختلفا فى أحد عشر منها فقط .

سوف لا تتساوى هذه الخصائص لدى جميع « المولعين » . سيادة « الانفعال » تزيد من العنف وحب المرؤوسين وحب الحيوانات . لكنها تقلل من قوة الملاحظة والدقة فى المحافظة على المواعيد . سيادة « ثانوية الرنين » تضعف وتقلل من البساطة والصدق والأمانة . سيادة « النشاط » يمثل خطراً بالنسبة للخواص الخُلُقِيَّة .

النمط « المولع المعتدل »

Les Passionnés réfléchis

يعمل الطفل بحماس ثابت شاغلاً نفسه باستمرار . يبحث دائماً عن الألعاب التى تتحدى ذكائه . يكتسب هذا النمط ميوله النهائية فى الثانية عشر من عمره تقريباً . قد يظهر بعض الفتور بالنسبة للأشياء والقيم الظاهرية والخارجية . لكن هذا ليس هروب فى الأحلام ولا نوع من الانطواء . بالعكس : إنه مهتم بما يدور حوله ومتجه نحو الآخرين والعالم المحيط بـه . لكنه لا « ينفعل » لأى سبب وبسهولة . « انفعاله» « اختيارى » جداً : الأشياء والناس تهمه وتثير انفعاله فقط فى حدود المواضيع والمشاكل التى تمثل تحدياً لذكائه وفى حدود الدور الذى يستطيع أن يلعبه بالنسبة لها .

يعطى « المولع المعتدل » كتبه وممتلكاته عموماً قدراً كبيراً من اهتمامه . يا ويل من يغير ما رتبه أو يخل ما نظمه . هذا ليس « هوس » من طرفه ولا إشارة إلى فتور العواطف أو إلى « إيجابية » جامدة ومحسوبة كما هو الحال لدى بعض الأنماط « اللا انفعالية » ، ولكنها فقط تعبير عن حبه للناس وللأشياء وعن طموحه فى الحياة . « الانفعال » موجود وظاهر جداً بالنسبة للحيوانات التى لا يحبها بالكلام والادعاء فقط لكنه يحبها بطريقة نشطة وفعالة .

تظهر علامات النضج وتقدير المسئولية مبكراً نسبياً فى هذا النمط ، أى بعد الانتهاء من أزمة البلوغ مباشرة ، حول الثانية أو الثالثة عشر من العمر . الانطواء وعكسه ، أى النظر إلى الخارج وإلى الآخرين والعالم المحيط ، فى غاية الاتزان : « النشاط » متجه إلى الخارج بينما التفكير فى أوجه النشاط واحتمالاته والتأمل عموماً متجهان إلى الأعماق الداخلية . شخصية سوية ومتزنة .

قليل ما يُظهِر عواطفه العائلية . لكنها قوية ومتينة . يبدو فاتر العواطف فقط لأنه أنزلها فى أعماق نفسه ورتبها ونظمها ! لذلك فهو

يبدو وكأنه مسئول عن مهمة تشغل تفكيره وتركيزه . الحدث المفاجئ والخطير الذى يهز تنظيمات ذكائه فقط يستطيع أن يكشف ويظهر قوة وشدة وثروة حياته العاطفية العميقة .

بعض الخواص الأخرى للنمط « المولع المعتدل » : سرعة فى إبداء القوة والنشاط (هذه الخاصة تتحول إلى عنف لدى المولع المتطرف) ، اختيار أكيد وسريع لما يجب القيام به فى كل المناسبات ، النظام والدقة ، قوة الذاكرة وصواب الذكاء .

لا تؤثر فيه الأمثلة السيئة : إنه مستقل ويسلك طريقه . فى المجال الرياضى تجذبه فقط الألعاب التى تتطلب قدر من الذكاء أو تنسيق الحركات ، وكذلك الألعاب الجماعية التى تحتاج إلى تخطيط وتنظيم فى الأداء .

نظراً لأنه « انفعالى » و « ثانوى الرنين » إنه يفكر كثيراً قبل أن يتحرك مما يقلل من سرعة ردود أفعاله . كذلك يرى بوضوح جميع أوجه الخطر الموجودة فى موقف ما والتى لا تراها بعض الأنماط الأخرى . ينتج عن تداخل هذين العاملين نوع من الخوف العضوى أمام الخطر . التردد ليس الجبن . يجازف بحياته إذا رأى ذلك ، لكن دائماً بعد فترة قصيرة من التفكير والتأمل .

نتوقع أن يدفعه « انفعاله » إلى الفنون والموسيقى ، لكن اهتمامه بها نسبى جداً . « انفعاله » فى الواقع مرتبط « بالنشاط » لدرجة تجعله يشعر أن كل مجهود غير موجه للنشاط والبناء مجهود يضيع بلا فائدة . نستطيع أن نقول نفس الشئ بالنسبة للتأمل مثلاً .

البُعْد الدينى يلعب دوراً هاماً بالنسبة لهذا النمط . هو أكثر الأنماط إيماناً ومتانة دينية . الدين بالنسبة له مصدر لانفعال العواطف طبعاً ، لكنه يشعر بضرورة إدخال العقائد المختلفة فى إطار مذهب معين يحولها إلى نظام حياة يطبق فعلاً . سوف يقوى نشاطه فى المجال الدينى إيمانه الذى بدوره يدعم المزيد من النشاط . سوف يكرس فى بعض الأحيان حياته كلها فى نشر مبادئه وعقائده . هذا يتوقف بالطبع على طفولة الشخص ونوع التكوين الذى تلقاه والبيئة التى عاش فيها سنواته الأولى .

النمط « المولع المتطرف »

Les Passionnés Accentués

درجة « الانفعال » هي العنصر الفاصل بين « المتطرف » و« المتوسط » . « المتصرف » مبالغ « الانفعال » بينما « المعتدل » متوسط « الانفعال » وفي بعض الأحيان تحت المتوسط بقليل . المبالغة في القدرة على « الانفعال » تأخذ لدى « المولع المتطرف » الشكل الآتي :

إنه كثير الحركة والانشغال إلى درجة تذكرنا بهياج النمط « العصبي » . شدة « الانفعال » تحد من « الاستمرارية » دون أن يصل إلى دافعية ونزوق impulsivité الأنماط « الأولية الرنين » . العنف موجود على شكل انفجارات عصبية وغضب وكلمات مبالغ فيها . يقودنا ذلك إلى الخاصة التالية وهي الصراحة المتناهية العنيفة ، القريبة من صراحة النمط « الغضبي » . شدة « الانفعال » يؤثر أيضاً على صفاء المزاج . كثير ما يكون « المتطرف » حزين ومكتئب . كلما تقدم سناً كلما صعب التأثير عليه بسبب نهائية آرائه وقوة إرادته التي يدعمها شدة « النشاط » .

شدة « الانفعال » تدفع « المتطرف » أكثر من « المتوسط » في اتجاه الفنون والموسيقى خاصة إذا كان « النشاط » قريباً من الاعتدال .

النَزَقْ الخاص بهذا النمط impulsivité يزيد من الشجاعة التي كانت تنقص « المعتدل » .

خطر الوقوع في « الذهان » Paranoia :

تعريف هذا المرض هو « الميول إلى النظر لما هو لصالحنا أو لما هو حيادي على أنه يخفي إرادة شريرة أو على الأقل إرادة تخصنا وتهدف إلينا » . على سبيل المثال المريض المصاب بهذا المرض يرى في تصادم السيارات الذي حدث على الطريق الصحراوي يوم تأجيل سفره إلى القاهرة محاولة لاغتياله ! مريض آخر يرى « الأتوبيس » يطول الوقوف على المحطة القريبة من منزله يشك في أن السائق يغازل زوجته ! يفترض هذا المرض وجود « الانفعال » بالإضافة إلى العمل

الداخلى الذى تقوم به « ثانوية الرنين » . « المتوسط الانفعال » غير معرض لهذا المرض . فقط « الانفعال » المبالغ فيه الذى يخص النمط « المولع المتطرف » معرض لذلك . النمط « العاطفى » أيضاً ، إذا افترضنا سيادة « انفعال » شديد جداً على الخواص الأخرى ، يستطيع الوقوع فى هذا المرض . هذا هو ما حدث « لجان چاك روسو » . مع ذلك، هذا المرض نادر إلى حد ما لدى النمط « العاطفى » . النمط « المولع المتطرف » أكثر عرضة لهذه الإصابة وهذا بديهى إذا أدركنا أن هذا النمط ينتظر ويتوقع النتائج الكثيرة من ممارسته « لنشاطه » ، بينما كثير ما يصاب بخيبة أمل فى هذا المجال إما لأنه أسرع فى أنشطة خرافية ، وإما لأن قدرته على الإنجاز وتحقيق الأهداف لا تتماشى وصعوبة المشاريع التى خططها . المرض فى هذا الحال نوع من الدفاع عن الذات على شكل تبرير ذاتى « يعوض » مرارة الفشل والاحباط الناتج عنه . (ليعد القارئ إلى « التعويض ») . الذهان Paranoia يمثل بالنسبة للنمط « المولع المتطرف » ما يمثله الانطواء بالنسبة للنمط « العاطفى » .

هذه قائمة بأهم « المولعين » الذين دخلوا التاريخ :

بيتهوفن - تولستوى - نييتش - راسين - باسكال - شيليه - دانت - ميكل أنجلو - موليير - كونديه - فوش - ريشيلييه - نابوليون - بوسيوييه - ديكارت - ستالين - شيرتشيل - وأيضاً هيتلر وموسولينى .

النمط « اللاملمحى (لا متبلر) » Amorphe
لا انفعالى -غير نشط - أولى الرنين

إنهم مناصرى عدم الحركة وعابدى السكون . علامتهم المميزة هى الكسل بجميع أشكاله وجميع أبعاده . ترتبط فكرة هذا النمط فى ذهن الكثير بفكرة الشخصية اللينة المرخية . لو كان هذا صحيحاً لسهلت قيادتهم وأمكن توجيههم . فى الواقع ، يصعب هزهم وتحريكهم من قواعدهم ومن أفكارهم لأنهم يقاومون بشدة أى تغيير وأى حركة . النمط « العصبى » أيضاً كسول إلى حد كبير . لكن كسل النمط

« العصبى » يختبئ خلف « الانفعال » الذى يعطيه شيئاً من الحركة والحيوية ، بينما « لا انفعالية » النمط « اللا متبلر » تكشف كسله العميق فى حقيقته العارية .

بعض أنواع النمط « اللا متبلر » :

١- « اللا متبلر » المائل إلى النمط « العصبى » : وهو الذى يتمتع ببعض « الانفعال » .

٢- « اللا متبلر » المائل إلى النمط « الدموى » : وهو الذى يتمتع ببعض « النشاط » .

٣- « اللا متبلر » الأصلى : ويتصف بشبه غياب كلا « الانفعال » و « النشاط » . نمط نادر جداً ... لله الحمد ! .

الخطوط العريضة لهذا النمط :

١ـ الكسل :

إنه يتماشى وضعف التوتر الداخلى وانعدام الطاقة السيكولوچية.

أ- فى حالة النمط « اللا متبلر الأصلى » و « اللا متبلر المائل إلى العصبى » :

إنه كسل عميق يشمل جميع الأعمال والأنشطة التى تطلبها السلطة وتفرضها الحياة . وضعهم المفضل هو حالة الفراغ الكامل . يستطيعون فقط متابعة الحركات الجماعية التى لا تتطلب أى مجهود والمشاركة فى بعض الألعاب إذا ضغط عليهم لذلك .

ب- فى حالة النمط « اللا متبلر المائل إلى الدموى » :

الفرق الجوهرى بين هذا النمط والنمط الأول هو رفض الأخير الاعتراف بكسله بصفة نهائية . وهو فعلاً أقل كسلاً من الأول . قد يقوم هذا النمط بالعمل الذى يطالب به إذا كانت السلطة الطالبة قوية ومصممة . أما إذا كانت هناك مهلة خمسة عشر يوماً لتقديم العمل سوف يتم القيام به فى اليوم الأخير فقط ، ربما أُلغِيَ الأمر أو عُرِضَتْ

مساعدة خارجية . القيام بالعمل عند الضرورة ، حتى ولو كان ذلك فى اللحظات الأخيرة ، هو السبب الأول لعدم اعتراف هذا النمط بكسله . أما السبب الثانى فهو أن لهذا النمط كسل « اختيارى » إلى حد ما : ينجح فى بعض الأحيان فى الأعمال ذات المنفعة الواضحة المباشرة ، بشرط الا يتطلب ذلك الكثير من المجهود . فى المدرسة مثلاً ، النجاح فى اللغات والجغرافيا يمثل وسيلة إرضاء هيئة التدريس ويمثل الحجاب الذى يستر الفشل فى المواد الرياضية والكيمياء ... هذه « الاختيارية » هى السبب الثانى لعدم اعتراف هذا النمط بكسله .

النصيحة فى مجال علاج مثل هذه الحالات هى اللجوء إلى كلا العتاب والعقاب .

٢ - الخضوع الأنانى للاحتياجات العضوية :

أ- سكوت « الانفعال » و « النشاط » يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لمتطلبات الجسد وشهواته . « اللا متبلر » يأكل كثيراً لكن ، ويختلف فى ذلك عن ذوى النمط « الدموى » ، لا يلتهم بل يأكل ببطء ولا يتوقف عند الشبع . يشعر بجاذبية خاصة تجاه التدخين وشرب الخمور إذا أتيحت له هذه الفرصة .

ب- السلبية العضوية تؤدى إلى النوم الكثير فى الصباح ، النوم المبكر فى المساء والنوم أيضاً فى الفترة ما بعد الظهر . إنه يحاول دائماً صرف الكم الأدنى من الطاقة بأقل مجهود ممكن . نلاحظ نفس السلبية على مستوى الشكل الخارجى : الأظافر طويلة وسوداء ، الشعر مشعث ... إلخ . مع ذلك إنه حساس إلى حد ما « للمودة » : إنه أكثر الأنماط « تآلفاً » لخواص الغير ... بشرط الا يكلفه ذلك مجهوداً . يتبع إذاً « المودة » دون أن ينتقدها لمجرد مسايرة العصر والآخرين .

جـ- الفوضى فى المجال الجنسى : قلة « النشاط » التى تحمى « اللا متبلر » من الأخطار التى قد تنبع من داخل الإنسان (خياله أو نشاطه القوى الذى يبحث عن منفذ مثلاً) تعرضه فى نفس الوقت إلى مخاطر التأثيرات التى تأتى من الخارج . إنه يتبع الآخرين بسهولة ويسلك مسار

الفوضى إذا أتيحت له الفرصة . كل ذلك دون أى تطرف من ناحيته لأن التطرف يتطلب قدراً كبيراً من « النشاط » . فى نفس الوقت إنه من السهل إعادته إلى الطريق السليم لأن تأثير الصديق الجيد بنفس قوة تأثير الصديق السيئ . الغريزة الجنسية لدى هذا النمط مستقيمة ، صريحة ومجردة من المضاعفات : لا يعرف « العقد النفسية » ، جنسية كانت أو غيرها ، وعالم الخيال لا يغريه .

العيوب الناتجة وطريقة معالجتها :

« اللا متبلر » خير مثال للشخص « الملخوم » ... النمط « العصبى » يشارك « اللا متبلر » فى هذا العيب ، لكن « الهياج » الذى يبديه يخفى ذلك للأنظار . « العصبى » « ملخوم » لأنه لا يستطيع التكيف . « اللا متبلر » ملخوم لأنه كسول ولا يريد الحركة . علاوة على ذلك فهو غير حاذق خُلُقياً وتحركاته كلها تثبت ذلك . النتيجة الفورية أنه لا يعرف احترام المواعيد والنظام ولا يعرف حتى الدقة فى الكلام وفى اختيار الألفاظ التى يحتاجها . إنه يصطدم بالألفاظ لأن ذهنه يصطدم بالأفكار .

فتور العواطف تحول دون الشفقه ، وانعدام النشاط يلغى المروءة .

يتصف أيضاً النمط « اللا متبلر » بأقل نسبة فى مجال الحماس الدينى . متابعة المراسم والعادات والتقاليد الدينية وجه من أوجه خاصة « التآلف » ومسايرة الآخرين والوسط الذى يعيشون فيه فقط ، وليس باباً من أبواب العقيدة الشخصية أو الإيمان .

من حقنا التساؤل عما إذا حقق شخص « لا متبلر » نوعاً من العالمية فى يوم من الأيام ...

النمط « المولع » والنمط « اللا متبلر » يمثلان قطبى علم الأنماط . يوجد بين هذين القطبين ستة مليار إنسان لكل واحد منهم نمطه الخاص الفريد .

الفصل الخامس

الإعلام والتربية

ربما كانت أقيم نتيجة للتربية أن تدفعك
للقيام بما ينبغى أن تفعله ، فى الوقت الذى
يتحتم عليك ذلك . توماس هنرى هوكسلى .

حيث أنه لا خلاف على وجود فرق شاسع بين التربية والإعلام ، فما هى الحاجة إلى تخصيص باب بأكمله لمناقشة ما ليس عليه جدالاً ؟ إن الإجابة بسيطة : فى أحيان كثيرة ما هو بديهى لا تراه العين ، علاوة على أننى شعرت بالحاجة إلى توضيح بعض النقاط .

الإعلام إما « الإفادة بالأحداث » إما « الحصول على بيانات خاصة بشخص أو بحدث ما » . أما التربية فهى « الطريقة التى بواسطتها يجعل المربى الشخص المعنى يكتسب المبادئ والعادات التى تنتج عنها عقلية معينة » . إن مثل هذه العبارات تفتح باب التفكير والمناقشة على مصراعيه .

لاحظت مراراً أن بعض المربين ، بحثاً عن تحقيق « تربية » حقيقية فضلاً عن الوقوف عند المستوى الإعلامى البحت ، يضيفون إلى المعلومة العلمية المزيد من الاعتبارات الدينية والخُلُقية والاجتماعية . المربى الذى يشرح أضرار « العادة السرية » مثلاً ، يضيف إلى المعلومات العضوية والسيكولوچية قوله أن جميع الديانات تحرم هذه العادة . إذا تحدث عن المبْيَض وعدد البويضات الموجودة فيه وقارن هذا العدد بعدد البويضات التى سوف تحتاج فعلاً إليها المرأة خلال سنواتها الخصبة ، يضيف المربى قولاً يشير إلى حسن تنظيم الطبيعة أو إلى حكمة الخالق . يشعر المربى أن مثل هذه الإضافات تنقل حدثه من مجال « الإعلام » إلى مجال « التربية » ، بينما كل ما فعله هذا المربى فى الواقع هو أنه أضاف إلى الإعلام العلمى والسيكولوچى إعلاماً آخر دينياً أو خُلُقياً أو اجتماعياً . إن توسيع مجال الإعلام لا يمثل تربية ، كما أن

التربية ليست ممثلة فى اختيار نوع الإعلام . إن تحليل أسباب ومبررات قولنا هذا سيوضح لنا الأمور كما أنه سيعيدنا إلى تعاريفنا السابقة .

العلم والمعرفة :

شعر قدماء المصريين بأهمية التفرقة بين « العلم » و « المعرفة » ، واعتبروا العلم عبارة عن صفة الشخص العالم ، ذلك الشخص الذى قرأ الكثير وسمع الكثير ، حتى استطاع من هذا المنطلق أن يردد الكثير فى مواضيع شتى . أما المعرفة ، فهى نوع من الإدراك الناتج عن التحام وثيق بين الواقع الداخلى للفرد واقع الشئ المعروف ، أى نوع من التجربة الداخلية ، تجربة المشاعر وتجربة الحواس ، تخلق اتصالاً مباشراً بين أعماق الشخص والشئ المعروف ، حتى يصبح هذا الشئ جزءاً لا يتجزأ من شخصية الفرد الذى اكتسبه . « يعلم » الإنسان كل ما سمعه وكل ما قرأه . لا « يعرف » الإنسان سوى ما عاشه عن طريق تجربة حيوية داخلية . العلم إذاً مجرد اكتساب معلومة . المعرفة هى امتصاص وهضم هذه المعلومة حتى تدخل « الرصيد الحيوى » للشخص . العلم مثل عملية الأكل . المعرفة هى هضم وتمثيل وتحويل هذا الغذاء إلى لحم ودم . هناك مثال بسيط جداً يوضح ما نعنيه ، هو مثال يخص طريقة مذاكرة أولادنا فى المدارس : يقرأ الطالب الدرس عدة مرات ويصل إلى درجة « العلم » الكامل لكل عناصر هذا الدرس حتى إذا أعاد له المدرس عنصراً من عناصره يستطيع الطالب أن يقول بكل صدق : « إنك لا تعلمنى جديداً . أنا أعلم ما تقول » . وهذا صحيح . وفى اليوم التالى ، عندما يقوم الطالب بتسميع الدرس ، نفاجئ بأنه لا يسمعه بطريقة تتناسب والمجهود الذى بذله فى القراءة أو على الأقل فإنه لا يحقق المستوى المتوقع . السبب فى ذلك هو أن الطالب « يعلم » محتويات الدرس جيداً ، ولكنه لا « يعرفها » تماماً لأنه فشل فى إدراك الحقيقة العلمية الموجودة فى الدرس عن طريق علاقة وخبرة داخلية وثيقة تجعل هذا الدرس جزءاً لا يتجزأ من رصيده العلمى الجديد وتمكنه من التعبير عنه بدقة وبسهولة . إن هذا المثال يفسر لنا قيمة النصحية التى

يعطيها كثير من المدرسين للطلبة – وهى نصيحة مبنية على حقيقة سيكولوچية هامة – عندما يقولون : « إذا كنت تريد أن تعرف درساً معرفة كاملة اشرحه مراراً للآخرين ... » إن « الفهم » عبارة عن الخطوة الأولى التى توصل إلى « العلم » بالشئ . أما أن يعيش الشخص ما تعلمه بطريقة داخلية عميقة حتى يصبح جزءاً من رصيد خبرته الحيوية ، فهذا اسمه « المعرفة » . ها هو مثال آخر : نقول لطالب مدرسى عمره أربعة عشر عاماً أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ونقول لطالب جامعى عمره أربعة وعشرين عاماً أن الفضاء منحنى وأن أقرب مسافة بين نقطتين فى الفضاء عبارة عن منحنى . يستطيع كلاهما أن يعيد فى اليوم التالى هذه الحقائق العلمية لأنهما « يعلمانها » بعد أن سمعاها . الفرق بينهما هو أن الخط المستقيم كأقرب مسافة بين نقطتين عبارة عن واقع يرتبط بخبرة حيوية قوية وعميقة بالنسبة للأول ، بينما المنحنى الذى يمثل أقرب مسافة بين نقطتين فى الفضاء عبارة عن وسيلة للحصول على درجة جيدة فى الامتحان فقط بالنسبة للثانى ، لأن هذه الحقيقة العلمية عبارة عن واقع لا يستطيع أن يعيشه فى داخله ، ولا يستطيع أن « يشعر » به فى داخله ، ولا يمثل ولن يمثل خبرة حيوية بالنسبة له أبداً .. سوف يستمر هذا الطالب فى التصرف والتفكير والانفعال بناءاً على مفهوم « الخط المستقيم » حتى إذا تم نقله إلى الفضاء ...

فى أغلب الأحيان تكون المعرفة مبنية على العلم بمعنى أن العلم هو الخطوة الأولى التى توصل إلى المعرفة . لكن هناك أحيان أخرى تستغنى فيها المعرفة عن العلم تماماً وتمر بقنوات خاصة بها وبها فقط . ولزيادة توضيح الفرق بين العلم والمعرفة ها هو مثال لهذا النوع الثانى من المعرفة ، مثال لمعرفة غير مبنية على اكتساب معلومة ما . هذا المثال هو: الإيمان . فليكن الإيمان الدينى مثلاً . إن المؤمن الذى لا يشك يعرف حقيقة إيمانه معرفة تامة وأكيدة . إن إيمانه واقع لا يحتاج لدليل ولا لإثبات : إنه « يعرف » وهذا يكفيه . إن هذه المعرفة تمثل نوعاً من الاتصال المباشر بين المؤمن والمؤمن به تغنى الأول عن أى « علم »

خاص بالثانى . العلم بحث وتحليل ومنطق وإثبات . أما فى حالة الإيمان، حتى إذا فرضنا واستطاع العلم أن يثبت عكس معرفة المؤمن ، فإن إيمان هذا الرجل لا يهتز لأنه « يعرف » ، وهذه المعرفة مبنية على خبرة حيوية داخلية يعيشها من واقع إدراكه الحيوى ، ولا يستطيع العقل ولا المنطق ولا التحليل أن يحذفوا أو يضيفوا لهذه المعرفة شيئاً .

الإعلام يعرض ويقترح « العلم » . التربية الحقيقية تهدف إلى توليد « المعرفة » .

الآن ، وبعد أن وضحنا الفرق الجوهرى بين العلم والمعرفة ، لنعد إلى التعاريف السابقة للإعلام والتربية .

قلنا أن التربية هى طريقة إكساب مبادئ وعادات تنتج عنها عقلية معينة . يجب أن نطرح هنا سؤالين هامين :

١- كيف نُكسِب الآخرين مثل هذه المبادئ والأفكار .

٢- ما هى هذه المبادئ والعادات والإجابات التى نتحدث عنها ؟

١ - كيف نكسب الآخرين مبادئ وأفكارًا :

ما سبق قوله جعل الإجابة على السؤال الأول واضحة بديهية : **لا نستطيع أن نكسب الآخرين مبادئ وعادات إلا عن طريق خلق نوع معين من « المعرفة » ، حيث أن « الإعلام » وحده لا يستطيع أن يحقق مثل هذا الهدف .** أما عن كيفية وصول الشخص إلى مثل هذه « المعرفة » فهناك طريقان : الطريق الأول وهو طريق الإدراك المفاجئ الناتج عن صدمة أو تنبؤ ، وهذا الطريق لا يستطيع المربى أن يسلكه ، والطريق الثانى ، وهو طريق اكتساب تدريجى على فترات زمنية طويلة لعناصر متعددة تدخل الواحدة بعد الأخرى رصيد « الخبرة الحيوية » للشخص الذى يكتسبها فتغير من عقليته وانفعالاته بطريقة هادئة على سنوات طويلة . هذا الطريق الثانى هو الطريق الذى يستطيع فعلاً المربى أن يساهم فى ايجاده . قد تدخل هذه العناصر الجديدة العقل والإدراك من خلال تكرارها من جهة ، لكن **ما هو أهم من ذلك هو أن يجعل المربى الشخص المعنى**

يكتشف هذه الأمور بنفسه بدلاً من أن يسمعها من المربى أو من أن يفرضها المربى عليه . هذا مثال لما أعنيه بأن « يجعل المربى الشخص المعنى يكتشف الأمور بنفسه ... » . أخاطب مجموعة شباب فى السادسة عشر من عمرهم وأقول لهم أن الارتباطات العاطفية - الواقية أو الخيالية والوهمية - التى يعيشونها فى سنهم الحالى مصيرها الحتمى ، بحكم طبيعتها ، أن تنتهى وألا تدوم ولا تستمر . أدعِّم قولى هذا بملاحظتى أن أقلية فقط من الذين تزوجوا فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمرهم تزوجوا من الشخص الذى أعجبوا به عندما كانوا فى السادسة عشر من عمرهم . إن هذه المجموعة من الشباب يعلمون الآن ما سمعوه . إنهم بطبيعة الحال لا يصدقوننى لأن المشاعر التى يعيشونها قوية وصادقة ، وهم دائماً يظنون أنهم يمثلون الاستثناء الذى يؤكد القانون . لكنهم « يعلمون » ما سمعوه على الأقل لأنهم سمعوه ... ما هى الآن الطريقة التربوية الحقيقية السليمة لتوصيل مثل هذا الواقع للشباب وتحويله من معلومة نظرية قد يصدقونها أو لا يصدقونها إلى إدراك حقيقى ومعرفة عميقة تؤثر فعلاً على حياتهم اليومية :

١- أشرح أولاً أن الحب الآدمى يتكون من عنصرين : الغريزة الجنسية والعاطفة (أنظر إلى الفصل الخاص بالتربية الجنسية) .

٢- أشرح تفاصيل خط سير كل من هذين العنصرين فى طريقه إلى مقابلة العنصر الآخر لتكوين الحب الناضج .

٣- أشرح أن كل ما يسبق التحام العاطفة والغريزة الجنسية لتكوين الحب الناضج عبارة عن نوع من البحث عن الذات ، وأن الحب الحقيقى هو عطاء وبحث عن تحقيق ذات الآخر ، أى الشخص المحبوب .

٤- أشرح أسباب قوة وصدق مشاعر سن المراهقة ثم أشرح أسباب عدم استقرارها فى هذا السن وحتى ينتهى البحث عن الذات ليبدأ البحث عن الآخر فى إطار النضج الجنسى الحقيقى ... وحينئذ ... وحينئذ فقط ...

... إذا كنت وفقت فى الخطوات السابقة ، إذا عرفت كيف استعمل

الأمثلة المستخلصة من واقع حياة هؤلاء الشباب ، إذا مثل شرحى هذا صدى صادقاً لما يدور فى نفوسهم من مشاعر وإجابة مقنعة على كل ما يدور فى ذهنهم من أسئلة ، سوف يقول شاب فجأة :

– هل يعنى ذلك أننا لسنا ناضجين بعد ؟

أجيب عندئذ :

– لست أدرى . أعطيتك جدولاً لتطورك الشخصى من لحظة البلوغ حتى وصولك إلى النضج الكامل (أنظر الفصل الخاص بالتربية الجنسية) عليك أنت أن تحدد موقفك وموقعك من هذا الجدول وأن تجيب على سؤالك بناءاً على هذا التحليل الذاتى .

أساعده على المزيد من تحليل انفعالاته ومشاعره واهتماماته حتى يحدد موقفه من الجدول فيقول :

– إذاً ما أسميه « حب » اليوم ليس إلا إعجاباً » مصيره الاختفاء والانتهاء والانتقال من شخص إلى آخر حتى أنضج وأستقر ؟

– نعم ، إذا كنت ما زلت تكتشف نفسك وإمكاناتك . نعم إذا كنت ما زلت تبنى شخصيتك . نعم إذا كنت ما زلت تبحث عن نفسك قبل أن تبحث عن الآخر وإذا كنت ما زلت تأخذ أكثر مما تعطيه .

بدءاً من هذه اللحظة – التى تعتبر نقطة تحويل فى عقلية هذا الشاب – تتحول المناقشة وتأخذ اتجاهاً جديداً : بعد أن كانت المناقشات السابقة تدور كلها حول « كيف نعيش حاضرنا العاطفى والجنسى ونحن ما زلنا فى السابعة أو الثامنة عشر من عمرنا وما زالت أمامنا سنوات طويلة حتى تتاح لنا فرصة الزواج والاستقرار ؟ » يصبح محور المناقشات الجديدة « كيف أتعامل مع عواطفى وانفعالاتى الحالية بطريقة سليمة ، حيث أننى أعرف أنها كلها عابرة ولن تدوم ؟ كيف أدير كل هذه الطاقات الكامنة فى نفسى وأنا لا أتستطيع الاعتماد على استمرارها وبالتالى لا أتستطيع أن أخطط للمستقبل ؟ » . أن تأخذ المناقشة هذا الاتجاه الجديد هو الدليل القاطع على أن الشباب انتقلوا من وضع « علم » شئ ربما لم يصدقوه تماماً ، إلى « معرفة » شئ أصبح بالنسبة لهم

واقعاً دخل قائمة الاعتبارات الأساسية فى تفكيرهم ومناقشاتهم الخاصة بحياتهم اليومية وتخطيطهم للمستقبل . ويحق وقتئذ للمربى أن يأمل فى أن يتحول هؤلاء الشباب فى يوم قريب إلى بالغين يتعاملون بدورهم مع أطفالهم ومع بعضهم بعضاً تعاملاً طيباً ، ناضجاً تربوياً ، بدلاً من أن يصدروا لهم الأوامر القاطعة الجافة ، التى قد تكون فى كثير من الأحيان مبررة تماماً ، لكنهم هم أنفسهم لا يعرفون ما هى مبرراتها وبالتالى لا يمر التيار بينهم وبين أنجالهم ، فيعيش كل منهم فى عزلة نسبية عن الآخر إن لم يكن فى عزلة كاملة .

من المستحيل أن تحدث التغييرات التربوية التى تم وصفها هذه فى اجتماع واحد أو فى مناقشة واحدة . ولا حتى فى اثنتين أو ثلاثة .

كل خطوة من خطوات التكوين التربوى يجب أن يسبقها تمهيد دقيق يؤدى إلى مستوى معين من النضج يسمح بالانتقال إلى الخطوة التربوية التالية .

على سبيل المثال : تخاطب شباب فى الثامنة عشر من عمرهم تتعامل معهم للمرة الأولى أو بعد مقابلات سابقة قليلة العدد وتقول لهم مثلاً أن « احترام كل زوج احتياجات الزوج الآخر من قوائم السعادة الزوجية » . إما أنهم لا يتخيلون ما تعنيه « باحترام احتياجات الزوج الآخر » . إما سيكون لمثل هذه العبارة رنيناً يختلف من أذن إلى الأخرى ، مثل التركيز على ضرورة احترام الزوج الآخر لاحتياجاتهم الشخصية مثلاً ، وهذا يمثل انعكاساً جذرياً للمفهوم المذكور ...

احتمال أول :

نقارن هذا النوع من « تبادل الإسعاد » بالرجل الذى يمتلك حوضاً من أسماك الزينة فى منزله . إذا احترم هذا الرجل احتياجات السمك من حيث النظافة والإضاءة والتهوية والغذاء ، أصبح السمك جميلاً مما عاد على صاحبه بمتعة وسعادة . إذا ظلم هذا الرجل السمك فى احتياجاته الأساسية سوف يمرض السمك ويفقد ألوانه الزاهية حتى يصبح قبيحاً ، لا يتمتع صاحبه بالنظر إليه بعد ذلك . أدرك الشباب من خلال

هذا المثال أن احترام احتياجات الآخرين يمثل نوعاً من « تبادل المنفعة » . لكن هذا الإدراك إدراكاً ذهنياً فقط من الصعب أن يُنفَّذ فى حياتهم العملية بعد ذلك ، خاصة وهم على علم باحتياجات سمك الزينة أكثر مما يعلمون عن احتياجات الجنس الآخر !

احتمال ثانى :

نقارن هذا النوع من « تبادل الإسعاد » بما يدور بين شابين فى مجال حماية وتنمية « الصداقة » التى تربط بينهما ؛ الصداقة وليست الزمالة ... ، ونعطى أمثلة حية لضرورة احترام كل صديق احتياجات الصديق الآخر حتى تستمر وتزدهر صداقتهما فى إطار هذا العطاء المتبادل . يختلف هنا نوع إدراك الشاب لما نقول ليتحول الإدراك الذهنى البحت إلى إدراك داخلى حيوى ، أولاً لأننا نتحدث عن شئ يعيشونه فى حياتهم اليومية ، وثانياً لأنهم لديهم معرفة مسبقة عن « احتياجات » أصدقائهم وعن الفروق الموجودة بين تلك الاحتياجات واحتياجاتهم الشخصية . لكن : إلى أى مدى يعرفون الفروق الشاسعة الموجودة بين احتياجات المرأة واحتياجات الرجل ؟ هذه الطريقة الثانية تصلح إذاً لتحويل العلم إلى معرفة إذا كنا نتحدث عن الصداقة مثلاً ، ولكنها تحول فقط العلم السطحى إلى علم ذهنى أكمل فيما يخص موضوع الزواج ، دون أن تحوله إلى معرفة حقيقية تنتقل إلى مجال الحياة العملية بعد ذلك عن طريق دخولها الرصيد الشخصى العميق للشباب ... إلا إذا كنا نتعامل وشباب فى غاية الذكاء وسرعة البديهة ...

إمكانية ثالثة :

(١) ننظم برنامجاً على عدة سنوات ونجعل الطفل يلاحظ الفروق الموجودة بينه وبين أخته من حيث الاحتياجات والانفعالات والاختيارات وردود الفعل الانعاكسية وطريقة الوصول إلى تحقيق أهدافها ... إلخ . ثم (٢) نجعله يلاحظ ويفكر فى الفروق الموجودة بينَ والده ووالدته من حيث المسئوليات وطريقة مواجهتها ومن حيث دور كل منهما فى المنزل وفى المجتمع ... الخ . ثم (٣) عندما يمر بمرحلة البلوغ ، نشرح له تفاصيل ما يحدث له وما يمر به بطريقة علمية صحية وسليمة ونشرح

له كذلك ما يحدث للبنت ونجعله يلاحظ الفروق بين معانى البلوغ بالنسبة للولد ومعانيه بالنسبة للبنت (والعكس بالعكس) . ثم (٤) نأخذ نشرح له الفروق السيكولوچية العميقة الموجودة بين المراهق والمراهقة ونجعله يلاحظها فى حياته اليومية ، المنزلية والاجتماعية ، حتى يدرك ويعرف تماماً أن هذه الفروق التى اكتشفها فروق طبيعية ، وبما أنها طبيعية ، فإن الاحتياجات الناتجة عنها تمثل حقوقاً لا بد من احترامها ووضعها فى الاعتبار . وبعد تنفيذ هذه الخطوات التربوية كلها على مدى ستة أو سبعة سنوات ، يأخذ كل من الشاب والشابة ينظر إلى الأخت والأم والمدرسة ويتعامل تلقائياً معهم بطريقة تختلف إلى حد ما عن نظرته وتعامله مع الأخ والأب والمدرس ، لأن كل منهما أصبح يعيش الآن فى داخله احساساً قوياً وصحيحاً وسليماً بكل الفروق السيكولوچية الموجودة بين الجنسين والاحتياجات التى تترتب على وجود هذه الفروق ، فأخذ يحترمها ويتصرف بناءاً على وجودها . إذا قلت الآن لمثل هؤلاء الشباب أن من عناصر سعادة العائلة « احترام كل فرد احتياجات الأفراد الآخرين واحترام كل زوج احتياجات الزوج الآخر » . إننى أتحدث لغة أصبحت شفافة واضحة ومفهومة ، وإذا قلت لهم أن النضج الحقيقى هو الوصول إلى القدرة على مثل هذا الاحترام وأن ما يسبق هذا النضج فى مراحل تطورنا الشخصى عبارة عن نوع من « البحث عن الذات » الذى يعرقل إلى حد ما القدرة على احترام احتياجات الآخرين ، لأن الأخذ ما زال فى هذه الحالة يتغلب على العطاء ، فإنهم لا يكتفون بفهم وبمعرفة ما أقوله فحسب ، لكنهم يصبحون الآن قادرون على تحديد موقفهم تماماً من أى جدول نموذجى للمراحل التى يمر بها الشباب فى طريقهم إلى النضج ، بصدق وبسهولة ، دون أن يسبب ذلك أى اضطراب أو اهتزاز فى نفوسهم ، لأنهم يعرفون أن الطريق مفتوح أمامهم وأن المستقبل مشرق يستطيعون المساهمة فى بنائه . ما سبق يلخص الفصل السادس الخاص بالتربية الاجتماعية الجنسية ...

كيف أقول للشاب أن « الحياة الجنسية بالنسبة للشخص الناضج

مرآة تنعكس فيها نوعية العلاقة الإنسانية التى تربط بين الزوجين » دون تمهيد مسبق تمت برمجته على مدى سنوات طويلة ؟

كيف أقول للشاب : « قد يكون لكلمة – الجنس – بالنسبة لكم اليوم مرادفاً واحداً هو – المتعة – . أتمنى أن يكتشف الكثير منكم أن ، بالنسبة للشخص الذى حقق درجة معينة من النضج ، المتعة ليست الهدف المطلق ولا المبرر الوحيد للجنس، لكنها نتيجة بل ومكافئة للتعبير الجنسى الصادق عن العواطف التى تربط بين الزوجين فى إطار حبهم المتبادل . لذلك : إن على مر سنوات الزواج تختلف نوعية الروابط العاطفية بين الزوجين (فى حالة الزواج الناجح) وتنضج ، فيختلف التعبير الجنسى بينها وينضج ، فتختلف نوعية المتعة الجنسية التى يعيشونها وتزداد عمقاً وتنضج ... » كيف أجعل هذه المعلومة السيكولوچية ، التى لا يعيشها إلا عدد قليل من بالغى اليوم ، كيف أجعلها « معرفة » و « إدراك » بالنسبة للشباب الذين أخاطبهم ، دون تمهيد مسبق تمت برمجته على مدى سنوات طويلة ؟

أما إذا كانت الأمثلة السابقة من اللاتى يبدو بديهياً تطبيق المبدأ عليها ، دعونى أختار ما هو أبسط وأسهل من ذلك بكثير . إننا نقول « يستطيع الرجل المتعلم المثقف أن يتحدث فى أى مجال وأن يقول أى شئ يريد قوله ، حتى فى المجالات الحساسة كالمجال الجنسى مثلاً ، بشرط أن يختار الألفاظ والكلمات المناسبة ، وأن يقولها فى الوقت المناسب وبطريقة علمية سليمة وصحيحة » . إنى أؤكد لك أنه فى منتهى الصعوبة تحقيق هذا المبدأ البسيط مع مجموعة من الشباب – ذكور كانوا أو إناث – تقابلهم للمرة الأولى ولم يسبق تمهيدهم لمثل هذه المناقشات تدريجياً على مدى سنوات طويلة .

يمكننا أن ننهى الآن إجابتنا عن « كيف يمكننا أن نُكسب الآخرين عادات ومبادئ » بقولنا أن المربى الذى رفض أن يرى فى برنامج تربوى وحدة كاملة متكاملة ، وإن لم تكن مغلقة ، المربى الذى فشل فى إدراك التماسك السيكولوچى الذى يربط بين العناصر المختلفة للبرنامج الواحد وفضل أن يختار منه بعض العناصر – أفكار أو مبادئ – ونقلها

إلى الذين يقوم بتربيتهم مجردة من الروافع النفسية التى تحولها على المدى الطويل إلى خبرة حيوية فعالة ، هذا المربى وسع مجال « الإعلام » بإضافات جديدة فحسب . **لا تربية حقيقى بدون برامج دقيقة ومدروسة ، ولا برامج تربوية حقاً إلا إذا تمت برمجتها على سنوات طويلة** . لا يتم تشكيل الشخصية فى برهة وجيزة ... لا يتم تشكيل الشخصية عن طريق توسيع الإعلام ... (دون أن يحمل هذا الحديث أى تقليل من شأن وأهمية الإعلام نفسه) .

٢ - لنأت الآن إلى « ماذا » نكسب الذين نحاول تربيتهم ؟

الخطورة الكبرى التى تهدد كل مربى بصرف النظر عن أمانته وصدقه الجذرى ، هى الوقوع فى محاولة تشكيل عقول وشخصيات مشابهة إلى حد ما لعقله ولشخصيته الذاتية . بصورة كاريكاتورية نستطيع أن نقول أن مقياس النجاح التربوى بالنسبة لأى مربى - فى عقله الباطن على الأقل - هو النجاح فى تشكيل نماذج طبق الأصل من ذاته . شدة الخطورة سببها أن هذا الميول يمثل دافعاً سيكولوچياً قوياً موجوداً فى كل واحد منا بدون استثناء، يدق جذوره فى غريزة البقاء والاحتياج إلى الاستمرارية . إن إشباع هذه الرغبة فى أن يفكر ويتصرف الآخرون مثلما نفكر ونتصرف نحن ، هى التى تغمر الأب فخراً عندما ينجب ابناً يشبه له أو عندما يحقق ابنه فى الحياة ما عجز هو عن إنجازه . من هذه الغريزة العميقة البدائية ينبع أيضاً التعصب بجميع أنواعه - تعصب دينى أو اجتماعى أو عنصرى كان - التعصب الذى ما هو إلا عدم القدرة على قبول من يختلف عنا فى التفكير والانفعالات والتصرفات . أنا المثل وأنا الهدف . من يفكر مثلى على صواب ومن يختلف تفكيره عن تفكيرى فهو مخطئ . المخطئ يمثل خطورة والخطورة يجب ازالتها وانهائها .

مبدأ هام :

إن دور المربى هو أن يتجرد على قدر إمكانه من رغباته واحتياجاته الشخصية وأن يتجاهلها ، ليساعد الذين يتعامل معهم على اكتشاف حقيقة أمرهم واكتشاف الاحتياجات ثم

الاختيارات التى تناسبهم ، فى إطار احترام شديد لواقعهم الدينى والعقلى والثقافى والاجتماعـى والمادى .

إن دور المربى هو أن يساعد الناس على التفكير السليم والمنطق القوى بشرط أن يهدف هذا التفكير وهذا المنطق إلى اكتشاف ومعرفة الذات وازدهار المواهب وسيطرة النفس وتحكم الإرادة ، لتحقيق أبعد حدود الذات ، مما يعود على الشخص بالسعادة التى تنتج عن الاستقرار الداخلى وصفاء النفس . يجب أن يتم ذلك دون أى غزو لشخصية الآخرين أو أى اقتحام أو تعرض لسيادة نفوسهم ، أى فى جو يسعوده أشد الاحترام لواقعهم الإنسانى بجميع أبعاده . إن دور المربى ، إذا نظرنا إليه من هذه الزاوية ، يقترب كثيراً من دور المعالج النفسى . المربى الذى لا يراعى المبدأ المذكور أعلاه والذى يحاول التأثير الشخصى على الآخرين بهدف تحويلهم إلى نماذج مشابهة له ، يرتكب ما يجب اعتباره « اغتصاباً نفسياً » لعلنا نرى يوماً قانوناً قاسياً يسرى مفعوله على مثل هؤلاء المغتصبين . المربى الذى يقول الإجابة ، الذى يعطى الحل جاهزاً لمشكلة تربوية ما ، مربى فاشل من الناحية التربوية البحتة ، لأن المفروض ألا يعطى الإجابة بل أن يساعد كل من الحاضرين على اكتشاف الإجابة الصالحة له والخاصة به . أما المربى الذى يعطى اجابته الشخصية لمشكلة تربوية أثناء تعامله مع الناس ، فهذا المربى هو المغتصب الذى أتحدث عنه . ها هو مثال عشته شخصياً كلما اجتمعت ومجموعات تتراوح أعمار الحاضرين بين ثمانية عشر وثلاثة وعشرين عاماً لمناقشة سيكولوجية الزواج : من آرائى الشخصية أن القرارات الهامة التى تخص العائلة كلها يجب أن يناقشها الزوجين حتى يتفقا على القرار وألا يفرض أحدهما رأيه على الآخر . قد تحتوى المجموعة الموجودة أمامى على :

– بعض الشباب يفكرون مثلى تماماً .

– بعض الشباب يرون أن لا عيب فى أن يأخذ الرجل رأى الزوجة على أن يكون القرار النهائى قراره هو وحده .

– بعض الشباب يرون أن القرارات مسئولية الرجل وأن على النساء الطاعة فقط .

– بعض الشابات اللاتى تفكرن مثلى تماماً .

– بعض الشابات اللاتى ترون أن ليس من حق الرجل اتخاذ قرارات هامة دون استشهارتهن وأن اتخاذ القرار مسئولية الاثنين معاً .

– بعض الشابات اللاتى ترون أن لا شأن لهن فى القرارات وأنها مسئولية الرجل وحده .

– قد تكون جميع الآراء السابقة ممثلة فى مجموعة واحدة .

إذا فرضنا جدلاً أننى استطعت ، بعد اجتماع واحد أو بعد سنة أو اثنتين ، أن أجعل كل فرد من هؤلاء يفكر مثلى تماماً ، أكون حينئذ أعطيت أفضل مثال « للمغتصب النفسى » الذى كنت أتحدث عنه ..هذا بالإضافة إلى أن تربيتى هذه قد تكون خلقت للكثير منهم مشاكل شخصية واجتماعية لا حصر لها . التصرف التربوى الحقيقى السليم ، الذى يحترم المبدأ الذى سبق ذكره هو الآتى :

١– يجب أن أولد أولاً اهتماماً قوياً صادقاً لتحليل الأسباب العامة لفشل الحياة الزوجية .

٢– ثم يجب أن أولد الاهتمام بتحليل قوائم نجاح الحياة الزوجية .

٣– ثم يجب أن أساعد كل من الحاضرين على اكتشاف واقعه النفسى الشخصى واحتياجاته الأساسية العميقة فى هذا المجال .

٤– ثم يجب أن أقود كل من الحاضرين إلى « معرفة » عميقة وأكيدة أن للزوج الآخر أيضاً واقع نفسى شخصى واحتياجات عميقة أساسية خاصة به .

٥– ثم يجب أن أساعد كل من الحاضرين على اكتشاف وتحديد نوع الشريك الذى يحتاج إليه فى حياته الزوجية وسيكولوچيته ، وكذلك نوع العلاقة الزوجية التى يستطيع الازدهار وتحقيق ذاته فيها ...

حتى يجد كل من الحاضرين الإجابة التى تناسبه شخصياً ، حتى إذا كانت هذه الإجابة لا تناسب الآخرين .

يمكننى إنهاء الموضوع كله فى ساعة واحدة أو ساعتين عن طريق اللجوء إلى نوع من الإعلام السيكولوچى ، كما يمكن أن أنظم الموضوع على مدى عدة سنوات عن طريق وضع برنامج تربوى حقيقى . لكن ، فى كلتا الحالتين ، يمكننى بدأ وإنهاء الموضوع دون أن يكتشف الحاضرون فى يوم من الأيام رأيى الشخصى فى هذا الموضوع ، بل ويفضل أن يظل الحاضرون فى جهل كامل عن حقيقة رأيى الشخصى حتى لا يؤثر حبهم لى أو تنافرهم تجاهى على تفكيرهم واختياراتهم .

ختاماً لهذا الفصل الخاص بالتربية والتعليم والفرق بينهما ها هى بعض الملاحظات الخاصة بالمربى نفسه وبشخصيته :

١- يجب أن تكون للمربى شخصية هادئة ومتزنة وفقاً لمواصفات « الشخصية العالمية » . (ارجع الى المقدمة) .

٢- يجب أن يكون واسع الآفاق قادراً على تداول الحوار مع من هم مختلفين عنه فى الأفكار والآراء والاختيارات دون أن تقلل هذه الاختلافات من جودة وعمق الاتصال بينه وبينهم .

٣- يجب الا يقبل المساومة فى المبادئ العامة الأساسية ، دون أن يكون فى ذلك تناقضاً مع الملاحظة السابقة .

٤- يجب أن يبدى للآخرين اهتماماً صادقاً غير مشروط . سوف يتوقف عمق الاتصال على نوعية العطاء . لا شك أن للتربية مبادئ وطرق ووسائل ، لكنها تبقى أولاً وأخيراً « علاقة إنسانية » .

٥- يجب أن يكون على علم كافى بالدوافع الداخلية التى تحركه حتى يستطيع السيطرة عليها والاحتفاظ بالحياد النفسى والصفاء السيكولوچى الضروريين أثناء المناقشات .

٦- يجب أن يخدم بوفاء وأن يكون عطاءه مجرداً تماماً من أى طموحات أو تطلعات شخصية .

سيكون دائماً هناك المربى الذى يعلن أفكاراً ومبادئ دون أن

يكون شخصياً مقتنعاً بها تماماً ، لمجرد أن الرأى العام أجمع عليها وهو لا يريد أن يخالف اتجاه التيار . وسيكون دائماً هناك المربى الذى يعلن أفكاراً ومبادئ وهو لا يطبقها تماماً فى حياته الشخصية ، لأنه لا يستطيع أن يتماشى ومستوى مثالية أفكاره . وسيكون دائماً هناك المربى الذى يجد من الأسهل تطبيق مبدأ « أفعل ما أقول ولا تفعل ما أفعله أنا ... » . وسيكون أيضاً هناك المربى الذى يعيش ما يقوله بتلقائية تمثل بالنسبة للآخرين أفضل ضمان لصدق أقواله وإيمانه برسالته التربوية . إن جميع هؤلاء يمثلون تدرجاً فى الموهبة التربوية ، ولا يجب أن نسخط على أحد منهم لأن ليس بينهم الممثل ولا الخادع ولا الانتهازى . لكن يجب ألا ننسى أن الأطفال والمراهقين موهوبين بغريزة حادة جداً فيما يخص صدق وعمق شعور البالغين نحوهم . لذلك ، ومهما كانت جهود المربى التربوية ، يجب أن يتذكر دائماً ...

... أننا لا ننقل للآخرين ما نملكه بقدر ما ننقل لهم حقيقة واقعنا النفسى .

لذلك يجب على كل مربى ، بالإضافة إلى الجهود التى يبذلها لتطوير أساليبه التربوية ، أن يبذل جهوداً لا تقل عنها عمقاً وتركيزاً للارتقاء بحياته الروحية والنفسية ، حتى يحقق هذا الانسجام بين ما يحاول نقله إلى الآخرين وواقعه الداخلى الحيوى العميق . يبدو لى أن الأمانة الأولى فى هذا المجال هى أن يتساءل كل منا : « أليس هناك ما أستطيع عمله لأصبح مربياً أفضل ؟ » .

الفصل السادس

التربية الاجتماعية - الجنسية للمراهقين والمراهقات من سن ١١ إلى سن ١٨ سنة

فى شهر مارس ١٩٩٤ تم ضم النص باللغة الانجليزية لهذا الفصل تحت عنوان " Socio-sexual education of adolescents 11 to 18 years old" إلى مكتبة « مجلس الولايات المتحدة للإعلام والتربية الجنسية » بمدينة نيويورك . تعمل هذه المكتبة بالكمبيوتر ويمكن قراءة الأعمال الموجودة بها من خلال الكمبيوتر الشخصى (P.C.) بشرط أن يعمل على خط دولى على شبكة Internet .

هذا الفصل مثال جيد لتطبيق المبادئ التربوية المذكورة فى الفصل الخامس الخاص « بالإعلام والتربية » : التصاعد التدريجى فى اكتشاف المفاهيم من خلال التفكير والتحليل والتطبيق على الخبرة اليومية بهدف مساعدة المراهق على تحقيق أفضل درجة من النضج الجنسى الاجتماعى التى يستطيع تحقيقها بل والتصرف فى بعض الأحيان – من خلال اختيار العقل الناضج والوعى المسئول – طبقاً لمستوى من النضج أفضل من المستوى الذى حققه تلقائياً .

تنبيــه

صفحات هذا الفصل ليست لصغار المراهقين والمراهقات

إنها موجهة لأولياء الأمور والمدرسين والمربين

والمسئولين عن منظمات شبابية

وجميع الذين يريدون المساهمة

فى تربية أجيال أفضل

مقدمة

بقلم الأخ چاك بولاد [1] مدير كلية سان مارك بالاسكندرية .

أنهى الدكتور يوسف فارس دراسته بكلية سان مارك بالاسكندرية عام ١٩٥٧ ، وأنهى دراسته بكلية طب جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٤ . كان الدكتور يوسف فارس منذ طفولته عضواً بمنظمة « القلوب الباسلة » بالمدرسة (وهى نوع من الكشافة) وشغل منصب « مسئول تربوى ناشئ » وهو فى السادسة عشرة من عمره . ظل يعمل فى مجال تكوين البنين والبنات لمدة ثمانية عشرة عاماً ، وترك هذا النشاط فقط عندما انقطع اتصاله المباشر بالأطفال والمراهقين بسبب ظروف حياته المهنية كطبيب بشرى ، بعد أن تحمل مسئولية تكوين البنين والبنات على مستوى الجمهورية لمدة خمس سنوات كاملة .

ولد الدكتور يوسف فارس عام ١٩٤٠. علاقته بكلية سان مارك لم تنقطع أبداً منذ تخرج منها عام ١٩٥٨ حتى اليوم .

اليوم ، وبعد مضى خمس سنوات على بداية تنفيذ مشروعنا هذا ، إننا مقتنعون بنجاحه الكامل وبضرورة الاستمرار فيه . لذلك ، إننا نريد أن يشاركنا أكبر عدد ممكن من المسئولين والمربين ، حتى يستفيد بخبرتنا فى هذا المجال أكبر عدد ممكن من الأطفال والمراهقين من البنين والبنات . إننا نشجعكم على الاتصال المباشر بالدكتور يوسف فارس .

إننا نؤكد بدون تردد ، معبرين عن احترامنا الشديد لجميع العقائد والديانات ، أن الشخص السليم والمتعلم والمربى والمتزن نفسياً ، هو شخص يعرف الله ، يطيع أوامره وينفذ تعليماته .

لنعمل إذاً ، بكل ما نملكه من طاقات وإمكانات ، لتحقيق هذا الهدف .

---

(١) تم نشر هذا الفصل على صورة كتاب مستقل كتب الأخ چاك بولاد هذه الأسطر مقدمة له فى شهر سبتمبر عام ١٩٩٣ وهو يعمل مديراً لكلية سان مارك .

أهداف البرنامج :

أولاً : مساعدة الشباب على إدراك ما يلى :

أ- تتلون كلمة « المرأة » أو كلمة « البنت » بالنسبة للولد بلون « النقص » أو « العجز » أو الضعف والخضوع . يجب أن يدرك الولد أن لكلا الجنسين احتياجات وحقوق بالرغم من أنهما غير متشابهين .

ب- الجنسان متكاملان : من السهل أن يعتبر الرجل نفسه أنه السيد ، وأن يصدر أوامره على أن ليس أمام المرأة سوى الطاعة الكاملة . من الأصعب أن يحترم كل جنس شخصية واحتياجات وفروق أى حقيقة الجنس الآخر ، وأن يتعامل الجنسان بروح من الوعى القائم على الفهم الصحيح والتكامل الحقيقى .

جـ- احتياجات الشخص المتزن الطبيعى من الناحية النفسية والعقلية والذهنية تمثل « حقوقاً » إنسانية ، على كل فرد وعلى كل مجتمع أن يحترمها إذا أراد الوصول إلى سعادة اجتماعية مبنية على أسس سليمة .

أهداف التفكير فى النقاط الثلاث السابقة هى :

١- أن تُفهم وتقيم العلاقات الإنسانية بطريقة صحية وعلمية سليمة .

٢- أن نضع حجر الأساس للمناقشات التى سوف تدور فى السنوات المقبلة حول مواضيع الصداقة والحب والزواج .

٣- أن تكون نظرة الشاب للحياة الاجتماعية والعلاقات بين الجنسين نظرة صحية سليمة ، مجردة بقدر الإمكان من عنصر الكبت ومن المفاهيم الخاطئة .

ثانيًا : أن نعطى الشاب المعلومة السليمة عن :

١- المراحل النفسية والعضوية المختلفة التى سوف يمر بها خلال مرحلة المراهقة فى سيره إلى النضج الجنسى العاطفى الشخصى والاجتماعى ، حتى يعيش كل مرحلة من هذه المراحل بشئ من صفاء الذهن وراحة البال تسمح له بالمزيد من الازدهار والاتزان .

٢- أن نزيل بقدر الإمكان التأثير السيئ السلبى لبعض المطبوعات وبعض الأفلام المعاصرة التى يقرأها ويشاهدها عدد كبير من الشباب بالرغم من مراقبة البالغين .

٣- مساعدة الشاب والشابة على إعادة تقييم الذات المستمر بالمقارنة بنموذج واضح وبسيط للمراحل الطبيعية التى يمر بها بين مرحلة البلوغ ومرحلة الوصول إلى النضج الكامل .

٤- مساعدة الشباب على تقييم النضج الجنسى الاجتماعى للوسط الذى يعيش فيه أو للمجموعة التى ينتمى إليها .

٥- تطهير العلاقات بين الجنسين أثناء مرحلة المراهقة ، وخلق روح من الاحترام المتبادل ، المبنى على فهم وتقدير ظروف واحتياجات الجنس الآخر .

٦- إثارة الاحتياج إلى المزيد من البحث والمعرفة خاصة - وذلك عندما يأتى الوقت المناسب - فيما يخص المجالات الهامة فى حياة الإنسان : مجال الحب ومجال الزواج . يكفى لتحقيق هذا الهدف أن يدرك الشاب أن هناك عالم واسع من العلم والتحليل يمكنه اللجوء إليه فى ظروف الحيرة والتساؤل ، وأن يكتشف أنْ هذا التحليل النفسى وهذه المعرفة يمكن الوصول إليها والحصول عليها بطريقة سهلة وجذابة ، إذا لجأ إلى المراجع المناسبة والأشخاص المتخصصين .

٧- أن نهز حائط « السكوت » والكتمان الذى يبنيه الشاب حول حياته الجنسية ، وأن نخرجه من العزلة التى يعيش فيها أغلبهم عن طريق هدم الحواجز بينه وبين بعض البالغين على الأقل ، إن لم يكن جميعهم .

٨- أن يكتشف الشاب - وهذه النقطة متصلة بالنقطة السابقة - أن هناك بعض البالغين على الأقل ، يفهمونهم ويحبونهم لأنفسهم ، وأنهم يستطيعون - إذا أرادوا - أن يكون هناك حواراً بينهم وبين هؤلاء البالغين ، حوار بناء مثمر .

٩- أن يسمع الشباب مراراً خلال فترة المراهقة أن الجنس والمتعة الجنسية ليسا هدفين فى حد ذاتهما ولكنهما الطريقة التى يعبر بها

الإنسان المتزن الناضج عن شعور خاص جداً يربط بينه وبين شخص فريد : هذا الشعور هو الحب . الجنس ليس هدفاً فى حد ذاته . **الجنس الناضج وسيلة من وسائل التعبير عن الحب .** ممارسة الجنس بدون حب فعل لا يليق بالإنسان المتزن الناضج .

١٠- أن يدرك الشاب أن ليس هناك « حرية » بالمعنى الذى يفهمه عادة الشباب ، ولكن هناك « تحرراً تدريجياً » يمر بالخطوات الآتية :

١- معرفة الذات ... حتى ...

٢- ... يستطيع الإنسان أن ينمى ويستثمر مواهبه الطبيعية ،

٣- ... ويتحكم ويسيطر على السلبيات الموجودة فى شخصيته ...

٤- ... لكى يحقق فى يوم من الأيام موهبته النهائية : تحقيق الذات بما معناه الوصول إلى تحقيق القدر الأكبر من الإمكانات الكامنة ، مع أكبر قدر من السيطرة على الغريزة والدوائر المغلقة البدائية الموجودة فى كل واحد منا .

دليل أجزاء البرنامج الثمانية

هذا مجرد « دليل » لأننا سنتناول كل جزء منه بشئ من العرض والتفصيل فيما بعد .

يبدو لنا أنه من المهم احترام ترتيب وتسلسل الأجزاء الثمانية . أما تحديد سن البداية ، أى نقطة انطلاق البرنامج ككل ، فهذا متروك للمسئول وتقييمه للوسط الذى يتعامل معه .

١١ سنة : التحليل النفسى يتولى : الوالد - الوالدة - الطفل . يحدد التحليل الفروق بين أدوار كل منهم ويشير إلى أهمية كل دور من هذه الأدوار . العائلة مثل فريق الكرة : مهارات وإمكانات مختلفة تتكامل لإنجاز ولتحقيق أهداف موحدة .

١٢ سنة : التحليل النفسى يتولى : الولد - البنت - سيكولوچية كل جنس على انفراد قبل سن البلوغ . فروق جوهرية ونقاط تشابه - الولد والبنت مختلفان ولكنهما يكمل كل منهما الآخر .

١٣ سنة : البلوغ . ما هو البلوغ بالنسبة للولد وما هو البلوغ بالنسبة للبنت .

١٤ سنة : دراسة طرق التكاثر المختلفة من الأميبا – الكائنات البسيطة الوحيدة الخلية – حتى الإنسان . خطوات الانتقال التدريجى من حتمية الخطوات التى تؤدى إلى التكاثر عند الكائنات البدائية إلى حرية قرار الإنجاب لدى الإنسان . (أول شرح لفسيولوچية الجهاز العصبى لدى الإنسان) .

١٥ سنة : شرائح تفسيرية أو رسومات توضيحية للجهاز التناسلى عند الرجل وعند المرأة . كيفية الإنجاب ، هذا الاجتماع يؤدى بدون استثناء – مع الأولاد – إلى إثارة موضوع (وليس « مشكلة ») العادة السرية لأول مرة . بدءاً من هذا الاجتماع وفى كل الاجتماعات المقبلة يكون من الضرورى أن نشير دائماً ونؤكد باستمرار أن **« الجسد فى خدمة العلاقة الإنسانية وليس العكس »** . العلاقات الإنسانية ليست فى خدمة إشباع طلبات الغرائز الجسدية .

١٦ سنة : التحليل النفسى للشاب والشابة فى طريقهما من البلوغ إلى النضج الجنسى الكامل . ثم المقارنة بين هذه الخطوات والخطوات الموصوفة فى برنامج « طرق التكاثر المختلفة من الأميبا حتى الإنسان» . ختاماً : الجنس وسيلة للتعبير عن العواطف مثلما الحديث وسيلة للتعبير عن الأفكار . (أنظر إلى الجدول المستقل) الجنس نوع من الحديث .

١٧ سنة : الحب – الإعجاب أثناء سن المراهقة – الحب الناضج . سيكولوچية بداية وتطور الحب – الحب الذى لا يمثل سوى نوع من أنواع التعايش ، والحب الذى يجعل من الحبيبين « وحدة » سيكولوچية جديدة متكاملة .

١٨ سنة : الزواج . سيكولوچية أنواع الزواج المختلفة . تطور العلاقة الإنسانية وتطور الحب أثناء الحياة الزوجية . تطور التعبير الجنسى أثناء الحياة الزوجية .

البرنامج الخاص بسن الـ ١١ سنة

الهدف من هذا البرنامج أن يكتشف الشباب ما يأتى :

١- العائلة وحدة تعمل من نواحى كثيرة كما يعمل فريق كرة قدم أو فريق كرة سلة مثلاً .

٢- الحب هو العامل المشترك الأساسى الذى يربط بين أفراد أو أعضاء هذا الفريق .

٣- يختلف كل فرد من أفراد العائلة عن كل من الأفراد الأخرى .

٤- لكل عنصر من عناصر العائلة نوع من النشاط يكمل نشاط الأفراد الأخرى .

٥- يؤثر كل فرد من أفراد العائلة فى الأفراد الآخرين ويتأثر بهم . فى الواقع ، سواء أراد أو لم يرد ، فإن كل فرد من أفراد العائلة يؤثر على مدى فاعلية ونوعية إنتاج ومستوى أداء الآخرين .

٦- لكل عائلة خواص ، ولكن المبادئ العامة التى تحكم حياة جميع العائلات واحدة ، وهى مبنية على : الاتصال - المشاركة - الثقة المتبادلة - الاحترام - إيجابية النظرة والرحمة فى الأحكام ... الخ ... أى مجموعة من القرارات والتصرفات والعواطف لا توجد إلا فيما يسمى «بالحب » ومعنى هذا الحب هو العطاء المسئول الحر .

الاجتماع :

تعودنا أن نوضح فى بداية كل اجتماع أن الحضور ليس إجبارياً وأن فى إمكان الشاب الانسحاب من الاجتماع فى أى وقت إذا أراد ذلك لأى سبب من الأسباب . سبب هذا القرار مشكلة واجهناها للمرة الأولى والوحيدة بعد مضى أربع سنوات من بداية البرنامج ، عندما انسحب من الاجتماع ثلاثة من طلبة الصف الثالث الثانوى وعجز المسئول عن المرحلة الثانوية عن إيجاد مدرس يباشرهم . فأمرهم بالعودة إلى الاجتماع .

ملاحظتنا هى الآتية : إعطاء الشباب حرية الحضور

والانصراف بينما يسود المدرسة جو من الأوامر والإجبار ، وسيلة تربوية رائعة ومثمرة بدون شك ، ولكن يمكن أن تولد أحياناً بعض المشاكل .

للاجتماع قواعد وقوانين يجب على الحاضرين الالتزام بها إذا قرروا الحضور ، وهى :

١- عدم إحداث أصواتاً جانبية مثل الأصوات الناتجة عن تحريك المقاعد والكراسى ، خاصة وأننا وجدنا أنه من التربوى أن يتم الاجتماع فى قاعة اجتماعات جميلة ، بعيداً عن الفصول المعتادة . هذه القاعة بها مكاتب وكراسى فردية مستقلة .

٢- للجميع الحق فى السؤال والاعتراض والمناقشة على أن يرفع طالب الكلمة يده أولاً ليحصل على الإذن بالكلام فى الوقت المناسب .

٣- المناقشات الفردية الشخصية الجانبية ممنوعة منعاً باتاً . إن قرار إشراك الجميع فى المناقشة التزاماً جماعياً على كل الحاضرين احترامه .

٤- السخرية من الزملاء علامة نقص أخلاقى وأدبى وتربوى . فى أحيان كثيرة السخرية دليل على ضيق الأفاق بل دليل الجهل الكامل . السخرية ممنوعة نهائياً .

لنبدأ إذا :

بلغنا الآن الحادية عشر من عمرنا ، وهذا يعنى أننا عاقلين تماماً . ما هو العقل ؟ لنحاول تحليل الخطوات الذهنية التى توصل العقل إلى اكتشاف ما :

١- أنظر حولى وأرى أن السحابة تجرى فى السماء وأن أوراق الأشجار تهتز فى بعض الأحيان . هذه « **ملاحظة** » .

٢- أقف فى الهواء وأشعر على وجهى وعلى جسمى بشئ يلمسنى وفى بعض الأحيان يدفعنى إذا كان قوياً . يمكن أن يكون هذا الشئ بارداً أو ساخناً نوعاً ما . أجد أن هناك علاقة بين هذا الشئ الذى

أشعر به وملاحظتى الخاصة بالسحابة فى السماء وأوراق الشجر التى تهتز . إذا : بناء على ملاحظتى بنيت « **التفكير** » .

٣- إذا قلت - بناء على هذا **التفكير** - أن الهواء يدفع أوراق الشجر ويدفع السحابة ، أكون قد وصلت إلى « **استنتاج** » .

٤- أزود قاربى الصغير بشراع لكى يدفعه الهواء أو أزود بئر المياه بمروحة كى ترفع الماء إلى مستوى الأرض ، أكون اكتشفت طريقة « **لتطبيق** » استنتاجى السابق .

الملاحظة - التفكير - الاستنتاج - التطبيق - هذه هى الخطوات الطبيعية السليمة الجيدة التى يتخذها العقل السليم المتزن عندما يعمل بنظام وذكاء .

الآن ، وقد بلغت الحادية عشرة من عمرى يجب :

- أن أكون شديد الملاحظة .
- أن أنظم تفكيرى بطريقة عملية دقيقة وواضحة فى نفس الوقت ...
- لكى أصل إلى استنتاجات سليمة ...
- تترتب عليها تطبيقات عاقلة متطورة .

من هذا المنطلق أستطيع من الآن أن أتصرف دائماً طبقاً لقرارات اتخذها أنا بارادتى وبتفكيرى الخاص بدلاً من أن أكون لعبة تحت تأثير انفعالاتى وعواطفى وغرائزى المختلفة . يبدأ عقلى من هذه اللحظة يتعلم كيف يسيطر على هذه الدوافع الغريزية التلقائية . وبذلك أحقق البُعْد الإنسانى الآدمى بطريقة أفضل ، بطريقة أكمل ، تاركاً بينى وبين الكائنات الغير عاقلة مسافة أكبر وأكبر كل يوم .

أريد أن أشير هنا إلى أهمية تكوين المرشد الذى يقول هذه الكلمات ومستوى معلوماته الشخصية فى هذا المجال : تسيطر على تصرفات الحيوان الغريزية البحتة . الغريزة عبارة عن محصلة مجموعة من ردود الفعل الانعكاسية ، أى مجموعة من الحلقات والدوائر المغلقة اللا

إرادية، لا مكان فيها لتدخل إرادة ما أو حرية ما . هذه الغرائز موجودة عند الحيوان . لكن الإنسان ، بسبب وجود مراكز عصبية متطورة فى مخه ، وعن طريق فهم ما هى الغريزة وكيف تعمل ، وإذا وصل إلى درجة معينة من النضج ، يستطيع أن « يتحرر تدريجياً » من سيطرة الغرائز ، وأن يتحكم فيها . هذه من الأفكار الهامة جداً بالنسبة للبرنامج ككل ، يجب على المرشد أن يكررها مراراً حتى يتشبع بها الشباب ، ويولد فيهم الرغبة الشديدة فى تحقيق واستثمار هذه الإمكانية فى كل إنسان.

هذه النقطة أهم – من الناحية العملية – مما يبدو فى أول الأمر . إذا استطاع المرشد أن يعيش الشباب من داخلهم الرغبة فى تحقيق هذه السيطرة على الغرائز ، سيكون قد مهد خلال المراحل الخمسة الأولى من البرنامج ، الطريق للمراحل الثلاثة الأخيرة ، اللاتى سيكتشف فيها المراهق الآتى :

يصل كل منا أخيراً إلى درجة من النضج الجنسى ومن النضج العام خاصة بكل واحد منا وتختلف عن الدرجة التى يحققها الآخرون . لكن بصرف النظر عن درجة النضج التى وصلنا إليها والتى تحدد لنا تصرفاتنا « التلقائية » ، يمكننا أن نقرر أن نتصرف بطريقة أخرى ، طريقة مختلفة عن الطريقة التلقائية التى تمليها علينا درجة النضج الطبيعى التى وصلنا إليها ، طريقة تتفق والتصرف الذى كنا سوف اخترناه تلقائياً لو كنا حققنا درجة من النضج الطبيعى الأفضل والأكمل . يتوقف هذا على إمكانية تقييم الشخص نضجه الحالى بالنسبة إلى النضج الكامل ، وقدرته وأيضاً رغبته فى اختيار التصرف الذى يتفق والنضج الكامل إذا وجد نفسه بعيداً عنه نوعاً ما . على المرشد أن يضع بذرة هذه الرغبة فى نفوس الشباب منذ اللقاء الأول .

لنحاول الآن تطبيق مراحل التفكير السليم الأربعة اللاتى سبق وصفها على حياتنا اليومية :

الإنسان الطبيعى فى ظروفه الطبيعية يعيش حياة جماعية حتى إذا

مارس رياضة فردية مثل لعبة التنس مثلاً ، أو إذا جلس يأكل وحده مثلاً . فإن المفهوم الجماعى ما زال موجوداً فى خلفية هذه الأنشطة : لعبة التنس تتطلب مضرباً وكرة وشبكة وهذه كلها ليست إلا نتيجة نشاط شبكة صناعية جماعية ، والأكل يتطلب سلسلة من النشاط الآدمى الجماعى من الحقل أو السلخانة إلى مائدة الطعام .

الأفكار الهامة المتعلقة بهذه النقطة هى :

١ – حياة الإنسان المعاصر تخضع للتنظيم الجماعى والتكامل الجماعى حتى إذا تخيل الإنسان أنه يستطيع أن « يلعب » بمفرده .

٢ – التكامل الجماعى هو أساس معظم الإنجازات الإنسانية المعاصرة إن لم يكن كلها . هذه خطوة هامة من خطوات الإنسانية فى طريقها إلى توحيد القارات أولاً ثم توحيد الأرض كلها بعد ذلك مستقبلاً .

ما هو الوسط الجماعى الذى نعرفه جيداً ونعيش فيه كل يوم ؟

قطعاً : « العائلة » – عائلتنا – لنطبق إذاً مراحل النشاط العقلى السليم على « الجماعة العائلية » .

يفضل أن يعرف المرشد الحالات الخاصة للشباب مثل الأيتام أو الذين لا يعيشون فى عائلاتهم لسبب ما ، ويجب عليه أن يقول الكلمة التى تلغى استثنائهم من الحديث وتعيدهم إلى مجموعة المناقشة . إذا كان المرشد لا يعرف الشباب لأنه يقابلهم للمرة الأولى مثلاً ، يستطيع أن يسأل بصراحة عما إذا كان هناك من فقد عائلته مع احتمال تردد الشاب عن مصارحة المجموعة بظروفه . على كل حال : المرشد الماهر ذو الخبرة الكافية يستطيع دائماً أن يتعامل مع مثل هذه الظروف .

١ – الملاحظة :

أولاً :

١ – من الذى يقوم بأكبر قدر من العمل داخل المنزل ؟ من الذى يتحمل أكبر قدر من مسئولية المنزل ؟ الإجابة الطبيعية هى « ماما » وذلك حتى إذا كان الأب يساهم فى الأنشطة المنزلية .

٢- ما الذى تقوم به الأم فى المنزل ؟ ما هى المجالات التى تعتبر الأم مسئولة عنها ، وذلك حتى إذا كان الأب يساهم ويساعد الأم بالمنزل ؟

إجابات الشباب عن هذا السؤال سوف تخص دائماً أبعاداً مادية : إنها تنظف المنزل - تطبخ - تكوى - تخيط ... الخ .

سؤال : أهذا كل ما تقوم به الأم ؟ يضيف عندئذ الشباب : إنها توصلنا إلى المدرسةو تعود بنا إلى المنزل ... وبعض « الماديات » الأخرى .

٣- إذا كان هذا كل ما تقوم به الأم ، فما الفرق إذاً بينها وبين خادمة ممتازة تنظف البيت جيداً وتطبخ بطريقة ماهرة ؟

المهم أن نصل هنا إلى أن يكتشف الشباب أن الأم :

- تستقبله عند عودته من المدرسة ...
- تقبله بحماس ...
- تواسيه إذا كان يعانى من مشكة أو ألم ما ...
- تشاركه فى أفراحه وأحزانه ...
- تفهم دون أن يحتاج لكثير من الشرح والكلام ...
- تزيّن المنزل بحب ...
- تساهم فى خلق حرارة العلاقات العائلية ...

... وكل التفاصيل الصغيرة التى تحوّل المسكن البارد إلى منزل عائلى دافئ ومحبوب .

كل هذه الأشياء لا تستطيع أن تقوم بها الخادمة مهما كانت درجة مهاراتها ، بينما الأم « العادية » مهما كانت « متوسطة » المهارات ، تقوم بها تلقائياً وبنجاح ، على شرط أن تكون هى نفسها سعيدة وأن تحب منزلها وأطفالها - وهذه هى القاعدة مهما كانت لها من استثناءات وشواذ .

ثانيًا :

١- من الذى يقوم بأكبر قدر من العمل ويتحمل أكبر قدر من

مسئولية الأنشطة خارج المنزل ؟ الإجابة - إذا كنا طرحنا السؤال بالطريقة المطلوبة - هى « بابا » وذلك حتى إذا كانت الأم تعمل هى الأخرى خارج المنزل .

٢- ما هى نتائج نشاط الأب خارج المنزل ؟ هنا أيضاً تتلون الإجابة بلون الماديات : الربح المادى يوفر الغذاء والكساء والسكن ووسائل الترفيه ... هذا كله صحيح ولكن يجب أن نمر بهذه النقاط مر الكرام ونسأل :

٣- عندما يعمل الأب ، ألا ينجز شيئاً مختلفاً ، شيئاً آخر سوى كسب المال ؟ والهدف من هذا السؤال أن يكتشف الشباب أن :

أ- الرجل الذى يعمل يكسب المال ولكنه يعلب أيضاً دوراً اجتماعياً هاماً ينعكس على الآخرين وعلى البلد ؟

ب- يبحث كل إنسان عن تحقيق ذاته . تحقق المرأة الجزء الكبير من إمكاناتها فى الأمومة ، وهذا صحيح حتى بالنسبة للمرأة التى تحتاج أيضاً أن تحقق بُعْدَها الاجتماعى . أما الرجل فإنه يحقق ذاته فى عمله وفى حياته المهنية . إذاً : الرجل العامل النشط يكتسب المزيد من الاتزان ويزدهر ، لأنه يحقق احتياجاته السيكولوچية الطبيعية . سنرى بعد قليل النتائج التى تترتب على هذا الوضع .

يستطيع المرشد إذا أراد أن يوضح هنا للشباب النقطة التالية : يحقق كل منا إمكاناته الكامنة على أكمل وجه إذا وفق فى اختيار المهنة التى تتناسب ومواهبه الطبيعية . من هنا أهمية معرفة الذات واكتشاف المواهب الخاصة بكل منا ، حتى يمكننا اختيار المجال المهنى الذى تزدهر فيه هذه الإمكانات وهذه المواهب ، ويعود علينا هذا الازدهار بالاتزان النفسى وسعادة تحقيق الذات (ارجع للفصل الخاص بالتوجيه المهنى).

٣- التفكير :

لنحاول - بناء على الملاحظات السابقة - أن نفكر :

١- ما الذى يحدث إذا توقف الوالد عن العمل ؟ حيث أن شباب هذا السن ما زالوا يهتمون بأنفسهم أولاً ، فإن الاجابات تدور حول

ما سوف يخسرونه شخصياً فى حالة توقف عمل الوالد . تتاح عندئذ فرصة الإشارة الى أنه يجب أن نتعدى حدود مصالحنا الشخصية ونوسع آفاقنا ونظراتنا إلى ما يخص الآخرين أيضاً . يمكننا أن نسأل :

أ- ما هو رد الفعل النفسى على الوالد فى حالة توقف عمله ؟ هل يكتئب ؟ هل يشعر أنه فقد شيئاً من قيمته الإنسانية وأصبح عاطلاً باطلاً ؟ .

ب- هل لهذه الأوضاع تأثير علينا نحن الأنجال أيضاً ؟ أليس لمثل هذه الظروف تأثير على الوالدة أيضاً ؟ .

٢- ماذا يحدث إذا توقفت الوالدة عن أداء عملها بالمنزل لأى سبب من الأسباب ؟ .

هنا أيضاً سوف تدور الإجابات حول الماديات . نعود إذاً إلى المبدأ السابق . ولكننا سوف نكتشف أن بعض الشباب استوعب المبدأ وأخذ يجاوب فيما يخص باقى أفراد العائلة والمجتمع وليس فيما يخصهم شخصياً . تربوياً لا بد أن يذكر المرشد أنه لاحظ مثل هذه الإجابات وقيمها ، دون أن يكون فى ذلك نوع من اللوم المستتر بالنسبة لباقى الشباب الذين لم يفكروا فى هذه النقطة وأعطوا إجابات شخصية أنانية إلى حد ما .

نريد أن نشير الآن إلى مسألة تربوية حساسة نوعاً ما :

يمكن أن يطرح المرشد سؤالاً على الشباب بطريقة تدل على الإجابة التى يتوقعها ، ويمكن أن يطرح السؤال بطريقة حيادية تحترم حرية اختيار الشباب للإجابة ولا تؤثر عليه . على المرشد أن يقرر متى يختار الطريقة الأولى ومتى يختار الطريقة الثانية .

كلنا متفقون على أن حالة الإنسان النفسية تؤثر على علاقاته مع الآخرين .

أ- هل يوجد بينكم بعض الشباب يرون أن أولياء أمورهم لا يخصصون القدر الكافى من وقتهم للحديث والمناقشة معهم ؟ .

ب- هل يرى بعضكم أن أولياء أمورهم يقضون الجزء الأكبر من وقت الحديث والمناقشة فى موضوعات تخصهم شخصياً ولا يخصصون الوقت الكافى لمناقشة ما يهمكم أنتم ؟ .

أُجْبِرنا لإدخال هاتين النقطتين فى برنامجنا بسبب تكرار الشكوى من ناحية الشباب وبالرغم من عدم وجودهما فى الخطة الأصلية . نريد هنا ملاحظة الآتى :

إنها مسئولية المرشد أن يتكيف لظروف الوسط الذى يتعامل معه ليلبى طلبات واحتياجات هذا الوسط ، وأن يضع معرفته للوسط وكذلك الأمثلة التى يستطيع أن يستخلصها من البيئة فى خدمة الأهداف التربوية والسيكولوچية التى يريد أن يحققها .

حذار من طرح الأسئلة بطريقة توحى أننا نريد التدخل أو اكتشاف سر العائلات . ستجدون دائماً أن هناك بعض العقول الملتوية التى تظن أن كل العقول الأخرى ملتوية مثلها ...

يجب ألا ينسى المرشد أن بعض ادعادات الشباب غير واقعية . وهى نابعة فى أغلب الأحيان عن رغبتهم فى المزيد من الانتباه والمشاركة من قبل الوالدين والعائلة بصورة عامة ... قد تكون هذه من الأعراض الهامة تساعد المرشد فى تفكيره وتخطيطه .

- حقاً إن عمرى أحد عشر عاماً فقط . ولكن أليس لدى من الآن القدرة على التأثير على والدى ؟ هل يحكم سنى على أن أكون متفرجاً سلبياً فقط ؟ .

والهدف أن يكتشف الشاب بعض الحقائق التى يعيشها كل يوم دون أن يلاحظها .

- يستطيع الشاب أن يكون مصدر سعادة لوالديه : مثال ...
- يستطيع أن يكتسب الشاب ثقة والديه أو أن يخسرها . مثال ...

يمكن أن يطوّل المرشد هذه القائمة مثلما يشاء على أن يعطى فى كل مرة الأمثلة الواضحة المقنعة .

يفضل أن يكون الشاب هو الذى يقول الكلمات الجوهرية مثل

« السعادة » و « الثقة » للمرة الأولى وليس المرشد ، أى أن يجعل المرشد الشباب هم الذين يكتشفون هذه المفاهيم من خلال الأسئلة والمناقشة . ثم يعطيها المرشد أهمية كبيرة بعد أن قالها الشباب .

– زاد التوتر فى المنزل بسبب وجود مشكلة ما بين الوالد والوالدة. أنا ما زلت صغيراً ولا أعرف ما هى المشكلة لذلك فأنا لا أستطيع أن أساهم فى إيجاد حل لها . أليس هناك ما أستطيع أن أفعله ؟ هل أظل متفرجاً فقط ؟ .

يجب أن يقود المرشد الشباب إلى اكتشاف كيفية ومدى وأبعاد تدخله وتأثيره على مثل هذه الظروف الخاصة . إذا قدم الخدمات البسيطة التى يستطيع تقديمها ، إذا أظهر وعبّر عن عواطفه وحبه لوالديه ، إذا أبدى انتباهه لاحتياجاتهم وطلباتهم ، سوف يخفف من شدة توترهم ، خاصة إذا أوضح لهم أنه شعر أن هناك مشكلة ، وأنه يريد بهذه الطريقة أن يشاركهم المشكلة ويخفف من آلامهم . يكون حينئذ قد ساعدهم بدرجة تفوق ما يستطيع أن يتصوره . ومن الجدير بالذكر أن هذا التصرف من قبل الشاب يستطيع فى نفس الوقت أن يقلل من شدة التوتر وعدم الاطمئنان الذى تولده دائماً الأزمات العائلية فى نفوس الأنجال ... قد يظن بعض المرشدين أن مثل هذه الأفكار صعبة الاستيعاب بالنسبة لشاب سنه ١١ سنة . هذه ليست خبرتنا . نحن نقول أن الشاب فى الحادية عشرة من عمره يستطيع بكل سهولة أن يستوعب مثل هذه الأفكار لو صاحبتها أمثلة مقنعة من مجال الصداقة مثلاً . يستطيع الشاب أن يفهم أن حبه للآخرين يساعدهم على التغلب على المشاكل والصعوبات إذا ذكرناه إلى أى مدى حب أصدقائه المخلصين يساعده فى حياته اليومية ويضئ آفاقه .

٣ – الاستنتاج :

١– سبق ورأينا أن كل نشاط إنسانى حتى الأنشطة الفردية مبنية فى الواقع على نجاح نوع ما من النشاط الجماعى .

٢– ثم رأينا أن كل فرد من أفراد الجماعة له تأثير ويتحمل تأثير

باقى أعضاء هذه الجماعة ، سواء كان هذا التأثير إرادياً ومقصوداً أو لا إرادى وغير مقصود .

نتيجة هاتين النقطتين ما يلى :

لكى يكون نشاط أى جماعة أو أى فريق من الفرق نشاطاً ناجحاً يحقق الأهداف الموضوعة ويوفر السعادة المطلوبة ، يجب أن تخضع العلاقات التى تسود بين أعضاء هذا الفريق لقوانين وقواعد معينة تمثل شروطاً أساسية لهذا النجاح .

سؤال : ما هى القواعد التى يترتب عليها نجاح الحياة الجماعية والتى تمثل شروط تحقيق هذه الجماعة أهدافها ؟ .

١- متى تحدثت مع والديك للمرة الأخيرة ؟ متى جلست وناقشت والديك فى موضوع يهمك ويهمهم أو يهم العائلة عموماً لآخر مرة ؟ عندما يناقش والديك موضوعاً يهمهم هل تبدى اهتماماً لهذه المناقشة ، أو هل لا تبدى اهتماماً إلا بالنسبة للموضوعات التى تهمك أنت فقط ؟ .

يجب أن يكتشف هنا الشاب أهمية « الاتصال » و « التبادل » و « المشاركة » فى مجال الفكر والعاطفة .

يحاول المرشد أن يجعل الشباب يقولون أن العلاقات « الباردة » أو « الفاترة » بين أفراد الجماعة ، والحواجز فى مجال الاتصال والمشاركة تعرقل الأداء الجماعى وتقلل من سعادة العائلة .

٢- هل تظن أنه من الممكن أن يريد أحد والديك أن يجرح مشاعرك قصداً ؟ هل تستطيع أنت أن تقرر جرح مشاعر والديك عمداً ، هكذا ، بدون سبب ؟ .

- ماذا تقول عن رفض والديك منحك شيئاً تطلبه ؟ هل يرفضون بحثاً عن مصلحتك أو مصلحة العائلة ، أو هل تظن أنهم يرفضون لمجرد معاكستك ؟ يجب إعطاء أمثلة مستخلصة من البيئة .

ما هو شعورك عندما يتخذ أولياء أمورك قرارات خاصة بك ، وأنت

لا توافق على هذه القرارات ، مثل رفضهم السماح برؤية فيلماً سينمائياً مثلاً ؟ هل تشعر أنه قد تكون هناك أسباب لهذا الرفض تفوق إدراكك أم لا ؟ هل تلومهم على ذلك ؟ .

يحاول المرشد أن يجعل الشاب يكتشف مبدأ « الثقة » . إن الثقة من قوائم « الحب » . لا يجوز العمل الجماعى الناجح فى جو من الشك المتبادل وعدم الثقة . يجب إعطاء أمثلة .

٣- **المثال الأول :** هل نعتبر زجاجة مليئة بالماء إلى نصفها فقط زجاجة نصف مليئة أو زجاجة نصف فارغة ؟ .

المثال الثانى : (مثال استعمله شخصياً بصفة مستمرة) أقدم للشباب قلماً (حبر جاف) جسمه أبيض ، غطاؤه أزرق ومشبكه أحمر ، ولكنى أدير المشبك ناحيتى حتى لا يراه الشباب ، وأسأل : « ما هى ألوان هذا القلم ؟ يجيبون مبتسمين « أبيض وأزرق » أقول : « لا ، بالنسبة لى هذا القلم أبيض وأزرق وأحمر » . يضحك الشباب ضحكة صريحة هذه المرة . أدير عندئذ المشبك ببطئ فى اتجاههم ويرون أن هناك لوناً أحمراً لم يكن ظاهراً من قبل .

الاستنتاج هو أن هناك أشياء كثيرة فى الحياة يتوقف تقديرها وتقيمها على زاوية النظر إليها . قد تختلف فى بعض الأحيان الآراء دون أن يكون هناك مخطئ ... يمكن أن يكون كل منا على حق بالرغم من اختلاف أرائنا .

هذه قصة حقيقية حدثت أثناء اجتماع من الاجتماعات . رفع شاب يده عند هذا الحد من المناقشة وقال : « الزجاجة التى تحدثنا عنها فى المثال الأول لم تكن بالنسبة لى لا نصف مليئة ولا نصف فارغة كانت مليئة تماماً : النصف الأسفل ملئ بالماء والنصف الأعلى ملئ بالهواء » . لم يضحك أحد .

فى نظرنا :

-حدوث هذا القول بعد إعطاء المثال الثانى وليس بعد إعطاء المثال الأول ...

– عدم ضحك الزملاء بعد حديث الشاب ...

نقطتان لهما وزنهما فى تقييم برنامج مثل هذا .

المهم هنا أن يكتشف الشاب أهمية نوعية نظرته إلى الأشياء والأشخاص وظروف الحياة . وكذلك أن يكتشف أهمية احترام رأى الآخرين حتى إذا اختلف رأيهم عن رأيه الشخصى : رأيه الشخصى قد لا يكون الرأى الوحيد الصائب ، لأن الآراء المختلفة يمكن أن تكون كلها صائبة أو على الأقل يمكن أن تحمل شيئاً من الصواب .

على المرشد أن يعطى أمثلة مختلفة وأن يحدد بهذه الطريقة كل قواعد نجاح الحياة الجماعية والحياة العائلية التى يريد توضيحها .

– والآن ، بعد أن حددنا قواعد نجاح الحياة العائلية ، ماذا نفعل بهذه القواعد وهذه القوانين ؟ .

٤ – التطبيق :

الهدف من هذا الجزء هو الوصول إلى تطبيقات عملية تلبى طلبات واحتياجات الشباب والبيئة ، وتُطوِّر العلاقات بين الشباب وأولياء الأمور بهدف إسعاد الجميع .

يجب أن يبتعد المرشد على قدر الإمكان من الاعتبارات العامة والأمثلة المبدئية ، وأن يعطى أمثلة مستخلصة من بيئة الشباب وتخص حياتهم اليومية .

١– هل تقبل أن يفقد أولياء أمورك ثقتهم فيك ؟

– هل تعتبر ثقة أولياء أمورك فيك حقاً مكتسباً تطالبهم به دون أن تحتاج إلى إثبات جدارتك بهذه الثقة ؟ كيف يستطيع الشاب فى رأيك أن يكون عند حسن ثقة أولياء أموره ؟ .

– كيف يستطيع الشاب أن ينمى ويصون هذه الثقة ؟

قد يذكر الشاب أثناء الاجتماع بعض واجباته العائلية وبعض التزاماته العائلية . الفرصة متاحة هنا للمرشد لكى يشرح لهم الفرق بين القيام بالواجبات واحترام الالتزامات لأننا مرغمين على ذلك ، أو

لأننا نتوقع فائدة ما من وراء هذا التصرف ، والقيام بالواجب واحترام الالتزام من باب الحب والعطاء واحترام المسئولية . ويستطيع هنا المرشد أن يشير أيضاً إلى نقطة مهمة جداً تمثل تفكيراً متطوراً وتصرفاً إنسانياً قيماً للغاية :

ما نقصده هنا « بالحب » ليس الميل الطبيعي والعاطفة التلقائية فحسب . يجوز أن يكون الحب فعلاً ذلك : ولكن من الجائز أن هذا الميل الطبيعي وهذه العاطفة التلقائية غير موجودين . هنا يمكن أن يكون ما نعنيه « بالحب » هو مجرد قرار التصرف **كما لو كان هذا الميل الطبيعي موجوداً** بالرغم من عدم وجوده . العطاء ، حتى فى حالة وجود شئ من التنافر الطبيعي وعدم الاستلطاف : قد يتطلب ذلك قدراً من الوعي والإرادة أكبر بكثير من متابعة الميل الطبيعي والاستلطاف عند وجودهما .

٢- ما الذى تراه أكثر عدلاً ؟ أن يقارن أولياء أمورك بين إنجازاتك الماضية وإنجازاتك الحالية ، أو أن يقارنوا بينك وبين أقاربك أو بينك وبين أول الصف ؟ لماذا ؟ .

الاستنتاج الذى يصل إليه المرشد مع الشباب هو أن كل منا يمتلك مواهب وقدرات تختلف عن قدرات الآخرين . بناء على ذلك فإن تقييم مدى تقدم الفرد وإنجازاته لا يقوم إلا على مدى التقدم الذى أحرزه بالنسبة لما كان عليه من قبل - أى على مدى المجهود الذى بذله - وليس على أساس المقارنة بينه وبين غيره من زملائه وأقاربه .

إذا قبلنا هذا المبدأ ، فماذا يكون رأيك فى :

- زميل يحصل على مصروف جيبى أكبر بكثير أو أقل بكثير من مصروفك الجيبى الشخصى ؟ .

- ماذا يكون رأيك فى والدك الذى يملك سيارة متواضعة بالنسبة إلى سيارات أصدقائك أو فى والد زميلك « فلان » الذى لا يملك سيارة بالمرة ؟ .

– ما رأيك فى زميل محدود **المواهب الطبيعية** من حيث الذكاء أو خفة الدم مثلاً ؟ .

– لقد عشت حتى اليوم دون أن تتساءل كثيراً ، وكنت فى بعض الأحيان تقول : عندما أكبر سأفعل « كذا » . هل ستستمر تعيش سلبياً ، بدون تفكير ، حتى تكبر ؟ أليس لديك من الآن دوراً هاماً تلعبه بالنسبة لأسرتك ، بالنسبة لفصلك ، بالنسبة لمدرستك ؟ أليس لديك من الآن مسئولية تجاه الجماعات المختلفة التى تنتمى إليها ؟ أمثلة مستخلصة من واقع الحياة ...

وينهى المرشد الاجتماع بختام موجز يلخص فيه الأهداف التربوية لهذا اللقاء .

البرنامج الخاص بسن الـ ١٢ سنة

الموضوع :

الفروق السكيولوچية بين الجنسين قبل سن البلوغ .

الأهداف التربوية :

أن يكتشف الشاب أن :

١– وجود نواحى تشابه ونواحى اختلاف بين الولد والبنت هو شرط وجود إمكانية « التكامل » بينهما ، وهذا التكامل أساسى لأى عمل جماعى .

٢– فيما يخص بلدنا فإن سيطرة الرجل على المرأة ليست مجال نقاش (أو على الأقل : هكذا يريدها الرجال ...) وقد أخذت كثيرات من النساء ترفضن هذه السيطرة ، وقد تزايد عدد هؤلاء النساء خاصة فى الأوساط المثقفة أخيراً .

أما فيما يخص البلاد التى تدعى فيها المرأة أنها تحررت فإن قوانين هذه البلاد أقل عدالة من القوانين المصرية ، ولا تعطى المرأة حقوقها على قدم المساواة مع الرجل . حتى الرجال الذين يدعون أنهم يعتبرون زوجاتهم شريكات حقيقيات لهم فى حياتهم يشعرون فى قرارة أنفسهم

أنهم « يهدون » لهن حق المساواة والمشاركة من باب التنازل عن بعض حقوقهم الطبيعية كما يتصورون ، وليس من باب الاعتراف بحقيقة المرأة وحقيقة واقعها النفسى . أما المرأة التى تشعر فى قرارة نفسها بأن دورها الطبيعى الحقيقى الوحيد هو الخدمة (خدمة الرجل والأطفال والمنزل) وأنها ليست شريكة لزوجها ، هذا الحديث لا ينطبق عليها ، ويجب علينا احترام سيكولوچيتها ومساعدتها على القيام بالدور الذى تشعر هى أنه هو دورها الحقيقى فى الحياة . يجب أن يضع علم النفس فى اعتباره كل الفروق السيكولوچية المميزة لكل وسط اجتماعى وكل مستوى علمى وثقافى ، وألا يحاول التغيير من الاتزان الطبيعى لهذا الوسط .

الاجتماع :

وضعنا للاجتماع الأول ، والأول فقط ، المزيد من التفاصيل لتوضيح نظرتنا للموضوع وتفسير الأساليب التربوية التى نستعملها . اللقاءات التالية تحتوى على تفاصيل أقل .

رأينا من المفيد جداً أن نلخص فى بداية كل اجتماع الأفكار الأساسية للاجتماعات السابقة . دهشنا عندما لاحظنا أن هناك بعض الشباب كان فى إمكانهم تلخيص اجتماع مضى عليه عام كامل بطريقة واضحة جداً . هذا دليل مؤكد يشير إلى مدى اهتمامهم بالموضوع .

الفروق بين البنين والبنات

١ – فيما يخص الانفعالات :

أ– هل يعبر الولد والبنت عن فرحهم بنفس الطريقة ؟

ب– هل يعبران عن حزنهما بنفس الطريقة ؟

جـ– هل ينفعلان بنفس الطريقة أمام فيلم سينمائى خاص برياضة «الكاراتيه» مثلاً ؟

د– هل لمدرس الولد نفس أهمية ونفس مرتبة المدرسة بالنسبة للبنت من الناحية العاطفية ؟

هـ - كيف يتصرف الولد إذا كان فى حالة غضب شديد ؟ وماذا تفعل البنت فى مثل هذه الظروف ؟

٢ - فيما يخص التصرفات :

أ- كيف تتكلم البنت وكيف يتكلم الولد ؟

ب- هل يقف الولد ، هل يمشى ، هل يحرك جسمه بنفس طريقة البنت ؟

جـ- هل يلجأ الولد والبنت إلى نفس الأساليب للحصول على شئ يريدانه من والدهما مثلاً ؟

د- كيف يعبر كل من الولد والبنت عن حبهم لأولياء أمورهم ؟ كيف يعبر كل منهما عن تقديره لمدرسيه أو لمدرساته ؟

هـ- كيف يعبر كل من الولد والبنت عن رفضه إطاعة الأوامر أو عن ثورته ضد ما يراه غير عادل ؟

٣ - فيما يخص الاختيارات :

أ- هل يلعب الولد فى هدوء نفس المدة التى تستطيع البنت أن تبقى هادئة خلالها ؟

ب- لا شك فى أن كلا الولد والبنت يحتاجان إلى حب الوالدين . هل يحتاجان إلى أن يعبر الوالدان عن حبهما بنفس الطريقة ؟

عند هذا الحد من المناقشة يكون الأولاد فى كل مرة بدون استثناء قالوا أن البنات أقل ذكاء منهم ، أنهن أقل تركيزاً ، وأقل اخلاصاً فى ارتباطاتهم ، أنهن « سطحيات » وغير مسئولات ، أنه لا يمكن الاعتماد عليهم بسبب عدم اتزانهم العقلى والعاطفى ... إلخ . عند الوصول إلى هذا الحد من المناقشة يكون دائماً قد انتهى الولد من تحطيم البنات تحطيماً كاملاً . لاحظنا أن البنات عادة أقل هجوماً على الأولاد ...

الأسلوب التربوى الذى استعملناه دائماً هو أن نترك للأولاد حرية التعبير عن أفكارهم دون أى تدخل من طرفنا ، حتى تصل قائمة سلبيات البنات إلى طول كاف . كنا فقط ندوّن هذه السلبيات على

السبورة أثناء ظهورها فى الحديث الواحدة بعد الأخرى . ثم فجأة نقول : « هل لاحظتم أنكم قلتم حتى الآن وخلال الدقائق الماضية أن البنت ... كذا ... وكذا ... وكذا ... ؟ » .

هنا يجب أن يقنع المرشد الأولاد بالآتى :

(معطياً فى كل مرة الأمثلة اللازمة طبعاً ...) .

١ـ– لا تقل البنت ذكاءاً عن الولد : امتحانات ، مناصب ، مسئوليات على مستوى دولى ... الخ .

٢– البنت أضعف عضلياً من الولد ولكنها أكثر منه تحملاً للألم مثلاً (آلام الوضع) وأكثر تحملاً لظروف المناخ (البرد مثلاً) وأكثر تحملاً للأزمات العضوية (سوء ظروف التغذية مثلاً) . إنها مهيأة لحمل الحياة ، لنقل الحياة ، لحماية الحياة ، لاعبة دوراً هاماً فى استمرار الجنس البشرى.

٣– تستطيع البنت مثل الولد تماماً – ولو كان ذلك بأساليب مختلفة – الحصول على ما تريده وتحقيق أهدافها . مثال : دار الخلاف بين الولد وأخته : ماذا يحدث ؟ يجرى الولد ويشكو من أخته إلى أمه مسبباً لها ازعاجاً بينما تبدأ الأخت فى البكاء . تحضر الأم وتسأل عما حدث . يشرح الولد معطياً المزيد من التفاصيل مسبباً للأم المزيد من الازعاج بينما تقول الأخت أنه لم يحدث شيئاً . يعلو البكاء كلما قال الولد شيئاً يثبت خطأ البنت !! تفلت أخيراً أعصاب الأم وهى تعاقب فى ٩٠ ٪ من الحالات الولد دون أن تعرف حقيقة الأمور بالتفصيل ، حتى، إذا كان الولد بريئاً . ذلك لأن الدموع دليل الألم . الولد سبب الدموع ، إذاً الولد سبب الألم – مسبب الألم هو دائماً المخطئ ! – ألا تدل هذه السياسة على ذكاء البنت وقدرتها على تحقيق أهدافها بوسائلها الخاصة المختلفة كل الاختلاف عن الوسائل التى يستعملها الذكور ؟ .

بهذه الطريقة ، ومع تعدد الأمثلة ، يستطيع المرشد أن يعيد للبنت اعتبارها فى نظر الأولاد . يجب أيضاً على المرشد أن يوضح الآتى :

الفروق بين الولد والبنت التى ذكرناها لا يجب أن يعتبرها الأولاد سلبيات بالنسبة للبنات . إنها مجرد فروق .

هذه الفروق « جنسية » بمعنى أنها خاصة بانتماء الفرد إلى جنس أو إلى آخر . من هذا المنطلق يمكن أن يكوّن الشباب لنفسه نظرة موسعة صحيحة ودقيقة عما هو جنسى أى خاص بالانتماء إلى جنس من الجنسين .

يمكننا هنا إعطاء أمثلة مستخلصة من القوانين أو من الحياة الاجتماعية اليومية .

نقاط التشابه بين الولد والبنت

أليس هناك سوى فروق بين الأولاد والبنات ؟ أليس هناك نقاط تشابه أيضاً ؟

– الصداقة – الإخلاص – قوة الإرادة والتصميم
– الالتزام – التحمل – الظهارة
– التركيز – الطموح – الصبر ... الخ .

يختلف قطعاً الولد عن البنت سيكولوچياً فى أمور كثيرة ولكنهما يتشابهان أيضاً فى نقاط كثيرة أخرى . لذلك :

– إذا احترم كل من الجنسين الفروق الموجودة بينه وبين الجنس الآخر ...
– إذا احترم الاحتياجات المختلفة الناتجة عن وجود هذه الفروق .
– وإذا عرف كل منهما كيف يستثمر نقاط التشابه الموجودة بينهما ...

يمكن أن يكمل كل منهما الآخر وأن يكونا معاً فريقاً حقيقياً ناجحاً يحقق إنجازات جماعية رائعة ...

فيما يخص « تكامل » الفروق ونقاط التشابه ، فإن « التكامل » العائلى والجنسى لا يختلفان إطلاقاً من حيث المبدأ عن التكامل الذى يسود بين أعضاء فريق كرة قدم مثلاً :

– هل تكون مهارات حارس المرمى هى نفس مهارات رأس الحربة مثلاً ؟ طبعاً لا ...

لكن : ما الذى يستطيع حارس المرمى أن ينجزه إذا كان دفاع الفريق ضعيفاً جداً ، وما الذى يستطيع « رأس الحربة » أن ينجزه إذا لعب وحده دون أن يساعده باقى الفريق ؟ ذلك فى إطار وحدة الهدف التى تربط بينهم جميعاً : قيام كل منهم فى مجال مهاراته الشخصية بأفضل أداء ممكن حتى يحقق الفريق كوحدة متماسكة هدفه النهائى وهو الفوز .

القوة الحقيقية للفريق مبنية على تكامل القدرات المختلفة الموجودة لدى أفراده مع احترام فردية واقع كل واحد منهم .

فيما يخص أسرتنا وفيما يخص مجتمعنا ، ليس المهم أن نكون كلنا متشابهين . أولياء أمورنا يختلفون عنا ، يختلف البنين عن البنات ... الخ . لكن الحب الذى يسود بيننا ، رغبة كل منا فى إسعاد الآخرين ، معرفة الفروق السيكولوچية الموجودة بيننا ومعرفة نقاط التشابه ، معرفة النتائج التى تترتب عليها ، الشعور بالمساواة بيننا جميعاً من حيث الدور وأهمية المسئوليات ، تحقيق العدالة التى تحترم سيكولوچية كل فرد ، تجعل من فريقنا (أسرة أو مجتمع) فريقاً قوياً منتصراً ، أى ناجح فى الازدهار وتحقيق الذات لكل فرد من أفراده .

الحب الحقيقى دائماً بناء ، لأن الحب الحقيقى ليس أن ينظر كل من الحبيبين فى أعين الآخر ، ولكن أن ينظر كلاهما فى نفس الاتجاه ...

الشباب فى الثالثة عشرة من عمره

الموضوع : البلوغ :

قد يجد المرشد أن بعض شباب هذه المجموعة وكذلك المجموعتين السابقتين لم يبلغوا بعد . لم يسبب لنا ذلك أى مشكلة من قبل . الإعلام السليم العلمى عما سوف يحدث له فى مستقبل قريب لا يمكن أن يضر الشاب إذا قُدمت له المعلومة بطريقة مناسبة . هذا ذو أهمية كبرى فيما يخص كلا البنات والأولاد . الخطأ هو أن نخلق مشكلة حيث لا

توجد : إننا لا نفعل ذلك . الوقاية خير من العلاج . نحن نتجنب حدوث المشاكل فيما بعد . على المرشد أن يعطى الشباب المعلومة التى تتناسب واحتياجه الحقيقى ودرجة نضجه ، وأن يعيد دائماً وضع كل ما هو « جنسى » فى خدمة العلاقات الإنسانية السامية وفى خدمة العاطفة والحب .

الأهداف التربوية للاجتماع :

١- الإعلام عما يخص جسد الشاب .

٢- الإعلام عما يخص الجنس الآخر .

٣- أن يكتشف الشاب أنه من الممكن الحديث عن « هذه الموضوعات » علناً بطريقة علمية ومهذبة .

٤- أن يكتشف الشاب أننا نستطيع أن نقول كل ما نريد قوله وأن نتحدث فى كل الموضوعات على شرط أن نوفق فى اختيار الكلمات والتعبيرات التى تؤدى إلى المعانى المطلوبة .

٥- أن يفهم الشاب أن كل ما يخص الجنس والحياة الجنسية ليس قذراً وليس مجالاً للخجل . بعض الناس قذرون للأسف . الجنس وكل ما يتعلق به جدير بكل احترام ويستحق الدراسة والتعمق فيه .

٦- تصحيح بعض الأفكار الخاطئة التى تدور وسط الشباب .

٧- تمهيد سهولة وتلقائية الاتصال بين الشباب والبالغين خلال السنوات المقبلة ، خاصة فى حالة ظهور مشاكل أو وجود تساؤلات .

الاجتماع :

« من الذين يستطيع أن يعطينا تعريفاً للبلوغ ؟ » .

هناك دائماً شاب واحد على الأقل يقول أن البلوغ عبارة عن نقطة بداية الحياة الجنسية . انطلقنا دائماً من هذا القول لنوضح الآتى :

– البُعْد الجنسى من المكونات الأساسية لسيكولوجية ونفسية الإنسان .

– إننا نعيش هذا البُعْد منذ لحظة ولادتنا . دليل أول على هذه الحقيقة العلمية هو نفس موضوع اللقاء الثانى : « الفروق السيكولوچية

بين الولد والبنت قبل البلوغ » ، والدليل الثانى هو على سبيل المثال ، لجوء البنت إلى أبيها عندما تريد شيئاً صعب الحصول عليه ، ولجوء الولد إلى والدته فى مثل هذه الظروف .

– البلوغ ليس إلا الوعى بالفروق الموجودة بين الجنسين مع ظهور جاذبية خاصة تجاه الجنس الآخر (بداية الاحتياج إلى التكامل) وظهور إمكانية الإنجاب .

البلوغ بالنسبة للأولاد :

ملاحظة : مجرد البدء بمناقشة الموضوع بالبلوغ لدى الأولاد عبارة عن تفرقة جنسية لصالح الذكور . فى حالة الاجتماعات المختلطة ننصح بالبداية بالجنس الذى يمثل الأغلبية .

سؤال : « من الذى يستطيع أن يوضح لنا ما يحدث عند بلوغ الولد ؟ » .

يلاحظ الشاب – فى يوم ما بين سن الـ ١١ وسن الـ ١٦ سنة – أن القضيب يحتقن بالدم فيزداد حجماً وصلابة . هذا يسمى « بالانتصاب » ويكتشف أن هذا الانتصاب مصحوب بنوع من المتعة . يجب أن يشرح هنا المرشد تفاصيل عملية الانتصاب الفسيولوچية حتى يقدر الشباب أن هذا الوضع طبيعى جداً وأنه يتوقف على وجود هرمونات معينة مع وجود إثارة معينة فقط لا غير . ولذلك يسأل المرشد : « هل يعرف أحد اسم المواد الكيميائية الموجودة فى الدم ، المسئولة عن إمكانية الانتصاب وكافة تغييرات البلوغ ؟ نعم « الهرمونات ».«ما هى التغييرات التى تسببها الهرمونات ؟ » .

الصفات الجنسية الثانوية :

هذه الصفات التى تظهر عند البلوغ هى تغير الصوت ، ، ظهور الذقن والشعر فى أماكن معينة من الجسم ، ازدياد ضخامة وصلابة الهيكل العظمى مع اكتساب العضلات قوة وحجماً وازدياد معدل النمو . هذا من الناحية العضوية ، أما من الناحية النفسية فإن الشاب يبدأ فى اكتساب ظواهر الرجولة ويميز هذه الرجولة فى أول الأمر نوع من

« العدوانية » ، وسوف يتعلم كيف يتحكم فيها وكيف يسيطر عليها تدريجياً فيما بعد .

الصفات الجنسية الأولية أو الأساسية :

هناك تغييرات أخرى ، عميقة ، قد تكون أقل ظهوراً وأقل وضوحاً من التغييرات السابقة ولكنها هامة جداً ، بل أن الصفات الجنسية الثانوية ما هى إلا نتيجة لحدوث هذه التغييرات العميقة . تنشط الخصيتان تحت تأثير مؤثرات خاصة وتأخذ تصنع وتنتج شيئين :

١- هورمون معين اسمه « التستوستيرون » .

٢- خلايا خاصة تسمى « الخلايا المنوية » وهى الخلايا المسئولة عن نقل واستمرار الحياة ، الخلايا المسئولة عن الإنجاب ومواصلة الحياة لمسيرتها . هذه الخلايا تحمل نصف المحتويات الوراثية الموجودة فى باقى خلايا الجسم وتحمل نصف البرنامج الوراثى للمخلوق الجديد فى حالة الإنجاب .

تبقى الخصية عاملة نشطة منتجة حتى آخر يوم من أيام حياة الإنسان إلا إذا أصيبت بمرض .

البلوغ عند البنت :

« من الذى يستطيع أن يقول لنا ماذا يحدث لدى البنت عند البلوغ ؟» .

الصفات الجنسية الثانوية :

تتضخم غدة الثدى ويكبر الصدر ، يعاد توزيع الطبقة الدهنية التحت جلدية ، يتغير نوع الشعر ... الخ .

الصفات الجنسية الأولية أو الأساسية :

هناك تغييرات أخرى عميقة ، قد تكون أقل ظهوراً وأقل وضوحاً من التغييرات السابقة ، ولكنها هامة جداً ، بل إن الصفات الجنسية الثانوية ما هى إلا نتيجة لحدوث هذه التغييرات العميقة . ينشط

المبيضان تحت تأثير مؤثرات خاصة ويأخذ المبيض يصنع هرمونات وكذلك يصنع خلية خاصة هى « البويضة » وهى الخلية المسئولة عن نقل واستمرار الحياة ، الخلية المسئولة عن عملية الإنجاب ومواصلة الحياة لمسيرتها . هذه الخلية تحتوى على نصف المحتويات الوراثية الموجودة فى باقى خلايا الجسم وهى تحتوى على نصف البرنامج الوراثى للمخلوق الجديد فى حالة الإنجاب (إن تكرار نفس الألفاظ ونفس الكلمات فيما يخص كلا الولد والبنت ليس مجرد صدفة أو تسهيلاً للموضوع ، ولكن وسيلة تربوية لخلق جو من التشابه والتقارب بين الولد والبنت يشعرهما بتكاملهما ...) . من لحظة البلوغ تبدأ البنت تعيش دورات هرمونية متكررة تسمى بالدورة الشهرية ، واسمها العلمى الحيض أو الطمث . (يجب أن يشرح المرشد الدورة الشهرية بكل تفاصيلها موضحاً جمال الطبيعة وحكمة الخالق) .

هام : يجب أن يفهم الشباب جيداً :

١- أن التخنث غير موجود عند الثدييات وغير موجود عند الإنسان .

٢- يمكن أن تُحْدِث بعض المؤثرات بعض التغييرات فى الصفات الجنسية الثانوية . أما الأعضاء التى تقوم بالوظائف الجنسية الأساسية (الخصية - القضيب - الرحم - المبيض) فإنها **لا تستطيع فى أى حال من الأحوال أن تنتقل من أداء وظيفة جنس معين إلى أداء وظيفة الجنس الآخر .**

٣- لا جراحة ولا علاج يستطيعان تحويل رجل كامل سليم إلى امرأة كاملة سليمة ، ولا العكس بالعكس . ما تقوم به الجراحة فى بعض الأحيان هو تصليح بعض العيوب الخُلُقية ، والنتيجة إعادة الشخص إلى حقيقة أمره بعد تصحيح أخطاء شكله الظاهرى الخارجى فقط .

« ما هو رد فعل الولد أمام هذه الظواهر الجنسية الجديدة ؟ » .

– إنه يظن أن المتعة الجنسية هدفاً فى حد ذاتها : سوف يتضح له ، ويكتشف تدريجياً أن هذا غير صحيح .

– يشعر الشاب أنه يكبر ولذلك فهو يريد « تقليد » الكبار . هذه مرحلة التدخين واستعمال الشتائم والمبالغة فى التصرفات ... إلخ . سوف يكتشف تدريجياً أن الشخص يكبر حينما تكبر « الشخصية » وليس عندما « يقلد » الكبار ، خاصة فى عيوبهم وسلبياتهم وأخطائهم . لكن السيئات دائماً أسهل تقليداً من الحسنات ... (بالإضافة إلى المفاهيم الموضحة فى « التعويض ») .

« ما هو رد فعل البنت أمام إمكاناتها الجنسية الجديدة ؟ » .

لا شك أن للدورة الشهرية قيمة رمزية كبيرة بالنسبة للبنت لأنها الدليل العضوى على أنها تكبر وأنها تركت بلا عودة عالم الأطفال . ولكن :

– بداية الدورة الشهرية غير مصحوبة باكتشاف متعة ما ...

– المتعة الجنسية لا تفرض نفسها على البنت كما هو الحال لدى الولد . ستكتشف وتتعلم البنت تدريجاً ما هى المتعة الجنسية ، وما هى إمكاناتها الجسمية ...

– الدورة الشهرية قد تكون سبباً لمضايقات وتقييد لحرية البنت .

هل يعنى ذلك أن البنت لا تمر بما يعادل المتعة الجنسية لدى الولد ؟ لا .

إذاً : ما الذى يحدث للبنت عند وبعد البلوغ ؟

تلاحظ البنت اختلافاً فى نظرة الأولاد بالنسبة لما كانت عليه قبل البلوغ ، وتكتشف أن فى إمكانها التأثير على ذكور الوسط الذى تعيش فيه . أى أنها تكتشف « الأنوثة » . ومثلما كان الولد فى غاية الاستعجال لاستعمال إمكاناته الجنسية الجديدة ، كذلك تكون البنت بالنسبة لأنوثتها . ومن هنا « سوء التفاهم » الكلاسيكى بين الأولاد والبنات : تكتشف البنت أنها إذا لبست بطريقة معينة ، إذا تكلمت بطريقة معينة ،

إذا ضحكت بطريقة معينة يثير ذلك اهتمام الأولاد . وفى كثير من الأحيان تبالغ البنت فى استعمال أنوثتها مبالغة المبتدئ الذى لا يعلم مدى إمكاناته ويختبرها للمرة الأولى ، خاصة وإنها لا تعرف أن سيكولوچية الأولاد تختلف عن سكيولوچيتها هى ، وإنها لا تعرف بدقة نوعية تثيرها على الشباب . أما الأولاد ، فإنهم أيضاً لا يعرفون أن سيكولوچية البنت تختلف عن سيكولوچيتهم ، وأن ما تقصده البنت من وراء تصرفاتها المبالغ فيها يبعد كل البعد عما يدور فى أذهانهم . يقدم إذا الولد على البنت وعندما ترفضه أو تسخط عليه ، يقول أنها متقلبة ، لا تعرف ماذا تريد ، وإنها تثيره فقط لتعذيبه لأنها لا تعرف العاطفة ! .

شجعنا دائماً الحاضرين على مقاطعة الحديث وعلى الأسئلة الكثيرة مهما كانت . أثناء هذا اللقاء كانت دائماً الأسئلة كثيرة ومتنوعة ، ويجب على المرشد :

– أن يجيب على جميع الأسئلة بدون استثناء .

– أن يرعى دائماً التفاوت فى النضج الجنسى بين الحاضرين .

– الا يفقد أبداً الاتجاه العام للموضوع وأن يعود إليه إذا اضطر للابتعاد عنه .

– أن يعطى دائماً كل الإجابات بطريقة تخدم الأهداف التربوية لهذا اللقاء .

ها هى بعض النقاط التى سأل فيها الحاضرون فى كل اللقاءات بدون استثناء :

١– الوراثة وقوانينها .

٢– الأمراض الوراثية .

٣– التوائم .

٤– أطفال الأنابيب .

٥– ماذا أو ما الذى يحدد جنس الجنين عند تكوينه ؟

٦- أضرار الزواج من الأقارب .

٧- ما هو سن اليأس .

٨- هل يوجد لدى الرجل ما يعادل سن اليأس عند المرأة .

٩- ما هو العقم .

بالرغم من الفرصة المتاحة لهم ، فإن شباب هذا السن لم يسألوا أبداً عن كيفية حدوث الجماع ، ولا عن طرق ووسائل منع الحمل ، ولا حدوث الحمل ، ولا الإجهاض .

إذا سأل أحد الحاضرين مثل هذه الأسئلة يجب أن تلتزم إجابة المرشد بالقواعد العامة الآتية :

- إعطاء المعلومة الصحيحة وعدم الكذب على السائل .

. - إعطاء هذه المعلومة بطريقة وبدرجة تتناسب ونضج الحاضرين بل وأقل الحاضرين نضجاً .

- اختيار الألفاظ والكلمات السليمة علمياً وأدبياً التى تحفظ قداسة الموضوع وجديته وتحترم سر الحياة (الرجل والمرأة بدلاً من الذكر والأنثى مثلاً ...) .

- الحديث بطريقة طبيعية . لكن كلمة « طبيعية » هنا لا تعنى البساطة الخاصة بالشئ العادى السهل الرخيص الغير جدير باحترام زائد والذى لا يستحق مكانة خاصة . لأن كل ما يخص الجنس جدير بالاحترام وبمكانة خاصة ، ويجب أن يشعر ويفهم الحاضرون ذلك جيداً .

- عدم اللجوء إلى الضحك و « التنكيت » فى المواضيع الجنسية بحثا عن نوع من الشعبية والاقتراب من الشباب . أولاً : إنهم لا يقدرون ذلك . ثانياً : هذا يشوه نظرتهم إلى الموضوع ويأخذنا بعيداً عن الأهداف التى نريد تحقيقها .

تبدو النقاط الخمسة السابقة بديهية . بقدر ما هى بديهية فعلاً يمكن أن ينساها المرشد أمام فصل أو مجموعة يزيد عددهم عن أربعين

شخصاً ، خاصة إذا كان مرهقاً أو متوتراً لأسباب أخرى بعيدة عن الاجتماع .

يمكن أن ينهى المرشد هذا اللقاء :

١- بتهنئة الشباب البالغين على فرصتهم أن يكبروا ويكتشفوا إمكانات جديدة وثروات إنسانية قيمة .

٢- طالباً الغير البالغين بالصبر : أمامهم الوقت الكافى والفرصة متاحة لهم للبلوغ ، وعندما يحدث ذلك ، إذا احتاجوا لأى تفسير أو أرادوا طرح المزيد من الأسئلة فإنه دائماً وأبداً على أتم استعداد للإجابة والمساعدة .

اجتماع الشباب ذوى الـ ١٤ سنة

الموضوع :

من « حتمية » التكاثر إلى ظهور إمكانية « التحرر » لدى مختلف الكائنات الحية من الأميبا حتى الإنسان .

الأهداف التربوية :

يشعر الشباب فى هذا السن أنهم تحت سيطرة الدوافع الجنسية وأنهم لا يستطيعون مقاومتها . من المفيد أن يعرف الشاب أن :

- الجنسى غريزة بحتة عند الحيوان ، وهو أيضاً غريزة وراثية لدى الإنسان . ولكن الجنس يكتسب بُعْداً جديداً غير موجود لدى الحيوان عندما نأتى للإنسان .

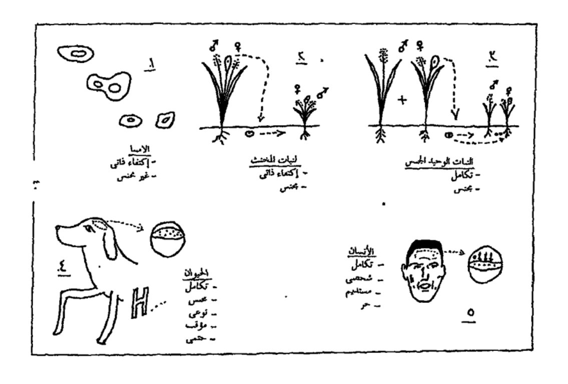
- الإنسان يملك وسائل وعناصر للتحكم فى الغريزة الجنسية ، وهذه الإمكانات غير موجودة لدى الحيوان . « الحرية » الجنسية عند الإنسان - بينما الجنس حتمى عند الحيوان - أساسها اختلاف تكوين بعض أجزاء الجهاز العصبى ووجود مركز عصبى متخصص فى مخ الإنسان غير موجود فى مخ الحيوان .

- « الحرية » التى نتكلم عنها هى عبارة عن طريق إلى « التحرر التدريجى » وهذا التحرر التدريجى مبنى على :

١- معرفة الذات وإدراك ما يجرى فى نفوسنا .

٢- محاولة صادقة لتربية مشاعرنا واكتساب المزيد من الرقة فى هذا المجال ، خاصة عن طريق محاولات صادقة وإرادة صريحة للانتباه إلى حقيقة الجنس الآخر وإدراك احتياجاته ومطالبه بدلاً من محاولة استغلاله .

٣- محاولة استعمال كل المراكز العصبية الراقية المتطورة حتى نصل إلى السيطرة على الغريزة الجنسية والغرائز عامة ، بدلاً من أن تكون هى المسيطرة على كافة تصرفاتنا .



فى الأوساط التى تتقبل مبدأ التطور (فكرة التطور نفسها تطورت حتى أصبح « دوران » اليوم تاريخاً) يمكن أن يشير هنا المرشد إلى أن خلال تطورها من الكائنات الوحيدة الخلية حتى الإنسان ، تكتسب مظاهر الحياة فى كل خطورة من خطواتها هذه المزيد من « التحرر » بالمقارنة « بحتمية » الأحداث الخاصة بالمرحلة أو الخطوة السابقة . أما الإنسان فهو – حالياً على الأقل – رأس حرية خط تطور المادة من الجماد إلى الحياة ثم إلى الغريزة ثم إلى العقل الذى يعرف ذاته ، والإنسان هو أكثر الكائنات الحية إنجازاً لهذا « التحرر » الذى نتكلم عنه .

أما بالنسبة للأوساط التى لا تقبل مبدأ « التطور » حتى فى مفهومه الحديث يمكننا أن نكون علميين للغاية إذا تركنا مبدأ التطور تماماً ، ونظرنا إلى تاريخ ظهور كل كائن على وجه الأرض وقارنا بين الكائنات من حيث أقدميتها . لا شك أن الكائنات البسيطة – الوحيدة الخلية مثلاً – هى من الكائنات القديمة على وجه الأرض . النباتات أحدث منها ظهوراً إلى الوجود ، الحيوانات الراقية مثل الثدييات أحدث ظهوراً نسبياً من النباتات البسيطة ، والإنسان هو أصغر الكائنات سناً على أرضنا .

سوف نلاحظ أثناء المناقشة الخاصة بهذا الاجتماع ، أن ظهور العناصر الجديدة التى توصلنا إلى إمكانية « التحرر » فى مجال الجنسى والإنجاب ، ظهور مثل هذه العناصر تعاصر تاريخ ظهور الكائنات على وجه الأرض ، أى أن إمكانية التحرر وعناصرها تزداد تدريجياً كلما كان الكائن الحى الذى ندرسه حديث الظهور بالنسبة للكائنات الأقل منه تحرراً : الكائنات القديمة جداً تصرفاتها « حتمية » جداً ، الكائنات الحديثة نوعاً ما تصرفاتها ذات « حتمية » نسبية بمعنى أنها حتمية فى غاية التعقيد وهى حتمية « الغريزة » ، والإنسان أخيراً هو الذى يتمتع لأول مرة فى تاريخ الحياة على سطح الأرض بإمكانية حرية حقيقية بمعنى « التحرر التدريجى » الذى تحدثنا عنه .

الاجتماع :

الإنجاب – فى كل مرحلة من المراحل الآتية – مبنى على :

١- **الأميبا :** - اكتفاء ذاتى - غير مجنس .

٢- **النبات المخنّث :** - اكتفاء ذاتى - مجنس .

٣- **النبات الوحيد الجنس (النخل مثلاً) :** تكامل - مجنس .

ونلاحظ ظهور التكامل لأول مرة .

٤- **الحيوان (الكلب مثلاً) :** تكامل - مجنس - نوعى وليس شخصى - مؤقت وليس مستديم - حتمى فى تسلسل أحداثه .

ونلاحظ ظهور الغريزة بكامل أبعادها .

٥- **الإنسان :** تكامل - مجنس - شخصى وليس نوعى - مستديم وليس مؤقت - حر فى اختياراته وليس حتمى .

. نستطيع أن نتكلم هنا لأول مرة عن إمكانية التحرر من حتمية الغريزة .

لننظر إلى كائنات بسيطة ، قديمة على وجه الأرض ، ثم إلى كائنات أكثر فأكثر تعقيداً وهى فى نفس الوقت كائنات حديثة نسبياً على وجه الأرض ، ثم إلى الإنسان وهو أحدثهم ظهوراً على كوكبنا ، ولنقارن بين طريقة التكاثر لدى كل هذه الكائنات لنكتشف ما هو الجديد الذى يظهر فى كل كائن منها بالنسبة للكائنات الأخرى الأبسط منها تكويناً والأقدم منها وجوداً .

١ - الأميبا :

إذا تعرضت الأميبا لمؤثرات معينة من حيث درجة الحرارة ودرجة الرطوبة ... إلخ ، ينقسم البروتوبلازم بداخلها وتنقسم كل محتوياتها حتى ينتج عن ذلك خليتين متشابهتين ومشابهتين تماماً للخلية الأم .

هل احتاجت الأميبا إلى أى خلية أخرى لتنقسم وتتكاثر ؟ لا . إنها تتمتع إذاً بنوع من الاكتفاء الذاتى . هل هناك أميبا ذكر وأميبا أنثى ؟ لا . إذاً هذا النوع من الاكتفاء الذاتى غير مجنس .

٢ ـ النبات المخنّث :

توجد على نفس النبات خليتين مختلفتين ، اتفقنا على أن نطلق على نوع منها اسم « خلايا ذكرية » وعلى الأخرى اسم « خلايا أنثاوية » . تطير هذه الخلايا – تحت تأثير الرياح والحشرات ... إلخ – من على العضو الذى يحملها ، وتلتقى فى عضو خاص – المهبل – حيث يتم جمع محتويات الصفات الواثية الموجودة فى الخلية الذكرية والصفات الوراثية الموجودة فى الخلية الأنثاوية ، والنتيجة هى تكوين « بذرة » لهذا النبات . تقع البذرة على الأرض ، وإذا وجدت ظروفاً ملائمة من حيث نوع التربة ودرجة الحرارة ونسبة الرطوبة .. إلخ ، تنبت هذه البذرة وينتج عنها نباتاً عبارة عن صورة طبق الأصل من النبات الأم .

هل هناك ضرورة لكى يتكاثر هذا النبات من وجود أى عنصر خارجى له ؟ لا . هذا النبات يتمتع إذاً بنوع من الاكتفاء الذاتى . هل تستطيع الخلية الذكرية وحدها أو الخلية الأنثاوية وحدها أن تكوِّن بذرة تعطى نباتاً جديداً ؟ لا . إذاً : هذا النوع من الاكتفاء الذاتى مجنس . الجنسان موجودان على نفس النبات .

٣ ـ النباتات الوحيدة الجنس :

جميعنا يعلم أن هناك شجرة نخل ذكر وشجرة نخل أنثى . قد تقوم الظروف الطبيعية – من هواء وحشرات مثلاً – بتلقيح النخل ، أو قد يقوم الإنسان بهذه العملية لضمان جودة المحصول . نقول عندئذ أن « النخال ذكَّر النخل » . تقابل الخليتين الجنسيتين للنخل يعطينا البذرة وهذه البذرة بدورها ، إذا وجدت فى الأرض الظروف الملائمة لها ، تنبت معطية شجرة تكون إما صورة طبق للأصل للنخل « الأب » إما صورة طبق الأصل للنخل « الأم » .

سؤال: هل تستطيع نخلة واحدة ، ذكر كانت أو أنثى ، أن تتكاثر ؟

لا . نحن إذاً – وللمرة الأولى – أمام ضرورة « تكامل » جنسى حتى تتم عملية التكاثر . انتهينا عند هذا الحد من الاكتفاء الذاتى تماماً . نحن الآن أمام نوع من التكاثر مبنى على :

– التكامل – الجنس .

ملحوظة :

يستطيع أن يتكلم المرشد هنا عن التكاثر المبنى على وجود خلية واحدة فقط إذا أراد (parthenogenèse) وإذا استطاع ... هذه الظاهرة لا تتعارض والتفكير الخاص بنا ، وتشير فقط إلى أهمية حماية إمكانية استمرار الحياة فى بعض الظروف المعادية لها ، وقدرة الطبيعة المتناهية وحب الخالق لمخلوقاته ... وإن كانت هذه نظرة فلسفية دينية ، ونحن لا نريد أن نتعرض لمثل هذين النظامين هنا .

٤ – الثدييات : الكلب مثلاً :

الكلب الذى لا يسيطر عليه نداء غريزى ما مثل الجوع أو العطش ... الخ ، ينام فى هدوء . تمر أمامه أنثى وجسمها يفرز فى هذا الوقت رائحة خاصة ، رائحة جنسية ، ما نسمية « رائحة » ما هو سوى جزيئات من المادة تطير فى الهواء . تدخل بعض هذه الجزيئات فى أنف الكلب النائم وتركز على الطبقة المخاطية التى تطلى الأنف من الداخل . هذه الطبقة المخاطية تحتوى على التفرعات الأخيرة النهائية الرفيعة جداً لعصب يأتى من المخ وهو العصب الخاص بحاسة « الشم » . يحدث تفاعلاً كيميائياً « حتمياً » بين هذه الجزئيات الحاملة لما سميناه « الرائحة » وهذه الأطراف العصبية . النتيجة « الحتمية » لهذا التفاعل الكيميائى هى خلق تيار كهربائى ضئيل جداً ، يحمله « حتماً » عصب الشم إلى المخ . يصل هذا التيار الكهربائى إلى مركز عصبى فى المخ هو مركز حاسة الشم . يسجل المخ الرائحة ، أى أنه يترجم المخ « حتماً » هذا التيار إلى إدراك برائحة ، بل ويشخص هذه الرائحة على أنها رائحة جنسية . يرسل عندئذ « حتماً » مركز الشم إشارة إلى مركز عصبى آخر هو مركز تحريك العضلات ، فيرسل « حتماً » مركز تحريك العضلات إشارات إلى عضلات سيقان الكلب ، فيقوم الكلب « حتماً » ويمد أنفه إلى الأمام باحثاً عن المجال الجوى الذى يحتوى على أكبر عدد من هذه الجزيئات الخاصة بالرائحة ، أى أنه يأخذ يبحث « حتماً » عن

الأنثى التى مرت بالقرب منه . إنه سيجدها فى أغلب الأحيان ، سيتم التقارب « الحتمى » بينهما وسوف تحمل وتنجب صغاراً .

وصول الجزيئات إلى أنف الكلب « حتمى » التفاعل الكيميائى حتمى ، وصول التيار الكهربائى إلى المخ حتمى . تحريك عضلات السيقان والبحث عن الأنثى حتمى . التكاثر حتمى .

أسئلة :

١- هل يستطيع الكلب أن يرفض البحث عن الأنثى ؟ لا .

٢- هل يميز الكلب بين أنثى وأخرى من حيث الجمال أو الشخصية مثلاً ؟ لا . الرائحة هى العنصر المحرك .

٣- هل يقول الكلب « أنجبت صغاراً كثيرة ، حان الوقت لكى أكف عن الإنجاب ؟ » لا .

٤- هل يقول الكلب « أننى تابعت أنثى أمس ، لا يجوز أن أتابع أنثى أخرى اليوم ؟ » لا .

إذاً :

١- يتبع الكلب فى تصرفاته أوامر وردود فعل انعكاسية حتمية تكوّن حصيلتها ما يسمى « بالغريزة » ، ولا سيطرة له على هذه الغريزة . إنه خاضع تماماً لمواد كيميائية موجودة فى جسمه اسمها « الهرمونات » وهى التى تنظم التصرفات الغريزية دون أن تترك للكلب أى حرية فى قبول أو رفض ما يحدث له .

٢- لا يميز الكلب بين أنثى وأخرى . إنه ينفعل عند شم الرائحة . الجاذبية التى يعيشها الكلب جاذبية نوعية (خاصة بنوع الكلاب) وليست شخصية (أى خاصة بكلبة معينة) .

٣- لا امتدد زمنى للفعل الجنسى لدى الكلب . الفعل الحاضر منقطع تماماً عما نسميه « الماضى و المستقبل » .

الحياة الجنسية والتكاثر لدى مثل هذه الحيوانات مبنيان على :

- تكامل   - مجنس

– نوعى – مؤقت

– حتمى عن طريق الغريزة .

ملحوظة :

يسأل كثير من الشباب : « كيف نفسر إذاً اخلاص الكلب الذى يترك نفسه للموت جوعاً بعد وفاة صاحبه ؟ ألا يتعارض هذا وحتمية غريزة البقاء ؟ الفرصة متاحة هنا للمرشد لكى يقول :

أولاً : إن كل موضوع إذا لخص تلخيصاً شديداً أصبح كاريكاتورياً إلى حد ما . يجب إذاً الاحتفاظ بالمبادئ الرئيسة دون الدخول فى التفاصيل .

ثانياً : إن « عاطفة » الكلب من ناحية ارتباطه بصاحبه هى نفسها غريزية ولا تتوقف على قرار حر من ناحية الكلب باختيار الموت بدلاً من الاستمرار فى الحياة . العاطفة وحدها لا تكفى . يجب أن يكون هناك أيضاً وعياً بهذه العاطفة ، مضافاً إلى إمكانية السيطرة عليها والتحكم فيها ، وإلا كانت غريزة فقط .

٥ – الإنسان :

يجب علينا أن نفهم أولاً شيئاً من أداء مخ الحيوان ووظيفته ثم نقارن مخ الحيوان بمخ الإنسان ، لكى ندرك الوضع الحقيقى للإنسان بالنسبة إلى الحياة الجنسية والإنجاب .

يستمد الكلب الطاقة الحيوية التى يحتاج إليها ليعيش من احتراق السكر (الجلوكوز) الموجود فى دمه . انخفاض مستوى هذا السكر فى الدم ينشط مراكز عصبية معينة مولداً إحساساً سميناه « الجوع » . يقوم الكلب ، يمد أنفه إلى الأمام ويبحث عن المجال الجوى الذى يحتوى على أكبر عدد من الجزيئات الخاصة برائحة الطعام . إذا وجد الطعام يأكله ويعود إلى النوم . الجفاف ينشط مركزاً عصبياً آخر فى مخ الكلب مولداً الإحساس « بالعطش » ... الخ . هناك غريزة قوية جداً لدى جميع الكائنات الحية ، هى غريزة البقاء . لا بد أن يدافع الحيوان المهدد عن نفسه . المراكز العصبية التى تخدم هذه الغرائز موجودة فى مستوى

أولى من مستويات المخ ولا سيطرة أو تحكم للحيوان عليها . معظم الوظائف العضوية تابعة لمراكز من هذا النوع أى مراكز عصبية من المستوى التلقائى ، مثل مركز تنظيم وظيفة التنفس ومركز تنظيم سرعة ضربات القلب مثلاً .

يوجد فى مخ الإنسان مستوى آخر من المراكز العصبية أو بالأصح من النشاط العصبى ، مستوى أعلى وأرق من المستوى الأول الذى تحدثنا عنه . الوظائف العصبية الموجودة فى هذا المستوى العالى تسيطر وتتحكم على المراكز العصبية الغريزية التلقائية الأولية التى تم وصفها . معنى ذلك أن المستوى الغريزى موجود عند الإنسان وينفعل فى كل مرة ، ولكن المفروض أنه لا يعمل بالفعل إلا إذا سمح له الإنسان بذلك ، عن طريق الوظائف العصبية العليا . على سبيل المثال : يشعر الكلب بالجوع : لا بد أن يبحث عن الطعام وأن يشبع غريزته . يشعر الطالب فى الفصل بالجوع : حيث أنه يعرف جيداً أن الوقت غير مناسب للأكل وأنه لا يليق أن يأكل فى الفصل ، فإنه يستطيع أن يتحكم فى غريزته وأن يقرر بحريته أن يتحمل طلبات هذه الغريزة ليشبعها فى وقت لاحق . المريض بالسكر الذى جاع وفتح الثلاجة ليجد فيها فقط أطعمة تضر صحته ، يستطيع أن يقرر بحريته ألا يأكل وألا يشبع غريزته حتى يجد المأكولات الصالحة له . غريزة البقاء وهى من أقوى الغرائز لدى الحيوان ، لها أيضاً وظائف عصبية عليا تستطيع التحكم فيها . يعرض الجندى حياته للخطر والفناء فى سبيل الدفاع عن وطنه . يعرض المنقذ حياته للخطر والموت عندما يلقى بنفسه فى أمواج البحر لينقذ الغريق . نحن نعتبر هؤلاء « أبطالاً » . لماذا ؟ لأنهم يقدمون لنا الدليل القاطع والإثبات المقنع على أنهم يملكون وظائف عصبية عليا نشطة وفعالة يستطيعون بواسطتها التغلب على الغرائز الحيوانية الأولية واتخاذ قرارات حرة لإنجاز ما هو أعلى من الأنانية وأكثر تطوراً من البحث عن الذات فقط ، أى ممارسة العطاء الحقيقى . أما المريض بالسكر الذى فتح الثلاجة وبرغم أنه لم يجد فيها سوى مأكولات تضره أكل منها لأنه غير قادر على عدم إشباع غريزة الجوع فوراً ، مهما كان

ثمن ذلك ، هذا الإنسان يتصرف على مستوى غريزى بدائى أولى ولا يستعمل كامل إمكاناته العصبية والنفسية .

لا يختلف الوضع فيما يخص الغريزة الجنسية عما هو عليه فيما يخص الغرائز الأخرى . سيطرة الهرمونات والمراكز العصبية البدائية على الغريزة الجنسية لا تترك للحيوان أى حرية فى التصرف والاختيار . **هام جداً : « الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى يملك فى مخه مركزاً عصبياً خاصاً بالغريزة الجنسية يستطيع التحكم والسيطرة على ردود الفعل الانعكاسية التابعة للمستوى الأولى »** . سنناقش فى اللقاءات القادمة خطوات الشاب فى سيره من البلوغ إلى النضج الجنسى الكامل . لنكتف الآن بمعرفة أن الإنسان الكامل النضج الجنسى يستطيع أن يتحكم فى تصرفاته الجنسية ، بدلاً من أن يكون لعبة تحت تأثير هرموناته ودوافعه الغريزية .

يخضع الإنسان لتأثير الغريزة بنفس الطريقة التى يخضع لها الحيوان (وهذا صحيح أيضاً فيما يخص باقى الوظائف الحيوية) ولكنه يتمتع أيضاً بإمكانية السيطرة والتحكم عليها .

سؤال : هل تظن أن الرجل الناضج ينظر إلى جميع النساء بنفس النظرة ؟ هل تظن أن كل النساء متساويات جنسياً بالنسبة للرجل الناضج ؟ لا .

سؤال : هل تظن أن الرجل الناضج يسعى وراء تغيير ارتباطاته العاطفية باستمرار ؟ ألا يسعى وراء الاستقرار العاطفى ؟ الاستقرار طبعاً .

إذاً :

١- من ظهور إمكانية السيطرة والتحكم على الدوافع الغريزية .

٢- من ظهور العاطفة الرقيقة الحساسة .

٣- من فردية المرأة المعينة بالنسبة لرجل معين .

٤ – ومـن سـعـى الـرجل وراء الاسـتـقـرار ، يـنتج أن تـكـوين الـزوج الآدمى – الذى يميل إلى الإنجاب طبعاً – مبنى على :

١ – تكامل . ٢ – مجنس . ٣ – شـخـصى .

٤ – دائم . ٥ – حر .

ختاماً : من الأمـيبا حتى الإنسـان تسلك الحرية فى ظهـورها المسلك الآتى :

– ظهـور خلايا جنسية عـند الكائنات المتعـددة الخلايا . هـذا التمـيز الجنسى لا وجود له لدى الكائنات الوحيدة الخلية .

– ثم ظهور كـائنات وحيدة الجنس – إمـا « ذكور » وإما « إناث » (لا توجد ثدييات مخنثة) . هذه نقطة بداية ظهور التكامل .

– هـذا التـكامل تحت سـيطرة الهـرمونات والـغريزة الجـنسيـة فيـما يخص الحيوان .

– تعـقيد مـخ الإنسـان وتـخـصـص بعض أجـزائه يعطـيه القـدرة على التحكم فى دوافع الغريزة : وهـذا يمثل ظهـور إمكانية التحـرر من الدوافع المختلفة ومن حتمية الأحداث ، أى ظهور « الحرية » .

سـوف يجد من اعتاد الـتفكير العميق أن هـذا الاجتماع مـثير للغاية . لكن هناك بعض الشباب لا يميلون إلى التفكـير ولا يتساءلون كثيراً عما يدور بـداخلهـم ولا حولهـم . سوف يـجد هـؤلاء أن هـذا الاجـتمـاع ممل . على المرشد أن يثير دائماً اهتمامهم بإعطاء أمثلة تخص حياتهم اليومية وأن يثيـر انتبـاههم بطرح الأسـئـلة الكثيـرة حتى يتـقدموا بالإجـابات بدلاً من أن يكون المرشـد هـو مصـدر كل الاستنتاجات .

هـذا الاجتماع هام جداً لسبب آخر :

سـوف يـكـتشـف الشـاب خلال اجتماع العام الـبعد القـادم أن خطوات كل إنسـان فى طريـقه إلى الـنضـج الـكامل تمـر بـنـفس الـخطوات الـتى تمـر بهـا الـكائنات المختلفة من حالـة الـحتمية الكامـلة إلى حـلة ظهـور إمكانيـة التـحـرر ، أى أنه يمـر بنفس الـخطوات التى وصـفناها Ontogeny repeats Phylogeny .

قد يصاب المرشد فى بعض الأحيان بالدهشة عندما يسأل بعض الحاضرين أسئلة لا علاقة لها بالموضوع ، خاصة بتحديد النسل مثلاً أو خلافه . يدل ذلك على أن الشباب لا يركز اهتمامه على الموضوع . على المرشد الإجابة على جميع الأسئلة طبعاً ، ولكن عليه أيضاً أن يعيد الموضوع إلى مجراه وأن يغير طريقة عرضه للمناقشة ليكون أكثر جاذبية للشباب .

هناك خطورة من تحويل هذا اللقاء من مناقشة وحوار إلى محاضرة نظرية أكاديمية . يجب أن يتجنب المرشد هذا الخطأ .

الشباب ذوى الـ ١٥ سنة

لدينا لهؤلاء الشباب مجموعة من الشرائح الضوئية ينقسم عرضها إلى ثلاثة أجزاء :

١- الجهاز التناسلى للمرأة .

٢- الجهاز التناسلى للرجل .

٣- من التلقيح وبداية الحمل إلى الوضع .

هذا الاجتماع يكمّل الإعلام الجنسى الذى بدأناه فى الاجتماع السابق ويتيح الفرصة للمزيد من المناقشات الموازية . لقد كبر الشباب وأصبحت مناقشاتهم مثيرة للغاية لمن يتمتع بمقابلة الكبار .

الجهاز التناسلى للمرأة :

من خلال عرض وشرح هذه الوظائف تدور المناقشة حول :

– العدد الإجمالى للبويضات الموجودة بالمبيضين بالنسبة إلى عدد البويضات التى تحتاج إليها المرأة خلال حياتها الخصبة . تسمح لنا هذه النقطة بمناقشة أهمية حماية الحياة ووسائل الإنجاب .

– الحديث عن الدورة الشهرية يثير دائماً أسئلة حول موضوع وسائل منع الحمل .

– المقارنة بين حبوب منع الحمل واستعمال « اللولب » يتيح لنا فرصة مناقشة الإجهاض .

مناقشة « سن اليأس » تتيح لنا فرصة الإشارة إلى الفرق ما بين الخصوبة والحياة الجنسية : ألا يدل استمرار الحياة الجنسية بعد انتهاء الفترة الخصبة على أن الجنس ليس فى خدمة الإنجاب فحسب ولكنه أيضاً فى خدمة بُعْد آخر من أبعاد الحياة ، فى مجال العلاقات الإنسانية ؟ .

– « الحمل الكاذب » يفتح لنا باب مناقشة الحالات النفسية ومدى تأثيرها على الجسم والمادة .

– تتيح لنا مناقشة المسائل الخاصة بالعقم فرصة توضيح أهمية الأمومة بالنسبة للمرأة والمقارنة بينها وبين الأبوة بالنسبة للرجل .

الجهاز التناسلى للرجل :

– شرح « الانماء التلقائى » يثير دائماً الأسئلة حول موضوع « العادة السرية » . نحن نفضل دائماً ، فى هذا المجال ، استعمال كلمة « موضوع » فضلاً عن كلمة « مشكلة » لأسباب واضحة . تعودنا أن نؤجل الإجابة على هذه الأسئلة ومناقشة هذا الموضوع إلى ما بعد عرض الشرائح ، بحجة عدم عرض الشرائح إلى حرارة المصدر الضوئى لمدة طويلة كى لا تحترق . لكن السبب الحقيقى لتأجيل هذه المناقشة هو إرادتنا المزدوجة أن تتم المناقشة فى صالة مضاءة من جهة ، وأن يكون هذا الحوار ختاماً للاجتماع من جهة أخرى .

– الحديث عن الكروموزومات والچينات يثير المناقشات حول موضوع تكوين التوائم والوراثة ونقل الصفات الوراثية والزواج من الأقارب ومشاكله وتحديد جنس الجنين . هذا الموضوع الأخير : « من الذى يحدد سن الجنين » ؟ يزداد أهمية فى الأوساط التى يعتقد فيها الرجال أن زوجاتهم مسئولات عن إنجاب البنات ، وتتصاعد المشكلة فى بعض الأحيان إلى طلب الطلاق إن اعتبروهن غير قادرات على إنجاب أولاد ذكور .

– هناك أيضاً مواضيع أخرى تثير الكثير من الأسئلة مثل الشذوذ الجنسى ، ومرض « الإيدز » والأمراض الجنسية المعدية ... إلخ .

من التلقيح إلى الولادة :

لدينا شريحة تبين صورة جنين فى الأسبوع السادس من تكوينه بالمقارنة بطول عود كبريت . يعتقد بعض الناس أن الجنين خلال الشهور الثلاثة الأولى عبارة عن « قليل من الدم » فقط . من المفيد أن يكتشف الحاضرون درجة تكوين الجنين فى اليوم الأربعين من عمره ، وهى تقريباً الفترة التى تتخذ فيها المرأة قرار الإجهاض إذا أرادت التخلص من هذا الطفل . يحسبها المرشد مع الشباب .

هذا الجزء من العرض يثير دائماً الأسئلة حول :

– فترة الخصوبة أثناء الدورة الشهرية .

– وسائل منع الحمل . والفرصة هنا متاحة لمناقشة الفرق بين الوسائل التى تمنع حدوث الحمل ، أى التى تمنع تلقيح البويضة ، والوسائل التى لا تمنع حدوث الحمل ولكنها تعوق استمراره ، أى تسبب الإجهاض ..

– التلقيح الصناعى .

– سن اليأس .

– أطفال الأنابيب .

– حق المرأة فى الإجهاض ، احترام الحياة وحقوق الجنين .

– هل تنظيم النسل مسئولية المرأة وحدها أو هل هى مسئولية لزوجين معاً ؟ (نذكر القارئ أن كلمة " couple " بالمفهوم الحديث – وهى كلمة مفردة – والتى تشير إلى الوحدة السيكولوچية التى يخلقها الزوجين (وهى كلمة مثنى) عند اتخاذهما قرار الزواج ، غير موجودة باللغة العربية . إذا كانت موجودة فإننا لم نجدها ...) .

نضئ قاعة الاجتماع فى آخر عرض الشرائح ونأتى إلى مناقشة « العادة السرية » ، ويكون السؤال عن هذا الموضوع عادة على شكل « ما هى أضرار العادة السرية ؟ » مشيراً إلى الاتجاه الحقيقى لاهتمام الشباب ومدى قلقهم .

الأهداف التربوية التى نقترحها للإجابة عن هذا السؤال هى الآتية :

١- تخفيف التوتر الناتج عن الشعور بالذنب المرتبط بممارسة العادة السرية .

٢- خلق « الجو » الذى يسمح للذين يعانون من مشكلة حقيقية فى هذا المجال أن يحضروا لمقابلتنا فيما بعد .

٣- أن يعرف - بالرغم مما يقول أو يعتقد بعض الشباب - الذين لا يمارسون العادة السرية ، أو لم يمارسونها بعد ، أن العادة السرية حدث جانبى فرعى فى خطوات الشاب إلى النضج الجنسى الكامل وأنها :

أ- لا تمثل خطوة ضرورية لا بد من المرور بها حتى يصل الشاب إلى النضج الجنسى الكامل فيما بعد .

ب- أنه غير صحيح أن الذين لا يمارسون العادة السرية ليسوا « برجال » كما يقول بعض الشباب .

٤- الإعلام :

تعودت أن أبدأ المناقشة بالقول الآتى :

خوفاً من مضاعفات وسيئات ممارس العادة السرية لقد جعل لها البالغون سمعة قد تكون أسوأ مما تستحق . أنا لا أريد أن تحاولوا منع ممارسة العادة السرية بسبب الخوف منها فقط ، بل أريدكم أن تفهموا جيداً وتقتنعوا بحقيقة وبأهداف النشاط الجنسى ، حتى يقل احتياجكم - أو ما تعتقدون أنه احتياج - لممارستها .

إعرفوا أولاً أن :

- العادة السرية لا تسبب مرض الإيدز ولا أى مرض آخر من الأمراض المعدية .
- العادة السرية لا تسبب التخلف العقلى .
- إنها لا تعرقل النمو بمعنى أن قصيرى القامة ليسوا هكذا بسبب ممارستهم العادة السرية .

– إنها لا تفقد الذاكرة .

– إنها لا « تلين » العظام ولا المخ ...

ها هى حقيقة الأمر .

كلنا نعيش بناء على حرق طاقة حيوية معينة . المراهقة مرحلة نمو جسمى متزايد وكذلك مرحلة نشاط عقلى وذهنى شديد بسبب كل الامتحانات الرسمية والقدر الهام من المعلومات الجديدة التى تستوعبونها خلالها .

إنك تحتاج إذاً ، خلال فترة المراهقة ، إلى كل ما تستطيع توفيره من طاقة حيوية لمواجهة هذا النمو الجسمى والعقلى . لدرجة أنه يصعب على كثير من الشباب أن يلبى جسمهم طلبات هذه المرحلة ، فيصابون مثلاً « بأنيميا المراهقة » وهى تدل على أن الجسم لا يستطيع دائماً مواجهة احتياجاته فى هذا المجال . طاقاتك الحيوية الموجودة لديك الآن تكفى عمليات النمو والدراسة وممارسة الرياضة بالإضافة إلى الأكل والشرب والنوم . لكنها لا تزيد عن ذلك بكثير . النشاط الجنسى يتطلب قدراً كبيراً من التركيز وكمية كبيرة من الطاقة . من أين تأتى بها ؟ لا بد أن يكون ذلك على حساب مجال آخر من مجالات حياتك لأنك لا تستطيع خلق المزيد من الطاقة من لا شئ .

ومن ناحية أخرى ، فإن الشاب الذى لا يفكر فى الموضوعات الجنسية تفكيراً مبالغاً فيه ، يجيد التركيز فى المذاكرة مثلاً ، وفى كل ما يقوم به بصورة عامة . لذلك عندما يحفظ موضوعاً يتذكره بعد ثلاثة أيام مثلاً ، وبعد شهر كامل يجد نفسه قد نسى ١٠٪ أو ١٥٪ منه فقط ، ويستعيد ذلك بمراجعة سريعة . أما الشاب الذى انصرف انتباهه وتركيزه إلى صور ومجلات وأفكار جنسية فإن مدى تركيزه غير كافٍ ، خاصة وهو يعيش فى حالة عدم الرضا عن نفسه وعن حياته . لذلك فإنه لا يصبر على المذاكرة ولا يركز فيها . عندما يحاول استرجاع المعلومة بعد أيام قليلة ، يجد أن ما تعلمه تبخر إلى الهواء وأنه لا يبقى منه إلا القليل جداً . يسبب له ذلك احباطاً شديداً لأنه يشعر

أن ليس هناك فائدة من المذاكرة وبذل المجهود ، ويؤدى هذا الإحباط إلى المزيد من البحث عن المواضيع الجنسية فى محاولة يائسة للتعويض والمواساة (عد إلى « التعويض ») . هل فقد هذا الشاب الذاكرة ؟ لا . ولكنه قطعاً فقد القدرة على استعمال ذاكرته استعمالاً جيداً . والدليل على أنه لم يفقد الذاكرة هو أنه إذا رأى صورة مثيرة جنسياً لن ينساها ، ويظل يتذكرها مدة طويلة جداً ...

كذلك وضع الشاب الذى يمارس رياضة ما . إن مستوى الأداء ينخفض ، لا شك فى ذلك . ولكن سبب هذا الانخفاض فى مستوى الأداء وفى الإنجاز ليس « لين العظام » أو ضعف تقلصات العضلات . السبب هو الإفراط فى ميزانية الطاقة الحيوية ، مضافاً إلى فقدان الحماس الطبيعي الذى يتمتع به الشاب الصحى الذى لا يمارس العادة السرية ، مضافاً إلى الإحباط الناتج عن عدم الرضا : عدم الرضا عن النفس وعدم الرضا عن الآخرين .

تقولون مراراً « ليس لدينا حل آخر لفك التوتر الجنسى الذى نعيشه » . هل هو صحيح أن اللجوء إلى العادة السرية يفك التوتر الجنسى ؟ تلى ممارسة العادة السرية فترة إجهاد وتعب جثمانى مصحوب بشئ من تأنيب الضمير . هذا الوضع يبعدك لفترة ما عن الاعتبارات الجنسية ، ولكن هذا ليس فك حقيقى للتوتر الجنسى . داخل كل منكم وبالرغم من صغر سنكم الجنسى إحساس قوى بحقيقة الجنس السليم الناضج واحتياجات الجنسى الناضج وأهداف الجنسى الناضج . لذلك فإن العادة السرية تشعرك فى نفس الوقت كم أنت بعيد عن هذه الاحتياجات الحقيقية والأهداف النبيلة ، مما يجعلك أكثر احتياجاً وأكثر اشتياقاً مما كنت عليه من قبل ، بعد انتهاء فترة التعب والاشمئزاز .

يجب أن نقارن هنا بين العادة السرية والإنماء الليلى التلقائى : فى الصباح التالى لإنماء تلقائى يتمتع الشاب بهدوء جنسى حقيقى ويشعر بسعادة ويفكر فى دراسته وهواياته وتبتسم له الحياة . يستطيع أن يستمر هذا الحال لمدة أيام . بالإضافة إلى هذا الشعور يكون الشاب قد

احتفظ بكامل طاقته الحيوية ، بل ويعطى الاتزان النفسى وتعطى السعادة شعوراً بمضاعفة هذه الطاقة وزيادتها .

هل ينطبق ما قلنا عن العادة السرية على العلاقات الجنسية الكاملة ؟ الإجابة مزدوجة : نعم ولا .

ولكن قبل أن شرح ما أقصده بنعم ولا ، أريد أن أقول الآتى :

إذا سألتك اليوم عن مرادف لكلمة « الجنس » ستكون إجابتك فى أغلب الأحيان : « المتعة » . إذا فرضنا وقبلت منك هذه الإجابة وسألتك : « متعة من » ؟ سوف تضحك وتقول : « متعتى أنا طبعاً ... متعة من إن لم تكن متعتى ؟ » . لكنك سوف تكتشف على مر السنين أن ممارسة الجنس يجب أن تكون مثل الحديث بين الحبيبين ، أى وسيلة لتبادل المشاعر والاشتراك فى التعبير عنها . وسوف تفهم عندئذ أن المتعة الحقيقية الناضجة ليست المتعة التى تأخذها أو تنهبها ، ولكنها المتعة التى تستطيع أن توفرها لشريكتك ، وتكون وقتئذ متعتك أنت نتيجة المتعة التى وفرتها وتتناسب معها .

لأفسر الآن إجابتى السابقة : نعم ولا .

نعم : فى بعض الأحيان لا يكون الفعل الجنسى سوى نوع من العادة السرية ، فى حالة اتمامه دون حب ودون عاطفة لاشباع غريزة بدائية حيوانية فقط .

لا : فى حالة شخصين يجمع بينهما حب حقيقى وعطاء متبادل . فى هذا الحال يكون قولنا عن الإنماء التلقائى أشبه وأقرب لهذا النوع من العلاقة الجنسية ، مضاعفاً عشرات بل مئات الأضعاف : يشعر الإنسان أنه مكبَّر معظَّم ، وأنه يمتلك العالم كله ، وليس هناك ما يصعب عليه إنجازه .

للعادة السرية أضرار نفسية وسيكولوجية [illegible] يجب أن نذكرها . الشاب السعيد المتزن الراضى يسلف كتبه وماله ، يحب الآخرين والآخرون يحبونه . أما الشاب الذى يعيش فى الخيال الجنسى ، فإنه ينطوى ويرفع الحواجز بينه وبين الآخرين . انتهت النظرة الطاهرة

الصريحة ، انتهت التصرفات النبيلة المبنية على الاهتمام بشئون ومصالح الغير ، انتهت التضحية فى سبيل إسعاد الآخرين . التوتر والعصبية يسودان العلاقات الاجتماعية ، وسرعان ما يعيش هذا الشاب نوعاً من العزلة الاجتماعية والعاطفية . سوف يؤدى هذا الوضع إلى الأنانية الحقيقية مستقبلاً إذا استمر قدراً طويلاً من الوقت .

لا شك فى أن أضرار العادة السرية تتناسب ومعدل ممارستها .

السؤال هنا دائماً : « ما هو المعدل الذى يمثل خطورة ؟ » .

هذا المعدل لا يمكن قياسه بعدد ما . الخطورة ناتجة عن الإفراط والإفراط شئ نسبى جداً . التفاوت الشخصى فى هذا المجال يجعلنا عاجزين عن تقديم أرقام . لكن هناك مبدءاً إذا التزمنا به ضمنا الحماية من أضرار العادة السرية : محاولة الامتناع عن ممارسة هذه العادة ، المحاولة المستمرة الصادقة المبنية على البحث عن طهارة الجسد وطهارة الروح والنفس ، النابعة من الإدراك وفهم ما هو الجنس على حقيقته ، هذه المحاولة الدائمة التى لا تعرف اليأس ولا تقبل الاستسلام للفشل ، تضمن لنا الحماية الكاملة من هذه الأضرار والمضاعفات :

أولاً : لأن هذا الشاب مهما كان ضعيفاً ومهما مارس العادة السرية ، محاولاته الدائمة تجعله لا يفرط فى طاقته الحيوية بطريقة خطيرة ولا يطالب أعضائه بما لا تستطيع القيام به .

ثانياً : الاستسلام يؤدى إلى التواء النظرة واعتبار المتعة الجنسية هى الهدف النهائى لممارسة الجنس . المحاولات المستمرة لمنع العادة السرية تحفظ الرؤية السليمة وتُحيى النظرة دائماً ، فتحفظنا من هذا الالتواء ، التواء المشاعر والتواء إدراك الأبعاد الحقيقية الجوهرية لكل ما هو جنسى .

بالنسبة للمرشد ، هذا الاجتماع من الاجتماعات المثيرة للغاية ، يوضع فى كثير من الأحيان من خلاله حجر الأساس لعلاقة شخصية قوية ومثمرة بينه وبين عدد كبير من الحاضرين .

ومن ناحية أخرى ، فإن الارتياح والسعادة التى يقرأها المرشد فى

عيون وعلى أوجه بعض الطلبة ، والتى سوف يرجعونها أنفسهم قولاً ، خلال الأيام التالية للاجتماع ، إلى الإحساس الرائع بأن هناك ، فى عالم البالغين ، من يشعر بمشاكلهم ، من يقدر جهودهم ، من لا يلومهم ولا يتهمهم بالقذارة بل يفسر لهم ما يحدث داخل أجسامهم وداخل قلوبهم ويقول لهم الكلمة المشجعة ويساعدهم على التغلب والسيطرة ، إن ملاحظة وسماع مثل هذه التعبيرات من ناحية الطلبة ، يمثل بالنسبة للمرشد ، ليس الدليل القاطع على نجاحه فحسب ، ولكن الدافع القوى الذى يغمر قلبه حباً ويضاعف قدرته وعزمه على العطاء ...

سوف يدرك القارئ تلقائياً أنه لا يكفى أن يكون المرشد طبيباً مثلاً لكى يقود مثل هذا الاجتماع . يجب أن يكون قائد هذا اللقاء ملماً بعلم النفس وأن يكون أيضاً مربياً ماهراً ، حتى يوصل إلى الحاضرين أبعاداً لا يتخيلون وجودها وذلك بهدف إشعال الرغبة فى البحث ، الرغبة فى الفهم ، الرغبة فى السؤال ، وأخيراً الرغبة فى التقدم ومعرفة الذات والسيطرة عليها ، حتى يستثمر كل منهم كامل إمكاناته وطاقاته . إن الاحتياج إلى مثل هذا المرشد سيكون أكثر ضرورة فيما يخص اللقاءات القادمة .

الشباب ذوى الـ ١٦ سنة

الموضوع : من البلوغ إلى النضج الجسنى الكامل .

ويفضل متابعة ما يلى بمساعدة الجدول المرفق .

الأهداف الأساسية والأفكار الهامة :

١ – كل منا يعيش خلال نموه من البلوغ حتى يصل إلى النضج الجنسى الكامل نفس الخطوات التى عاشتها بعض الكائنات الحية سبقتنا وجوداً على سطح الأرض ، أى ، وفى حالة تقبلنا لمبدأ التطور : تكوين الفرد يعيد خطوات تكوين فصيلته Ontogeny repeats Phylogeny. على المرشد أن يلجأ هنا إلى استعمال كلمة ومفهوم « التطور » ، أو استبدال هذا المبدأ بفكرة تسلسل ظهور مختلف الكائنات على سطح الأرض التى أشرنا إليها سابقاً .

٢– ليس اجبارياً أن يصل كل منا إلى النضج الجنسى الكامل النهائى . النضج الجنسى الكامل غير مرتبط بعامل السن .

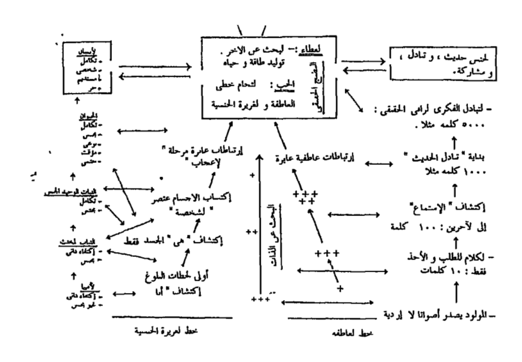
٣– يمكن فيما يتعلق بالتصرفات الخاصة بالموضوعات الجنسية أخذ قرارات وتحديد تصرفات تابعة لمستوى من النضج يفوق المستوى الذى وصلنا إليه حقيقة ، وذلك عن طريق العلم والفهم والإدراك والإرادة .

٤– فى حالة وصولنا إلى النضج الكامل ، وهذا يعنى أننا أصبحنا قادرين على الحب الحقيقى والانتماء والعطاء يكون :

أ – العطاء تلقائياً وغير ناتج عن قرار .

ب – الإخلاص تلقائياً وغير ناتج عن قرار .

جـ– لا مكان للأنانية – أو سوف يسهل التغلب عليها .



٥- ممارسة الجنس عبارة عن نوع من الحديث ونوع من التبادل . مستوى هذا التبادل يتوقف على الثروة الروحية والنفسية لدى كل من الحبيبين . لا يعطى شيئاً فاقده .

٦-الإشارة إلى الفروق السيكولوچى بين الولد والبنت وتوضيحها .

اللقاء : يفضل وجود سبورة بالقاعة لمتابعة تطور الموضوع بنقل الجدول المرفق أثناء اللقاء . مراجعة لقاء الشباب ذوى الـ ١٤ - سنة تتم وفقاً للعمود الأيسر على جدولنا . ثم : نحاول الآن متابعة الشاب خطوة بعد الأخرى من لحظة البلوغ حتى وصوله للنضج الكامل :

لنبدأ بملاحظة هذا الشاب فى أولى لحظات البلوغ :

إنه يمر بتجربة الانتصاب الأول والقذف الأول . الانتعاظ الأول يحدث له دون أن يكون بحث عنه ولا أراده بطريقة ما . إن هذا كله محير للغاية ، ويجعل الشاب يتساءل ويقلق إلى حد ما . خاصة وكان هذا الشاب لحين هذه اللحظة يظن أنه يعرف نفسه تماماً ، ولم يكن يتوقع مفاجآت مثل هذه . تدور وقتئذ كل تساؤلاته حول نفسه ونفسه فقط . أولى لحظات البلوغ هى لحظات خاصة بالتساؤل عن الذات والذات فقط .

لكن هذا الوضع لا يطول وسرعان ما يدرك الشاب أن ما هو خاص بالجنس ليس خاصاً به هو وحده ولكن الجنس مرتبط بوجود جنس آخر . هذا الإدراك يوصله إلى اكتشاف « المرأة » . لكن ، عند هذا الحد من نموه ، هو جسد المرأة وجسدها فقط الذى يثير اهتمامه وتساؤلاته : اهتمامه كله منصب فى جسد المرأة وكل الأجسام تمثل بالنسبة له نفس الأهمية .

بدءاً من هذه اللحظة ، تأخذ العاطفة تتدخل فى الموضوع ، بعد أن كانت تسلك طريقاً مستقلاً بعيداً عن الاعتبارات الجنسية تماماً (وإن كان هنا استعمال كلمة « تماماً » مبالغاً فيه نوعاً ما ...) . الدافع الجنسى البدائى الغريزى القوى يكتسب شيئاً من الرقى والتميز . النتيجة

الفورية لتدخل العاطفة هى اكتساب جسم المرأة بُعْد « الشخصية » . بعد أن كانت المرأة جسداً فحسب ، تصبح لها « اسم » بدءاً من هذه اللحظة وستصبح « فلانة » . ويجوز للشاب من هذه اللحظة أن يفضل صحبة بنت أقل جمالاً وأقل جاذبية جسمية جنسية بحتة ، لمجرد أنها رفعية المشاعر رقيقية العواطف ... الخ .

يقع الشاب أثناء هذه الفترة فى حب الحب : اى انه يشعر بإمكانية الارتباط العاطفى ويريد ممارسة هذه الإمكانية الجديدة . لكننا لا نريد – لأسباب نتكلم عنها فيما بعد – أن نسمى هذا النوع من الارتباط العاطفى « بالحب » وسنطلق عليه مؤقتاً اسم « الإعجاب » . يُعجب إذاً الشاب ببنت معينة من البنات اللاتى تعرف عليهن ، وتشغل هذه البنت عقله وقلبه ، وتملأ حياته كلها . نحن لا نريد أن يكون لكلمة « إعجاب » رنين سلبى فى نفوسكم . إن الاعجاب الذى يعيشه الشاب فى هذه الفترة شعور قوى جداً وصادق للغاية . إننا نسميه « إعجاب » لسبب واحد فقط ، هو أن مصير هذا الشعور هو أن ينتهى وألا يدوم ولا يستمر

فعلاً : لم يمضِ عليه إلا بضعة شهور – أو فترة ما من الزمن – ويكتشف الشاب أن شعوره هذا أخذ يفتر تدريجياً . يكتشف أن البنت التى كانت تملأ آفاقه تحولت تدريجياً إلى أخت بعد أن كانت حبيبة ، ويكتشف أن هناك بنت أخرى ، ربما كان يعرفها من زمن طويل وربما تعرف عليها أخيراً فقط ، صعدت فى آفاق عاطفته وأخذت تشغل المكان المفضل ، الأول والوحيد فى ذهنه وفى قلبه . هل يكون هذا الإعجاب نهائياً هذه المرة ؟ لا ... أو على الأقل : نادراً ما يكون . فى أغلب الأحيان يكون مصير الإعجاب الثانى هو نفس مصير الاعجاب الأول وتليهما عدة ارتباطات عاطفية يشعر الشاب من خلالها ، وفى كل مرة ، أنه اكتشف الحب النهائى . عدم ثبات العاطفة وانتقالها من مركز اهتمام إلى مركز اهتمام آخر يفسَّر بما يلى :

منذ لحظة البلوغ والتساؤلات الأولى عن نفسه وعن الجنس عموماً وحتى هذه اللحظة ، أى مرحلة « الإعجاب » والارتباطات العاطفية

الخاطفة المتكررة ، لم يسلك الشاب سوى طريق واحد ، وهو البحث عن شخصيته الجديدة ، البحث عن قواعد العلاقات العاطفية الجنسية ، البحث عن مدى تأثير الجنس الآخر عليه ومدى تأثيره هو على الجنسى الآخر ، أى البحث عن ذاته وذاته فقط . سواء مارس العادة السرية وسواء لم يمارسها ، سواء عبّر للبنات عن إعجابه بهن أو سواء امتنع عن هذا التعبير ، ففى كل هذه الحالات ما قام به الشاب ليس سوى :

– التساؤل عن نفسه وعن الآخرين .

– إجراء التجارب العاطفية فى سبيل محاولة فهم نفسه وفهم الآخرين .

وكانت « نفسه » هى دائماً مصدر اهتمامه الرئيسى وليس الطرف الآخر . فى حالة ممارسة العادة السرية ، فإن الخيال لعب دور « المخرج السينمائى » وأتاح له فرصة إجراء بعض التجارب الجنسية . فى حالة اختلاطه بنساء –عاهرات كانت أو غيرها – فإنه مارس ذلك عن فضول أو بحثاً عن متعته الشخصية ، وليس اهتماماً بالشخص الذى أمامه .

ثم يكتشف أنه معجب ببنت ، وحيث أنه يشعر أنه يحترمها فيما يخص المجال الجنسى الجسدى البحت ، فإنه يظن أن هذا الإعجاب عبارة عن حب حقيقى . لكن ما هذا إلا استمرار التجارب التى يجريها الشاب، **ولكنه يجريها فى هذه المرة على مستوى العواطف وليس على المستوى الجسدى الصرف** . نقل حقل التجارب من المستوى الجسدى إلى المستوى العاطفى لا يغير شيئاً من حقيقة الأمر : هذا الشاب يستمر فى البحث عن ذاته ، أى أنه يعيش مرحلة « أخذ » وليس مرحلة « عطاء » وذلك بالرغم من أن العطاء أخذ يظهر أو على الأقل أن التجربة أثبتت له ضرورة إضافة قدر معين من العطاء إلى جانب الأخذ .

أما انتقال إعجابه هذا من بنت إلى أخرى ، فهذا يعود إلى أن كل بنت منهن تمثل بالنسبة له تجربة مختلفة عن باقى البنات . فإذا ارتبط عاطفياً ببنت ما لمدة كافية ليعرفها ويحدد بدقة وضعه بالنسبة لها ، ثم

لاحظ أن هناك بنت أخرى تمثل بالنسبة له ما هو جديد ومجهول ، فلا بد أن يتجه اهتمامه العاطفى إلى ما هو يمثل توسيعاً لحقل تجاربه العاطفية .

الشاب الذى لا يعيش فى واقع حياته كل الخطوات التى سبق وصفها ، يعيشها فى خياله على الأقل ...

تتكرر هذه العملية حتى يأتى اليوم – إذا أتى هذا اليوم ، وهذا ليس حتمى بالنسبة للجميع – الذى يكون الشاب حدد فيه موقفه تماماً من كل هذه العناصر الجديدة التى ظهرت فى حياته منذ لحظة بلوغه : العاطفة والدافع الجنسى . يكون قد عرف نفسه وعرف الآخرين ، ولا تمثل الاكتشافات الجديدة من جمال وشخصيات جاذبية كافية لتصرف نظره عن ارتباطه الحالى إن وجد . بدءاً من هذه اللحظة تنعكس الأوضاع ويتغلب العطاء على الأخذ ويصبح الشاب قادراً على الاهتمام بالشخص المحبوب بهدف المساهمة فى أن يحقق هذا الشخص ذاته ، وليس بحثاً عن نفسه فقط ، أى أنه يصبح قادراً على المشاركة الحقيقية والحب الحقيقى الناضج . وعندما يقع بعد ذلك فى هذا الحب الحقيقى ، لا يقع فيه بحثاً عن الجديد أو بحثاً عما يستطيع أن يأخذه ويستفيد منه من خلال هذه العلاقة ، ولكن إحساساً بما يستطيع أن يقدمه لإسعاد الشخص المحبوب . فرق جذرى إذا بين الإعجاب والحب .

الوصول إلى هذه الدرجة من النضج الجنسى يعنى الوصول إلى التحام العاطفة والدافع الجنسى ، وتركيزهما فى شخص واحد ، حيث أن الرجل الناضج فعلاً ، القادر على الحب الحقيقى ، لا يرتبط عاطفياً إلا بالسيدة التى تجذبه جنسياً ، ولا ينجذب جنسياً إلا تجاه السيدة التى يشعر تجاهها بجاذبية عاطفية . النضج الجنسى الكامل هو التقاء عنصرىْ الحب– الدافع الجنس والعاطفة – بعد أن كان يسلك كل منهما مسلكاً مستقلاً خاصاً به أثناء فترة المراهقة .

يجب أن نلاحظ هنا ما يلى : الخطوات التى سبق وصفها هى الخطوات السيكولوچية التى يسلكها الشاب خلال فترة المراهقة . إنها

تشير إلى حالة نفسية ، ولا تمثل وصفاً لواقع تصرفات كل شاب خلال هذه الفترة . أما فيما يخص ما يجب أن تكون تصرفات الشاب خلال فترة المراهقة فهذا موضوع مناقشة اللقاء القادم الذى يتولى موضوع الحب وعلاقات الشباب أثناء هذه الفترة ، فترة المراهقة .

السؤال الحتمى عند هذه المرحلة من اللقاء والذى سأله الشباب فى كل مرة بدون استثناء والذى تردد بعد ذلك فى المقابلات الشخصية هو الآتى : « كيف نستطيع أن نعرف إذا كانت العاطفة التى نشعر بها حالياً مجرد إعجاب مصيره أن ينتهى فى يوم من الأيام ، أو إذا كانت حباً حقيقياً ؟ » .

بالرغم من أن الإجابة عن هذا السؤال سهلة جداً بل وبديهية ، يجب أن نكررها بضعة مرات لأنها غير مقبولة لدى الشباب بسبب عدم اتفاقها والاستعجال المستمر الذى يخص هذا السن .

«المتفرج الذى ينظر لأفعالك ولتصرفاتك يستطيع أن يقدر درجة النضج التى حققتها عن طريق تقدير مدى « أخذك » ومدى «عطائك » . أما أنت فلا تستطيع أن تعرف إذا كان هذا إعجاباً أو حباً حقيقياً . الزمن – الوقت – وحده هو الذى سيبين ذلك. لكن هناك أدلة مبدائية تشير إلى أن هذا الشعور إعجاب وليس حباً :

– كم من البالغين حولك الذين تزوجوا فى سن الخامسة أو الثامنة والعشرين من عمرهم تزوجوا حبهم الأول أو ارتباطهم العاطفى الذى عاشوه فى الخامسة أو السابعة عشرة من عمرهم ؟ .

– ما هو عدد الشباب حولك الذى ما زال مرتبطاً عاطفياً بنفس البنت منذ سنتين أو أكثر ؟

السؤال الثانى الذى يتردد باستمرار هو الآتى : « هل الوصول إلى النضج الكامل هو قاعدة للجميع ، وما هو سن النضج الكامل ؟ » .

هناك مثال لرجل الأعمال الذى يسافر مرة كل سنة إلى الخارج لسبب ما . هذا الرجل ، أثناء وجوده فى مدينته ، أى فى وسط عائلته ومعارفه ، سليم التصرف ، حريص على ألا يفعل ما قد يسيئ إلى

زوجته أو أولاده . إذا سافر هذا الرجل ، فهو لا يمانع أن « يلهو » طالما ضمن أن هذا التصرف بعيد عن معرفة زوجته وعائلته وأقاربه ، وإذا سألته :

– « هل تحب زوجتك ؟ » .

– « نعم . طبعاً أنا أحب زوجتي ! » .

– « إذا كنت تحبها حقاً فكيف تستطيع ان تخونها بمثل هذه البساطة ، ويكفيك فقط ألا تعرف زوجتك ما يحدث ؟ » .

– « ما دخل هذا بذاك : أنا حقاً أحب زوجتي . أما السيدات اللاتي أقابلهن في الخارج ، فهن للمتعة فقط ولا تمثلن أي شيء بالنسبة إلي » .

قد يكون هذا الرجل في الخامسة والأربعين أو في الخمسين من عمره ، هذا لا يهم . ما يهمنا هو أنه من الواضح جداً أن بالنسبة لهذا الرجل العاطفة والدافع الجنسي ما زالا يسلكان مسلكين مستقلين ، وهو إذا رجل غير ناضج .

سأل كثير من الشباب السؤال الآتي : « ماذا إذا كنتُ أنا من هؤلاء الذين لم يُكتَب لهم النضج الكامل ؟ » كيف أتصرف في هذا المجال وكيف أدير احتياجاتي الجنسية الغير ناضجة ؟ .

إن إجابتي عن هذا السؤال كانت دائماً كالآتي :

« على العقل والمعرفة والإرادة والتصميم أن يسدوا ثغرات الطبيعية . إذا قرأت وسألت وفهمت وأدركت ثم أردت ، تستطيع – في ظروف معينة – أن تتخذ القرارات وأن تحدد التصرفات التي كنت اخترتها تلقائياً لو كنت حققت طبيعياً نضجاً كافٍ لتكون هذه هي تصرفاتك الطبيعية التلقائية . أليس هذا في الواقع ما نقوم به في كل مرة نحاول فيها أن نتغلب على أنانيتنا وبحثنا عن ذاتنا ؟ أليست هذه سيادة العقل والمنطق والتفكير والعلم والإرادة والتصميم على دوافع الغريزة البدائية الأولية ؟ « الرحمة فوق العدل » أو : « أحبوا أعداءكم » : ماذا تعني هذه المبادئ النبيلة السامية ؟ كيف أستطيع أن أكون رحيماً تجاه من ظلمني

فى حقوقى وكيف أستطيع أن أحب من اعتدى علىّ ؟ من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تكون مثل هذه التصرفات تلقائية . التصرف الغريزى يكون على عكس ذلك تماماً . لكن هذه المبادئ تعنى أننى أستطيع - إذا أردت وإذا استطعت أن أتغلب على دوافع الغريزة البدائية - أن أتخذ قرار التصرف كما لو كنت أتمتع بالرحمة التلقائية أو كما لو كنت قادراً على الحب الحقيقى المثالى والتسامح التلقائى : **وهذا هو مفهوم « التحرر التدريجى » بعينه ».**

هناك إذاً إلى جانب التصرفات التلقائية الغريزية ، مجموعة من التصرفات يمكن أن يمليها علينا العقل ، وهى مبينة على العلم والإرادة .

أما بالنسبة للبنت ، فإنها تسلك نمواً موازياً لنمو الولد . اكتشفت البنت « الأنوثة » وهى الآن تريد أن تمارس أنوثتها ولا تبالى بتأثر هذا التصرف على الشباب . والسبب الرئيسى فى ذلك هو أنها لا تدرك ما هو هذا التأثير بالضبط . سوف يحطم بحثها عن نفسها بعض القلوب دون أن يؤنبها ضميرها على ذلك .

يتغلب لدى البنت خط العاطفة على خط الدافع الجنسى الغريزى ، ولذلك فإنها تعرف كيف تصون جسمها منتظرة « الحب الكبير » الذى تشعر فى قرارة نفسها أنها خُلِقت من أجله . هذا لا يمنع أنها ستفضل شاباً على باقى الشبان الذين يحيطون بها ، وهذا لا يمنع أن تنتقل عواطفها من شاب إلى آخر ، لفترة ما ، حتى تنهى هى الأخرى بحثها عن ذاتها وتصبح قادرة على العطاء الحقيقى والحب الناضج .

يمكن أن يذكر المرشد الحاضرين بما قيل فى الاجتماعات السابقة لهذا اللقاء فيما يخص الفروق السيكولوچية بين المراهق والمراهقة .

لنحاول الآن أن نقارن بين الطرق المختلفة للإنجاب والتكاثر من الأميبا حتى الإنسان (العمود على اليسار فى جدولنا) وبين خطوات نمو الإنسان من لحظة البلوغ حتى النضج الكامل (الهرم الأوسط فى جدولنا) .

تركيز الشاب فى اللحظات الأولى التى تلى البلوغ منصب على جسمه والتغييرات التى تحدث فيه . بهذا المفهوم يمكن اعتباره يتمتع باكتفاء ذاتى ، ويكاد يكون وحيد الجنس أو غير مجنس بمعنى أنه لم يكتشف بعد أهمية الجنس الآخر . ثم يمر باكتشافه للجنس الآخر وبمرحلة يقوم فيها الخيال الجنسى باللازم لكى يلبى احتياجاته . نستطيع أن نعتبره ما زال يتمتع بنوع من الاكتفاء الذاتى ، ولكنه أصبح الآن مجنساً تماماً .

يزداد تدريجياً الاحتياج إلى التكامل لدرجة تجعل الخيال غير كاف لتلبية هذا الاحتياج الجنسى . حياة الشاب منذ هذه اللحظة مبنية على التكامل المجنس .

لكن : حيث أن المرأة موجودة فى حياة هذا الشاب كجسم فقط . فإن هذا البُعْد الجنسى ما زال نوعياً . العلاقة الشخصية لم تظهر بعد .

مع ازدياد أهمية العاطفة و « تشخيص » الأجسام النسائية يصبح الشاب قادراً على التكامل المجنس الشخصى . ولكن ، فى أول الأمر ، تكون هذه العلاقة مؤقتة ، ولا تتلون بلون الاستمرارية والدوام . الغريزة – الجزء الجنسى منها والجزء العاطفى – والبحث عن الذات ما زالا سائدين على علاقاته .

ثم يصل الشاب أخيراً إلى مرحلة النضج الكامل ، مرحلة القدرة على العطاء والحب الحقيقى ، ويصبح قادراً على علاقة جنسية – عاطفية مبنية على التكامل المجنس الشخصى المستديم . كأنه أعاد لحسابه الخاص المراحل الخاصة بالأميبا ثم النباتات ثم الحيوان ، قبل أن يكتسب صفاته الإنسانية الراقية النهائية .

« ما هو الجنس بالنسبة لهذا الإنسان الناضج ؟ » هل هو احتياج عضوى مثل الاحتياج إلى الأكل والشرب النوم ؟ أم مجرد متعة يريد اشباعها أو توتر نفسى وجسدى يريد فكه ؟ لا . بالنسبة لهذا الإنسان الناضج ، الجنس عبارة عن وسيلة تعبير فى إطار التبادل العاطفى الموجود بينه وبين امرأة فريدة بالنسبة له وهى المرأة التى يحبها .

يكون الجنس بالنسبة لهذا الرجل – نتيجة لما سبق قوله – المرآة الصادقة التى تنعكس فيها نوعية العلاقة العاطفية والإنسانية التى تربط بينه وبين المرأة المحبوبة . لدرجة أن يمكننا اعتبار الحياة الجنسية هى الحارس والضامن لصدق المشاعر : يستطيع المرء أن يكذب بلسانه وأن يقول « أحبك » أو يعبر عن هذا الكذب بالهدايا ... إلخ ، ولكنه لا يستطيع أن يكذب بجسمه ، ولا يستطيع أن يجبره بارادته على أن يعبر عما لا يشعر به فى قراراة قلبه قرارة نفسه . إن كذبت الألسنة ، عجزت الأجسام عن الكذب . **هذه النقطة ذات أهمية كبيرة لأنها تمثل الإثبات السيكولوچى لكل ما سبق قوله بخصوص الرجل الناضج ، وهذا صحيح بالنسبة لكلا الجنسين .**

· الجنس « وسيلة تعبير » عن المشاعر والعواطف لدرجة تمكننا من المقارنة بين نمو إمكانية الحديث لدى المولود الصغير ونمو البُعْد الجنسى لدى المراهق (العمود الأيمن فى جدولنا) .

يصدر المولود الجديد أصواتاً عشوائية دون أن يتحكم فيها .

ثم يكتشف أن فى إمكانه التحكم فى هذه الأصوات ، وأولى الحروف التى يشكلها هى حرف « الباء » فيقول « بابا » لأنه لا يستطيع أن يقول سوى ذلك فى بادئ الأمر ، مما يفرح الأب كثيراً لأنه يظن أن ابنه يناديه .

يكتشف بعد ذلك الطفل أن الأصوات تحمل معانى . صوت معين يوفر له الشراب وصوت آخر يوفر له الطعام .

أثناء هذه المرحلة :

أ– يملك الطفل قاموساً محدوداً جداً : بضعة كلمات ليس أكثر .

ب– لا يستعمل هذا القاموس إلا للأخذ والاستفادة فقط . إنه لا يعبر عن نفسه بالكلام إلا للطلب فقط .

ثم يكتشف الطفل أن الآخرين يتكلمون أيضاً ويتعلم كيف يستمع إليهم . هذه بداية اكتشاف الوجود اللغوى للآخرين . يصبح الطفل بدءاً

من هذه اللحظة قادراً على « تبادل الحديث » ، مستعماً ، ثم متحدثاً ، ثم مستمعاً للإجابة ... ثم متحدثاً ... الخ .

يتمتع الطفل الصغير بقدر من المعلومات ومن النضج الذهنى والعقلى يجعله يكتفى بقاموس يحتوى على مائتى كلمة مثلاً . إنه يكتفى بهذا العدد من الكلمات ، ويراها كافية جداً وهو فعلاً كذلك بالنسبة للوقت الحاضر . إنه يتحدث ليسأل وليفهم وليطلب وليستفيد : أى أنه ما زال يتحدث « ليأخذ » فقط وليس « ليعطى » .

ثم يكبر الطفل ويصبح شاباً فى المرحلة الثانوية ، أو طالباً جامعياً : ازدادت معلوماته ونضج بالنسبة لما كان عليه منذ بضعة سنوات مضت . مائتى كلمة لا تكفيه الآن . إنه يحتاج لقاموس يشمل ألف كلمة مثلاً . ازداد حديثه عمقاً ووزناً وأصبح قادراً على التبادل الفكرى الحقيقى . إنه الآن لا يتحدث « ليأخذ » فقط ، ولكنه أخذ يتحدث « ليعطى » أيضاً ويفيد الآخرين بمعلوماته وأفكاره وشخصيته . التبادل الفكرى ، هذا التيار العقلى والذهنى الذى يحمله الحديث وينقله من إنسان إلى آخر ، يوفر له الكثير من السعادة ومن المتعة . لذلك ، فإنه يختار بعناية المتحدث إليه – الطرف الآخر للتبادل الذهنى – بعد أن كان فى أول الأمر يقبل الحديث مع أى شخص بدون استثناء أو تمييز . يجب الآن أن يكون للمتحدث صفات وإمكانات محددة حتى يكون تبادل الحديث معه ممتعاً مثمراً .

يظن ذلك الشاب أنه حقق المرحلة الأخيرة من نموه الذهنى والعقلى . هذا غير صحيح . تمر به السنوات ويصبح رجلاً كاملاً – متخصصاً أو ذا معرفة متشعبة – وفى هذه الحالة نجد :

أ– أنه يحتاج لخمسة ألف كلمة حتى يستطيع أن يعبر عن نفسه كما يشاء .

ب– وأنه يحتاج إلى لقاء أشخاص يتمتعون بنفس درجة النضج أو نفس درجة العلم أو التخصص حتى يستطيع تبادل الحديث معهم . وإلا فما فائدة قاموسه الواسع ؟

جـ- وسوف يوفر له هذا التبادل مع هؤلاء الذين اختارهم ليتبادل الحديث معهم متعة وسعادة لا يعرفونها ولا يقدرونها سوى الذين عاشوها وشعروا بها . إنه حقاً يعطى بقدر ما يأخذ أو بالأصح بقدر ما يجد ، لأنه لا يفكر فى الأخذ ولكن فى تبادل الحديث فقط ، ويكون هذا التبادل بالنسبة له مصدراً لقوة تشجعه وتدفعه إلى الأمام ، إلى المزيد من المعرفة والتبادل والنضج .

أليست بعد ذلك المقارنة بين خطوات نمو القدرة على الحديث ونمو النضج الجنس واضحة للغاية ؟ .

١- الشاب فى اللحظات الأولى من بلوغه مثل الطفل الذى يصدر أصواتاً عشوائية : اكتشف الاثنان عضواً جديداً ويحاولان استعماله .

٢- إذا مارس هذا الشاب العادة السرية فإنه مثل الطفل الصغير النائم فى فراشه الذى « يكلم نفسه » . (لا يوجد أحد يفتخر بأنه يكلم نفسه) .

٣- عندما يكتشف البُعْد الشخصى للمرأة يبدأ هذا الشاب « الاستماع » إلى الطرف الآخر ، وهذه نقطة بداية إمكانية « الحديث » الجنسى الحقيقى . ولكنه حتى هذه اللحظة يتحدث ليثبت نفسه جنسياً ، ليتناقش مع أصدقائه أو ليفرض نفسه عليهم . هذا النوع من الحديث لا يمثل « تبادلاً » حقيقياً بعد بل نوع من المبارزة .

٤- يزداد هذا الشاب نضجاً ويكبر معه قاموسه الجنسى الاجتماعى . بعد أن كان يتحدث فى هذا المجال ليأخذ فقط ، يصبح قادراً على العطاء أيضاً .

٥- وإذا وصل إلى النضج الجنسى الكامل يمتلك وقتئذ قدراً من « الكلمات » أى عدداً من وسائل التعبير ورقة المشاعر يجعله :

أولاً : يبحث عن السيدة التى - وهى وحدها دون غيرها - تشاركه فى هذا القدر الواسع من الثروة الداخلية ، و« تتبادل معه الحديث » .

ثانياً : إذا وجدها وعاش معها هذا الحب ، فإن عطاءهما المتبادل

يكبر معهما ويكبرهما معه ، فيشعران وكأنهما يملكان العالـم حقاً .

إن المبـادئ الكبيـرة والأفكار النبيلة التـى تركت بصـمـتهـا على العـالم ليسـت أخيراً إلا التعبير الصـادق لأعمـق قواعـد سيكولوچيـة الإنسـان : « ليس هناك أجمل من أن يضحى الإنسـان بحياته مـن أجل الآخرين » : لا تعبر هذه الجملة إلا على السيطرة على غريزة البقاء وقبول التضحية حتـى الموت مـن أجل حيـاة وازدهـار وسـعـادة وهـنـاء الآخـرين . « الحب ليس أن ينظر كل من الحبيبين فى عيون الآخر ، ولكن أن ينظر كلاهما فـى اتجـاه واحـد » . حـقاً : فـقـط إذا تقـابـلـت شـخـصيـتان أنانيـتـان يتم انطوائهما وإقامة الحواجز بينها وبين العامل . أما الحب الحقيقى فإنه يزيل الحواجـز بين الحبيبين والعـالم ويزيد من تفتحهما واتصالـهما به حتى يكاد يصبح الإنسـان الذى يحب « مـشعاً » بهذا الإشعـاع المميـز لعطائه الحقيقى .

يبين هذا اللقاء إمكانية توزيع محتويات أى اجتماع على عدة لقاءات أو علـى عـام دراسـى كـامـل . فى هـذا الـحـال يحظـر من « إذابـة » الأهـداف العامة وفقدان وحدة الموضـوع ككل .

يمـكن بـالإضـافـة إلـى تقـديم المـعلـومـة أن يـقـابل الـشـبـاب بـالـغين مـخـتلفين ، تزوجوا منذ عدد مـختلـف من السـنوات ، وكذلك مـطلقين أو أرامل مـثـلاً ، حـتـى تكـون خبـرتهـم بالمـعلـومـات ليسـت خـبـرة نظـرية فحسب ، ولكنهـا خبرة تمر على قدر الإمكان بالقنوات الحسـية المباشرة أيضاً .

الشباب ذوى الـ ١٧ سنة

الموضوع : الحب :

كـتب فى هـذا الموضـوع ما يـكفى لمـلء أرفف الـعديـد من المكـتبـات . نحن إذاً لا ندعـى إحضـار مـا هو جديد ، ولكن الإشـارة فقط إلى مـا رأيناه يهم ويشـغل الشباب ، وكذلك ما رأيناه من المهم أن يدركه ويفهمه الشاب جيداً .

من المهم أثناء هـذا اللقاء أن يشـجع المرشـد الحاضـرين على المنـاقشة

الكثير والتعبير الصريح عما يشغل أذهانهم ، وعليه أثناء الإجابة على الأسئلة والمناقشة أن ينتهز الفرص لكى يوضح ويشير إلى النقاط التى وضعها أهدافاً تربوية للقاء .

« ما هو الحب ؟ » الحب المعنى هنا هو بالطبع الحب الطبيعى التلقائى الذى يشعر به جنس تجاه الجنس الآخر .

اخترنا للحب التعريف الذى عرفه به العالم « أزوالد شوارتز » للفيلسوف الإغريقى « أفلاطون » وهو :

« الحب هو إدراك فجائى لحقيقة (لواقع) الشخص المحبوب . ليس حقيقته الظاهرة فقط ، ولكن إدراك عميق لإمكاناته وثرواته حتى الكامنة منها التى لم يتم استثمارها ولا ازدهارها بعد ... » .

. تعريف ملئ بالمعانى ، تعريف تترتب عليه نتائج كثيرة .

أولاً : هذه الثروة وهذه الإمكانات المدفونة فى أعماق شخصية المحبوب والتى لا تظهر إلا للحبيب ، هى التى تجعل الرجل إذا سؤل عن حبيبته « ماذا تجد فيها ؟ » يجيب : « إنكم تتعجبون لأنكم لا تعرفونها ... » .

ثانياً : حيث أن الحب ليس تقديراً للجمال أو للذكاء أو أية من هذه الأبعاد الواضحة التى تعطى المرأة قيمتها « بالمقارنة بغيرها » ، إننا نستطيع أن نقول أن كلما تحدى الحب المنطق والعقل والتحليل كلما ازدادت احتمالات صحته وصوابه .

ثالثاً : يمكن أن يحب الرجل زوجته وأولاده وعمله وبلده كلهم فى وقت واحد . ينطبق التعريف الذى أعطيناه على كل هذه الأنواع من الحب . وكل منهم فريد من نوعه ولا يتعارض والأنواع الأخرى .

رابعاً : حب الرجل لامرأة ما يخلق بينهما علاقة فريدة لا يستطيع أن يعيشها هذا الرجل مع امرأتين فى نفس الوقت . إن الحب يجند كل قدرات وكل طاقات الحبيب ويركزها على شخص واحد فقط .

خامساً : حيث أن الحب يجند كل طاقات وكل إمكانات شخصية الحبيب ، لذلك فالشخص الذى يحب يشعر أن حبه ذلك أكبر وأقوى ما يكون . نسبية هذا الشعور واضحة . فى الواقع : قد يكون الحب كبيراً أو صغيراً ، ضعيفاً أو قوياً ، غنياً أو فقيراً حسب إمكانات وطاقات الشخص الذى يعيش هذا الحب ، بالرغم من شعوره الشخصى بأنه أكمل ما يكون .

سادساً : الحب يفترض الاستمرار والدوام ، هل نتخيل رجل يقول لامرأة « أحبك لمدة ستة أشهر » ؟ .

سابعاً : يتطلب الحب التبادل . الحب خلاق . وبهذا المعنى فإنه يميل إلى مساعدة الشخص المحبوب على تحقيق كل إمكاناته الكامنة فيه . لكنه يحتاج فى نفس الوقت إلى ما يغذيه ويمده بالطاقة التى يحتاجها وإلا مات ... إذا كف أحد الحبيبين عن قبول عطاء الآخر بمعنى انه رفض تأثير حب الآخر عليه ، أو إذا كف أحد الحبيبين عن العطاء ومحاولة مساعدة الآخر على تحقيق ذاته ، مات الحب وانتهى .

ثامناً : الحب دائماً مطابق للتعريف الذى أعطيناه . والحب لا يخطئ . أما الحبيب فهو بشر والبشر فى إمكانه أن يخطئ . قد يحدث أن يكتشف الحبيب فى يوم من الأيام أن ما ظنه حقيقة فى الإنسان المحبوب ليست حقيقته ، وأنه أخطأ فى إدراكه لهذا الشخص . إنه كان يحب خلال هذه الفترة ثمرة خياله فحسب .

تاسعاً : شدة الحب واستمراره مبنيان على نموه وديناميكيته . لذلك ، لا يستطيع الحب أن يتجمد فى مرحلة ما . الحب الذى لا ينمو ، الحب الذى لا ينتج عنه مزيد من تحقيق الذات لكلا الحبيبين ، حب فى خطواته إلى الموت إن لم يكن قد مات ... الحب الاستاتيكى عبارة عز حب غرز فى رمال المساومة .

عاشراً : إنه من الخرافى أن نظنّ أن العطاء فى إطار الحب سهل وممتع . العطاء فى الحب تلقائى . نعم . ولكن ليس دائماً سهلاً ولا دائماً ممتعاً . العطاء عبارة عن الصعود إلى ما هو أعلى وأسمى من الأنانية

وتحقيق طلبات الغريزة . بهذا المعنى فإن كل عطاء نمو . لا يوجد نمو بدون آلام . التضحية والمساومة والانتباه إلى احتياجات الآخر مما يسبب الكثير من الفرحة والسعادة ، ولكنها ليست من الإنجازات السهلة البديهية ، بل هى من الإنجازات التى ، حتى فى إطار الحب الحقيقى ، تتطلب تدخل الإرادة للتغلب على البحث عن الذات لصالح البحث عن الآخر . ليس هناك ما يمنع أن ترتبط أكبر سعادة بأكبر آلام : أليس هذا شأن المرأة لحظة الولادة ؟ .

يستطيع المرشد أن يجعل من كل نقطة من هذه النقاط العشرة لقاءاً مستقلاً إذا أراد .

من المفيد العودة إلى ما قيل عن خطوات النمو من البلوغ إلى النضج الكامل ، خلال كلا هذا اللقاء واللقاء القادم ، لزيادة تأكيد فكرة أنه ليس هناك حباً حقيقياً بعيداً عن النضج والعطاء الحر ، وأن كل ارتباط عاطفى قبل الوصول إلى النضج والعطاء عبارة عن نوع من أنواع البحث عن الذات فقط .

يمكن أن يكون ختام هذا اللقاء إعلاناً للقاء القادم عن طريق مناقشة الآتى :

ألا يفترض الحب الرغبة فى الزواج ؟ إن الزواج ليس إلا :

- اتخاذ قرار مسئولية حياة وتحقيق ذات الشخص المحبوب
- علناً – البُعْد الاجتماعى للزواج هام جداً –
- وبصورة نهائية ، وليس لفترة معينة من الوقت .

ملاحظات :

١ – فى بعض الأوساط الاجتماعية الثقافية ، يعتبر الرجل المرأة خادمة منزلية وجنسية ، وهى أيضاً تعتبر أن هذا هو دورها وهذه هى مسئوليتها . الحديث عن الحب بالمفهوم الذى سبق ، وهو مفهوم مبنى على مشاركة يسودها احترام الاحتياجات الشخصية والانتباه المتبادل ، لا فائدة ولا معنى له ، بل وهو غير مطلوب . يجب مع مثل هذ.

العقليات أن يعيد المرشد التفكير فى الموضوع نفسه وفى طريقة عرضه .

٢- ليس من الضرورى أن يعترف الشاب لفظاً بالمفهوم المذكور أعلاه . المهم أن يدرك الشاب أن للبنت وللمرأة احتياجات طبيعية وأن هذه الاحتياجات تمثل بالنسبة لهن ضروريات سيكولوچية ونفسية لا بد أن تتحقق حتى تزدهر المرأة وتحقق ذاتها . تحقيق ذاتها هذا سيكون الأساس لقدراتها على العطاء ، وعطائها هذا سيكون الأساس الطبيعى لسعادة الرجل ، وبهذه الطريقة ما أعطاه الرجل للمرأة من احترام لحقوقها ولاحتياجاتها ، يعود عليه طبيعياً بالسعادة والهناء . والعكس بالعكس طبعاً .

لكل اجتماع مناقشات خاصة به . ها هى أهم النقاط التى تتكرر مناقشتها فى كل لقاء مع الشباب ذوى الـ ١٧ سنة ، وكذلك فى أحيان كثيرة مع الشباب ذوى الـ ١٨ سنة . هذه النقاط تمثل أيضاً مركز اهتمام كبير فى اللقاءات الشخصية التالية لاجتماع الفصول :

١- ما هو المقصود بـ « احترام » الجنس الآخر ؟ ما هى العلاقة التى تمثل احتراماً والعلاقة التى تمثل غير ذلك .

٢- أليس الزواج النتيجة الطبيعية للحب ؟ .

٣- هل المصير الطبيعى للحب أن يدوم للأبد ؟ .

٤- هل يمكن للشخص أن يحب للمرة الثانية بعد فشل حبه الأول ؟ .

٥- هل يجوز أن يحب الرجل امرأتين فى نفس الوقت (وهذا السؤال يدل على أن الشرح كان غير وافٍ ...)

٦- هل ينصح الشاب بالتعبير عن إعجابه للبنت أم لا ؟

٧- المبدأ السليم هو الاختلاط الجنسى الجماعى وعدم الانفراد . ما هو العمل إذا استحال ذلك بسبب العائلة مثلاً ؟

٨- ماذا نفعل وكيف نتصرف إذا أصدر الوالدان أوامر صريحة بعدم مقابلة وعدم التحدث إلى أشخاص من الجنس الآخر ؟

٩- هل للعلاقات الجنسية الكاملة قبل الزواج سلبيات ؟ ما هى هذه السلبيات ، ولماذا ؟

١٠- ماذا عن مخالطة العاهرات ؟

١١- لماذا تطالب البنت بأن تكون طاهرة حتى زواجها ولا يطالب الولد بنفس الشئ ؟ (لم يطرح هذا السؤال بنات فقط ولكن طرحه بعض الأولاد كذلك ...)

١٢- ألا يمكننا أن نمثل دور الحب لمجرد جاذبية الدور دون أن نكون واقعين فى الحب حقاً ؟

١٣- ما هو سبب فشل الحب الأول (عادة) ولماذا لا نعترف بهذا الفشل إلا بعد وقت طويل من حدوثه ؟

١٤- لماذا نشعر أن أى فكرة جنسية تجاه البنت التى أُعجبنا بها عبارة عن إهانة بالنسبة لها ونوع من التلوث ؟

١٥- هل يستطيع أن يكون الحب من أول نظرة حباً حقيقياً أم لا ؟

١٦- ما هى سيكولوجية البنات اللاتى تبحثن وتشجعن العلاقات الجنسية وهى فى الرابعة أو الخامسة عشرة من عمرها ؟

١٧- هل يمكن وجود « صداقة » حقيقية بين الجنسين ؟

إن عمق المناقشة أثناء الإجابة على هذه الأسئلة يتوقف على معلومات وقدرات المرشد . إن الإجابة على كل سؤال من هذه الأسئلة يوفر لنا فرصة ذهبية لتحقيق الأهداف التربوية العامة للبرنامج وخدمته ككل .

الشباب ذوى الـ ١٨ سنة

الموضوع : الزواج :

لم يصل بعد الشباب فى هذا السن إلى النضج الكافى لمناقشة هذا الموضوع . خاصة وهو موضوع يتطلب من المتزوجين أنفسهم إعادة التفكير فيه طوال حياتهم الزوجية ... لكن : ما نخشاه هو ألا يجد

هؤلاء الشباب من يحدثهم عن مثل هذا الموضوع بطريقة سليمة بعد تركهم المدرسة والابتعاد عنها .

خبرة الشباب الوحيدة عن الزواج هى مشاهدة ممارسة أولياء أمورهم وأقاربهم حياتهم الزوجية . فى بعض الأحيان قد تكون هذه الظروف غير مناسبة لاكتشاف القيم الأساسية للزواج حتى فى حالة وجودها فعلاً ، علاوة على أن بعض الشباب يعانون كثيراً من ظروفهم العائلية من حيث العلاقة بين الوالدين . لذلك رأينا من المناسب أن يسمع الشاب ، ولو مرة واحدة فى حياته ، وبالرغم من صغر سنه النسبى ، كلمات تبعث الأمل فى قلبه - بالرغم من أنها كلمات واقعية - تساعده على فهم الأوضاع بشئ من الوضوح وعدم التسرع فى إصدار الأحكام أو المبالغة فى قسوتها .

حيث أن الزواج يجند شامل أبعاد الشخصية ، من المفضل أن يلخص المرشد اللقاءات السابقة قبل بداية المناقشة الحالية .

كُتِب عن موضوع الزواج ما يكفى لملء مكتبات عديدة . سنشير هنا فقط إلى النقاط الهامة التى بدت لنا أساسيات بالنسبة لمن يريد فهم العلاقة الإنسانية الخاصة بالزوجين .

١- اللغة العامة تشير بكل وضوح إلى فرق من الفروق السيكولوجية الأساسية بين « الحب » و « الزواج » . يقولون أن الإنسان « يقع » فى الحب بينما « يعقد » الزواج . أى أن الوقوع فى الحب مثل العدوى من مرض ما ، لا مفر منه ، بينما الزواج قرار ناتج عن مزاولة الشخص لحريته الكاملة . ويعنى ذلك الآتى :

أ- إذا كان الحب يولد الرغبة فى الزواج فليس معنى ذلك أن كل حب يؤدى إلى الزواج . يمكن لأسباب كثيرة اتخاذ قرار عدم الزواج بالرغم من وجود حب كبير .

ب- أن تفوت الشخص تجربة الحب خسارة كبيرة . أما الفشل فى الزواج فهو ذنب لأن هذا الفشل ليس خاضعاً للظروف مثل الوقوع فى الحب . الذين وصلوا إلى درجة كافية من النضج ودرجة كافية من الذكاء

يجب عليهم أن ينجحوا فى تنظيم حياة زوجية سعيدة وموفقة إلى حد كبير ، سواء كان زواجهم هذا مبنياً على الحب أو على اتفاق ما ، وهذا هو سبب نجاح نسبة أعلى من عقود الزواج المبنية على اتفاقات اجتماعية وعائلية بالمقارنة بالعقود المبنية على الحب فقط . فى المجتمعات التى يرتّب فيها زواج الأشخاص منذ صغرهم يشعر الشخص عندما يكبر ويتزوج أنه ينفذ رغبة المجتمع ورغبة العائلات عليه ، وأنه يخضع بذلك إلى إرادة اجتماعية يتقبلها وينحنى أمامها . بالنسبة إلى مثل هذا الشخص ، إن فشل حياته الزوجية هو فشل جميع الأطراف المعينة فى الاختيار والتخطيط : إن خيانة المشروع فى تحقيق وتنفيذ أهدافه أهم من خيانة الزوج أو خيانة العلاقة الشخصية التى تربط بينهما . الانتماء الاجتماعى هو الذى يمثل القيمة العليا ... هذا البُعْد الاجتماعى للزواج هو الذى يضمن إلى حد كبير استمرار الزواج على الأقل ، إن لم يكن ليضمن سعادة وازدهار الزوجين .

٢- يقول البعض فى بعض المجتمعات المتحررة : « لنعش أولاً بضعة أشهر أو بعضة سنوات سوياً بدون زواج ، بدلاً من أن نتزوج لنكتشف بعد ثلاث سنوات فقط أن زواجنا كان خطئاً من الأساس ... (تكرر هذا السؤال من قبل الشباب ...) إن ديناميكية الزواج تجعل كل من الزوجين يتطور ويتغير باستمرار على مر السنين . من نتائج هذا التغيير المستمر أن سعادة وتوفيق السنة الأولى لا تمثل أى ضمان بالنسبة للسنة الثالثة ، ونجاح السنة الثالثة لا يمثل أى ضمان بالنسبة إلى السنة السادسة أو السابعة ... الخ . **هام جداً : « لا يتوقف نجاح الحياة الزوجية إلا على نوع القرار الذى اتخذه الزوجان عند قران زواجهما »** . هناك من تزوج على أن يستمر زواجه مهما كانت ظروف حياته الزوجية وبالرغم من ظهور الصعوبات والعقبات والإحباط والمرض والفقر ... الخ . ومهما طالت قائمة الظروف المعادية : الزواج مشروع أسسه الشريكان وهما مصممان على نجاحه واستمراره فى أى حال من الأحوال . وهناك من تزوج على أن يرى مدى سعادته ومدى نجاح زواجه طبيعياً تلقائياً ؛ على أن تكون إمكانية الطلاق أو

الانفصال موجودة كخلفية مطمئنة فى حالة وجود صعوبات ومشقات . هذا الشخص يجهل أن ليس هناك زواج يستطيع أن ينجح نجاحاً تلقائياً . الزواج الذى ينجح تلقائياً دون أن يبذل كلا الزوجين الجهود المطلوبة لذلك – أى دون بذل أى مجهود على الإطلاق – زواج نادر جداً لا يستحق الوقوف عنده . لا ينجح الزواج ، أو على الأقل لا يستمر إلا إذا اتخذ الزوجان عند بدأ علاقتهما الزوجية أو فى أى وقت لاحق قرار بذل كل الجهود المطلوبة والقيام بكل التضحيات اللازمة حتى تستمر هذه العلاقة بينهما . اختلاف الآراء ، التطور الخاص بكل زوج من الزوجين فى الاتجاه الخاص به ، اختلاف التوازن الهرمونى ، تأثير الوسط الاجتماعى ، تأثير العائلات ، صعوبات الحياة ، الأزمات النفسية الحتمية التى يمر بها الزوجان ، كلها من الصعوبات الطبيعية التى تجعل الشخص العادى يسعى إلى استعادة حريته عندما تزداد وتتراكم عليه ضغوط الحياة الزوجية . ينطبق هذا الوصف على أغلبية المتزوجين وليس على أقلية منهم فقط . فى مثل هذه الظروف ، إما ينفصل الزوجان ، وإما يقاومان الظروف المعاكسة ويقومان باللازم حتى يستمر زواجهما .

سؤالان :

أولاً : ما الذى يجب أن يقوم به الزوجان فى مثل هذه الظروف ؟ .

ثانياً : ما هى المبررات للقيام بمثل هذه الجهود بدلاً من اللجوء إلى استعادة الحرية وإنهاء قيود الزواج ؟ .

الإجابة عن السؤال الأول :

١– يجب أن يحاول كل من الزوجين أن يضع نفسه فى مكان الآخر حتى يفهم ويقدر تماماً مدى المشكلة بالنسبة له .

٢– أن يقبل كلا الزوجين استمرار الاتصال واستمرار إمكانية الحديث والحوار بينهما ، حتى ولو كان الحوار يبدو مغلقاً وبدون جدوى . يجب ألا ينعزل كل منهما عن الآخر ...

٣- يجب أن يقبل كل من الزوجين الحياة بوجود مشاكل ، الحياة بدون مشاكل حلم لم يحققه آدمى بعد .

٤- أن يقبل كل من الزوجين التضحية ببعض طموحاته أو ببعض احتياجاته حتى إن كانت هذه احتياجات أساسية تمثل ضروريات هامة بالنسبة له .

٥- أن يقبل كل من الزوجين التسامح .

٦- أن يوافق كل من الزوجين على تحمل ما لا يمكن حله من مشاكل أو أوضاع صعبة .

٧- أن يقبل كل من الزوجين درجة من الحرمان من بعض العواطف أو بعض العطاءات ، لأنه يضع استمرار زواجه فى مكانة أعلى وأهم من اشباع احتياجاته الشخصية .

الإجابة عن السؤال الثانى :

لماذا كل هذه الجهود لإنقاذ الزواج بدلاً من الانفصال أو الطلاق ؟ .

هناك نوع من السعادة يسببه إشباع الاحتياجات الأساسية والهدوء الناتج عنه . هناك أيضاً السعادة التى يشعر بها الإنسان الذى قام بالواجب وقدَّر المسئولية ومارس العطاء ، حتى لو كان ذلك على حساب إشباع بعض الاحتياجات الأساسية . ها هى بعض العوامل التى تحرك الشخص الذى ينتمى إلى الباحثين عن النوع الثانى من السعادة :

١- عقد هذا الشخص زواجاً غير مشروط على أن يتحمل مسئولية الزوج الآخر ليس فى حاضره فحسب ، ولكن فى مستقبله كذلك ومهما كان شكل هذا المستقبل ومهما حمل من مفاجآت .

٢- إحساس كل من الزوجين بأن زواجهما أوجد بل وخلق شيئاً أكبر من كل منهما على انفراد ، شيئاً يشملهما الاثنين ، والوفاء لهذا الواقع الزوجى الذى تسببوا فى خلقه يكاد يكون ، بالنسبة إلى بعض الناس على الأقل ، أهم من وفاء كل منهما للآخر . وهناك نجد تفسير استحالة زواج بعضهم بعد وفاة الزوج الآخر ، أى تفسير لما نسميه «بالوفاء ما بعد الموت» .

٣- هناك بعض الأفعال تُحْدِث فى فاعلها تغييرات جذرية تبلغ من العمق ما يحول دون عودة هذا الشخص إلى وضعه السيكولوچى السابق للواقعة . « القتل » مثال لهذه الأفعال ... الإنسان الذى قتل ، أى الإنسان الذى مر بتجربة أخذ وإنهاء حياة شخص آخر ، تصبح له سيكولوچية جديدة ، وهو لا يستطيع فى أى حال من الأحوال أن يعود إلى ما كان عليه نفسياً قبل حدوث الفعل .

ليس إمضاء عقد الزواج نفسه ، ولكن ممارسة الحياة الزوجية هى التى تنتمى إلى هذه المجموعة من الأفعال : لا يستطيع الشخص الذى أصبح سيكولوچياً « متزوجاً » أن يعود فى أى حال من الأحوال إلى سيكولوچية « الأعزب » وإذا استطاع ، فهذا يعنى فقط أنه لم يكن سيكولوچياً متزوجاً فى يوم من الأيام .

الشخص الذى يعيش فى داخله النقاط الثلاثة التى ذكرناها الآن شخص ناضج ومسئول . قد يكون هذا الشخص تزوج عن حب وقد يكون تزوج عن اتفاق عائلى أو قد يكون الوضع مختلفاً بالنسبة لكل زوج من الاثنين ، هذا لا يهم : إذا كان كل من الزوجين منتبهاً للآخر ولاحتياجاته وإذا كان أميناً ومخلصاً وإذا سيطر على أنانيته ومارس القدر الكافى من العطاء والاحترام ، سوف تنسج الحياة اليومية بينهما علاقة فريدة ، خاصة بهما فقط . يضاف إلى ذلك وصول الأطفال وكل الأفراح والأحزان والمخاوف والتساؤلات المرتبطة بوجودهم ، ونكون دعمنا وأكدنا فردية هذه العلاقة التى تربط بين الزوجين ، والتى لا يستطيع أحد منهما أن يعيشها مع أى إنسان آخر سوى الزوج فقط . سرعان ما تتلون حياتهم الجنسية بكل التغيرات الخاصة بهذه الروابط الفردية التى تجمع بينهما ، وهذا هو ما يجعل كلمة « أحبك » ، وما يجعل قبلة الزوجين القديمين يحملان من الفرحة والحزن والتردد والثقة والعطاء والحرمان وقبول التضحية وقبول حدود الطرف الآخر ... إلخ ، ما لا تستطيع قبلة الزوجين الجديدين أن تحمله ، لأن رصيد حياتهم الزوجية ما زال بعيداً عن مثل هذه الثروة العاطفية .

يجب ألا ننسى أن الجنس عبارة عن « حديث » يسمح بتبادل

العواطف كما يسمح الكلام بتبادل الأفكار . قد لا يحتاج زوجان قديمان لكلمات كثيرة ليفهم كل منهما الآخر ، أو قد لا يحتاجان للحديث المستمر . لكنهما عندما يتحدثان ، تكون لكل كلمة يقولانها وزنها ومعانيها ويكون لكل لفظ قيمته وأبعاده . **الحياة الجنسية مرآة صادقة تنعكس فيها نوعية العلاقة الإنسانية والعاطفية التى تربط بين الحبيبين** ، ولذلك فهى أيضاً تنمو وتتطور أثناء مرور سنوات الزواج ، مكتسبة دائماً المزيد من ثراء المعانى وعمق التعبير .

هل لا بد من ظهور مشاكل فى الحياة الزوجية ؟ .

لا توجد حياة إنسانية بدون مشاكل وبالطبع لا توجد حياة زوجية بدون مشاكل . الشخص الذى تزوج على أنه سوف لا تقابله مشاكل فى حياته الزوجية ، كان من الأفضل ألا يتزوج ...

لنحلل الآن ظروف زواج يكاد يكون مثالياً : شخصان ناضجان وأمينان ومستقيمان ويحب كل منهما الآخر . من البديهى أن ليس هناك شخصان بنفس الكم من القدرات والإمكانات . إذاً ، بالرغم من عطاء كل منهما كامل إمكاناته وكامل قدراته بصدق كبير ، هناك أحدهما يعطى أكثر من الآخر ، وهذا يعنى أن هذا الشخص يعود عليه من عطاء الآخر أقل مما يعطيه هو . **وفى نفس الوقت ، وبسبب عطاء كل واحد منهما كامل إمكاناته وكامل قدراته ، يشعر كل منهما أنه وصل إلى آخر درجات العطاء وأن لا عطاء بعد ذلك . إذاً ، فكل منهما يشعر أنه هو الذى يعطى الأكثر ، لأنه لا يستطيع أن يتصور أن هناك من يعطى أكثر منه** . ومن هنا إحباط الزوج الذى يمضى حياته كلها فى حالة « ميزانية عاطفية سلبية » أمام الزوج الآخر الذى يشعر هو أيضاً بالاحباط بسبب عطائه الكامل ، الذى فى نظره لا عطاء بعده ، ولا يفهم كيف يستطيع الزوج الأول طلب المزيد و طلب ما هو مختلف . هذا الوضع لا يُحَل إلا إذا تقبل كل زوج حدود الزوج الآخر وحدود إمكاناته ، واكتفى بأن يعرف أن هذا الشخص يبذل كل الجهود التى يستطيع بذلها . هذه الثقة فى صدق الطرف

الآخر مضافة إلى الاعتراف بوصوله إلى آخر حدود إمكاناته ، يستطيعان إزالة الإحباط وإعادة الهدوء والرضا ، عن طريق إرجاع الميزان العاطفى إلى نقطة توازنه . وهذا صحيح أيضاً ، ولكن بدرجة أقل شدة منها ، فى مجال الصداقة مثلاً ، وفى عامة العلاقات الإنسانية .

كان اهتمامنا هنا يخص زوجين يكاد يكون كل منهما مثالياً . ماذا عن العلاقات الزوجية التى تسودها الأنانية مثلاً ؟ هذه العلاقات لا تستحق أن نتكلم عنها لأنها تخص أشخاصاً غير مستعدين ، على الأقل من الناحية السيكولوجية ، على احترام عقد الزواج الذى وقعوا عليه ...

ماذا يكون تصرف الزوجين فى حالة وجود مشكلة ؟

هناك نقطة جوهرية أساسية فى طريقة مواجهة الزوجين لمشكلتهما : هل يعتبر كل زوج منهما أن المشكلة مشكلته هو أو مشكلتها هى مثلاً ، أو هل يعتبر كلاهما أن المشكلة مشكلتهما معاً ؟ النظرة إلى المشكلة تدل على مدى التحام الزوجين ومدى تماسكهما . الزوج الذى يقول مثلاً : « هذه هى مشكلتكِ أنتِ . أنا لا دخل لى بها . عليكِ أن تجدى الحل كما تشائين » . أو الزوجة التى تقول « هذا حقى وأنا أتمسك به . عليك أن تدبر الطريقة التى يمكنك بها أن تحقق لى ذلك . كيف يكون ؟ هذا ليس من شأنى . هذه مشكلتك أنت وليس مشكلتى أنا » . هذا الزوج يعيش « بجوار » الزوج الآخر ولكنه ليس جزءاً من حياته فعلاً . مدى تماسكه والتحامه بالزوج الآخر ضعيف جداً . أين الفريق وأين الروح الجماعية ؟

أما الزوجان اللذان يعتبران أى مشكلة يواجهانها مشكلتهما معاً وينظران إليها على أنها تحدياً لهما الاثنين معاً ، هذان الزوجان قريبان عن بعضهما وحياتهما متماسكة وموفقة حقاً . يوفر هذا النوع من الالتحام والتقارب والتماسك فرصة التحليل وإيجاد الحلول للمشاكل مهما كانت . أما الابتعاد والتخلى فإنهما لا يولدان سوى الإحباط والمرارة . **هام : طبيعة المشكلة أقل أهمية من طريقة مواجهتها .**

كان فى توقعنا ألا يفهم الشباب مثل هذه الأفكار التى لا تمثل بالنسبة لهم اهتماماً خاصاً ، لكننا وجدنا – على عكس توقعنا – أنهم كانوا فى غاية الانتباه والاستيعاب ، وقد ساعد على ذلك المقارنة المستمرة بمجال « الصداقة » ، وإعطاء أمثلة كثيرة مستخلصة من الحياة العائلية اليومية التى يعرفونها جيداً ويمارسونها فى منازلهم .

كنت شخصياً سعيد الحظ أن التقى مع نفس مجموعات الشباب على مر السنين وأن أتابعهم من خلال تسلسل اللقاءات . خلق هذا بيننا جواً من الصداقة والثقة المتبادلة . فى مثل هذه الظروف قدر الشباب خير تقدير ، ختاماً لهذا اللقاء الذى يمثل الاجتماع الأخير لهم بالمدرسة ، تشجيعى لهم وقولى الصريح أن الحياة قد تكون صعبة والكفاح مؤلم ، ولكن هناك دائماً سعادة متناهية لمن حقق ذاته وحقق كافة الأبعاد الإنسانية الموجودة فيه ، محققاً بذلك رغبة الخالق عليه ومساهماً فى مسيرة الإنسانية إلى الأمام .

الفصل السابع

التوجيه المهنى

إنى أنتمى لمجموعة من الأشخاص حالفهم الحظ ونمو فى وسط يمارس أفضل مبادئ التربية وأرق وسائلها . أعتنى بنا أفضل المربين . كانت منظمات الشباب التى ساهمت فى تشكيل عقليتنا ونظرتنا للدنيا وللآخرين كثيرة ومثمرة وفعالة . مفاهيم معقدة تمثل قيم فى غاية الجمال والأهمية وتنير فترة المراهقة ملقية عليها إضاءة نبل المشاعر ورقة الضمير مثل « تدرج القيم » و « احترام حقيقة الآخرين » و«التعهد والارتباط » و « المسئولية » و « الموهبة » و « تحقيق الذات » ، كانت قد فقدت غموضها بالنسبة لنا قبل بلوغنا سن السادسة أو السابعة عشر من عمرنا ، ليجد هنا أولياء أمورى وجميع الذين ساهموا فى « تحررى التدريجى » أصدق التعبير عن شكرى واعترافى بما فعلوه ويفضلهم علىّ . محاولتى مساعدة شباب اليوم ما هى سوى محاولة للتعبير عن هذا الاعتراف ومحاولة متواضعة لرد جزء صغير منه .

« التوجيه المهنى » : درجة بساطة التعبير جعلت الجميع يظن أنه يعرف كل أبعاده . لا يوجد اليوم ولى أمر مسئول ولا مدرسة جديرة بهذا الاسم يستطيعون تجاهل هذا البعد وهذه المسئولية .

« التوجيه » orientation المعنى هنا ليس تحديد الشئ بالنسبة للذات لكن تحديد موقف الذات بالنسبة لشئ آخر . هذا يعنى بالطبع معرفة الشئ الذى نريد تحديد موقفنا منه ، وهذا يعلمه الجميع . ما قد لا يعلمه الجميع هو أن هذا يفترض أيضاً ، بل وأولاً ، معرفة الذات معرفة عميقة ودقيقة . يكفى أن أعرف بعض التفاصيل عن حياة طبيب مثلاً أو أن أعرف رأى طبيب معين فى مهنته حتى أستطيع تحديد موقفى أنا من الطب . يجب أن أكون ملماً بإمكاناتى وقدراتى الشخصية وبميولى الوراثية وبالعوامل التى تشعرنى بالسعادة وبالتوفيق وبتحقيق ذاتى ، قبل أن أستطيع تحديد موقفى من الطب ومن ممارسته بدقة ، حتى

يحتفظ هذا الرأى بقيمته لمدة طويلة . هذا يفترض فى الواقع عالم من البحث والدراسة والتكوين سوف نبحثه فى الصفحات التالية .

المهنة عبارة عن النشاط الذى يمارسه الفرد لكسب حياته . مفهوم المهنة يرتبط إذاً ، على الأقل فى خطوة أولى ، بالبقاء المادى .

الموهبة (بمعنى إدراك نوع من الدعاء الداخلى) la vocation هى اختيار نشاط مهنى يتفق مع الميول والمواهب (لاحظ هنا تكرار كلمة « موهبة » بمفهومين مختلفين لعجزى اكتشاف الكلمة التى تؤدى المعنى المقصود من التعريف التالى « للموهبة ») **الطبيعية العضوية والسيكولوچية للإنسان . يمثل هذا الاختيار أفضل ما يستطيع الشخص إنجازه ، ممثلاً إذاً أفضل خدمة يستطيع أن يقدمها للمجتمع ، مما يوفر له بالتالى القدر الأكبر من الاتزان والازدهار فى المجالين الإنسانى والروحى ، محققاً بذلك أكبر قدر ممكن من السعادة . أن يكتشفها المراهق، أى أن يحدد موقفه من هذا الاتجاه الحيوى ، يفترض قدراً كبيراً من النضج فى جميع المجالات . هنا يستطيع المربى ، بل ويجب عليه ، أن يتدخل .**

يجب إذاً أن يهدف أى برنامج « توجيه مهنى » إلى تشجيع وتدعيم جميع خطوات الشاب فى طريقه إلى تحقيق نضج أفضل بما معناه :

١ – الوعى بالقدرات والإمكانات الحقيقية وتمييزها من الجاذبية الكاذبة المؤقتة التى قد يشعر بها تجاه مهنة معينة ، خاصة إذا كانت من المهن التى تعود على صاحبها بالمال الكثير ، حيث أن الانجذاب إلى المال وجعله المحور الأساسى للحياة ظاهرة تتناسب عكسياً ودرجة النضج التى حققها الفرد .

٢ – العلم بأوسع نطاق ممكن من الاختيارات المهنية الموجودة أمامه .

٣ – تطابق النقطة الأولى والنقطة الثانية بطريقة تسمح بالربح المادى وبحياة مُرضية .

يجب إذاً أن يلبى أى مشروع « توجيه مهنى » الاحتياج الآتى : مساعدة الشخص على اختيار النشاط المهنى الأفضل توافقاً وإمكاناته الطبيعية والأفضل خدمة للمجتمع حتى يكون مريحاً والأكثر إسعاداً لصاحبه لأنه يعطيه شعوراً بالامتلاء الروحى والذهنى وتحقيق الذات لى أقصى حدوده .

يجب أن يهدف أى مشروع « توجيه مهنى » إلى مساعدة الشخص على اكتشاف « موهبته » الحقيقية بالمعنى الذى سبق وأشرنا إليه .

كيف يمكن ذلك ؟

تنظم بعض المدارس لقاءات مع بالغين من مهن مختلفة . يسأل الطالب الزائر ويناقشه لمدة ساعة أو ساعتين حتى يتصور ما يستطيع تصوره من هذه المهنة وكيفية ممارستها ، كما يستمتع إلى رأى صاحب المهنة نفسه فى عمله . من الجدير بالذكر أن إحدى الأسئلة الأولى الموجهة للزائر هى : « ما هو الداخل الشهرى لمهنتك ؟ » لا شك أن الطلبة الذين اشتركوا فى مثل هذه اللقاءات لديهم من « **المعلومات** » ما يساعدهم على اختيار أفضل بخصوص مستقبلهم المهنى . تقدم المدارس التى تنظم تلك اللقاءات لطلابها خدمة كبيرة . خاصة بالمقارنة بمدارس أخرى لا تقوم بأى نشاط فى هذا المجال . يحتفظ دائماً « **الإعلام** » بقيمته كاملة ولا شك أن تأثيره كبير ومهم . لذلك أرجو ألا يظن القارئ أن ما يلى يمثل تقليلاً من شأن الإعلام أو من تأثيره الإيجابى . أريد فقط أن أقترح العودة إلى بعض ما ورد فى الفصل الخاص « **بالإعلام والتربية** » بهدف إلقاء نظرة أكمل وأوضح على هذا النوع من اللقاءات .

١ - يقدم الإعلام نوعًا من « العلم بالشئ » . التربية الحقيقية تهدف إلى توليد « المعرفة » :

عند انتهاء اللقاء « يعلم » الطالب رأى الزائر ومشاعر الزائر وتقييم الزائر لمهنته . إنه « يعلم » أشياء لم يكن يعرفها من قبل . لكنه لم يجد

الفرصة لتكوين رأيه الشخصى . كذلك لا « يعرف » عن المهنة أكثر مما كان « يعرفه » قبل اللقاء لأن « قيلت » له أشياء كثيرة ولكنه لم يُمْنَح فرصة اكتشاف الأشياء بنفسه . (ليعد القارئ مشكوراً إلى الفصل الخاص « بالإعلام والتربية ») . خمسة من الطلبة استمعوا إلى طبيب يصف لهم يومه فى المستشفى يستخلصون كلهم من القصة نفس « المعلومات » . أما إذا قضى هؤلاء الطلبة الخمس يوماً كاملاً فى مستشفى ، خاصة إذا أخذوا يساعدون ويشتركون فى الأعمال البسيطة ، سوف يعودون بخمسة « انطباعات » مختلفة تناسبها آراء مختلفة ورؤية مختلفة ، لأن كل منهم عاش التجربة بطريقة خاصة به وبه فقط .

عند انتهاء اللقاء يكون الطالب قد اكتشف أشياء جديدة كثيرة كلها تخص المهنة التى تحدّث عنها الزائر ، لكنه لم يكتشف شيئاً جديداً إضافياً بالنسبة لنفسه . لم « يحدد إذاً موقفه الشخصى » من المهنة بطريقة أفضل من ذى قبل .

حيث أن المعلومة المكتسبة من خلال اللقاء تمثل اكتساباً ذهنياً وعقلياً فقط (**علم**) وليس اكتساباً سلك مسلك التجربة الحيوية والاكتشاف الشخصى (**معرفة**) ، سوف لا تزن هذه المعلومة الكثير فى ميزان الاختيار اللاحق بين مهنتين ، خاصة إذا كانت الواحدة مربحة بالنسبة للأخرى . سوف تزيل بسهولة جاذبية المال والمستوى الاجتماعى والقدرة والسيادة وتأثير العائلة والضغوط الاجتماعية جميع الاعتبارات الأخرى التى يعيشها الشاب كواقع ذهنى فقط لا رنين له على مستوى حياته الداخلية وخبرته الحيوية .

٢ - كل خطوة من خطوات التكوين التربوى يجب أن يسبقها تمهيد دقيق يؤدى إلى مستوى معين من النضج يسمح بالانتقال إلى الخطوة التربوية التالية :

هل هذا هو وضع اللقاءات التى نتحدث عنها ؟ هل مهدت لقاءات سابقة الطريق حتى يسأل الشاب الأسئلة الهامة حقاً والتى سوف تحدد

الإجابة عليها مصيره ومستقبله ومدى سعادته ؟ هل أدرك حدوده وإمكاناته الشخصية إدراكاً كافياً ليسمح له بالأسئلة التى تساعده حقاً على اكتشاف الطريق إلى تحقيق ذاته وإسعاد نفسه والذين يعيشون من حوله ؟ قد يزور المدرسة طبيب ذو قيمة إنسانية وخُلُقية ومهنية كبيرة ، لكنه تنقصه البلاغة ولا يتحدث عن مهنته بطريقة جذابة . هل يعرف وقتئذ الطالب كيف يسأل أسئلة جوهرية تساعده على اكتشاف الوقائع التى تهمه حقيقة ، أو هل يقع تحت تأثير درجة بلاغة الزائر ؟ على عكس ذلك ، أليس هناك بالنسبة للطالب خطر الوقوع تحت تأثير كلمات وأوصاف الزائر البليغ الذى يقوم « بدعاية » لمهنته – وذلك شئ مؤسف لأن ليس المفروض أن تكون هذه الروح التى يحضر بها الزائر – فيجرف الطالب فى اتجاه لا يناسبه ولا يمثل موهبته الحقيقية التى يبحث عنها ؟ الزائر ليس مربى . يعلم المربى الحقيقى أن دوره « هو **أن يتجرد على قدر الإمكان من رغباته واحتياجاته الشخصية وأن يتجاهلها ، ليساعد الذين يتعامل معهم على اكتشاف حقيقة أمرهم واكتشاف الاحتياجات ثم الاختيارات التى تناسبهم ، فى إطار احترام شديد لواقعهم الدينى والعقلى والثقافى والاجتماعى والمادى** » (الإعلام والتربية) . قد لا يعرف الزائر ذلك .

٣ – لا تربية حقيقية دون برامج يتم تطبيقها على مدى سنوات طويلة :

من الواضح أن « توجيه مهنى » حقيقى يقوم على أسس أكثر عمقاً من مجرد « الإعلام » عن مهنة معينة المبنى على لقاء ساعتين مع رجل المهنة ، دون أن يحمل قولنا هذا أى تقليل من شأن أو من أهمية ذلك الإعلام : شأنه أن يمثل ، فى أحسن الاحتمالات ، جزءاً فقط من التربية الشاملة الخاصة بالهدف الموصوف أعلاه . لنحاول الآن تحديد بعض الخطوات الأساسية فى التربية السيكولوجية التى تمثل توجيهاً مهنياً أكثر عمقاً وكمالاً .

نقاط اربع تلفت نظرنا فى الحال . سوف يضيف إليها القارئ نقاط أخرى كثيرة نابعة من خبرته الشخصية الواسعة :

١ – فيما يخص تنمية قدرات وإمكانات الطفل والشاب والوعى بها وإدراكها :

الحضانات التى تهتم حقاً بأطفالها تستخدم طرق تربوية تثير الدهشة والإعجاب . من خلال طريقة « السيدة مونتسورى » Montessori أو غيرها يتعلم الطفل كيف يجب أن يتصرف ويشغل ذهنه وعقله ليكتشف إمكاناته ويستعملها ويكتشف نفسه والآخرين وطريقة التعامل السليمة الصحيحة معهم . كل ذلك من خلال أنشطة تمثل قضاء وقت ممتع بالنسبة له وتجعله يحب المدرسة ويعود إليها بسرور بعد اجتياز فترة التأقلم الأولى. قص الورق ، اللصق ، استعمال الألعاب التربوية ، إعداد الحفلات والمناسبات الجماعية ... الخ . كلها جزء من برنامج يسلى الطفل ، ينمى ذوقه ، يولد فيه العادات الجيدة التى يدرك أسبابها ومبرراتها بقدر مستوى إمكاناته العقلية ، ويستثمر إمكاناته وميوله الطبيعية . ليس هناك ما هو أفضل من ذلك فى مجال الإعداد للتوجيه المهنى على المدى الطويل ، خاصة إذا تنوعت الأنشطة وكانت المربيات على مستوى رسالتهن .

هناك نقطتان تلفتان نظرى بخصوص ما سبق . من ناحية ، إن الفصول ذات عدد أطفال كبير ، حتى فى حالة وجود مربيات عديدة ، تميل إلى فقدان إحساس الطفل بفرديته . ربما نستطيع أن نقرب هذا الشعور من الشعور السلبى الذى تولده الصالات الضخمة التى تصطف فيها الأعداد من السكرتيرات فى الشركات الكبيرة فى أمريكا والتى شعر فيها المديرون بضرورة إعادة البُعْد الشخصى بالسماح بإحضار نباتات خضراء أو غيرها من الأشياء التى تقلل من شعور الموظفة «بإذابة» شخصيتها فى العدد الكبير من مثيلاتها . يمكننا الاعتناء الجيد لمُرْضى بجميع الأطفال عن طريق توفير عدد كبير من المربيات . هذا لا يساعد على إعطاء الطفل إدراكاً حقيقياً بفرديته . من ناحية أخرى

نعلـم أن كل تكرار يولد رد فعل ثابـت مـن نـوع « بافلـوف » Pavlov.
من السـهل إذاً أن نولد مـثل هـذه ردود الأفعال فى مـجال العـادات الحـميدة
من حيـث النظافة والـنظام والترتـيب مثلاً . سـوف يعلق كل يـوم الطفل
معطفه فى نفس المكان ، ويضـع حـقيبته بـنفس الطريقة . سـوف يغسل
فى كل مـرة أيديه جـيداً قـبل تناول أى طعـام ويعيـد مكانـها الألـعاب التى
انتهى من استـعمالـها . وضـع الطفل علـى مثل هـذه « القضبـان السـلوكية»
rails comportementaux التى تزداد أهـميتها ويزداد الاحـتياج إليهـا كلمـا
ازداد الفصـل حـجماً وعدداً ، فى الوقت الـذى لا يسـتطيع فيـه الطفل إدراك
الأسباب والمنطق مـن وراء هـذا السـلوك إمـا لأنه لـم يبلـغ من العـمـر بعد ما
يسـمح له بذلـك وإما بسـبب انشـغال المربـية أو عدم كـفاءتـها ، يقـلل من
قدرة مبادرة الطفل initiative ومـن قدرته علـى التـصرف وابتكار الإجابات
الجديـدة لظروف جديدة يـعيشـها لـلمـرة الأولى (الابداعـية) créativité .
يكتشـف هـذا الطفل عالم تم تـنظيمه ولا يبـقى له سوى التصـرف حسـب
قواعده وقـوانينه . إذا طبق القـوانين والتـعليمات سـوف يكون طفـلاً جيداً
يحبه الـجميع ، وإذا خالفـها سـوف ينقلب إلى طفل شـرير يكرهـه الجميع.
عنـدما يكـبر ويبـلـغ سن المراهـقة ، ويمـر بأزمة المـعارضـة ورفض العـالم
الذى نـظمه الـبالـغون ، سـوف لا يتصـور (ضـعف البـداهة) أنه يـستطـيع
التعبير عن اعتراضه وثورته بالمساهمة فى خلق نظام جديد وأفضل من
النظـام القائم (ضـعف القـدرة على ابتكـار الإجابات الجـديدة) أو المسـاهـمة
فى تحـسـين النـظم والـقوانـين التـى يعـانـى منـها . سـوف لا يـتـصـور أنه
يسـتطيع الـتـضـامـن والـنظام والـعـمل لـتطويـره من الـداخل فـى نفـس
الوقت. لأنه فى الـواقع لـم يشـعـر ولـم يعـيش أبـداً أى نوع من التـضـامن
بيـنه وبين هـذا الـنظام : لـم يـكتشـفـه ولـم يخـتاره ، لـكنه فُرِضَ عليـه دون
استشـارته . إنه إذاً نظـام « الآخريـن » وليـس نظامـه « هـو » . سـوف
يعـبـر عن ثورتـه بالـطريقـة الـوحـيدة التى يـستطيع أن يتـصورهـا وهـى
القـيام ضـد النظم والـقوانين ورفـض تطبـيقـها واحـترامـها والعـمل بهـا .
أليس هـذا هـو نفس تعـريف « الإجرام » ؟ أو ، علـى الأقل ، تعـريف نوع
مـعين منه ؟ فى مـجال آخـر أقل خطـورة من الإجـرام (ولـو أن هذا لـيس

من المؤكد ، لأن الإجرام ليس الحالة الوحيدة الخطيرة !) أستطيع أن أعطى مثالاً شخصياً (اعتذر للقارئ لذلك) يوضح ما أحاول قوله . من «القضبان السلوكية » التى وضعت عليها منذ صغرى هو مبدأ « إتمام النشاط الذى شرعت فيه » وعدم صرف اهتمامى عن الشئ قبل الانتهاء من العمل فيه تماماً . كان حقاً هذا المبدأ « قضيب سلوكى » وضعت عليه : لم يشرح لى أحد فى يوم من الأيام أنه يحق لى اختيار العكس تماماً وأننى أستطيع إذا أردت أن أوقف وأنهى النشاط الحالى فى أى وقت . عدم مواصلة العمل حتى نهايته خطئ وعيب وضعف ، ليس لأننى اكتشفت أن لهذا السلوك مضاعفات سيئة فى كثير من الأحيان وأنه من الأفضل عدم التصرف بهذه الطريقة ، لكن فقط لأن هذه هى قواعد السلوك السليم وهى قواعد يجب احترامها والعمل بها . عشت أربعين سنة من عمرى قبل أن ألاحظ عدم استطاعتى ترك كتاب بدأت قراءته حتى لو كانت قراءة هذا الكتاب عذاب حقيقى . مهما كان الكتاب بعيداً عن اهتماماتى وميولى كنت دائماً أقرأه لآخر صفحة فيه . اليوم ، وبعد أن حاولت لسنوات طويلة التلخص من هذا « التكيّف » conditionnement الذى ينتمى إلى ردود أفعال ثابتة من نوع « بافلوف» ، ما زلت أحارب نوعاً من القلق ، سببه الشعور بما يشبه بالذنب ، كلما أترك كتاباً قبل نهايته .

لنصف الآن خطوات تربوية مختلفة ولنرى ما قد تكون نتيجتها . للطفل حرية تعليق معطفه أين وكيف يشاء . النتيجة أن فى آخر اليوم سيكون دائماً هناك طفلاً أو اثنين ، إن لم يكن أكثر من ذلك ، لا يجدون معاطفهم . يدور البكاء ... إلخ . تترك المربية الوضع على ما هو لمدة يومين أو ثلاثة أيام ثم تقول للفصل : « لدينا مشكلة . ماذا نفعل لحلها ؟ » يقترح وقتئذ طفل من الأطفال أن يكون لكل طفل مكان معين ثابت يعلق فيه معطفه كل يوم . تسأل المربية الأطفال الآخرين ما رأيهم فى الفكرة وهل يوافقون على تجريبها . مراقبة ومتابعة جيدة تضمن فى الأيام التالية أن يجد فعلاً كل طفل معطفه دون مشاكل . لم يدخل هؤلاء الأطفال نظاماً مسبق الإعداد ، لكنهم ألّفوا لأنفسهم نظامهم

الخاص استجابة وحلاً لمشكلة عاشوها واستطاعوا التخلص منها . سوف يشعرون بنوع من التضامن بالنسبة لهذا النظام لباقى حياتهم . إذا احتاجوا فى يوم من الأيام للمعارضة والتعبير عن الغضب والثورة ، سوف لا يسلك هذا التعبير مسار « الفوضى » أبداً ، لأن خيانة النظام لا تمثل خيانة ما ألفه « الآخرون » من بالغين سبقوهم لكنها تمثل خيانة لأنفسهم . سوف يتجه التعبير عن اعتراضهم وغضبهم إلى خلق إجابات جديدة ونظم مختلفة تمثل ما يقترحونه من حل ومعالجة للأمر الذى يؤلمهم . هذا هو الفرق بين المعارضة الإجرامية السلبية الهدامة والمعارضة الغير إجرامية المسالمة المتعاونة البناءة .

ما سبق ينطبق بالطبع على جميع مجالات التربية السلوكية . لا أرى سوى احتمالين لتحسين الأمور . يمكن التغيير من التصرف التربوى على مستوى الحضانة كما هو الحال فى المثال السابق . يمكن أيضاً ، إذا استحال تغيير النظام التربوى على مستوى الحضانات ، عكس عملية « التكييف » هذه بوسيلة تربوية ما مبنية على التفكير الآتى : « لننسى الآن كل السلوكيات التى تعلمناها لأن ذكائنا وتفكيرنا وحريتنا يسمحوا لنا بذلك ، ولنعيد التفكير والدراسة والحساب لنختار بحريتنا السلوكيات التى نراها مفيدة وصالحة ، لنا وللمجتمع الذى نعيش فيه .

يكبر الطفل ويترك الحضانة . دخل الآن المرحلة الابتدائية . يدخل النظام المدرسى ويكتشف البرامج الدراسية ونظام الامتحانات . كان الطفل فى الحضانة يلاحَظ بالنسبة لنفسه ويقدر التقدم الذى ينجزه فقط بالمقارنة بما كان عليه قبل ذلك . أما الآن ، بدءاً من المرحلة الابتدائية ، وعلى الأقل فيما يخص النظام الدراسى فى المدارس الفرنسية ، سيلاحظ الطفل وتقدر جهوده بالمقارنة بالأطفال الآخرين ، على أن يكون أكثر أو أقل ذكاءاً وإنجازاً وتحقيقياً منهم ، وفقاً « للنتيجة الشهرية » livret scolaire التى توزع عليهم كل شهر بانتظام وأمام الفصل أجمع ، بإضافة كلمة التشجيع إذا كانت النتيجة جيدة أو كلمة اللوم والعتاب العلنى الذى يعتبره بعض المربين نوعاً آخر من التشجيع

إذا كانت النتيجة غير مرضية . فى الحضانة ، مفاهيم مثل « فوق » و
« تحت » ، و « أمام » و « خلف » ، و« أكثر » و « أقل » ، كانت كلها
مفاهيم يعيشها الطفل من خلال خبرة عملية تولد إدراكاً مباشراً . الآ
يتعلم أن سبعة مرات ثمانية تساوى ستة وخمسين ، لكنه لا يستطيع
أن يقول كم من المرات ستة وخمسين أكبر من ثمانية ! ما المعنى
الحقيقى لما يتعلمه بالنسبة له ؟ الصعوبة التى يجدها فى دراسة جداول
الرياضة وفى تسميعها خير إجابة على هذا السؤال . هذه المعلومات
تكاد لا تمثل بالنسبة له شيئاً على الإطلاق . هذه المشكلة تخص التعليم
ولا تهمنا كثيراً فى إطار حديثنا هذا . لكن المبدأ نفسه يمكن تطبيقه فى
مجال التربية أيضاً . فيما يخص « التوجيه المهنى » واكتشاف موهبته
الحقيقية ، يجب أن يستمر هذا الطفل فى ممارسة إمكاناته وقدراته
المختلفة . لا يكفى أن يمارسها فقط ، بل يجب ، وهو فى الفترة
السعيدة ، الفترة ما بين التاسعة والثانية عشر من العمر تقريباً ، فترة
الاتزان السيكولوچى والتفتح السوى على العالم ، أن يعى لهذه القدرات
والإمكانات وأن يدرك وجودها وأهميتها والدور الهام التى سوف تلعبه
فى حياته . ذلك حتى يستطيع ، فى الفترة التالية ، أى بين الثانية
والسادسة عشر تقريباً من عمره ، أن ينمى ويستثمر هذه الإمكانات
ليجعل منها أسس ممارسة موهبته فى حياته المهنية . لتحقيق ذلك
نحتاج إلى الآتى :

١ – نحتاج لنظام دراسى يسمح للطفل ليس « بالعلم » الذهنى
فحسب لكن بإدراك حقيقى يمر بقناة « الانفعال » والتجربة . للأسف ،
الدراسة حتى الآن إجراء يعتمد على الذاكرة أولاً . لا شك أن الطفل الذى
يتمتع بذاكرة قوية مميز بالنسبة للطفل الأكثر ذكاءاً لكن الأقل ذاكرة .
لا شك أن هناك احتياج إلى إعادة النظر فى البرامج الدراسية وإعادة النظر
فيما هو مطلوب من التلاميذ إذا أردنا إعطاء الذكاء والتفكير السليم
وقوة الملاحظة والقدرة على الإنجاز ، الأولوية التى يستحقونها بالنسبة
للذاكرة البحتة والقدرة على « التسميع » . هذا بالطبع صعب جداً ،
وليس موضوعنا . المهم أن مهما كان موضوع البرنامج الدراسى

يستطيع المدرس إذا أراد وإذا عرف كيف يفعل ذلك ، أن يعرض الموضوع ويدرِّسه بطريقة تجذب اهتمام الطلبة وتسمح لهم بالإدراك والاستيعاب من خلال القنوات التى تهمنا بدلاً من الاعتماد على الذاكرة و « الصم » . بعض الأطفال صنعوا بأيديهم أنموذج لحديقة جوراسية Jurassique ومثلو فيها العظائيات Sauriens بنسبها السليمة إلى حد ما ، مصحوبة ببعض البيانات الخاصة بها وبطريقة حياتها . لا شك أن هؤلاء الأطفال يعيشون واقع تلك الفترة من تاريخ كوكبنا بطريقة أفضل من الذين قضوا أسبوعاً « يسمعون » كل يوم صفحتين أو ثلاثة من هذا الباب ، لأن استيعابهم للموضوع مر بقنوات الشعور والإحساس والانفعال والعلاقة اللمسية الحيوية ، بدلاً من أن يمر بقناة الذاكرة البحتة فقط . (الذاكرة نفسها تعتمد إلى حد ما على « القدرة على التصوّر» وهذه القدرة موجودة بمقادير متفاوتة لدى الأطفال المختلفين . الطريقة العملية تساعد هذا التصوّر ...) حبذا أن يزور الأطفال أثناء هذه الفترة متحفاً مناسباً أو يشاهدوا فلماً يتولى الموضوع . أعطيت هذا المثال لأن هذا هو ما قام به مسئول من مسئولى الأقسام بمدرسة سان مارك . هذا فى رأيى هو التصرف التربوى المثالى .

الأنشطة الخارجة من جدول ونطاق « الامتحانات » مُهْمَلَة إلى حد كبير اليوم . علمتنا المدرسة ونحن طلبة بها كيف نصنع أجهزة « راديو » مبسطة مستعملين لذلك نوعاً من الحجر الطبيعى (غالينا = كبريت الرصاص) galène . لن أنسى أبداً الصدمة التى صحبت الاستماع الأول لهذا الصوت الصادر فجأة من المذياع الصامت ، كأننا أنجزنا معجزة ... ربما لم يثير هذا النشاط جميع الطلبة بنفس القدر . سوف عوض البعض عدم استجابتهم هذه بالمتعة التى شعروا بها عندما اكتشفوا واستعملوا الآلات الموسيقية المختلفة . شرح لنا مدرس الموسيقى أن ثلاثة أوتار ، « أ » و « ب » و « ج » من نفس المادة ومن سمك واحد ، التى تعطى نغمات الدو والمى والسول ، تمثل دائماً أطوالها تناسباً ثابتاً على شكل : ب = ٢ أ ج ÷ أ ج ، وهذا التناسب هو نفس تناسب المتتابعة الجبرية . لم أكن بلغت من العمر ما يسمح لى بإدراك

ما هى المتتابعة الجبرية ، لكنى اكتشفت فى ذلك اليوم أن لتوافق ألحان الدو والمى والسول ، أى أن للجمال السماعى الصوتى ، واقع حسابى أكيد ، وأن هناك علاقة أكيدة بين الفن والجمال والعلم والحساب . كانت هذه اللحظة بالنسبة لى لحظة الحدس intuition الأولى بتماسك أوجه الحياة المختلفة ووجود لُحْمة مشتركة لكل ما يدور حولنا . زاد منذ هذه اللحظة إدراكى بوحدة تكوين الكون . أثر هذا الإدراك على جزء كبير من تفكيرى اللاحق . منه نتج شعورى بأهمية التكوين « العالمى » أو « الكونى » للإنسان وتكوين « الشخصية العالمية » (ليعد القارئ إلى « المقدمة ») . منه نتجت محاضرة أحرزت نجاحاً كبيراً ألقيتها سنة ١٩٧٣ ، أى بعد مضى أكثر من عشرين عام ، بعنوان « إدراك الوحدة الأساسية للكون من خلال تعدد الأشكال واختلاف الظواهر » .

كان دائماً ينهى العام الدراسى حفل رياضى كبير يتطلب شهوراً من الإعداد والتمرين . كانت فترة سعيدة جداً تركت فى نفوس جميع الذين عاشوها ذكريات جميلة وولدت فيهم روحاً خاصة . مثل هذه المناسبات كانت أيضاً فرصة كبيرة لظهور مواهب وإمكانات خفية لم تكن لتظهر أبداً ، وكانت هذه الجهود تنال ما تستحقه من الاعتراف والتشجيع .

لا شك أن النص الكتابى ، طالما أمكن قراءته ، أدى الغرض الأساسى من كتابته . لذلك تُرِكَت دروس « الخط » وأوقفت . خسارة كبيرة حقاً ... حصص « الخط » المعروضة على الطلبة كأداء فنى يخدم الجمال والمهارة ، تنمى تذوق الجمال وتربى عقلية « الفعل بلا مقابل أو بلا مبرر منفعى » و « والعطاء الغير مشروط » ، أى مفاهيم مثل « الجمال للجمال » أو « الرياضة للرياضة » ... إلخ . وهذا المفهوم ينقص شباب اليوم . إنهم فقدوا الإحساس بجمال مفهوم مثل « المجهود للمجهود » . إننا نعيش فترة تسودها مفاهيم « المنفعة » و « الاستفادة » و « المصلحة » . الكشافة الذى اعتاد فى الماضى قول « نحن نحب الصعوبة ونتغلب عليها » يبدو اليوم متخلفاً عقلياً يميل إلى العمل والمجهود والكفاح بلا ربح ولا منفعة ولا مصلحة ! السؤال الهام اليوم هو :

« ما الربح من وراء ذلك ؟ » حاجز هام جداً قام فى بعض الأحيان بينى وبين بعض أعضاء مجالس الآباء لبعض المدارس هو تساؤلهم عما « يخفيه » اهتمامى بأطفالهم من مصلحة شخصية وبحث عن منفعة لا يستطيعون تصورها . ولى الأمر الذى ينظر إلىّ بحدة دون أن يشترك فى المناقشة العامة التى تدور هو الشخص الذى سوف يسألنى فى الدقائق التالية السؤال الذى اعتدت سماعه : « ما مصلحتكم فى هذا النشاط ؟ ما الفائدة التى تعود عليكم من وراء ممارسته ؟ » الشبهة تبدأ أوتوماتيكياً من لحظة غموض « الاستفادة » المتوقّعة .

لا شك أن عهد دروس الموسيقى المعممة لجميع الطلبة وعهد حصص « الخط » وعهد الحفلات الرياضية قد مضى . ليس فى ذلك عيب . كل شئ ينتهى ولا بد من أن ينتهى حتى يحل محله ما هو أفضل وأكثر تطوراً وتلبية لاحتياجات الزمن والناس . لكن المؤسف هو عدم استبدال هذا النشطة بما يخدم نفس الهدف التربوى ويحافظ على نفس القيم والمفاهيم . لذلك ، نجد أن أقلية فقط من شباب اليوم يعرفون الموسيقى الكلاسيكية والشعر والأوبرا . لا أحزن لعدم « حبهم » لها . أحزن فقد لعدم « علم » نسبة كبيرة منهم بمجرد وجودها أو بما هى فى حقيقتها . أنا أتحدث هنا عن « ثقافة » عامة بحتة . تتضخم كل يوم البرامج الدراسية لتُخْرِج طلبة أقل فأقل ثقافة ... لقد « سمعوا » عن مثل هذه الأشياء لكن لا يعرف الكثير منهم أن هذه الأشياء تستطيع أن تكون جميلة وجذابة . ثم ... « ما فائدتها ؟ فى أى بنك يمكن صرفها ؟ » الانعكاس المباشر البسيط الذى يستطيع كل منا ملاحظته فى حياتنا اليومية هو ، على سبيل المثال ، استحالة ممارسة لعبة رياضية للمتعة فقط . حتى الذى يدعى اليوم أنه يلعب للمتعة يلعب فى الواقع للمكسب وتظهر صحة هذا الرأى على وجهه إذا خسر المباراة .

٢- نحتاج أيضاً أن يكف المربون والمدرسون من « قول » الأشياء للطلبة ليعلموهم كيف يبحثوا وكيف يكتشفوا تلك الأشياء بأنفسهم . الأطفال الذين يتعلمون ويرددون جميعاً ما قاله المدرس كلهم نماذج من هذا المدرس . أما الطلبة الذين يتعلمون كيف يبحثوا وكيف يكتشفوا ،

فهم يتعلمون الاستقلال الذهنى والفكرى وينمون شخصيتهم ويحصلون أخيراً على معلومات أساسية وإضافية تلونها شخصيتهم ويضيئها اتجاه بحثهم الشخصى الخاص . هذا يمثل ثروة كبيرة ليس لهم شخصياً فحسب لكن أيضاً للفصل كله ، الذى لم يعد يحمل فقط البصمة المميزة لمدرس معين .

٣- نحتاج أيضاً إلى مدرسين يهتمون بالقدرات والإمكانات الخاصة بكل طفل وبكل مراهق لأنهم يدركون كل الإدراك أهمية دورهم فى توجيه هؤلاء الطلبة من الناحية المهنية ، بدلاً من أن ينصب اهتمامهم كله فى الامتحان ونتيجته التى تصنع أو تهدم - للأسف - سمعة أحسن المربين وأفضلهم . يجب أيضاً ألا تخفى كل هذه الأبعاد الشخصية الخاصة بالطلبة أهمية تربية الروح الجماعية : انتهى عصر الإنجاز الفردى . كل الإنجازات القيمة الهامة أصبحت فعل عمل جماعى . إن « الكفاح من أجل الحياة » خلق روح من « الفردية » جعلت الناس تعمل سوياً وتنشط جماعياً فقط لأن ليس هناك مفراً من ذلك ، لكنهم لا يسعدون لهذا الوضع أبداً بل وينتهزون كل فرص الكذب والطعن فى الذين يقفون فى طريقهم إلى التقدم ، للحصول على المزيد من البريق الاجتماعى والسيطرة والارتقاء على السلم الاجتماعى (ليعد القارئ إلى « إرادة السيطرة ») .

من هنا ضرورة توجيه أولى خطوات العمل فى هذا المجال إلى هيئة التدريس نفسها . لا بد من تكوين مدرسين يتمتعون بالآتى :

أ- إدراك عميق وسليم لما هى « الموهبة » بمعنى " la vocation " أى بالمعنى الذى سبق وعرفناه (توظيف المواهب ؟)

ب- إدراك العوامل المهنية الحقيقية العملية التى تساهم فى إسعاد الشخص وكذلك العوامل التى تقلل من سعادته .

جـ- إدراك عميق لكافة أبعاد « احترام واقع » الطفل أولاً ثم واقع الشباب بعد ذلك .

د- القدرة على اكتشاف القدرات والإمكانات الحقيقية للطفل (ليعد

القارئ إلى « العناصر المكونة للأنماط » والقدرة على التمييز بينها وبين الجاذبية المؤقتة التى قد يشعر بها الشاب تجاه مهن لا تلائمه .

و- العلم الكافى لمساعدة الطفل على إدراك قدراته وإمكاناته بالتدريج ، ومساعدته على تنمية الإيجابيات ومكافحة السلبيات الموجودة فيه خاصة النمطية منها . سوف يستفيد الشاب بذلك فى علاقاته مع الآخرين وفى عمق إدراكه بنفسه أيضاً .

تستطيع هيئة التدريس كتابة ملاحظات خاصة بكل طفل وبتطوره الشخصى كل ستة أشهر مثلاً ولطول مدة بقائه بالمدرسة . هذا يسمح للمسئول الجديد عن الفصل بمعرفة الأطفال معرفة مسبقة للقائه بهم وكذلك بمواصلة جهود المدرس السابق فيما يخص تربية طفل معين بطريقة معينة لتحقيق أهداف معينة ، كما يسمح أيضاً للإدارة بمتابعة عمل المدرسين والتعاون معهم عند اللزوم .

هناك أيضاً احتياج كبير بل وضرورة قصوى إلى القيم بتوعية أولياء الأمور فى نفس وقت تكوين وتربية الأطفال والشباب . قد يكتشف بعض أولياء الأمور للمرة الأولى أن لكل منا « موهبة » vocation مستقلة تماماً عن الاعتبارات المادية والاجتماعية . قد يكتشف بعض آخر منهم ما هو « الإسقاط » وقد يدركوا فجأة أن ما يريدونه لأطفالهم ليس ما هو الأفضل بالنسبة لهم لكن فقط ما فشلوا هم فى تحقيقه من آمال وطموحات فى حياتهم الشخصية . نستطيع أيضاً أن نفسر لهم كيف يساعدوا المدرسة فى جهودها ويساهموا فى تحقيق الأهداف التربوية التى تسعى إلى تحقيقها .

٢- فيما يخص « معرفة » المهن المختلفة (وليس « العلم » بها) :

يجب أن يتخذ الشاب قراره النهائى فيما يخص اتجاهه العلمى أو الأدبى وهو فى السادسة عشر من عمره تقريباً . يجب إذاً أن « يتعرف » على المهن المختلفة وهو بين الثانية والخامسة عشر من العمر . الشاب الذى يكتشف مهنة من المهن فى نفس الوقت الذى يجب

عليه إجراء الاختيار ، يكتشف هذه المهنة بقدر كبير من القلق لأنه يتساءل عما إذا كانت هذه المهنة صالحة له . أما الشاب الذى يكتشف المهن سنة أو سنتين قبل حلول وقت الاختيار ، يهتم بالمهنة التى يكتشفها لنفسها دون قلق أو توتر . رؤيته صافية ونظرته للمهنة مجردة من تأثير الدوافع الداخلية الثانوية التى تفسد « واقعية » الاكتشاف .

يفضل بكثير أن يسلك هذا الاكتشاف مسلك الخبرة العملية . أنا مؤمن بذلك وأعرف بكل تأكيد أن هذا ممكن فعلاً لأننى جربت ذلك فى عيادتى الخاصة . استقبلت كثير من الشباب فى عيادتى ، كان يمضون ساعات دون أن أتحدث إليهم سوى للإجابة عن أسئلتهم فقط . كانوا فى البداية ينظرون حولهم ليروا كيف تسير الأمور وما الذى يحدث ، ثم إذا أرادوا كانوا يساعدون فى إجراء العمليات البسيطة مثل مساعدة الممرضة على إجراء بعض التحاليل السهلة أو مساعدتها على قياس الضغط مثلاً . أكد لى هؤلاء أن الساعات التى قضوها فى عيادتى مثلت بالنسبة لهم تجربة فريدة وأنهم لم يكونوا ليتخيلوا أن الطب الاكلينيكى « هكذا » ! هذا لا يعنى أنهم تأثروا جميعاً بنفس الطريقة : طلب بعضهم العودة للعيادة لقضاء ساعات أخرى بها ، بينما قال بعض آخر أنهم تأكدوا بصفة نهائية أن الطب الاكلينيكى لا يهمهم ولا يجذبهم . المهم أن التجربة مثلت اكتشافهم للطب الاكلينيكى وليس رأيى أنا الشخصى فيه . لماذا لا يقضى من يشاء من هؤلاء الطلبة يوماً كاملاً فى مستشفى من المستشفيات يمرون خلاله على الأقسام المختلفة ليستكملوا هذه التجربة التربوية المفيدة ؟ .

إذا فرضنا ستة مهن أساسية تحتاج كل واحدة منها إلى يومى دراسة واستكشاف عملى نصل إلى ضرورة برمجة أثنى عشر يوم نشاط مدرسى غير دراسى . من الواضح أن البرامج الدراسية الحالية لا تسمح بحذف هذا الوقت من وقت الحصص . لا بد إذاً من اللجوء إلى أيام الأجازة الأسبوعية وأيام الأجازة الصيفية . سوف تعارضون قائلين : « الأطفال سعداء بيوم الأجازة ولا يريدون التضحية به لنشاط

خاص بالمدرسة » . هذه هى نقطة أخرى من النقاط الجوهرية التى أريد مناقشتها . الطفل الذى كان يسعد لمجيئة إلى المدرسة عندما كان فى الحضانة ، الطفل الذى كان يفضل الحضور للمدرسة وقضاء الوقت مع « الأبلة » ومع الأصدقاء ، نفس الطفل أصبح اليوم يسعد لأيام الأجازة ويرفض الحضور للمدرسة أثناء الأجازات بعد أن دخل النظام الدراسى ... لماذا هذا الانقلاب فى اختياراته وفى أولوياته ؟ هل طرأ التغيير على الطفل نفسه أثناء مروره من الحضانة إلى الفصول الابتدائية ، أم هل طرأ التغيير فى النظام المدرسى نفسه مما غير من علاقة الطفل بمدرسته ؟ من الجدير بالذكر أن ليست كل المدارس بدون استثناء التى تولد لدى الطفل هذا الرد فعل السلبى . هناك بعض المدارس تمارس الأساليب التربوية بطريقة جعلت الطلبة يفضلون أيام المدرسة على أيام الأجازات ويسعدون جداً عندما تسمح لهم الظروف أو اقتراحات هيئة التدريس بمقابلة الأصداقاء والمدرسين فى أيام العطلة الأسبوعية . لا شك أن طلبة مثل تلك المدارس سوف ينتظرون بفارغ الصبر فرصة قضاء يوم أجازة فى مكتب أعمال هندسية أو فى صيدلية أو فى مستشفى أو فى مكتب أستاذ محاماة مشهور .

ملاحظات خاصة بالمهنيين الذين يستقبلون الشباب :

١- يجب أن يكون المهنى الذى يستقبل الشاب فى مكان عمله على دراية كاملة بما نتوقعه منه بالتفصيل .

٢- يجب ألا يقوم « بالدعاية » لمهنته فى أى حال من الأحوال . مهنته مثل أى مهنة أخرى بالضبط : قد تصلح تماماً للبعض وقد لا تصلح إطلاقاً للبعض الآخر . قد تُسعِد مهنته الذين أصابو الاختيار وقد تضايق أو تسمم حياة الذين أساءوا الاختيار .

٣- يجب أن تتاح للشباب فرصة الاشتراك فى عمل ما ، دون أن يكون هذا العمل فى درجة من الصعوبة تضايقهم وتعطيهم انطباعاً سلبياً بالنسبة للمهنة .

٤- يجب أن يشعر الشباب أن هذا المهنى فى خدمتهم إذا احتاجوا

إليه للشرح والتفسير والإجابة عن الأسئلة دون أن يقتحم مجالهم ودون أن يتدخل أكثر مما هو ضرورى فيما لا يخصه .

٥- يجب ألا يبدى المهنى « أبوية » و « حماية » بالغة . لا يذهب الشاب للمهنى لإعطاء هذا الأخير فرصة الافتخار بما أنجزه فى حياته المهنية ولا ليكتشف المسافة بين ما هو عليه اليوم كطالب صغير وما سوف يحققه فى يوم من الأيام مستقبلاً . قد يكون شعوراً محبطاً أن يكتشف الشاب المسافة الحقيقية بين وضعه الحالى وهدفه المستقبل ، وقد يبعده ذلك عن اختيار اتجاه مهنى يلائمه تماماً . الحب والعطاء والاستيداع دائماً فى خلفية كل هذه العلاقات الإنسانية .

٣- فيما يخص « معرفة » احتياجات الوسط الذى يعيش فيه الشاب والرغبة فى خدمة هذا الوسط بدلاً من الرغبة فى استغلاله لأغراض شخصية :

هذه النقطة ليست خاصة بالتوجيه المهنى . إنها تخص التربية العامة للنشء فى إطار التكوين الذين تخططه المدرسة له فى المجال الإنسانى والمجال الخُلُقى العام . إن الرغبة فى خدمة المجتمع الذى نعيش فيه ليست سوى التعبير عن درجة النضج العام التى ساهمت المدرسة وبرامجها التربوية التكوينية فى خلقها أو شجعت ازدهارها لدى الطلبة . لم أكتب عفواً « ساهمت المدرسة فى خلقها أو شجعت ازدهارها ... » . إن درجة النضج التى يحققها كل منا تتوقف أساساً على تكوينه الوراثى . على المدرسة أن « توجه » وتشجع وتنشط هذه العملية الطبيعية ، وعليها أن تنمى لدى الشاب الرغبة فى تحقيق ذاته إلى أبعد الحدود الممكنة . الهدف من الفصل الخاص « بالخلية التى حققت التحرر » ما هو إلا خدمة هذه النقطة .

البرامج التكوينية التى تقدم للشاب بطريقة عملية وجذابة بعض أو كل محتويات الفصول الخاصة « بقصة من قصص كوكب الأرض » و « الخلية التى حققت التحرر » و « بعض الدوافع الخفية التى تأثر على تصرفاتنا » و « عناصر تكوين الأنماط » بالاضافة إلى تربية جنسية اجتماعية وبعض التعمق فى التفكير الدينى والخلقى ، قد تساعد النشء

وتتيح له فرصة إدراك أفضل لما يدور فى نفسه وكذلك فى الآخرين . تطبيق محصلة هذه التربية على تحليل اجتماعى للوسط الذى يعيش فيه يسمح بلا شك بإدراك أفضل لمشاكل ولاحتياجات هذا الوسط . اكتشاف وممارسة قيم مثل « التعهد » و « المسئولية » و « العطاء الغير مشروط » فى أبعادها الحقيقية (أى فى الأبعاد الموصوفة فى «الخلية التى حققت التحرر») تعطى النشء شعوراً بتماسكه وبمشاركته حياة الوسط الخاص به ومشاكلها ، لأنه أدرك تماماً أن « الأنانية » و « البحث عن الذات » ما هى سوى أوجه مختلفة للنقص فى « النضج » العام . هنا أيضاً ، كما هو الحال بالنسبة لنقاط سابقة ، قد يسبق تكوين هيئة التدريس تكوين الطلبة .

كثير ما قيل لى أن تكوين المدرسين فى هذا المجال استحالة . أثبتت التجربة عكس ذلك . يمكن نقل المعلومات إلى المدرس الذى يتمتع بذكاء متوسط طبيعى . أما نوعية العلاقة التى يستطيع أن يخلقها هذا المدرس بينه وبين الطلبة ، فهذه ترجع إلى مواهبه الخاصة فى هذا المجال ، وهذا شئ يصعب تدريسه . يمكن إذاً إعطاء المعلومات للجميع ، لكن يجب بعد ذلك اختيار الموهوبين الذين يستطيعون تطبيق هذه البرامج التربوية ، وإعطاء هؤلاء فقط المزيد من التكوين الخاص بالبرنامج الذى يجذبهم والذى يريدون محاولة تنفيذه . المشكلة الحقيقية التى واجهناها بالنسبة لهيئة التدريس كانت دائماً على مستوى « الدافع » الداخلى للعمل ، وليس على مستوى « القدرة » الحقيقية على القيام به ! هناك نقتطان جديرتان بالذكر فيما يخص « الدافع » الذى يحرك أو لا يحرك بعض المدرسين تجاه العمل التربوى الذى نعنيه فى هذه الصفحات :

١ - اختار مساعد ناظر مرحلة ثمانية من مدرسى هذه المرحلة وعبر لهم عن أمله فى أن يساهموا ويشتركوا فى عمل تربوى إضافى إلى جانب التدريس الذى يقومون به . ثم أخذ « يكوّن » هؤلاء الثمانية ويؤهلهم للعمل الذى ينتظره منهم . لا أعرف تفاصيل ما حدث ، لكنى أعرف أن خلال الشهور الثلاثة التى تلت هذه البداية احتج عدد كبير من

المدرسين الآخرين سائلين عن سبب « تفضيل » زملائهم الثمانية ، وطالبين الانضمام إلى هذه المجموعة « المفضلة » ...

٢- إنشاء نظام جديد ليس من العمليات السهلة البديهية ، قد تكون السنوات الأولى فى غاية الصعوبة . لكن هناك أمل كبير فى جمع مربين ممتازين بعد بضعة سنوات من بداية النشاط من بين طلبة اليوم المستفيدين بهذه التربية . بعض المدرسين الثمانية الذين سبق ذكرهم كانوا أعضاء فى منظمات شبابية وتلقوا أثناء فترة مراهقتهم تكويناً إنسانياً وسيكولوجياً وخُلُقياً نجنى اليوم ثماره . من ناحية أخرى ، ما زلت على اتصال ببعض الطلبة الذين أنهوا دراستهم فى مدرسة سان مارك منذ سنتين أو ثلاثة بعد أن استفادوا ببرنامج التكوين الجنسى الاجتماعى لمدة ثلاثة أو أربع سنوات : أشعر أن هناك احتمال وجود مربين صالحين جداً بين هؤلاء ، بعد انتهاء دراساتهم الجامعية ، سوى عملوا فى التدريس أو فى غير ذلك من المهن الكثيرة الأخرى وحضروا إلى المدرسة زائرين فقط كما هو الحال بالنسبة لى .

٤- فيما يخص التوافق بين الإمكانات الشخصية والاحتمالات المعروضة :

لا أعتقد أن هذه النقطة الأخيرة تحتاج لأى عمل أو لأى تجهيزات خاصة . تحقيق النقاط الثلاث الأولى يضمن إلى حد كبير تحقيق هذه النقطة الرابعة . فرصة التوفيق فى تزاوج الإمكانات الشخصية والمهن الموجودة كبيرة جداً بالنسبة للشخص الذى نمى قدراته الطبيعية وأدركها تماماً ، ثم اكتشف المهن المختلفة وأدرك عناصر إسعاده الحقيقية بالنسبة لكل واحدة منها ، ثم رغب فى خدمة المجتمع بأفضل ما بوسعه تقديمه له . مثل هذا الشاب لا يتم اختياره لمهنته بناءاً على « اختيار ذهنى بارد ومحسوب » ، لكنه يعيش من « الداخل » حقيقية أمره ، ويعيش من الداخل واقع المهن المختلفة ، ويعرف تماماً ما الذى يريد أن يصنع من حياته . لذلك ، فهو « يعرف » تمام المعرفة أن مهنة معينة هى المهنة التى يريدها لنفسه لأنها تمثل « المعنى » و « الهدف » من حياته البالغة ولذلك سوف يبذل كل جهده لينجح فيها بأفضل طريقة ممكنة

هناك بالطبع احتمال آخر بالنسبة للمدرسة التى لا تستطيع أن تحقق هذا الهدف التربوى . إذا عجزت المدرسة عن جعل النشء « يكتشفون » بأنفسهم كل ما سبق ليعيشوا هذه الأبعاد من « الداخل » تستطيع المدرسة أن تلجأ للإعلام البحت وأن « تقول » لهم أن من عناصر سعادة الإنسان المهنية التوافق بين المهنة التى يختارها وإمكاناته الطبيعية ، ثم تساعدهم على البحث والتفكير على قدر إمكانها .

للتربية الحقيقية الأولوية المطلقة . يجب أن نعمل لإنشائها حيث لا توجد . أما إذا استحال ذلك ، فلا شك أن الإعلام يحتفظ دائماً بقيمته كاملة ...

الفصل الثامن

التربية الدينية

بالرغم من قصره وقلة محتوياته لا يقل هذا الفصل أهمية عن باقى الفصول الأخرى . المحور الأول المبنى عليه هذا الفصل هو الأسئلة التى يوجهها إلى الشباب – مسيحى كان أو مسلم الديانة – والتى أرفض الإجابة عليها راجياً منهم اللجوء إلى مدرس الدين أو المرشد الروحى إن وجد . الأسئلة التى أثارت اهتمامى ليست أسئلة وجهها شباب لم يتلقى أى تكوين دينى على الإطلاق : مثل هذا الشباب معذور وجهله لهذه المواضيع مقبول إلى الحد ما ... الأسئلة التى اثارت اهتمامى أسئلة سألها شباب تلقى أولى الدروس والتوجيهات الدينية وهو فى السادسة أو السابعة من عمره ، سواء كانت دروس فى الدين المسيحى أو دروس فى الاسلام ، وهو الآن فى السابعة أو الثامنة عشر من عمره وأوشك على إنهاء دراسته وترك المدرسة بعد ما يزيد عن عشرة سنوات من التكوين الدينى المتواصل . أسئلتهم تمثل اتهاماً صريحاً بعدم كفاءة مرشديهم وعجز هؤلاء على تقديم ما يلبى احتياجات وتساؤلات شباب اليوم فى هذا المجال . المحور الثانى المبنى عليه هذا الفصل هو الجهل النسبى الذى أرى فيه البالغين حولى . أقصد هنا فقط البالغين الذين تلقوا – هم أيضاً – تربية دينية تدعى المثالية لأنهم كانوا فى أحسن المدارس وأعلاها مستوى دينى وخُلُقى . أما البالغون الأقل من هؤلاء حظاً ... أفضل عدم الحديث عنهم . محتويات الصفحات التالية تخص إذاً كلا مسئولى التربية الدينية المسيحية والتربية الدينية الاسلامية على قدم المساواة .

هل يمثل « الدين » احتياجًا ؟ :

هذا السؤال خير مثال لسؤال لا معنى له ! مثل هذا السؤال ومحاولة الإجابة عليه خير دليل على ضعف مستوى التكوين الدينى وضعف مستوى التكوين الفلسفى الخاص بقواعد التفكير والنظام الذهنى . يمكننا الحديث عن « الإيمان » والسؤال عما إذا كان « الإيمان »

يمثل احتياجاً للإنسان . نستطيع أن نتحدث عن « المعلومات الدينية » أو علم الدين والسؤال عما إذا كان علم الدين يمثل احتياجاً للإنسان . لا معنى للتساؤل عما إذا كان « الدين » يمثل احتياجاً ...

لا . الإيمان ليس باحتياج . أعنى بذلك أن الذين لا يؤمنون لا يشعرون أن الإيمان احتياج . النقطة المحورية لهذا الموضوع هى عدم شعور الذين لا يؤمنون بدين ما « بنقص » ما . أستطيع أن أقارن بين وضع هؤلاء ووضع الذين يتمتعون بمستوى ضعيف من الذكاء مثلاً : هم أيضاً لا يشعرون أنه ينقصهم شيئاً من الذكاء . بل وكلما انخفض مستوى ذكائهم كلما عاشوا فى رضا عن وضعهم . فقط الوصول إلى مستوى معين من الذكاء ، مستوى متقدم نسبياً ، يسمح بالمقارنة بذكاء الآخرين ويتمنى ذكاء أفضل . من هنا قد تنبع محاولات التقدم ومحاولة اكتساب المزيد من العلم والتكوين . فقط المؤمن يستطيع أن يشعر أن إيمان شخص آخر أقوى أو أفضل من إيمانه ويستطيع أن يتمنى الوصول إلى هذا المستوى من الإيمان فى يوم ما . أما الذى لا إيمان له فهو لا يشعر بنقص ما ولا يتمنى تغيير وضعه . من ناحية أخرى الإيمان مسألة « نمطية » إلى حد ما . (ليعد القارئ إلى الفصل الخاص « بعناصر تكوين الأنماط ») . لا شك فى أن للوسط الذى يقضى فيه الشخص طفولته ، وللتربية التى يتلقاها ، ولتصرفات أقربائه وأفراد عائلته ، تأثير عميق على عاداته وطريقة تفكيره . لكن لا شك أيضاً أن الإيمان ، هذه السهولة أو هذا الميول إلى الانضمام لما يشعر الشخص بأنها حقيقة عميقة وأكيدة ، مسألة إحساس ، مسألة مشاعر و« انفعال » ، أى مسألة كروموزومات ووراثة . الذين يقولون أن الإيمان هبة من الله للإنسان يعرفون أن نمطنا ووراثتنا أيضاً هبة منه . النتيجة الواضحة لما سبق أن المربى الدينى لا يستطيع أن يلعب دوراً ما على مستوى « الإيمان » نفسه .

لا يجب النظر إلى العلم الدينى على أنه احتياج . الثقافة ليست « احتياج » . لا « نحتاج » لمعرفة شئ فى الموسيقى . لا نحتاج لمعرفة أن الأرض كروية الشكل وأنها تدور . لا « نحتاج » لمثل هذه الأشياء لأن -

بلغة العصر الحديثة – هذه الأشياء لا تفيدنا مادياً . يقول الشاب : « الآن وبعد أن عرفت ذلك ، فى أى بنك أستطيع أن أصرفه ؟ » . هناك فرق بين الاحتياج والضرورة . علم الدين قد لا يمثل احتياجاً بالنسبة لأنماط كثيرة : رجال كثيرون يعيشون بدون إيمان وهم يشربون ويأكلون ويتزوجون وينجبون ويسافرون ويعملون ... إلخ ، لكنه يمثل ضرورة لمن يريد أن يعيش على مستوى معين من مشاركة الآخرين ومشاركة ما يدور حوله فى العالم من أحداث وفى الكون من تغييرات . واجب علينا أن نعرف على الأقل ما لا نستطيع أن نؤمن به ! واجب علينا أن نعرف ما يؤمن به الآخرون ! حتى إن لم يكن هناك مصلحة مادية لذلك . حتى إن لم يكن العلم الدينى سلعة استهلاكية !

الاتجاه الواضح للفقرة السابقة هو أننا وضعنا العلم الدينى (وليس الإيمان) على قدم المساواة وعلى نفس درجة أهمية أى موضوع ثقافى آخر . هذا فعلاً ما أردناه . الشخص الذى يتساءل والذى يحتاج لإجابات شخص يبحث . من يبحث بصدق وأمانة يجد دائماً ، آجلاً أم عاجلاً ، إجابة أو إجابات لتساؤلاته . هذا البحث نفسه مصدر حركة ونشاط ذهنى وسيكولوچى وخلقى . البحث يزيد الباحث فهماً وإدراكاً ونضجاً وتفتحاً . البحث يستصلح الباحث . من أغلى النصائح التى تلقيتها النصيحة التى وردت من صديق غالى أشكره من صميم قلبى على نصيحته القيمة . قال لى صديقى : « ابحث ، فكر ، ادرس ، اعمل ، واكتب نتيجة خبرتك . إن لم يكن ذلك ليفيد أحداً ، سوف يكون أفادك أنت الأول ... » . مرّ عامان على هذه النصحية وما زلت أكتشف لها أبعاداً جديدة كل يوم . الذى لا يتساءل لا يبحث عن إجابات . يقود هذا الشخص حياة استاتيكية متصلبة متجمدة . لمثل هذا الشخص ، لا يجوز أن يمثل العلم الدينى سوى فرع آخر من فروع الثقافة العامة العديدة . لذلك ولهذا الشخص فقط ، أى جميع الذين لا يؤمنون ولا يلاحقهم الاحتياج الفطرى الوراثى النمطى للتساؤل والبحث عن إجابات ، وضعنا العلم الدينى على مستوى الضرورة وليس على مستوى الاحتياج ، على أن يكون شأنه شأن الثقافة العامة لا أكثر . يجب

أن نعترف بكل صدق وبكل بساطة أن ما هو فى غاية الأهمية بالنسبة للبعض قد لا يمثل نفس الأهمية أو لا يهم إطلاقاً البعض الآخر ، ربما ساعدتنا هذه الصراحة على تقديم خدمة أفضل مبنية على إدراك أعمق لما يدور فى ذهن وفى قلوب أطفالنا .

يقودنا ما سبق إلى طرح سؤالين :

١- هل يحق لنا القيام بالتعليم الدينى ؟ .

٢- ما هو وضع الذين تلقوا تعليماً دينياً لمدة لا تقل عن عشرة سنوات ؟ .

هل يحق لنا القيام بالتعليم الدينى :

أنجبنا دون أخذ رأى المعنيين . اخترنا لهم الأكل واللبس لأننا نعرف - أو على الأقل هذا ما يروق لنا ظنه - ما هو الأصح والأكثر فائدة بالنسبة لهم . كذلك اخترنا لهم مدرسة (إن لم يكن اختارها مكتب التنسيق) . اخترنا لهم الأصدقاء والمعارف ، اخترنا الألعاب الرياضية التى نشجع ممارستها ، اخترنا مواعيد النوم والاستيقاظ وسمحنا أو منعنا الذهاب إلى النادى ودار السينما محددين الميعاد الأقصى للعودة ... إلخ . قررنا تطعيمهم واخترنا أطباءهم . نظمنا أجازاتهم ورحلاتهم . طالبناهم بالنجاح فى الامتحانات وطالبناهم بالنجاح فى حياتهم . أنجبنا أحياء ، ولأننا نشعر بمسئولية ما فعلناه أسقطنا فيهم أغلبية مشاعرنا وطموحاتنا وإحباطنا ونظمنا أدق تفاصيل حياتهم بدءاً من لحظة ولادتهم .

أما فيما يخص التربية الدينية فهناك تياران فكريان متناقضان . البعض يكمِّل المسيرة التى سبق وصفها ويرى أن لا بد من إعطاء الأطفال تربية دينية متينة وقوية فى مجال الدين الوحيد الصحيح وهو دينهم طبعاً ، مهما كان هذا الدين ، والبعض الآخر يبدى للمرة الأولى خجلاً لم نشاهده من قبل منذ أنجبوا ويرون أن من الأفضل عدم التأثير على الطفل فى هذا المجال ويفضلون عدم التعليم الدينى بعلة احترام حق الطفل فى اختيار الأفكار الدينية التى تناسبه فيما بعد . إنهم تحملوا

مسئولية توجيه الطفل فى جميع مجالات حياته دون وضع ما قد يكون رأيه فى هذا التوجيه فيما بعد فى اعتبارهم ، ويرفضون توجيهه من الناحية الدينية احتراماً لحرية الطفل التى تجاهلوها فى جميع المجالات الأخرى ! يبدو فى أول الأمر أن هناك فرق جوهرى بين الذين يريدون التعليم الدينى لأطفالهم والذين يرفضون تحمل مسئولية هذا التعليم . الفرق فى الواقع ظاهرى فقط . إذا تعمقنا فى الموضوع لوجدنا أن كلاهما يعانى من نقص أساسى يترتب عليه خطأ فى الرؤية والنظرة الموجهة للموضوع . ترى ما هو هذا النقص الأساسى وما هو الخطأ الذى ينتج عنه ؟ .

مدافعى « التعليم » الدينى ومدافعى عدم التدخل يشتركان فى نوع الإيمان الذى يعيشونه : إنهم يؤمنون لكن إيمانهم لا ينعكس فى الواقع على حياتهم العملية . إنه إيمان نظرى فقط . الدين بالنسبة لهم عبارة عن مجموعة من التعليمات يجب مراعاتها وتنفيذها . لذلك ينظرون إلى الدين على أنه قابل أو غير قابل « للتعليم » . قد يكون هذا الرأى صائباً إلى حد ما : « يعتاد » فى بعض الأحيان النمط الذى يعشق النظام والترتيب على احترام الفرائض الدينية دون أن يناسب ذلك إيماناً عميقاً حقيقياً . بعض الأنماط تستجيب لنوع من « الروتين » الدينى . لكن الحقيقة أن ليس هناك إيمان حقيقى دون ارتباط والتزام وتعهد . هذا المبدأ لا يخص الإيمان الدينى فحسب ، لكنه ينطبق على الإيمان بجميع أنواعه وفى جميع المجالات . لا إيمان بلا تعهد . لذلك أن الإيمان غير قابل « للتعليم » و « التدريس » . يستطيع أولياء الأمور « تعليم » أطفالهم ما هو الدين وما هى تعليماته . لا يستطيع أحد أن « يعلِّم » الإيمان أو أن « يدرِّسه » . الإيمان شهادة . الإيمان يظهر فى كل خطوة من خطوات الإنسان وفى كل ظرف من ظروف حياته ، لكنه لا « يعلم » ولا « يدرس » . الذين يشاهدون المؤمن وهو يعيش ويتصرف يتساءلون عن أسباب تصرفاته واختياراته . نادراً ما لا يتساءلون لأنهم يفهمون ويعرفون . هنا تغلق الدائرة : الذين « يفهمون » و « يعرفون » هم الذين يتمتعون بدرجة من « الانفعال » تسمح لهم بذلك . (ليعد القارئ إلى « العناصر المكونة للأنماط ») . قد يعجب أو

يتعجب الذين لا يتمتعون بنمط كافى « الانفعالية » ليفهموا ويدركوا دوافع الإيمان ، لكنهم يعجزون عن مشاركة نفس الشعور . إنهم يتقبلون إيمان الآخرين من باب احترام حريتهم ، لكنهم لا يتذبذبون استجابة لنفس الدوافع وعلى نفس طول الموجة . هؤلاء الذين يقولون : « أنا مؤمن لكننى لا أمارس الدين » ، هم الذين يختارون عادة ترك حرية الاختيار الدينى لأطفالهم وعدم التأثير عليهم وعدم توجيههم . هم يتركون فى الواقع لأطفالهم حرية اختيار تطبيق أو عدم تطبيق « تعليمات » دينية لا يتماشى معها إيمان حقيقى فعال ولا تشمل مفهوم التعهد والالتزام الذى يفترضه الإيمان بجميع أنواعه ، لأنهم لا يعيشون أنفسهم تعهداً حقيقياً . إنهم يعيشون فقط خضوعاً للتعليمات وهذا النوع من الخضوع لا يمثل إيماناً ولا تعهداً . أما الآخرون ، الذين يدافعون عن مبدأ « التعليم » الدينى ، إنهم لا يختلفون كثيراً عن الأوائل ، هم أيضاً ، لا يعرفون التعهد الحقيقى الذى يفترضه الإيمان العميق . لذلك يشعرون أنه من الضرورى « تعليم » و « تدريس » الدين ، ولا يفهمون ولا يشعرون أن الإيمان شهادة قبل أن يكون خضوعاً لتعليمات ، وأن أطفالهم ، بذكائهم الطبيعى ورقة مشاعرهم إن وجدت ، سوف يتساءلون فى الوقت المناسب عن سبب اتجاه حياة الوالدين ، وسوف يعثرون وقتئذ على إجابات لا يستطيع أى « تعليم » وأى « تدريس » أن يوفرها لهم .

قدر ما نعيش إيماناً حقيقياً هو قدر استغنائنا عن التأثير على أطفالنا : إننا ننقل لهم إيماننا بنفس الطريقة التى ننقل بها لهم باقى أبعاد شخصيتنا ومشاعرنا . أما شرح الأسباب وتفسير المبررات فهى ، فى هذا المجال ، ثانوية الأهمية : قيمتها الوحيدة هى أن تدعم فى الوقت المناسب البناء الروحى الذى سبق تأسيسه ونصبه عالياً إلى الوجود .

ما هو وضع أطفالنا بعد ما يزيد عن عشرة سنوات تعليم دينى :

تنتج أسئلتهم عن فقر وضعف المعلومات التى يملكونها . لنحاول تحديد آفاقهم الدينية :

١- يجهلون « تاريخ الديانات » جهلاً كاملاً . مع ذلك يتساءلون عن مصدر وعن بداية ظهور الديانات على وجه الأرض ، مثلما يتساءلون عن الصداقة والوفاء والحب تماماً . حتى المؤمن منهم يتساءل عن تاريخ وعن منبع إيمانه . فى الواقع ، المؤمنون هم الأكثر أسئلة فى هذا المجال . الآخرون لا يهتمون كثيراً بهذه المسائل . الأكثر تكويناً وعلماً يجيبون عن : « ما هو الإيمان ؟ » بالإجابة التالية : « الإيمان هبة من الله » . إنهاء هذا الموضوع بإجابة مكونة من أربعة كلمات فقط لا يشبع رغبتهم فى البحث ولا احتياجهم للفهم . أما الغير مؤمنين الذين اعتادوا التفكير والتساؤل ، تقول إجابتهم أن : « الإيمان الدينى هو الإجابة الوحيدة التى وجدها الرجل البدائى لجهله ولمخاوفه . أما الرجل الحديث المعاصر المتعلم فهو فى غنى عن الإيمان والدين لأنه يكتشف كل يوم المزيد من الإجابات العلمية والمنطقية التى تشبع فضوله وترضى عقله وتغذى ذكائه » . قد يُرضى هذا التفكير الذين لا يملكون غيره . لكن هذا التفكير يشجع للأسف الذين يدعون حماية وتدعيم الدين عن طريق إدانة العلم واستنكار قيمته .

٢- الشاب الذى كبر فى دين معين يعتقد أن دينه هو الوحيد الصالح وأن الديانات الأخرى كاذبة وغير صالحة بدون استثناء . لا تسألهم « لماذا ؟ » هذا يبدو لهم واضحاً وغير قابل للتفكير أو للتساؤل . إنهم يعلمون القليل جداً عن دينهم ويكادوا لا يعرفون شيئاً عن الديانات الأخرى لكنهم متأكدون أن الديانات الأخرى مخطئة . من الواضح أن هناك ما يجب تصحيحه فى نظرتنا لديننا وللديانات الأخرى أيضاً .

٣- يقول الشاب أن اللّه لا يطالب الإنسان إلا بالطاعة ولا يتوقع منه سوى الخضوع . اللّه ، مثل المدرس ، يصدر الأوامر : على الطالب تنفيذها .

٤- « ما هو الشر ؟ » هنا أيضاً تتلخص إجابة الشاب فى أربعة كلمات : « الشر هو الشيطان يمتحننا » .

٥- « ما هى الخطيئة ؟ » هنا الإجابة تزيد كلمة عن سابقاتها : « الخطيئة عدم طاعة أوامر اللّه » .

هكذا نظمت الثلاثية : الخير – الشر – الإنسان . أو ، بمعنى آخر : اللّه – الشيطان – الإنسان . قوتان جبارتان تتصارعان . الإنسان أرض الصراع والهدف منه فى نفس الوقت . ستة آلاف سنة من تاريخ الديانات على سطح الأرض وثلاثة ديانات كبيرة تصنع تاريخ الإنسانية ، ويلخّص كل ذلك فى مفاهيم تبدو بالمقارنة بها مفاهيم ثلاثية حورس وإيزيس وأوزيريس قمة الرقة الروحية وتطور الفكر الدينى !

٦– من هذا المنطلق : « ما هو الإنسان ؟ » الإجابة فى خمسة كلمات أيضاً : « الإنسان مركب من جسد وروح » .

٧– « ما هى الحياة ؟ » هنا الإجابة أصيبت بالتخفيض ! كلمتان فقط : « الحياة اختبار » . عقلية « الشهادة الدراسية الشهرية » : Livret Scolaire ...

٨– « ما الذى يحدث بعد الوفاة ؟ » حسب نتيجة « امتحان آخر السنة » تذهب الروح إلى السماء فى حالة النجاح وإلى النار فى حالة الفشل ...

بعد تنسيق الثلاثية لم يتبقى سوى تشبيه الحياة بالمرور بالمدرسة ، على أن تمثل الوفاة لحظة اعلان النتيجة النهائية : الناجحون يتجهون إلى السماء والراسبون إلى النار ...

ميزانية أطفالنا بعد ما يزيد عن عشرة سنوات تعليم دينى تولد فى ذهنى بعض الأفكار الكئيبة :

١– أستطيع تكرار ما قلته بالنسبة لأطفالنا بخصوص كثير من البالغين حولنا .

٢– يمكننا أن نقول – لأشد الأسف – نفس الكلام بالنسبة إلى بعض « مدرسى مادة الدين » حيث أن مستواهم الروحى وشهادة إيمانهم لا تعلو كثيراً عما وصفناه بالنسبة للشباب .

٣– إذا كان ما سبق هو ملخص « الدين » ، إذاً لماذا نخصص عشرة سنوات من الحصص لشرح ما يمكن قوله فى خمسة عشر

دقيقية ؟ أما إذا كان هناك أكثر من ذلك ، لماذا لا تتخذ المدرسة الخطوات اللازمة لتغيير الأوضاع إلى الأفضل ؟ (اختيار أفضل للمسئولين - وضع برامج تحتوى على الخطوط العريضة والمحتويات التى تلبى احتياجات الشباب وتجيب عن تساؤلاتهم ... الخ) .

٤- نلاحظ فى عالم اليوم نوعاً من الفتور الدينى . نلاحظ أيضاً فى نفس الوقت ظهور أشكال مختلفة من التعصب الدينى والسياسى . كيف نأمل فى علاج هاتين المشكلتين ونحن نقدم لأطفالنا الإجابات السطحية ونربيهم بطريقة تدفعهم إلى البحث عن إجابات أخرى وعن معانى مختلفة للحياة وللوجود فى خرافة المذاهب الدينية الفرعية ووهم الأحزاب السياسية ؟ حتى اليابان تعرف اليوم غاز « السارين » والانتحار الجماعى : هذا يدل على مدى سعادة وهناء شعبها ...

٥- كثير ما نشكو من أن شبابنا يستجيب « لحرفية » الأوضاع قبل أن يستجيب « لمعناها » . إذا طلبنا منهم تنفيذ شئ دون إعطاء كافة التفاصيل الدقيقة سوف يتم تنفيذه بطريقة تقريبية لأنهم يلتزمون « بحرفية » التعليمات دون إدراك « الروح » التى تسودها . ألا نساهم نحن ، من خلال تربيتنا لأطفالنا ، فى خلق هذه العقلية ، عقلية إعطاء النص معناه الحرفى دون استيعاب ما هو مقصود من وراء الكلمات ... ؟

٦- نتيجة كل ما سبق أن الشباب يتساءل : إنهم يحتاجون للعثور على إجابات لأسئلتهم .

- اقتراح لبعض الأهداف للتعليم الدينى :

١- لا بد من أن يمثل التعليم الدينى إجابة لتساؤلات الشباب ... وللأقل شباباً أيضاً . إن لم يكن ذلك فى مجال الإيمان ، لاستحالة ذلك كما سبق وقلنا ، على الأقل فى مجال علم الدين وسيكولوجية الإنسان وما يخص ازدهاره وسعادته .

٢- لا بد من أن يهدف التعليم الدينى إلى توسيع آفاق وعى الإنسان

وإلى تشجيع التفتح إلى العالم ومشاركة الآخرين ، بدلاً من أن يجعله يتقوقع ويقطع العلاقات معهم .

٣- لا بد من أن يهدف التعليم الدينى إلى مكافحة التعصب بكل أوجهه : مستقبل الإنسانية فى التعاون وفى تبادل الإمكانات والقدرات .

يمكننا بلا صعوبة إضافة عشرات الاقتراحات الأخرى . لكننى أرى أن برمجة تعليم دينى يخدم الأهداف الثلاثة المذكورة يمثل معجزة كافية فى حد ذاته ...

بعض الاقتراحات لبرمجة تعليم دينى يلبى احتياجات شباب اليوم ويخدم الأهداف السابق ذكرها :

هذه الاقتراحات صالحة لبرمجة التعليم الدينى لكلا المسلمين والمسيحيين .

ما يلى ينطلق أساساً من الأسئلة التى يسألها الشباب والتى أرفض عادة الإجابة عليها . هذه الأسئلة تمثل بالنسبة لهم أهمية كبرى . الجزء الكبير من « اكتئاب المراهقة » سببه العجز عن عثور إجابات مرضية لهذه الأسئلة الحيوية . إنى اقترح - كما هو الحال فيما يخص البرامج التربوية الأخرى المعروضة فى هذا العمل - تشكيل لجنة مكونة من اثنين من أفضل المربين والمفكرين من كل مدرسة فى هذا المجال لدراسة محتويات البرنامج وكيفية تطبيقه بالتفصيل . تستطيع أن تحوّل مثل هذه اللجنة ما هو اقتراح فحسب إلى إنجاز حقيقى يخدم الآلاف من رجال وسيدات المستقبل .

١ - *الإنسان والدين :*

أ- كيف ولماذا فكر الإنسان فى الدين ؟ هذه دراسة لتاريخ الديانات ولسيكولوچية الرجل البدائى ومقارنة هذه السيكولوچية بسيكلولوچية الرجل الحديث . ربما هناك بعض المربين يملكون عناصر هذا التعليم . لماذا لا نستعمل هذا الكنز ؟ أما إذا كان هؤلاء المربين غير موجودين اليوم : لماذا لا نشرع فى تكوينهم ؟ .

ب- كل منا يرى أن دينه هو الدين الصحيح الوحيد . كل منا يولد ويكبر ويعيش فى دين معين من باب الصدفة والقضاء والقدر . لو كنا ولدنا فى دين آخر لكنا فكرنا بطريقة أخرى . ماذا نستنتج من كل ذلك ؟

٢ - الله :

أ- من أو ماذا هو اللّه ؟ هل هو شخص أو قوة أو قانون أو وضع طبيعى ؟ .

ب- كيف أستطيع أن أعرف أن اللّه موجود ؟ (حذار : الأسئلة التى تبدو وكأنها الأكثر سذاجة هى التى تحمل فى أغلب الأحيان القدر الأكبر من الطاقة والمشاعر والانفعال ...) .

جـ- لماذا أطيع أوامر اللّه ؟ لا يهمنى أن أذهب إلى السماء أو إلى النار بعد وفاتى . هل اللّه محاسب ؟

٣ - الله والإنسان :

أ- ماذا يريد اللّه منى ؟ طالما يستطيع اللّه أن يفعل ويحقق ما يشاء لماذا لا يفعل ذلك دون أن يطالبنى أنا بشئ ؟ .

ب- لماذا عملية « الخلق » ؟ إننا نعانى ونقاسى . الإنسان شرير والإنسانية فاشلة . ليس هناك سعادة ، لماذا خلقنا إذاً ؟ .

جـ- ما هى الحياة ؟ الالكترونات تدور حول النواة . النباتات تعيش ثم تموت . أنا أعيش ثم أموت . ما الفرق بين ما يحدث لى وما يحدث لباقى الكائنات والأشياء الموجودة فى الكون ؟ .

د- ما هى حقيقة أمرى وأين أنا ذاهب ؟ ما أهمية ما أفعله ؟ ما أهمية حصولى على مكافئة أو على عقاب ، ما الفرق بين الأمرين أخيراً ؟ ما أهمية أن أكون الأول على الفصل أو الأخير وما الفرق بين الوضعين ؟ .

و- ما هى « الخطيئة » ؟ أخالف تعليمات والدى فيعاقبنى ويحرمنى من الذهاب إلى السينما مثلاً : لا يهمنى ذلك . انتهى الأمر . لا يضايقنى بتاتاً أن أخالف تعليمات اللّه .

م- إذا كان لله معرفة مسبقة لكل الأحداث وإذا كان كل شئ مكتوب ، إذاً ما أهمية طاعتى الله أو عدم طاعتى ؟ .

٤ - العلاقة بين الدين والخُلُقية وعلم النفس

أ- ما هو الفرق بين الإنسان وباقى المخلوقات ؟ .

ب- لماذا هذا الفرق بين الإنسان والمخلوقات الأخرى ؟ .

جـ- أليس هناك علاقة بين الخطيئة والمرض والشر والسوية والاتزان ؟ .

٥ - الإيمان والعلم :

أ- ما هو الإيمان ؟ .

ب- كيف نوفق بين المعلومات العلمية الحديثة وقصص الكتب المقدسة ، فى مجال خطوات الخلق مثلاً ...

٦ - الله والحياة ما بعد الموت :

أ- لماذا الحياة الأبدية ؟ ما الدافع الذى جعل الإنسان يؤمن بالحياة الأبدية قبل ظهور ديانات التوحيد الثلاثة الكبرى ؟ .

ب- ما هى السماء وما هى النار ؟ لماذا يجب أن يكون هناك مكافئة وعقاب ؟ ألا نستطيع أن نكتفى بأن نعيش ؟ .

جـ- إما أنا « مخير » وإما أنا « مسير » . إذا كنت مسيراً لماذا يكتب لى الله الذهاب إلى النار بينما يكتب لغيرى الذهاب إلى السماء (أو العكس) ؟ هذا ليس عادل . أما إذا كنت حراً فأى نوع من الحرية هذه : إما أطيع الأوامر وإما يرسلنى الله إلى النار ! .

د- ما هو الشيطان ؟ .

و- إذا كنت مخلوقاً خيراً كيف يمكننى الخضوع لتأثير الشيطان ؟ أما إذا كنت مخلوقاً شريراً فلماذا خلقنى الله هكذا ؟ ليرسلنى إلى النار ؟ .

ز- ما احتياجنا لوجود الشيطان ونحن نعرف أن أداء جهازنا العصبى هو مصدر كل أخطائنا وسوء اختياراتنا ؟ .

قال لى بعض المربين : « هذه بالضبط المسائل التى نناقشها مع المراهقين والمراهقات » : إذاً أسأل وأقول : « كيف ولماذا ما زالوا يسألون نفس الأسئلة بعد عشرة سنوات من المناقشة والتفكير والتوجيه والتكوين ؟ » إن هذه الأسئلة خير تعبير للقلق الروحى الذى يعيشه شبابنا فى عالم من صنع البالغين ، عالم لا يفى بوعوده ولا يجلب لهم سوى التوتر وخيبة الأمل . إنهم لا يبتعدون عن الدين – إذا فعلوا – لأنهم لا يحتاجون إليه . بعضهم يبتعد عن الدين لشدة احتياجه للدين وخوفه من خيبة الأمل أو لخيبة أمله الفعلية عند سماع ما يعرضه عليهم المسئولون . بدلاً من أن « يعلّم » و« يدرّس » المسئولون ما يعرفون وما دُرّس لهم فى طفولتهم ، يفضل أن ينطلقوا من قلق الشباب ومن أسئلتهم الكثيرة ليستخلصوا من إيمانهم ومعلوماتهم القيمة الإجابات التى تلبى قلق الشباب وتلبى احتياجاتهم وتسمح لهم أن يعيشوا حياة دينية وروحية مسئولة ومتعهدة . لنفكر القارئ أن هذا المربى الذى نتحدث عنه لا يستطيع الاكتفاء « بالتدريس » فقط . يجب أيضاً أن يشهد فى حياته وفى تصرفاته عن إيمانه بما يدرّس ، إلا إذا كان يدرس مادة مثل تاريخ الديانات مثلاً أو علم النفس .

التحرر التدريجى

التكوين الشامل للشاب والشابة للدكتور يوسف فارس

	علاقات انسانية – دوافع تؤثر علينا ١- ارادة السيادة	٢- التعويض	التوجيه المهنى
الصف الثالث الثانوى	(٢) المجال الشخصى السيكولوجى فى مجالات مثل :	(١) إكتشاف وتحليل بعض	(١) تحديد انسجام وتوافق
الصف الثانى الثانوى	١- الحياة الزوجية . (٢) ٢- العمل .	(٢) الأمثلة للتعويض	(١) الامكانات والميول الطبيعية
الصف الأول الثانوى	(٢) احترام المجال الشخصى للآخرين : « الاحتياجات الطبيعية حقوق يجب احترامها»	(٢) ماذا يحدث عند عدم احترام وتلبية الاحتياجات الأساسية ؟	(١) ممارسة المهن المختلفة Vocation
الصف الثالث الاعدادى	(٢) الاعلام عن المجال الشخصى السيكولوجى:	(١) إكتشاف الاحتياجات	(٤) الاعلام المهنى : اكتشاف المهن المختلفة :
الصف الثانى الاعدادى	(١) الحرية – الاحتياجات – المبادئ – الأفكار ... إلخ .	(١) الأساسية .	(٤) وأبعاد كل مهنة الحقيقية .
الصف الأول الاعدادى	(١) الاعلام عن المجال الشخصى المادى : الممتلكات ، الغرفة ... إلخ .		(١) المدرس والطفل : توعية الطفل لمواهبه وفرزها وتنميتها .
الصف الخامس الابتدائى	(٢) قواعد التصرف المهذب : طرق الباب ، الاستئذان قبل أخذ الشئ ... إلخ .		(–) المدرس : تحديد نقاط الضعف ومراكز القوة فى مواهب الطفل .
			(–) تشجيع ممارسة الأنشطة التى تكشف مواهب الطفل .

تكمل هذه البرامج البنية التربوية الأساسية الخاصة بالأخلاق والسلوك والأدب وحترام الذات واحترام الآخرين ... الخ .

ملحوظة : الأرقام المكتوبة بين قوسين تشير إلى عدد الحصص المطلوبة لتنفيذ البرنامج ٦٠ حصة على مدى ٧ سنوات .

قصة من قصص كوكب الأرض	الخلية التى حققت التحرر	التربية الاجتماعية الجنسية	التربية الدينية	دراسة الأنماط
(٢) من لغريزة إلى الوعى والتحرر	(٢) الفرق بين الانسان وباقى الثدييات .	(٢) الحب والخطوبة والزواج .		تحليل بعض التصرفات
(٢) من الحياة إلى الغريزة .	(٢) من الاجهزة العصبية لبدائية إلى لجهاز لعصبى للثدييات .	(٢) من لبلوغ حتى النضج الكامل .		دراسة الأنماط
(٢) من الكيمياء العضوية إلى الحياة .	(٢) من الخلية العصبية إلى الجهاز العصبى . مفهوم الاتصال .	الاعلام عن جسم الرجل وجسم المرأة : مناقشة لعادة السرية .		العناصر النمطية
(٢) من الجزئيات الأولية إلى الكيمياء .		(٢) أنواع التكاثر من الكائن الوحيد الخلية حتى الانسان .		
		(٢) البلوغ .		
		(٢) الفروق السيكولوچية بين الأب والأم .		
		(٢) الفروق السيكولوچية بين الأخ والأخت .		

مراجع

يقولون أن قائمة المراجع تزيد العمل قيمة وأهمية ! بدأت قراءة كتب قيمة فى مجال علم النفس والفلسفة والتربية قبل بلوغى سن العشرين وواصلت القراءة لمدة خمسة وثلاثين عام بمعدل كتاب كل خمسة عشر يوم تقريباً . كانت لهذه الكتب كلها تأثيراً على تفكيرى وعلى نظرتى للحياة وللناس سواء قابلت ما قرأته أو رفضته . هذا يعنى أنه ، إذا وضعنا فى الاعتبار نصف فقط العدد المفروض ، يجب أن أذكر ما لا يقل عن أربعة مائة عمل فى شتى المجالات . هذه استحالة طبعاً ... يجب كذلك أن أضيف إلى هذه الكتب كل المقالات وكل المجلات الذى ساهمت قراءتها فى تشكيل عقليتى . هذه أيضاً استحالة ... نشرت مجلة " La Recherche " فى عام ١٩٧٥ مقالة بعنوان " Neurophysiology of Liberty " . راسلت فى العام الماضى المجلة للحصول على بيانات مفصلة عن هذه المقالة . كانت الإجابة أنهم لا يحتفظون بالمراجع لمدة أطول من خمسة عشر سنة . سأحاول إذاً ذكر ما أملكه شخصياً من هذه الكتب وما أتذكره مما لا أمتلكه .

أريد أن أشكر بصفة خاصة مكتبة المعهد الثقافى الفرنسى : قيمة الأعمال الموجدة ورفع مستوى العاملين بها مثلوا بالنسبة لى مساعدة كبيرة . أريد أيضاً أن أشكر مكتبة منظمة الصحة العالمية . أوجه خالص الشكر لمجلة " La Recherche " وكذلك مجلة " Science et Vie " . تسمح هذه المجلات للهاوى الغير المتخصص بمتابعة كل ما يدور فى عالم العلم وتطبيقاته فى وقت قصير جداً وبأقل مجهود ممكن . لا أستطيع اليوم الاستغناء عن مثل هذه المجلات .

وحيث أن لا بد من قائمة ، ها هى ...

- " *Educateurs* " . a collection from Editions Fleurus .
- " *Psychologie et Education* " . a collection from Editions Fleurus .
- *Psychotherapy is a learning process* " article from Bandura .

- " *Que sais-je ?* " collection .
- " *The varied effects of punishment* " . article from Church .
- *Adolescents, enquête nationale* . M. Choquet and S. Ledoux .
- *Amours fidèles* . Stagnara, Denise and Pierre .
- *Behavioral counseling* . Krumboltz and Thoresen .
- *Changing man's behavior.* Beech H.R .
- *Cinq psychanalyses* . Freud S .
- *Comment ça se passe ?* Stagnara D .
- *Croyance et connaissance* . Joseph Leif .
- *De la vie de la cellule à l'homme.* Ceccaty M .
- *Des astres de la vie et des hommes* . Jastrow Robert .
- *Evolution et modification du comportement* . Lorenz K .
- *Faire des adultes* . Paul Osterrieth .
- *Grandes lignes de la psychologie des enfants* . Jacquin Guy .
- *Introduction à la psychanalyse* . Freud S .
- *L'agression* . Lorenz K .
- *L'amour est-il un plaisir ?* G. - J. Lemaire .
- *L'apparition de l'homme* . De Chardin P.T .
- *L'art d'être chef* . Courtois G .
- *L'école de chefs* . Courtois G .
- *Éducation affective et sexuelle en milieu scolaire* . Stagnara , Denise and Pierre .
- *L'Education par la découverte de la nature* . Pautard André .
- *L'éducation par le Jeu* . Jacquin Guy .
- *L'homme dominant* . Maclay G. and Knipe R .
- *La conquête du bonheur* . B. Russel .
- *La medecine psychosomatique* . Alexander F .
- *La pensée de l'être ou les étapes vers la maturité* . K. G. Durchheim .
- *La psychologie contemporaine* . Mueller F.L .
- *La psychologie de l'intelligence* . Jean Piaget .
- *La psychologie sexuelle* . Krafft Ebing .

- *La vie sexuelle* . Freud S .
- *Le couple, sa vie, sa mort. J* - G Lemaire .
- *Le phénomène humain* . De Chardin P.T .
- *Le sexe oublié* . Anatrella T .
- *Les bandes d'adolescents* . Bloch and Niederhoffer .
- *Les conflits conjugaux* . *J* - G Lemaire .
- *Les éléments du caractère* . A. Le Gall .
- *Les racines de l'homme* . Dr. Pierre Bour .
- *Moyens collectifs d'éducation dans les groupes d'enfants* . Fauvet Jean .
- *Pour " réussir " auprès des enfants* . Courtois G .
- *Pour faire de nos garçons des hommes de caractère* . Migneaux Marie .
- *Pratique de la vie intérieure* . K. G. Durkheim .
- *Psychanalyse des origines de la vie sexuelle* . Ferenezi S .
- *Psychologie sexuelle* . Schwartz O .
- *Sexual behavior in the human female* . Kinsey etall .
- *Sexual behavior in the human male* . Kinsey etall .
- *Trois essais sur la théorie de la sexualité* . Freud S .
- *Un monde autre : l'enfance* . Chombart de Lauwe .
- *When I say no, I feel guilty* . Manuel J. Smith .

يجب أيضاً إضافة بعض الأعمال الهامة للمؤلفين الآتى أسماءهم ، وذلك فى مجال علم النفس .

Darwin, E.L. Thorndike, Hull, J.B. Watson, P.Janet, Pavlov, Wertheimer, Jung ... etc .

وكذلك بعض الأعمال الهامة للمؤلفين الآتى أسماءهم فى مجال الفلسفة .

Bergson, Descartes, Einstein, Hegel, J.P.Sartre, Kant, Kierkegaard, Leibniz, Nietzsche, Pascal, Platon, Schopenhauer, Spinoza, ... etc .

رقم الايداع ٤١٤٤ / ٩٦
الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977-03-0226-0

الكرنك للكمبيوتر
ت : ٤٨٣٢٧١١ اسكندرية

